سيرة روائية

محمد شكري

من أجل الخبز وحده

الأعمال الكاملة

الخبز الحافي ـ زمن الأخطاء ـ وجوه



الكتاب

الأعمال الكاملة

الجزء الأول

الخبز الحافي ـ زمن الأخطاء ـ وجوه

تأليف

محمد شكري

الطبعة

الأولى، 2008

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-294-1

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

محمد شكري

من أجل الخبز وحده

الأعمال الكاملة

I

الخبز الحافي ـ زمن الأخطاء ـ وجوه

سيرة روائية

المركز الثقافي العربي

الخبز الحافي

كلمة

صباح الخير أيها اللّيليون،

صباح الخير أيها النّهاريون،

صباح الخير يا طنجة المُنْغَرِسَة في زمن زئبقي.

ها أنذا أعود لأَجُوس، كالسائر نائماً، عبر الأَزقّة والذكريات، عبْر ما خَطّطْتُه عن «حياتي» الماضية - الحاضرة... كلمات واسْتِيهامات ونُدوب لا يُلْئمُها القَوْل.

أين عمري من هذا النَّسْج الكلامي؟

لكن عبير الأماسي والليالي المكتظّة بالتّوجُّس واندفاع المغامرة يتسلّل إلى داخلتي لِيُعيد رماد الجمرات غلالةً شفّافة آسِرة...

منذ سنتين مات «عَبْدُون فُرُوسُو». البطل الحقيقي الذي أيقظ مخيِّلتي وأَعانَني على تحمّل القهر والحرمان وعنف الصراع الجسدي... مات قبل أن أنشر قصة «الخيمة» التي استوحيتها من حضوره وتدفّقه وشغفه بالحياة. أَنتظر أن يُفْرَجَ عن الأدب الذي لا يَجْتَرُّ ولا يُراوغ: مثل هذه الصفحات عن سيرتي الذاتية، كتبتها منذ عشر سنوات ونشرت ترجمتها بالإنجليزية والفرنسية والإسبانية قبل أن تعرف طريقها إلى القرّاء في شكلها الأصلي العربي.

لقد علّمتني الحياة أن أنتظر. أن أعِيَ لعبة الزمن بدون أن أتنازل عن عمق ما اسْتَحْصَدْتُه: قُلْ كلمتك قبل أن تموت فإنها ستعرف، حتماً، طريقها. لا يَهُمُّ ما ستؤول إليه. الأهمّ هو أن تُشعل عاطفة أو حزناً أو نزوة غافية.. أن تُشعل لهيباً في المناطق اليباب المَوَات.

فيا أيها اللّيليون والنّهاريون، أيها المتشائمون والمتفائلون، أيها المتمردون، أيها المراهقون، أيها «العقلاء»...: لا تنسوا أن «لعبة الزمن» أقوى منا، لعبة مُميتة هي، لا يمكن أن نواجهها إلاّ بأن نعيش الموتَ السابق لِمَوتنا، لإماتَتِنا: أن نرقص على حبال المخاطرة نُشداناً للحياة.

أقول: «يُخرج الحيّ من الميّت.

يخرج الحيّ من النَّتِن ومن المتَحلِّل. يُخرجه من المُتْخَم والمنهار...

يُخرجه من بطون الجائعين ومن صُلْبِ المتعيِّشين على الخبز الحافي».

م. ش.

طنجة 17/ 5/ 1982

1

أبكي موت خالي والأطفال من حولي. يبكي بعضهم معي. لم أعد أبكي فقط عندما يضربني أحد أو حين أفقد شيئاً. أرى الناس أيضاً يبكون. المجاعة في الريف. القحط والحرب.

ذات مساء لم أستطع أن أكفّ عن البكاء. الجوع يؤلمني. أمصّ وأمصّ أصابعي. أتقيأ ولا يخرج من فمي غير خيوط من اللعاب. أمي تقول لي بين لحظة وأخرى:

- أسكت، سنهاجر إلى طنجة. هناك خبز كثير. لن تبكي على الخبز عندما نبلغ طنجة. الناس هناك يأكلون حتّى يشبعوا.

أخي عبد القادر لا يبكي. أمي تقول:

- خم أو ماش (أنظر أخاك) نتا ويتروشا (أنه لا يبكي). إِشِكْ ثْتروذْ و(أنت تبكي).

أنظر إلى سحنته الشاحبة وعينيه الغائرتين فأكفّ عن البكاء. بعد لحظات أنسى الصبر الذي أستمدّه منه.

دخل أبي. وجدني أبكي على الخبز. أخذ يركلني ويلكمني:

- اسكت، اسكت، اسكت، ستأكل قلب أمك يا ابن الزنا.

رفعني في الهواء، خبطني على الأرض. ركلني حتّى تعبت رجلاه وتبلّل سروالي.

في طريق هجرتنا، مشياً على الأقدام، رأينا جثث المواشي تُحَوِّمُ حولها الطيور السوداء والكلاب، روائح كريهة، أحشاء ممزقة، دود ودم وصديد.

في الليل يُسْمَعُ عواء الثعالب قرب الخيمة التي ننصبها حيثما يوقفنا التعب والجوع. الناس، أحياناً، يدفنون موتاهم حيث يسقطون.

أخي يسعل ويسعل. سألت أمي خائفاً:

- أهو أيضاً سيموت؟

- كلا. من قال لك إنه سيموت؟

- خالي مات.

- أخوك لن يموت. هو فقط مريض.

في طنجة لم أرَ الخبز الكثير الذي وعدتني به أمي. الجوع أيضاً في هذه الجنة، لكنه لم يكن جوعاً قاتلاً.

حين يشتدّ عليّ الجوع أخرج إلى حيّ «عين قطيوط». أفتش في المزابل عن بقايا ما يُؤكل. وجدت طفلاً يقتات من المزابل مثلي. في رأسه وأطرافه بثور. حافي القدمين وثيابه مثقوبة. قال لي:

- مزابل المدينة أحسن من مزابل حيِّنا. زبل النصارى أحسن من زبل المسلمين[1].

بعد هذا الاكتشاف صرتُ، أحياناً، أذهب أبعد من حيِّنا: وحيداً أو صحبة أطفال المزابل.

عثرتُ على دجاجة ميتة. ضممتها إلى صدري وركضتُ إلى بيتنا. أبواي في المدينة، أخي مُمدّد في ركن، نصفه الأعلى مرفوع فوق وسادة. يتنفس بصعوبة. عيناه الكبيرتان الذابلتان ترقبان مدخل الباب.

---

(1) في تلك الأيام كان عامة الناس يسمّون كل أوروبي نصرانياً، ويعتبرون كل عربي يتكلم العربية مسلماً. كلمة المسلمين هنا تعني المغاربة.

يرى الدجاجة. تتيقظ عيناه. يبتسم. يتورّد وجهه النحيل. يتحرك كأنه يفيق من إغماء. يسعل فرحاً، أعثر على السكين. يسعل ويلهث. أُولّي وجهي قبلة المشرق: حيث أرى أمي تولّي وجهها وتصلّي. قلت جهراً: «بسم الله. الله أكبر». هكذا رأيت الكبار يفعلون. ذبحتها حتّى انفصل رأسها. انتظرت أن يسيل دمها. أدلكها لعلّ الدم يسيل منها. يسيل دمٌ قليل قاتم من ثقب عنقها. في «الريف» رأيتهم يذبحون كبشاً. لا أدري في أية مناسبة. وضعوا طاساً تحت عنق الكبش الفائر بالدم. امتلأ الطاس وأعطوه لأمي المريضة. رأيتهم يمسكون بها في الفراش وهي تقاومهم عازفة عن شرب الدم. جعلوها تشربه بالقوة. تلوّث وجهها وثيابها. تمرّغت في الفراش ثم همدت وهي تهمهم بكلمات غير مفهومة. لماذا لا يفور الدم الآن من عنق هذه الدجاجة كما رأيته يفور من عنق الكبش؟ شرعت أنزع ريشها. سمعت صوتها:

– ماذا تفعل؟ من أين سرقتها؟

– عثرت عليها مريضة. ذبحتها قبل أن تموت. اسألي أخي.

– مجنون! (خطفتها مني غاضبة). الإنسان لا يأكل الجيفة.

أخي وأنا تبادلنا نظرات حزينة. كلانا أغمض عينيه في انتظار ما سنأكله.

أبي يعود كل مساء خائباً. نسكن في حجرة واحدة. أحياناً أنام في نفس المكان الذي أتقرفص فيه. إن أبي وحش. عندما يدخل لا حركة، لا كلمة إلاّ بإذنه كما هو كل شيء لا يحدث إلاّ بإذن الله كما سمعت الناس يقولون. يضرب أمي بدون سبب أعرفه. سمعته مراراً يقول لها:

– سأهجرك يا ابنة القحبة. دبّري أمرك وحدك مع هذين الجرْوَين.

ينشق السعوط. يتكلم وحده. يبصق على أناس وهميين. يشتمنا. يقول لأمي: «أنت بنت قحبة». يسبّ العالم دائماً ويجدّف على الله أحياناً ثم يستغفره.

أخي يبكي، يتلوّى ألماً، يبكي الخبز. يصغرني. أبكي معه. أراه يمشي إليه. الوحش يمشي إليه. الجنون في عينيه. يداه أخطبوط. لا أحد يقدر أن يمنعه. أستغيث في خيالي. وحش! مجنون! امنعوه! يلوي اللعين عنقه بعنف. أخي يتلوّى. الدم يتدفّق من فمه. أهرب خارج بيتنا تاركاً إيّاه يُسكت أمي باللكم والرفس. اختفيت منتظراً نهاية المعركة. لا أحد يمرّ. أصوات ذلك الليل بعيدة وقريبة مني. السماء. مصابيح الله شاهدة على جريمة أبي. الناس نائمون. مصباح الله يظهر ويختفي. شبح أمي. صوتها خفيض. تبحث عني. تنتحب. الظلام يخيفني. لماذا ليست قوية مثله؟ الرجال يضربون النساء وهنّ يبكين ويصرخن.

- محمد، محمد اينو (محمدي). أراحد (تعال). لا تخف. أراحد.

وجدت لذتي في أن أراها ولا تراني. قلت لها:

- أقابي ذانيتا (ها أنا هنا).

- أراحد.

- لا. أذاي ينغ (سيقتلني) أَمِشْ (مثلما) يَنْغَا (قتل) أو ما إينو (أخي).

- لا تخف. تعال معي. لن يقتلك. تعال. اسكت حتّى لا يسمعنا الجيران.

ينتحب وينشق السعوط. عجيب: يقتل أخي ثم يبكيه.

سهرنا ثلاثتنا ننتحب في صمت. أخي مسجّى مغطّى بقماش أبيض. نمتُ وتركتهما ينتحبان.

في الصباح انتحبنا أيضاً بصمت. تلك أول مرّة أذهب في جنازة. أخي منعوش في حصيرة بين ذراعي الشيخ، أبي وراءه وأنا خلفهما

حافياً أعرج. يضعانه في حفرة مبلّلة. أرتجف وأبكي. لطخة دم متخثرة حول فمه. يختفي وراء التراب. صار ربوة صغيرة.

انتبه الشيخ، لدى خروجنا من المقبرة، لِبَناني الدامية. سألني بالريفية:

- مانا الذم ما؟ (ما هذا الدم؟)

- عفسغ خ الزاج (عفست على الزجاج).

قال أبي:

- لا يعرف حتّى كيف يمشي. ذابو هاري (أبله).

سألني الشيخ:

- أكنت تحبّ أخاك؟

- كثيراً. (ما زلت منتحباً). أمي كانت تحبّه كثيراً. تحبّه أكثر مما تحبني.

- مَن لا يحبّ ولده؟

تذكّرت كيف لوى أبي عنق أخي. كدت أصرخ: أبي لم يكن يحبّه. هو الذي قتله. نعم. قتله. قتله قتله. رأيته يقتله. هو هو قتله. قتله. رأيته يقتله. لوى عنقه. تدفّق الدم من فمه. رأيته رأيته يقتله. أبي قتله قاتله الله.

لكي أخفف من كراهيتي الشديدة لأبي أخذت أبكي من جديد. كنت خائفاً من أن يقتلني كما قتل أخي. نهرني بصوت منخفض متوعّد:

- ألن تكفّ عن البكاء؟

قال الشيخ:

- نعم، كفَى من البكاء. أخوك عند الله. هو الآن مع الملائكة.

أكره أيضاً هذا الذي دفن أخي.

يشتري كيساً من الخبز الأبيض والتبغ الرخيص. يذهب إلى مكان

بعيد عن طنجة ليقايض الجنود الاسبانيين في ثكناتهم. يعود مساءً حاملاً ملابس الجنود. يبيعها في السوق الكبير للعمال والفقراء المغاربة.

ذات مساء لم يعد. نمتُ تاركاً أمي مهمومة تنتحب. انتظرنا ثلاثة أيام. أحياناً أنتحب معها. كنت أُؤازرها. تحبّه؟ لا تحبّه؟ أدركت السبب عندما قالت:

- ها نحن وحدنا. من سيعيننا؟ لا نعرف أحداً في هذه المدينة. جدّتك رقية، خالتك فاطمة وخالك إدريس هاجروا من الريف هم أيضاً إلى وهران. لا بدّ أن يكون العساكر الاسبانيون هم الذين قبضوا على أبيك. إنه هارب من الجندية الاسبانية.

علمنا أنهم سجنوه. وشى به جندي مغربي كان يعرفه في إسبانيا. لم يرد أبي أن يبيع له بطانية عسكرية بالثمن الذي كان يريده الجندي الواشي. هذا ما قيل لأمي.

تذهب إلى المدينة باحثة عن عمل. تعود خائبة مثلما كان أبي يعود في الأيام الأولى من وصولنا إلى طنجة. تقضم أظافرها. تنتحب. يكتب لها المشعوذون تمائم لعلّ أبي يخرج من السجن وتجد هي عملاً. تصلّي كثيراً وتدعو كثيراً. تشعل الشموع في أضرحة أولياء الله. تستطلع حظ مستقبلنا عند «الشوافات». لا سراح من السجن، لا عمل ولا حظ إلاّ بأمر من الله ورسوله محمد. هكذا تقول.

لماذا الله لا يعطينا حظنا مثلما يعطيه لبعض الناس؟ هكذا سألت أمي.

- الله هو الذي يعرف. نحن لا نعرف. لا ينبغي لنا أن نسأله عما يعرفه هو خيراً منا.

باعت أشياء من منزلنا. أرسلتني يوماً مع أطفال جيراننا لآتيها بالبقول. خفت أن يعتدوا عليّ. لم يكن لي بينهم صديق حميم أستنجد به إذا أنا تعاركت مع أكثر من واحد. أنهم يتحامون ضد الوافدين الجدد

إلى المدينة. تخلّفت عنهم في الطريق. تظاهرت أني سأبول. نزلت إلى المدينة. أحب حركتها. في السوق البرّاني[1] أكلت أوراق الكرنب، قشور البرتقال وبقايا فواكه عفنة. طفل يكبرني يطارده شرطي. بين الطفل والشرطي مسافة قصيرة. تخيّلتني ذلك الطفل. ألهث معه. الناس يقولون: سيقبضه! سيقبضه! صاح الناس: هاو قبضه!

ارتعشت. خفت. تصوّرتني قبضني. دعوت الله ألا يقبضه، لكنه قبضه. شعرت بكراهية للذين تمنّوا أن يقبضه. من بعيد رأيت امرأة أجنبية تلهث وراء الذين توقفوا ليتفرجوا على الحادث. سمعتها تتكلم وحدها بلغة لا أفهم منها كلمة. قال رجل مغربي:

- لم يترك لها غير أذن حقيبتها في يدها.

هَوَى شرطي على مؤخرتي بهراوته. قفزت في الهواء صارخاً بالريفية: أيمانوا! أيمانوا![2] لعنت الشرطي في خيالي. شرطيان آخران يضربان الصغار ويدفعان الكبار. ضربا أيضاً بعض المغاربة البائسين الكبار.

سمعت أن رجال الأمن يضربون الناس ويقودونهم إلى السجن إذا هم قتلوا أو سرقوا أو سال دمهم في العراك.

دخلت مقبرة «بوعَرَاقِية». التقطت أغصاناً من الريحان من فوق القبور الجميلة. وضعتها على قبر أخي. رأيت هناك قبوراً كثيرة بلا ريحان، بلا بلاطات مثل قبر أخي: ربوة من التراب وحجران (مختلفان في الشكل) يشير واحد منهما إلى الرأس والآخر إلى القدمين. تألّمت للقبور المنسية: تكسوها نباتات وحشية، بعضها مُنهار. حتّى هنا، في

---

(1) تُطلق تسمية «السوق البرّاني» على السوق الكبير في طنجة، لتمييزه عن «السوق الداخلي» ولمحمد شكري رواية بعنوان «السوق الداخلي».

(2) أماه! أماه!

المقابر، عندهم الأغنياء والفقراء. لماذا يموت الإنسان؟ - لأن الله يريد ذلك - هكذا أجابتني أمي. أين يذهب مَن يموت؟ - إلى الجنة أو النار.

- ونحن؟

- إلى الجنة إن شاء الله.

- وماذا هناك؟

- إنك تسأل كثيراً. حين تكبر تعرف كل شيء.

وجدت هناك البقول التي وصفتها لي أمي. رأيت ثلاثة رجال يشربون بالتناوب من زجاجة لون سائلها قاتم. ناداني أحدهم:

- ايه! تعال إلى هنا أيها الطفل! تعال لكي أعطيك شيئاً.

خِفْتُ وهربتُ. أَعطِهِ لأمك يا ابن الزنا.

أثناء وجبة الغداء قالت لي:

- هذي البقول لذيذة.

آكل بلذّة مثلها. أبلع أكثر مما أمضغ.

- من أين جمعتها؟

- من مقبرة بوعراقية.

- من المقبرة!

- نعم، من المقبرة. ماذا في ذلك؟

انفغر فمها. أضفت:

- زرت قبر أخي. وضعت فوق قبره بعضاً من الريحان. ربوةُ ترابِ قبره لم تعد عالية. إذا ظلّ قبره كما هو من التراب فسيتساوى مع الأرض ولن نستطيع أن نعثر عليه بين القبور التي تجاوره.

تركت الأكل. انقبضت ملامحها. دمعت عيناها. أضفت:

- هناك كثير من هذه البقول حول القبور المنسية.

- ما ينبت في المقابر لا يأكله الناس.

- لماذا؟

تأمّلتني بحيرة. أنا آكل بشهية. تخيّلتها ستقيء. أخذت صحني. قالت بالريفية:

- اشْفَاشْ، اَتِشْذْ إِخْفِنِشْ (كفاك، لتأكل نفسك).

- لم أشبع.

- من أين جمعت الريحان؟

- من فوق بعض القبور. فوقها ريحان كثير.

قالت بصرامة:

- غداً ستعود إلى المقبرة وتردّ ريحان الناس إلى مكانه. إنها قبور الناس. حذارِ أن يراك أحد تردّ الريحان إلى القبور. نحن أيضاً سنشتري لأخيك الريحان. سنبني له قبراً جميلاً.

بدأت تنتحب. أنا أيضاً غلبني الحزن فسالت دموعي. ضمّتني إليها ونعست.

تصحبني معها إلى السوق الكبير. نشتري ركاماً من خبز يابس يبيعه المتسولون تحت شجرة ضخمة قرب ضريح سيدي المخفي. تطبخه في الماء، مع قليل من الزيت والتوابل. أحياناً في الماء وحده.

ذات صباح باكر قالت:

- أنا سأذهب إلى السوق. سأشتري خضراً وفواكه وأبيعها. أنت ستبقى هنا. احرس بيتنا. لا تلعب مع الأطفال وتترك بيتنا للسرّاق.

بيني وبين أطفال الحيّ فوارق تجعلني أحسّ أني أقلّ منهم رغم أن بعضهم بائس مثلي. رأيت واحداً منهم يلتقط عظام الدجاج من المزبلة ويمصّها. قال الطفل: «أصحاب هذه الدار يرمون دائماً زبلاً جيداً». يقولون عنّي:

- هو ريفي. جا من بلاد الجوع والقتالة (القتلة).

- ماكيعرفش يتكلم العربية.

- الريفيون كلّهم مرضَى هذا العام بمرض الجوع.

- حيواناتهم حتّى هي مريضة.

- نحن لا نأكلها. هم يأكلونها. تزيدهم مرضاً على مرض.

- إذا ماتت لهم بقرة أو غنمة أو عنزة كياكلوها. كياكلو حتّى الجيفة.

الطفل «الجبلي» الوافد مثل الريفي على المدينة، يشترك معه في هذا الاحتقار، لكنه لا يُعُيَّر مثل الريفي. غالباً ما يعتبرونه مغفلاً: «الريفي خداع والجبلي نيّة[1]».

يجاور سكنانا بستان صغير. شجرة إجاص كبيرة تُغريني كل يوم. ذات صباح باكر ضبطني صاحب البستان أُسقط إجاصاته الكبيرة، الناضجة، بقصبة طويلة. هو يجرّني وأنا أحاول باكياً أن أتخلّص منه. بلتُ في سروالي المغربي الفضفاض رغم أنه لم يضربني. قال لزوجته البشوش:

- ها هو البرغوث الذي يفسد لنا شجرة الإجاص. يفسد أكثر مما يأكل مثل الفأر.

سألتني بلطف خفّف عني خوفي:

- أين هي أمك يا ولدي؟

- ذهبت لتبيع الخضر والفواكه في السوق.

- كفاك من البكاء. وأبوك؟

---

(1) نيّة: بسيط، لا يحسن التصرّف، عديم الفطنة.

- في الحبس.

- في الحبس؟

- نعم في الحبس.

- مسكين! لماذا هو في الحبس؟

أربكني السؤال. أعادت السؤال ملاطفة وجهي بحنان:

- قل لي، لماذا أبوك في الحبس؟

فكرت أن في الجواب الصريح مساساً بكرامة أبوي.

- لا أعرف. أمي هي التي تعرف.

تحاور الرجل مع زوجته وابنته التي جاءت عارية القدمين في شأن حبسي حتّى تعود أمي. رأس الفتاة ملفوف في منديل أبيض ويداها الرفيعتان البيضاوان مبلّلتان. أدركت أن المرأة وابنتها تشفقان عليّ، لكن الزوج، بين جدّ ومزاح، كما يبدو من كلامه وملامحه، يصرّ على عقابي. أدخلني حجرة قاتمة كُدِّسَتْ فيها أشياء أغلبها مكسور. قال لي مغلقاً عليَّ الباب:

- إيّاك أن تبكي. سأجلدك بقضيب إذا أنت بكيت.

الحبس في حجرة. هذه أول مرّة. إذن يمكن أن يتحكّم فيّ ناس من غير أن يكونوا من أسرتي. الإجاصات هي لهؤلاء الذين حبسوني الآن. لكن لماذا نهجر نحن الريف ويبقى آخرون في بلادهم؟ يدخل أبي السجن، تبيع أمي الخضر، تاركة إيّاي وحدي جائعاً ويبقى هذا الرجل مع زوجته في منزلهما؟ لماذا لا نملك ما يملكه غيرنا؟

أرى من ثقب مفتاح الباب الشابة تنظف الأرض بالماء والصابون بحيوية، حافية القدمين، حاسرة ثوبها الشفاف عن فخذيها البيضاوين، ونهداها العاريان الصغيران يهتزان، يطلان ويختفيان من خلال فتحة

قميصها مثل عنقودين من العنب يتدليان. شعرها ملفوف في المنديل الأبيض الملطّخ بالحنة. ملفوف مثل رأس ملفوف[1].

طرقت الباب بخوف. أراقب حركاتها. قلبي يخفق مع حركاتها خوفاً وفرحاً. التفتت نحو الباب منحنية تجفّف الأرض.

- تعالي وافتحي هذا الباب اللعين.

تردّدت للحظة. ألححتُ عليها في خيالي:

- أرجوك، لا تتردّدي، تعالي.

تركت الجفاف واستقامت. نفضت يديها من الماء، شدّت على وسطها بيديها. ارتسم ألم خفيف على وجهها المورد. ها هي آتية نحو الباب. خفق قلبي. ارتعشت. فتحت وقالت برقّة باسمة:

- ها أنا. ماذا تريد؟

تلعثمتُ. دمعت عيناي.

- ستضربني أمي إذا هي عادت من السوق ولم تجدني في البيت أحرسه من اللصوص. لقد تركتني أحرسه.

خفضتُ رأسي خجلاً واستعطافاً. نظرتُ إلى فخذيها الممتلئين. أطلقتْ ثوبها المشدود إلى حزامها القماشي. تأمّلتني بإشفاق. أتطلع إليها متوسلاً. شدّت بيدها على فتحة صدرها المفتوحة. ينتصب نهداها الطويلان. يَشِفُّ بياض الثوب عن حلمتيها مثل حَبَّتَيْ عِنَب.

- هل ستطيح الإجاص[2] بالقصبة مرّة أخرى من شجرة بستاننا؟

- أبداً. اقتليني أنت بنفسك إذا وجدتني مرّة أخرى أطيح الإجاص.

---

(1) يقصد الملفوف أو الكرنب، وهو نوع من الخضار.

(2) الأصح هو هل ستطيح بالإجاص. تعمدت حذف الباء لتقريب التركيب من الدارجة كما سيرد في تراكيب أخرى.

ابتسمت. لم أبتسم. خرجت مسرعاً. أدركني صوتها الرقيق:

- آجي. جوعان؟

اختلجت ملامح وجهي. قلت باضطراب:

- لاج شبعان.

ألحّت عليّ أن أنتظرها. أبواها غائبان عن الدار. تطلعت إلى الشجرة. امتزج حبّي وكراهيتي لها. لن آكل منها بعد اليوم.

مدّت لي رغيفاً يقطر بالعسل الأسود.

- إذا جعت فعد إلينا. (أضافت): أليس عندك حذاء؟

- أمي ستشتريه لي.

تفحّصتني باسمة وأنا ألتفت إليها مبتعداً عنها. قبل أن اختفي لوّحتْ لي بيدها باسمة. أجبتها مبتسماً واختفيت.

أهو الرجل أقسى من المرأة؟ أتمنّى لو أنها أختي. هذا المنزل والبستان لو أنهما لنا. صاحب البستان أقلّ قسوة من أبي. لو أنه أبي.

يتبعنا بعناد. يقترب منها ويهمس في أذنها بكلمات لا أسمعها. تبتعد عنه. نعبر إلى الرصيف الآخر ماسكة يدي. أحياناً تسحبني بشدّة. يلاحقنا بعناد. يضحك. تعبس. نتوقف. يسبقنا ويبطئ سيره. نعبر من جديد إلى الرصيف الآخر. يتبعنا بعناد. أنا غاضب. سألتها:

- ماذا يخصّه هذا الرجل؟

- ليس شغلك.

أنظر إليه. يبتسم. يتبعنا بعناد. ماذا يريد من أمي؟ أهو يريد أن يخطفها؟ لا شك أنه خطاف. شددت على يدها بقوة.

- لا تمسكني من يدي هكذا. لن أهرب منك.

قلت له بغضب:

- امش، امش. ماذا تريد؟

اللعنة عليه. يبتسم لي ولأمي. قالت لي:

- قلت لك اسكت أنت. ألا تسمع؟

غضبتُ عليها في خيالي. أنا أدافع عنها وهي تُسكتني.

التقت أمي امرأة. أخذتا تتكلمان عن أبي. الرجل العنيد يبتعد عنا. لامست المرأة شعري. انزلقت يدها الخشنة ملاطفة وجهي. تركت يد أمي وتمسكت بجانبها. قالت المرأة:

- لماذا هو محمدك حزين هكذا؟

نظرت إليّ أمي لافّة معصمها حول عنقي. خفَّ غضبي. قالت للمرأة:

- هكذا هو دائماً.

توادعتا. قالت لي أمي:

- بس[1] يد للاّ لويزة (بست يد السيدة لويزا طائعاً).

بطن أمي ينتفخ. أحياناً لا تذهب إلى السوق. تقيء عدّة مرّات في اليوم. شاحبة. ساقاها تؤلمانها. تنتحب. ينتفخ وينتفخ بطنها. أخشى أن ينفجر. لم يعد يؤثر عليّ نحيبها. أقسو وأقسو وأحزن. نسيت اللعب. حملوني في ليلة ناعساً إلى بيت آخر. نمت مع ثلاثة أطفال. قالت لي الجارة الأرملة في الصباح:

- ها أنت لك الآن أخت. كن لطيفاً معها.

تزوره في السجن مرّة في الأسبوع. تعود أحياناً منتحبة. بدأت أدرك أن النساء يبكين أكثر من الرجال. يبكين ويكففن عن البكاء مثل الأطفال. أحياناً يحزنّ حين يفكر الواحد أنهن سيفرحن ويفرحن حين يفكر الواحد أنهن سيحزنّ. متى يحزنّ ومتى يفرحن؟ رأيت أمي مرّة تبكي باسمة. أهي حمقاء؟

---

(1) بُس: قَبِّل.

أبقى في الدار أحرس أختي أرحيمو. أعرف كيف أضاحكها، لكني لا أعرف كيف أسكتها عن البكاء. أضيق فأخرج. أتركها تبكي وتعارك نفسها بأطرافها المعوجة مثل سلحفاة مقلوبة على ظهرها. حين أعود أجدها نائمة أو باسمة. غالباً نائمة. الذباب يقفز على وجهها الذي نمشته عضات الناموس. في الليل الناموس وفي النهار الذباب.

أختي تنمو. أمي يقلّ بكاؤها وتذمّرها. أنا أزداد شراسة، مع أمي أو مع أطفال الحي. إذا انهزمت معها أو معهم أكسر الأشياء أو أسقط على الأرض صارخاً وأعارك نفسي باكياً شاتماً إياها أو الأطفال.

سألتها:

- هل المرأة أيضاً يمكن أن تدخل السجن؟

- لماذا؟

- إنني أسأل.

- نعم. هي أيضاً إذا فعلت شيئاً قبيحاً مع الناس.

بدأت تأخذنا معها إلى السوق. أختي ترضع من صدرها وأنا، في معظم الأحيان، أبحث عن غذائي بعيداً عنهما في السوق أو في أزقّة المدينة القديمة. أستعطي وأسرق. أقول لها حين تلومني عن غيابي:

- سوف أهجر هذا البيت القذر. لن أعود إليه أبداً.

- أنت هكذا إذن يا هذا الخنفس. أنت هكذا إذن من الآن. ماذا أقول عنك عندما تكبر..؟

ذات صباح فاجأنا في السوق الكبير مصحوباً بجارة لتدلّه على مكان أمي. انتحبت أمي في السوق وفي الدار. لماذا تنتحب من أجله؟ إنه قاس وشرير. في تلك الليلة غلبني النوم قبل المعتاد وتركتهما يتشاكيان.

في الصباح لم تذهب إلى السوق. ذهبت إلى الحمام العمومي.

تزيّنت وسوّكت فمها وكحلت عينيها. رأيتها مسرورة في ذلك الصباح. هكذا إذن. حين خرج أبي رأيتها تنتحب رغم زينتها. فكرت: لم أرَ بكاءة مثلها حتّى الآن. سألتها عما أبكاها. أفهمتني أن أبي خرج ليفتش عن الجندي الواشي ليتقاتلا. فرحت. أتمنّى أن يعثر أبي على ذلك الجندي الواشي ويقتله حتّى يطول غيابه مرّة أخرى. أن يقتل أحدهما الآخر. هذا ما أتمنّاه. أحبّ غيابه حياً أو ميتاً.

عاد حزيناً في المساء. فاحت منه رائحة مخمورة. سمعت أمي تقول له:

- شربت، أليس كذلك؟

دمدم بكلمات واسترخى حزيناً ومتعباً. هو حزين لأنه لم يعثر على غريمه وأنا حزين لأنه عاد. سمعتهما يتحدثان عن رحيلنا إلى تطوان. لم تكن لنا غير حجرة واحدة. تركتهما يتحدثان بحزن ونمت.

في الليل أيقظتني مثانتي الممتلئة. قبلات تصفق. لهاث يتلاحق. همسات حب. إنهما يحبان بعضهما. اللعنة على حبهما. لحم يصفق. تفو؟ إنها تكذب. لن أصدقها بعد اليوم.

- فمك.

- ها أنا. ليس بعنف. ليس هكذا. انتظر.

ماذا يفعلان؟

- أقول لك هكذا.

سأهبط لأنام على الأرض.

يصفعها. ماذا يفعلان؟

- بنت الزناء.

- كلا. كلا. تؤلمني (آذان اينو). مصاريني. هكذا. هكذا أحسن. لا. لا. ليس هكذا. نعم هكذا.

لا بدّ أن يكونا مصابين بالحمّى. لهاث. قبلات. تأوّهات. لهاث. قبلات. لهاث. قبلات. تأوّهات. يعضّان بعضهما. يأكلان بعضهما يلعقان دمهما. . .

- م م م. . . !

يطعنها. تأوه طويل خفيض. شهيق. قتلها. أحسّ مثانتي تفرغ. السائل الساخن يندفق بلذّة بين فخذي.

قبل رحيلنا بيوم رأيت الفتاة التي حرّرتني من الحبس وأعطتني الخبز المعسل. أخبرتها برحيلنا إلى تطوان. أخذتني معها إلى منزلها ماسكة إياي من يدي. أكلت الخبز الأسود بالعسل الدافئ والزبد. أعطتني تفاحة كبيرة ذات حمرة طفيفة. ملأت جيوبي باللوز. غسلت لي وجهي وأطرافي. كنت أخاها الأصغر؟! ابنها؟ مشطت شعري المنفوش. قصّت لي منه ويدها الملساء والدافئة تلامس وجهي ورأسي. عطّرتني. شمّتني. أرتني وجهي في مرآة صغيرة ذات إطار فضي. تأمّلتُ وجهها أكثر مما تأمّلت وجهي. أمسكته بين يديها كما تعودت أنا أن أمسك عصفوراً حتّى لا أؤلمه. تارة تضغط بلطف على وجهي وتارة تهدهده. ودّعتني بالقبلات على خدّيّ. باست فمي. فكرت فيها مثل أخت لم تلدها أمي.

في يوم رحيلنا تذكرتُ قبر أخي. سيظل بلا سقي، بلا ريحان، بلا بناء. قبر أخي سيضيع كما تضيع الأشياء الصغيرة وسط الأشياء الكبيرة.

2

عثرنا، في حيّ خباز، على مسكن في جوار بستان. حجرة واحدة ومرحاض خارج الحجرة.

عادت أمي تبيع الخضر والفواكه في حيّ «الطرانكات». أبي يستلذّ البطالة في ساحة «الفدان» مع المغاربة معطوبي الحرب الأهلية الإسبانية. كان بعضهم يفخر بها لأنها أتاحت له أن يغامر وأن تكون له ذكريات عن المعارك التي خاضها منتصراً أو مهزوماً. وكان الكاوديو يُسمّى بينهم الحاج فرانكو.

أنا أتسخر لجيراننا الإسبانيين. أختي أرحيمو تتكوّر على الأرض وتحاول أن تستوي ماشية. أضاحكها وألاعبها، لكن حين توسخ ثيابها بالرائحة الكريهة أتركها وأهرب بعيداً حتّى تعود أمي من السوق. أحياناً يغيب أبي يوماً أو يومين. حين يعود يتشاجران. غالباً ما كان يُدميها. لكنني في الليل أسمعهما في الفراش يتضاحكان ويتأوّهان بلذة. بدأت أعرف ما كان يفعلان. إنهما ينامان عاريين ويتعانقان. هذا ما يصالحهما إذن. عندما أكبر ستكون لي امرأة. سأخاصمها في النهار بالضرب والشتم وأصالحها في الليل بالعري والعناق. إنها لعبة جميلة هذه ومسلّية بين الرجل والمرأة.

عثر لي أبي على عمل في مقهى شعبي في نفس الحي. صاحب المقهى مبتورة يده اليسرى. قدّمني إليه أبي:

- ها هو ذا ابني. إذا اعتدى عليه أحد السكارى أو الحشاشين بما لا يليق به فسوف أزهق له روحه. أنت تعرفنا نحن الريفيين. إننا لا نصبر كثيراً.

- كن هاني يا السي حدو. ماكاينش اللي يمسّو.

أعمل من السادسة صباحاً حتّى ما بعد منتصف الليل. كل شهر يجيء أبي عند صاحب المقهى. يقدّم له كأس شاي ثم يعطيه ثلاثين بسيطة عن عملي. يناديني مخدومي لكي أتقدم أمام أبي وأبوس له يده. يقول لي:

- لقد قبضت ثمن عملك. الله يرضى عليك.

لم يكن يعطيني شيئاً من الثلاثين بسيطة. في اليوم الذي يقبض فيه أجرتي يغيب يوماً أو يومين. أحياناً يعود ثملاً. أسمع أمي تلفظ كلمات القحاب والسكارى. إنه يستغلّنا أنا وأمي. صاحب المقهى يستغلّني لأن هناك غلمان مقاهي يتقاضون أكثر من راتبي. سأسرق كل من يستغلّني حتّى ولو كان أبي وأمي. هكذا صرت أعتبر السرقة حلالاً مع أولاد الحرام.

للمقهى زبناؤه النهاريون وزبناؤه الليليون. في أيام العطل يلتقي النهاريون والليليون. يتحدثون عن حياة النهار والليل.

أدخن الكيف والسجائر في الخفاء. حين أتسخر لأحد زبناء المقهى يعطيني «سِبْسياً» من الكيف أو كأس خمر أو قرصاً من معجون الحشيش. تقيأت هلاماً أصفر أخضر عدّة مرّات. مرضت. في أيام المرض بدت لي الحياة غريبة. المرض يعمق الوحدة. الإنسان يحب نفسه أكثر من الوحدة. أدركت أني لست سوى أنا. وحدي أراني في مرآة نفسي. العالم يبدو لي مرآة كبيرة مكسرة وصدئة أرى فيها وجهي مشوّهاً.

روّاد المقهى يشجعونني على تدخين الكيف وأكل معجون

الحشيش. قال لي أحدهم: «القيء لا يحدث إلا في المرة الأولى.» صدق الحشاش. لم أعد أتقيأ وأمرض. شربت نبيذاً لأول مرّة. تقيأت. مرضت. قالوا لي أيضاً: «هذا لا يحدث إلا في المرّة الأولى.» إنهم على حق هؤلاء الحشاشون والسكارى.

لم يكن صاحب المقهى يعترض على سلوكي. أدركت أن ما يهمّه هو ما يربحه من المال. هو أيضاً يسكر ويتحشش. كنت أفكر أحياناً: أمن أجل هذا يولد الإنسان ويعيش؟ أوه! كلا. هناك الجنة والنار، كما قالت لي أمي.

أحياناً أنام في المقهى فوق المقاعد. أحياناً أنام في المخبزة الإسبانية المجاورة للمقهى. ذات ليلة رأيتهم يمزحون: أمسك خمسة أو ستة من الخبازين بالخباز اليزيدي وطرحوه على الأرض. كمموا له فمه بخرقة من القماش حتّى لا يعض. أنزل واحد من رفاقه سرواله وحك باستِه وعضوه التناسلي وخصيتيه أنف اليزيدي. أهكذا يمزح الناس؟ خرجت من المخبزة خائفاً أن يحدث لي مثلما حدث لليزيدي أو أكثر. فضلت الخوف في طريقي إلى منزلنا. كنت أغامر. لقد سمعت كثيراً عن الاغتصابات الجنسية التي تحدث للفتيات والصبيان. الطريق إلى سكنانا مظلم، مخيف في الليل.

مسكن صاحب المقهى ملاصق لمقهاه. أحياناً يبدأ سكره في المقهى وينهيه في بورديل[1] المدينة حتّى اليوم التالي كما يقول عنه رواد المقهى. أحياناً يتغيب أكثر من يوم في بورديل المدينة أو في بورديلات مدن أخرى.

في غيابه أضاعف سرقتي له. إن معلم الوجاق يغلبه النعاس في الليل والنهار. كنت أقبض الفلوس من الرواد وأضعها في صندوق

---

(1) بيت الدعارة.

خشبي فوق الحاجز. حين يفيق المعلم يأخذ الفلوس ولا يحاسبني. بدأت أدخل داره متى أشاء. آكل مع أولاده. أنام معهم في حجرة واحدة عندما لا يضطرني السكر إلى النوم في المقهى. زوجته تتزين أكثر من مرّة في الأسبوع بالقفطان والحلي ولا تبيت في المنزل، أو تعود بعد منتصف الليل. امرأة سمينة وقمحية البشرة. وجهها مستدير وصدرها كبير وأردافها أبرز ما في جسمها. حين تكون لابسة ثوباً خفيفاً جالسة وتنهض تبدو كما لو أنها خرجت من الحمام. إنها امرأة تعرق كثيراً. أتأمل جسدها وهي تبتسم لي. لم تنهرني قط. رأيته يضرب زوجته وأولاده مثل أبي، لكنه أقلّ قسوة. كثيراً ما رأيته يقبل أولاده وهم يلاعبونه ويكلم زوجته بهدوء ومرح. أبي يصفع ويصرخ مثل حيوان.

يمضي، أحياناً، أكثر من أسبوع لا أزور خلاله أبويَّ. استرحت من خلافاتهما. هزلت. لم أكن أنام كثيراً. مرضت. بطن أمي ينتفخ. هذه المرّة لن أبقى في الدار لأحرس الطفل الذي سيخرج من بطنها. لقد كبرت وصرت أعمل. تخيّلت الصراخ ينمو في بطنها. ذات يوم سأسمع: واع ع ع ع ع ع ع. . !

تركت عملي في المقهى. أثناء نقاهتي تعلمت كيف أصطاد الطيور في البستان. صنعت أرجوحة بحبل قوي ربطته إلى فرع شجرة التين. التأرجح يلذذني. قضيبي الصغير ينتصب عندما أتأرجح. تعلمت السباحة في الصهريج الذي تُسقى بمائه الغرسة. أستيقظ باكراً لأسرق الفواكه من الأشجار. الدجاج وبيضه وأفراخ الحمام. كل مفارخ الغرسة أعرفها. أبيع المحصول لأصحاب دكاكين الحي. رغبتي الجنسية تتهيج كل يوم. الدجاجة، العنزة، الكلبة، العجلة. . . تلك كانت إناثي. الكلبة أخرق لها الغربال المثقوب في رأسها، أربط العجلة، ثم من يخاف العنزة والدجاجة؟

يؤلمني صدري. سألت عن ذلك الكبار. قيل لي إنه البلوغ. الألم في الحلمتين المتورمتين عند الانتصاب. أستمني على المحرم والحلال من الأجسام. حين أقذف سائلاً مثل المخاط أحسّ كأن عضوي قد جرح من الداخل.

صعدت إلى شجرة التين في ذلك الصباح. أرى أسية من خلال الأغصان. تمشي مختالة على مهل. تدنو من الصهريج. إذا اكتشفتني فقد تخبر أباها عني. هو أيضاً ما رأيته قط يبتسم، مثل أبي. اللعنة على كل الآباء إذا كانوا مثل أبي. تلتفت بعيداً وقريباً. وتتوقف. تصغي إلى الأصوات. عيناها سوداوان كبيرتان ويقظتان. تخيف. لو لم أكن أعرفها لظننتها جنية. تقترب من الصهريج بخطوة واثقة وأخرى بشك. أهي تخاف؟ كم تلتفت! تتمهل في المشي كأنها تمشي على البيض تخاف أن تكسره. تقف على عتبة درجات السلم كأنها الوحيدة في هذا العالم. تفكّ حزام منامتها. لم أعد أرى سوى جسمها. تنفتح المنامة الوردية مثل جناحي طائر يريد أن يطير ولا يطير. ينبثق بياض أعلى جسمها إلى ردفيها. يدوخ رأسي بلذة. أنبهر. تسقط التينة من يدي. أبلع التي في فمي. سلّتي تميل. يسقط نصف محتواها. يبزغ قرص الشمس القرمزي يحفّه النور مثل بيضة مكسورة في صحن أزرق. تسبح الكائنات. يصفر عصفور والحمام يهدل وديك يصيح ونهيق حمار يغطي كل الأصوات التي لا أراها. لا أرى سوى تلك التي. . . تتعرى. أسية تتعرى. أتخيّل الوجود كله يعرى: الأشجار تسقط أوراقها، الناس يعرون، الحيوانات يسقط عنها زغبها وشعرها. تنزلق المنامة على جسدها. تعرت. أسية تعرت. ابنة صاحب البستان تعرت. ما أضوأ ما في جسمها! ما أسود ما في جسمها! صدرها ملآن. ثمرتاها منتصبتان. زغب أسفل سرّتها أسود مخيف وجميل. يؤلمني انتصابي. تخطو خطوتين فوق عتبة الصهريج. هياجي يشتدّ. شعرها الأسود يغطيها من الوراء. تنحني. على كتفيها

ينسدل سالفها إلى الأمام. تعرّت من الوراء. ينفتح لحمها الأبيض من الوراء عن ظلمتها الخفيفة. يتعسل فمي. يتدغدغ. يؤلمني جسمي بلذة. رعشة حلوة وقذف لذيذ أرخياني حالماً مستنداً على فرع الشجرة. مِلتُ وكدت أهوي. متمهلة تهبط درجات السلم اللزجة. تتأمّل الماء. تبلل حشيش إبطيها الأسود وصدرها الأبيض المنتصب. ترش فجوة الفخذين. ترش كل جسمها وتقفز. أنزل. بحذر أمشي على أربع. أخبّئ منامتها بين الأعشاب قرب الصهريج. أعود فرحاً فوق الشجرة. مبتسماً أنتظر ما سيحدث. آكل التين بفرح وشراهة. نسيت البيع والشراء في الحي. تسبح مثل سمكة. تغوص وتطفو مثل بطة النهر. مثل عروس البحر، التي سمعت عنها، تظهر وتختفي. يضجّ البستان بالأصوات الجميلة والقبيحة. كل شيء جميل: على بطنها، على ظهرها، على جانبيها، على رأسها وواقفة مثل زجاجة في الماء غائصة وطافية. ما أجمل أن تظن أن أحداً لا يراها!

تصعد مرتعشة. تندهش. تحمي صدرها بذراعها اليسرى وباليمنى أسفلها. تفتش بحيرة وخوف. موتي! تلتفت هنا وهناك باضطراب. موتي! تعثر على المنامة. تلبسها هاربة. يختفي بياضها. أضحك بجنون. الحمار من جديد ينكر كل الأصوات.

حلمت ليلاً أسية تفسخ حزامها. تطفو عارية. تنساب مثل النونة في قاع الصهريج. حلمتني أعوم معها. تحتها. على جانبينا. نقف في عناق ثم نغوص إلى قاع الصهريج لننام دون أن يقهرنا التنفس.

رأيت الطفلة مناة ترفع ثوبها وتقعي طويلاً تحت شجرة صغيرة. حرصت أن أراها ولا تراني. لماذا شيئها الوردي لا زغب له؟ شيئها الصغير يبشع إذا هي انحنت: مثلما هو الفم الذي بلا أسنان شيئها بشع. دخلت على جارتنا في دارها لأطلب منها شيئاً لأمي. وجدتها تبدّل ثيابها الداخلية: بطنها بارز بشع، متهدلان ثدياها. لحمها مترهل. إذا

هي أجسام النساء ليست مثل جسم أسية، فجسم المرأة بشع، بشع، بشع!

قضيبي يدغدغني كل يوم. أهدهده بأصابعي كأني أهدهد ألم دمل أنتظر أن يتقيح. ينتصب. يمتلئ. يستوي شيئاً فشيئاً حتّى يحمرّ ويعرق لاهثاً. صرت مشغولاً به وحده. أحسّ بألم في الخصيتين إذا لذتي لم تتمّ في الاستمناء. أتخيّل جسم أسية: أبوسها في الخيال، أمسّ صدرها فتتركني. تلاطفني باليد والفم.

أخبرتها بما جرى. راحت تجري ورائي. أقفز على ما يؤخرها ويعوقها عن اللحاق بي. تعثرتُ. تكوّرتْ فوقي. نهضت لأهرب. أمسكتني. صفعتني. بكيتُ. خجلتْ عيناها واستكانت. لاطفتني. دعوتها أن تأكل البيض المسلوق معي. كنت أحفر في الأرض حفرة وأطمر فيها بيضات ملفوفة في خرق مبللة أو ورق وأشعل فوقها النار. أكلنا البيض المسلوق والفواكه وتركتها تحلم تحت ظلال شجرة تفاح وأنا جنبها أحرس نعاسها. لا شك أنها تحلم برجل. هذا ما سمعته عن النساء عندما يحلمن. كان لها أخ يصغرها ويصغرني. أكْلُ البيض معه أفضل والاستلقاء جنبه أكثر لذة وحرارة.

أستهلك كثيراً من علب الوقيد في ممارسة هوايتي الجديدة. أجلس على حافة الصهريج أرقب خروج النونات من جحرها. أفتل خمس أو ست وقيدات. أشعلها وأرشق بها النونات المنسابة. أظل أطارد انسياب النونة الهاربة بالشعْلات حتّى تدخل جحرها. تتلطف حدّة مزاجي القلق بمنظر الشعلة في الهواء وانطفائها في الماء، وبانسياب النونة ودخولها في جحرها خائفة. أفلتتْ شعلة من يدي وسقطت ورائي. لم أُبالِ بها. أشعلت أخرى. لم أنتبه للشعلة الساقطة فوق السياج. سمعت القصب يطقطق. أحاول إطفاء النار بالحجارة وكل ما عثرت عليه من أشياء. حريق. أهرب. أختبئ في الاصطبل. أصوات أعرفها وأخرى لا أعرفها

تستغيث بالناس والماء. أغوص في تل من التبن مفكراً في سوء المصير. في الليل دخلت حظيرة البقر. أنهضت بقرة هولاندية. لاطَفْتُها. داعبت ضرعها. تركتني أرضع. أتسكع نهاراً في الحيّ. في الليل أنام في الاصطبل. في الليلة الثالثة وقعت في شرك أبي بمساعدة بعض غلمان الحي الذين خصص لهم مكافأة. كسر الجيران مزلاج باب بيتنا كي ينقذوني أنا وأمي. كان يضربنا معاً بحزامه العسكري. جسمي كله دام. عين أمي متورمة. ظللت أياماً لا أعرف كيف أنام. تمنّيت لو أستطيع النوم في الهواء.

عدت إلى العمل في المقهى وأكل معجون الحشيش وتدخين الكيف والسكر. دخلت إلى دار صاحب المقهى. ابنته فاطمة تغسل الثياب منحنية. منحسر ثوبها من الأمام. بدت لي أكبر مما تركتها. تكبرني. نظرت إليها. قساوة أبي عليّ توقظ شهواتي نحو كل ما هو جسدي. تلتفت إليّ باسمة. ثوبها الخفيف أراه في الخيال ترفعه الريح. أسية أجمل، لكن فاطمة قريبة مني وأسهل. الأخرى صارت ذكرى عابرة. رفعت رأسها، قبضت بيديها على خصرها، تألّمتْ، تمططت. فخذاها ممتلئتان عاريتان. أطلقت ثوبها على ركبتيها. دنوت منها في خيالي. أعدت انحسار ثوبها في الخيال. أشعلت النار في ثوبها. استسلمت بلذة للّهيب الذي يحرقها من الأسفل. جميل عريها من خلال شعلة النار تلك. قالت بحدّة:

- ماذا تريد؟ أحالم أنت هذا الصباح؟

قلت بخيبة:

- نفد السكر في المقهى.

تأمّلتني. قالت بصوت قوي:

- ألا تعرف أين يوجد السكر؟ (أضافت لنفسها بصوت خفيض): لم يبقَ في الحساب إلا أنت.

نظرت إليها بخبث. قالت مستغربة:

- ما لك اليوم؟ إنك غريب اليوم. سأقول هذا لأبي.

مضيت إلى حجرة المؤونة الصغيرة خافضاً رأسي. أخرج بالسكر. تنظر إليّ باهتمام. اختلق أسباباً كاذبة عندما أعلم أنها وحيدة في المنزل. أعرّيها بنار خيالي متى أشاء. هي تعوّدت على مجيئي الكاذب. أنا فهمت عبوسها المصطنع. نتناظر أكثر مما نتكلم. في ليلة باردة انجذب جسمي إلى جسمها. تدفّأنا ولعبنا بجسدينا. تغطّينا بجسمينا. انزلقنا على بعضنا. ألامسها بلطف وفي الخيال أصفعها حتّى يصفق اللحم. وجهها تحت وجهي. يطلّ عليّ وجهها من فوق.

وضعت أمي صبياً. أختي أرحيمو صارت تستطيع أن تحرس أخاها عاشور. ذات مساء شربتُ النبيذ وتحششت في المقهى. جلستُ خارج القهوة أستهوي. أتأمّل نجوم السماء ونجومي حين أغمض عينيَّ. نهرني مخدومي:

- قمْ وأعطِ ذلك السيد كوب ماء.

حالماً نظرت إليه. الملعون. أطفأ نجومي.

- وأنت؟ ماذا تفعل أنت هنا؟ أعطه بنفسك.

صفعني مخدومي وهربت. تلك كانت آخر ليلة لي في المقهى. سرتُ في الظلام وطيور الليل في رأسي. لم أخف من الأشباح: لا من الإنس ولا من الجن. في الطريق المظلم جريت وراء قط أو أرنب!

بعد أيام من عيد الأضحى صحبت أمي إلى النهر المجاور للبستان. غَسَلَتْ جزة الكبش وأشياء أخرى. في الليل سمعتها تقول: الله! نسيت السكين التي كنت أنظف بها الجزة. نسيتها فوق الصخرة.

لم أقل لها شيئاً. خرجت أجري نحو النهر. وصلت وعثرت على السكين. أمسكتها بيدي بحركة كأني أواجه مبارزة. نظرت نحو الضفة

الأخرى. شبح قادم إلى النهر. كنت قد سمعت أن من يرى جنيّاً ويغرز السكين في الأرض يبقى الجنيّ محبوساً في مكانه. غرزت السكين في الأرض بقوة. عدوت وركبتاي تخذلانني. سقطت ونهضت. لم أستطع الصراخ ولا الالتفات. أحسست أنه بمجرّد التفاتي إلى الوراء سيقبض عليّ المسخ الذي رأيته. أتعثر وأنهض وأجري حتّى وصلت إلى الدار وقلبي في حلقي.

مرضت حتّى ظنوني سأموت. جاء إلى منزلنا شيخ يُخرج العفاريت من الأجسام. أمر الرجلُ أمي أن تذبح فروجاً أسود ثم يطاف بي، محمولاً، سبع مرّات حول بئر حوش الدار.

بعد شفائي قصصت على رفاقي الصغار ما حدث لي. كلهم صدقوني. بعض الكبار قالوا ربما يكون الشبح الذي رأيته رجلاً بدوياً كان عائداً إلى منزله في تلك الساعة، لكن أكثرية الناس كانوا يصدقون حكايات ظهور العفاريت. إن الجنيّ هو جندي من جنود الله يجازون الناس بما يستحقون من خير أو شر.

عثر لي أبي على عمل آخر في معمل الآجُر بخمس وعشرين بسيطة في الأسبوع. أدفع عربة يد مشحونة بالطين أو القرميد ثماني أو تسع ساعات في اليوم. انسلخت راحتاي ودَمِيتا وَكَنِبَتا. خشن وجهي بالشمس والغبار واشتدّ جسمي مثل طبل.

انتقلت إلى عمل آخر في معمل الفخار. كان عليّ كذلك أن أدفع نفس عربة اليد ثماني أو تسع ساعات في اليوم. في هذه المرّة كنت أنا الذي أقبض أجرتي. أعطي منها نصفها إلى أبي مقابل الأكل وغسل ثيابي والنوم في المنزل. ثرت على عربة اليد. قلت لأمي في غياب أبي:

- أنا لم أعد حماراً. الحمار هو الذي يظلّ يحمل دائماً الأثقال أو يجرّها.

- وماذا ستعمل؟

- أنا أعرف ما سأفعله.

وقال لي أبي وقت الغداء

- إن الأكل والنوم في الدار يكلّفان مالاً. إذا لم تعمل فلا يوجد أكل ولا نوم. هل تفهم ما أقوله؟

قلت له خافضاً رأسي:

- نعم.

وفي خيالي: وأنت، ماذا تعمل؟ أليست أمي هي التي تبيع الخضر في حي الطرانكات؟

غادرت معمل الفخار واشتريت صندوقاً من ماسح أحذية. أطوف على المقاهي والحانات. ألتقط الأعقاب، أشرب ثمالة كؤوس الخمر والمشروبات الغازية وبقايا الطعام في الصحون الصغيرة أجمعها قبل أن ينظف النادلون الطاولات في سطيحات الحانات. الذين أمسح لهم أحذيتهم لا يروقهم عملي. لم أكن أتقن حرفتي، الفرجون يسقط من يدي عندما أنقله إلى اليد الأخرى بتلك السرعة التي يتقنها المحترفون. أيضاً يضايقني حسد وسخرية الذين يتقنون هذه الحرفة. كثيراً ما كنت أتضارب معهم. تصاحبت مع بائع صحف، في سنّي تقريباً. تركت حرفة مسح الأحذية وصرت أبيع صحيفة دياريو دي آفريكا (Diario de Africa).

3

انتقلنا إلى حي الطرانكات. أُعين أمي في بيع الخضر والفواكه. أنادي بصوت صاحب على المشترين بالإسبانية:

Vamos a tirar la casa por la ventana!
Quien llega tarde no come carne!
Debalde! Debalde vendo Hoy.

كل مساء آخذ لنفسي، دون علم أمي، النقود لشراء معجون الحشيش والكيف والجلوس في المقهى والدخول إلى السينما.

التقيت صديقي التفرسيتي. كان حزيناً. قال:

- عمّي مات.

- مسكين.

- قتل نفسه وزوجته وثلاثة أولاده.

- كيف حدث ذلك ولماذا؟

- قضوا أياماً بدون أكل. لم يرد هو وزوجته أن يطلبا من أحد الجيران شيئاً من القوت. بنيَا، من الداخل، باباً آخر من الحجر والطين وماتوا.

- يرحمهم الله.

اشترينا نصف زجاجة من الماحيا[1] وشربناها عند حافة جبل درسة. اتفقنا أن نذهب إلى الماخور.

قالت لنا للاّ حرودة، التي نعتبرها، نحن المراهقين، معلمة في النكاح:

- يظهر أنكما شربتما، أليس كذلك؟

- نعم، لكنك جميلة ونحن نريدك.

ابتسمت وهي تفحصنا. وجهها يلمع بالمساحيق وعيناها مكحلتان. نظر إليّ رفيقي. أكّدت للمرأة أننا لم نشرب كثيراً. فقط نحن مرحان ونريد أن ننعس معها كما فعل رفاقنا في الحيّ. هي تفحصنا بنظرات باسمة ونحن نخاف أن ترفضنا. قالت لنا:

- طيب، من سيبدأ الأول؟

نظرت إلى رفيقي. قال:

- أرجوك ادخل معها أنت الأول.

طلبت مني أن أدفع لها المال مقدّماً. لم أتردّد. هي تبيع جسدها ونحن نشتريه. أخذت تتعرى واقفة. السيجارة في فمها. دخانها يجعل عينيها ناعستين. شفتاها شهوانيتان، حمراوان. قالت لي:

- افتح فمك.

كنت خائفاً منها. فتحت فمي طائعاً. وضعتْ سيجارتها في فمي باسمة. أدارت لي ظهرها. فككتُ لها رافعة صدرها متأمّلاً بشهوة الزغب الخفيف عند منبت ظهرها. تستدير وتواجهني باسمة رافعة نهديها بيديها. استعادت سيجارتها إلى فمها باليد الأخرى. ابتسمتُ لها خوفاً من جسدها. فكرت: جعلتْ من فمي منفضتها.

- دخّن. ألا تدخن؟

---

(1) نوع من الخمر يصنعه اليهود من التين أو التمر.

أخرجت سيجارة بحركة سريعة، مضطربة. قالت:

- انزع ثيابك. ما لك خائف؟

قضيبي منتصب. شرعت أفكّ أزرار بنطالي باضطراب. قلبي يخفق بعنف. أسية وفاطمة لا خوف منهما، لكن العلاقة معهما ليست إلا انزلاقاً والتحاماً مسطحين. هذه المرأة ستتركني أدخل في لحمها كما تدخل السكين في اللحم. سأجرح لها فرجها.

استلقتْ على الفراش. ينفتح مقصها. شيئها حليق. تذكرت مُناة تبول. أمسكت قضيبي في يدها منتصباً. فكرت: وإذا كان لفمها الأسفل أسنان! أدخل بين فخذيها بحذر وخوف. تضغط عليّ بساقيها من الخلف. تضمّني إليها. قالت منزعجة:

- أنت لا تعرف بعد حتّى كيف تدخل في المرأة.

لم أعرف ما أقوله لها، لكنني فكرت في الكلاب التي تلتصق. شيئها ناشف. تبعدني عنها قليلاً. بَصَّقَتْ أناملها بلسانها وبزّقت فمها الأسفل.

- ادْخُل الآن...!

- ...

- ما لك؟ ادخُلْ أو قمْ من فوقي. ادخل أقول لك.

وإذا كان لفمها الأسفل أسنان!

- لا تخف. لن آكلك. أنت جميل. ادخل.

دخلتُ فيها بحذر وخوف وأنا أفكر في الكلاب التي تلتصق. غصتُ في فمها المخاطي. ينفلت فمها الزبدي. لقد تزبّدَ الآن.

- آي آي آي! ليس هكذا. من أجل هذا أكره النكاح مع الأطفال. لا تلمسني هناك. لا شكّ أنك هذه أول مرّة تنام فيها مع امرأة.

لم أقل لها شيئاً. أوشكتُ أن أقول لها بأنني قد لعبت بجسدي في

الحي مع رفاقي. لم ترد أن تعطيني فمها. تعطيني خدّها. نهداها ينفلتان مني. إنها مثل سمكة تنزلق في اليد. تزلق لي يدي من على صدرها.

- آح آح! إنه لحمي يا ولد وليس حلفاء. أنت ما زلت صغيراً لكي تفعل مثل هذه الامور كلها مع امرأة.

فاطمة أجمل من للاّ حرودة التي لا تتركني ألمس نهديها. مع ذلك أعطتني فاطمة فمها وصدرها. لم يستغرق الدلك المخاطي طويلاً.

- هيا، إنك انتهيت. لقد أتى دور رفيقك.

دفعتني عنها. أنسحب وقضيبي يقطر.

- أووه، ليس هكذا. إنك تلوث لي الفراش. انتظر حتّى أريك كيف ينبغي لك أن تنسحب.

إنها حمقاء هذه المرأة. أليست هي التي أمرتني أن أقوم من فوقها؟ تضع منديلاً في جرحها. تدير لي ظهرها. أشتهي أيضاً مؤخرتها. فكرت: صحيح، إنها معلمة الجماع كما قيل لنا، لكنها تشكو كثيراً.

- ها أنت قد نمت مع أول امرأة. ألست أنا أول امرأة تنام معها؟

ابتسمتُ وهززتُ لها رأسي.

- ستفكر دائماً في هذه الدخلة معي.

ما زال منتصباً.

- هيا، ماذا تنتظر؟ اغسل والبس بسرعة. صديقك ينتظر نوبته.

غسلته في الطشت ولبست بنطالي وهو ما زال منتصباً. يرتخي وينتصب.

سألني رفيقي التفرسيتي:

- كيف هي؟

- رائعة. بلا أسنان.

اندهشَ:

- ماذا؟ أليس لها أسنان؟

- لا أقصد أسنان فمها. إن فرجها لا يعضّ. إنه يقبض ويمصّ لكنه لا يعضّ. سترى بنفسك. إنه دافئ وليّن.

قالت من الداخل:

- هيا، ادخل أنت الآخر.

فكرت: شيئها ليس جميلاً، لكن دفأه لذيذ. إنه دافئ الجسم كله، يزيل الدوخة، لكن من الأحسن أن أدخل فيه دون أن أراه.

تعوّدنا أن نتردّد ثلاث أو أربع مرّات في الأسبوع لنكتشف امرأة جديدة تقبل أن ندخل معها. بعضهن يرفضن. كلهن تقريباً، يتشابهن في الفراش: «هيا، انْتَهِ بسرعة!» كنا نعود عند اللواتي يعطيننا شفاههن ونهودهن ويتركننا نفعل الحب معهن على مهل. قلت للتفرسيتي:

- النعاس مع امرأة بلا تقبيل الشفتين وضمّ النهدين باليدين ليس نعاساً كاملاً.

- هن لا يعطين كل شيء إلاّ للكبار. وأحياناً حتّى يضربهن الواحد.

- هذا صحيح. وهل نحن ما زلنا صغيرين؟ كل من ينتصب عضوه فهو رجل.

- هذا صحيح.

- هذا المساء سنذهب عند الإسبانيات.

في بورديل الإسبانيات لم تقبلنا الشابة الأولى. قالت لنا:

- Uno solamente. Nada de dos.

قلت للتفرسيتي:

- ادخل معها أنت إذا شئت.

- كلاّ. إما أن ندخل معاً أو لا شيء.

قال:

- تِمْشي تَخْرا.

- إنها جميلة وشابة.

- صحيح، لكن تمشي تخرا في ثيابها. تمشي تخرا هي وشبابها. هناك أخريات أجمل منها، سترى.

ذهبنا عند ثانية. أكبر سناً قليلاً من التي رفضتنا. أكثر هدوءاً من الأخرى. تبدو طيبة وجميلة. لكن الشابة الأولى أجمل. فكرت: تفو على الجمال المتكبر!

- ماذا تقول فيها؟

- لا يهمّ. لا بأس بها. المهم هو أن تقبلنا وتكون لطيفة معنا. تفو على تلك الشابة الأولى!

- سمينة قليلاً.

- لا يهمّ. سنجرّب معها. بعد ذلك سنبحث عن أخريات أجمل منها.

فكرت: الجمال عذاب.

لعبنا، هذه المرّة، وجه الفلس وقفاه. ربح رفيقي. سيدخل هو الأول. تردّد وقال لي:

- محمد، ادخل أنت الأول معها. هذا أفضل. أنت تعوّدت أن تدخل الأول.

دخلت ونادت:

- أنطونيو! هات ماء وفوطة.

أطلّ علينا ثم اختفى. جاء بماء وفوطة. رموش عينيه مكحلة، وجهه مُجَمَّلٌ بمسحوق وردي، ثدياه بارزان، بنطاله مشدود على مؤخرته. قالت لي المرأة:

- ألا تعطيه شيئاً؟

أعطيته بسيطتين. أردت أن أدفع لها مقدّماً الخمس عشرة بسيطة.

- لا. لا. فيما بعد. هل أنت ستهرب؟

غسَلَتْهُ بالماء الدافئ والصابون. ضغطت عليه من منبته إلى حشفته وفركته في يدها. المغربيات لا يغسلنه ولا يضغطنه في أيديهن. فيما بعد عرفت أنها طريقة لمعرفة هل العضو سليم أم مريض! لم أستطع أن أمنع انتصابه في يدها. ابتسمنا. قالت باسمة:

- إيريس فويرتي! هاه! Eres Fuerte! Eh!

تعرّت من كل ثيابها. شيئها ليس حليقاً. المغربيات يحلقنه. انتظرت أن تغتسل هي أيضاً. لم تفعل. تمدّدتْ على الفراش رافعة ساقيها، ضامّة فخذيها. لماذا يسترن شيئهن؟ شعرها نابت في شكل لسان حتّى بلغ سرّتها. أهي لم تغتسل لأنها تعرف أنها جد نظيفة؟ ثدياها صارا الآن مثل خبزتين صغيرتين مدورتين. لم تقبض عليّ بمقصّها. تمدّدت مثل تونة كبيرة. سمعت أن النبي يونس ابتلعه الحوت. ثنت ساقها تحت الساق الأخرى. نظرت إلى انفراج ساقيها. وضع غريب عليّ. تركتني أقبلها في فمها بلطف. فمها حلو وحارّ ورائحة عطر تنبعث من خلف أذنيها. تألّمتْ:

- آي آي! لحظة. سُلَّ شيئك. سأغيّر وضعي. هذا الوضع يبدو أنه لا يلائمك. ربما يلائمك هذا.

غيّرتْ وضعها. خفت ألا تتركني أدخل فيها مرّة أخرى. أعجبني الوضعان معاً. تركتني ألمس نهديها برفق. حينما ملأت فمي بنهدها ولساني يدغدغ حلمتها قاومت رغبة قوية حتّى لا أعضّها. لم تكن مستعجلة. ضايقني زغبها في حشفته.

سألني رفيقي:

- كيف هي؟

- أحسن من كل الأخريات. تعطي جسمها كلّه. نظيفة ومعطرة. ليست مستعجلة مثل الأخريات.

- صحيح؟

- سترى بنفسك. أتمنّى أن أموت فوق جسد امرأة مثلها.

في الليل حلمتني أرضع نهد امرأة. حليبها يفور في وجهي حتّى كدت أختنق.

مات أخي عاشور. لم أحزن على موته. كنت أسمعه يصرخ وأراه يحبو، لكني لم أكن أفكر فيه. ملذات جسدي ألهتني. أختي أرحيمو أيضاً أراها تكبر وتتكلم، لكني لم أكن أهتم بها. كنت غارقاً في همومي وتشرّدي، حالماً بملذات العالم. أنام في الدروب أكثر مما أنام في المنزل. سلفتْ لي أمي مبلغاً من المال. بدأنا، أنا والتفرسيتي، نشتري الخضر والفواكه من المخازن ونبيعها في حي الطرانكات. في موسم العنب نشتري منه عدداً من الصناديق ونبيعها في أسواق البوادي.

لم تكن تدوم طويلاً هذه التجارة. كنا ننفق كل ما نربحه في شرب الخمر والنوم مع نساء ماخور حي «السانية». في فصل الشتاء نتحسّر كثيراً على إسرافنا. كنا نسرق أو نحمل حقائب المسافرين في المحطات.

بدأ أبي يستعد للرحيل إلى وهران ليزور إخوته الذين هاجروا من الريف أيام المجاعة وظلوا هناك.

كانت أختي أرحيمو قد بدأت تجلس مع أمي في الدكان لتحرس البضاعة من اللصوص الصغار. ذات مساء شتمها وصفعها بطل حيّنا كوميرو. كنت أدخن الكيف في مقهى السي «موحند» عندما جاءني رفيق ريفي بالخبر:

- كوميرو أهان أختك وصفعها. حاول أن يسرق لها رأس كرنب. أمك ليست في الدكان. لا بدّ أن تنتقم لأختك.

وجدت أختي تبكي. قال لي أصحابي الذين تجمّعوا حولي:

- هو الآن في قهوة باب «التوت».

- لماذا لا تعارك ذلك القواد؟ إنك ستغلبه. نحن نعرفك في العراك. لقد غلبه بوراس بضربة واحدة من رأسه.

- نعم، عاركه. إننا معك. لن يحميه أحد ضدك. من يعرف في حيّنا الضرب بشفرة الحلاقة مثلك؟

اشتريت ثلاث شفرات حلاقة ووزّعتها في جيوبي. ذهب أحد الرفاق ليخبر كوميرو بالمبارزة في السوق الخارجي. وجدني هناك أنتظره. كان معي أربعة رفاق. جاء هو محمياً باثنين. قال لي:

- هل تريد أنت أيضاً أن أحكّ لك الفليفلة في إستك؟

بصقت عليه وبدأنا نتضارب بالأيدي. كان أقوى. يضرب بكل ثقل جسمه. كنت أمامه مثل ريشة. أراوغه حتّى لا يقبض عليّ بيديه. هذه كانت حيلتي مع كل الذين تضاربت معهم. رفاقنا يراقبوننا ويشجعوننا ولا أحد يتحامى. أصابتني بعض لكماته. ابتعدت عنه فاقداً توازني. أخرجت شفرة وبدأت أرقص حوله. بدأ يلهث. أفلحت بضربات سريعة في وجهه وذراعية وصدره. تركته يصرخ، يتلوّى ألماً وهربت محمياً بأصدقائي.

في تلك الليلة قبض عليّ أبي بمساعدة بعض رفاق الحي الذين كانوا ضدي. في الواحدة صباحاً ركبنا الحافلة الذاهبة إلى الناظور.

توقفنا في «كتامة» لنشرب القهوة السوداء في مقهى شعبي. كان صباحاً بارداً. تلك أول مرّة أدوس فيها الثلج. أندافه على أشجار الصنوبر. الرحلة شاقة. وجوه الناس عبوسة. الفقر في ثيابهم وفي

مساكنهم المبنيّة بالحجر والطوب. الأشياء الثمينة يملكها النصارى. كنا نأكل الرغيف الجاف والبيض المسلوق الذي بدأت تفوح رائحته المغثية. عبرنا نهر ملوية. النساء والأطفال يعبرون على أكتاف العبّارين. أبي كانت له بطاقة التعريف الشخصية. انا لم تكن عندي أية ورقة. كل الذين لا يملكون جواز السفر يضطرون إلى عبور هذا النهر بعيداً عن الجمرك. تارة نركب الحافلات وتارة نتابع الرحلة على الأقدام عبر البوادي عندما نقترب من أحد الجمارك.

في «وجدة» قضينا ليلة عند أسرة يعرفها أبي. في الصباح قتلت كثيراً من القمل في ثيابي. كنت قذراً. أسعل. لا أكفّ عن حكّ جسدي. الناس الذين يعرفهم أبي أكثر جوعاً منا. تفو على هذه الرحلة، رحلة الجوع!

4

وصلنا إلى وهران ليلاً. في حي «الطحطاحة» دَلَّنا رجل يتكلم الريفية على سكنى الأسرة التي يفتش عنها أبي.

استقبلتنا كلاب شرسة خرجت من الكهوف الآهلة. كاد يعضّني كلب ارتمى على ساقيَّ. أسير أمام أبي. يهش على الكلاب بالحجارة. حين تقترب منا يستعمل العصا التي التقطها. يسبّ الكلاب ويسبّني.

- إمشِ أمامي يا هذا الخواف. إمشِ لتأكل أمك القحبة.

تعثرتُ وسقطتُ. هوى عليّ بالعصا. عويت. شتمته في خيالي. يدفعني برأس العصا إلى الأمام. التقطتُ عُصَيَّة لأطرد بها الكلاب. أعفس على الحجارة الناتئة ونبات القارص. يضربني ويلعنني جهراً، أضربه وألعنه في خيالي. لولا الخيال لانفجرتُ.

خرج رجل من كهف. تناديا قبل أن يتعانقا: السي المصطفى - السي حدو. كانت مغارة كافية ليعيش فيها شخصان فقيران. امرأته وجدناها تُصلّي. ملابس الرجل رثّة، قاتمة، وجهه غير حليق، وثياب المرأة بيضاء، جدّ نظيفة. المغارة تُضاء بفانوسين.

سألتني عن أمي وإخوتي الذين ولدوا في المنفى. أجبتها تارة صادقاً وتارة كاذباً. من يستطيع أن يتكلم صادقاً أمام أبي؟ سمعت

الرجل يسأل عن أحوال المغرب وحياة الريفيين الذين هاجروا إلى الشمال والجنوب. قال له أبي:

- حياتنا هناك في المدن الشمالية بائسة. العمل قاس في الأوراش والأجور هزيلة. التقحبن في كل مكان، لكن الريفيين لا يسمحون لبناتهم أن يدخلن البورديل.

- هنا أيضاً في وهران الحياة ليست سهلة، لكننا ما دمنا نستطيع الحصول على الخبز والبصل فإن كرامتنا ستظلّ مصونة.

تألّمت المرأة لموت أخي عبد القادر الذي تعرفه في الريف. كنت أودّ لو أقول لها إن أبي هو الذي قتله. قالت إنها تركتني في الخامسة أو السادسة من عمري في الريف.

- ها هي الآن قد مضت حوالي ثماني أو تسع سنوات.

هكذا قالت.

في اليوم التالي عثرنا على خالي «إدريس» وجدّتي «رقية» في حي «الدوار الجديد» وعلى خالتي في حيّ سيريمين متزوجة بمراكشي. قالت لي جدّتي:

- إنك كبرت. قريباً ستصير رجلاً وتتزوج مثل خالك إدريس. ستشتغل وتُعينني على العيش. أليس كذلك؟

كانت هزيلة ومريضة.

تركني أبي مع خالتي وذهب يبحث عن إخوته في مدن أخرى بعيدة عن وهران. بعد حوالي ثلاثة أشهر وصلت رسالة تقول لنا إن أبي قد عاد إلى تطوان وإنه من الأحسن أن أبقى أنا في وهران.

عثر لي زوج خالتي على عمل في المزرعة الفرنسية التي يعمل في اصطبلها. كنا نعمل في حقل الدوالي من الخامسة صباحاً إلى السادسة مساء بسبب الساعات الإضافية. أحياناً نمدّد القيلولة إلى ساعتين أو أكثر

إذا لم يجئ مراقب العمل. أقود البغلين بالزمام في خط المحراث. هذا هو عملي. لوني يسمرّ، راحتاي تكنبان، جسمي ينحل ويشتد. الشيخ الحراث، الذي أعمل تحت إمرته، رحيم بي على مزاجه: يقسو عليّ ويرفق بي حسب الظروف. أدركت أن شتمه إياي لم يكن إلاّ وسيلة لصرف تعب عمله الشاق. ما يؤلمني منه هو أنه يعايرني بأني قبائلي: «بلادكم لم تنجب سوى رجل واحد هو عبد الكريم الخطابي».

لم أكن أعرف بعد من هو عبد الكريم الخطابي.

عملت حوالي ستة أشهر في الدوالي. في أيام الآحاد أصطاد العصافير بالأفخاخ صباحاً وفي المساء أذهب إلى المدينة، مرّة حاولت أن أطلع إلى شجرة ضخمة. تسلّقت مراراً جذعها الأملس دون أن أستطيع الوصول إلى رأسها. ساقها طويلة وملساء. غضبت. مَن تكون هذه الشجرة؟ ذهبت إلى مرأب المزرعة وسرقت صفيحة نفط. أفرغت الصفيحة كلّها على جذعها وأشعلت النار. منظر اللهيب بدا لي رائعاً والجذع الأملس يخشوشن. تخيّلت أن النار ستمتدّ وتمتدّ حتّى تحترق كل الأشجار. تذكرت يوم أشعلت النار في سياج غرسة عين خباز. في ذلك اليوم لم أستطع أن أتفرج على جمال النار. الشجرة تحترق ولا أحد يأتي. مساكن المزرعة بعيدة. ها أنت الآن خشنة. أستطيع الآن أن أصعد إليك بسهولة. فكّرت في الشجرة لو أنها امرأة. تذكرت يوم أحرقت ثوب فاطمة بنار خيالي. بحثت عن شجرة أخرى صغيرة. ملساء وجميلة. جذعها على قياس ذراعي حين أعانقها. رسمت على جذعها تصميم امرأة وشرعت في الخلق: سيكون لك ما للمرأة. خلال أسبوع حفرت في جذعها حُفرَتَي النهدين، والفم وحفرة ما بين الفخذين.

الشجرة – المرأة.

أضع في الحفرتين برتقالتين مثقوبتين للمصّ أو تفاحتين للعضّ

وإحداهما في الفم. في حفرة ما بين الفخذين أضع خرقة فيها زَبَدٌ أو زيت. صرت أنقل إلى الشجرة - المرأة صور الجميلات.

قال لي زوج خالتي:

- غداً لن تذهب إلى الحقل. إن زوجة مراقب المزرعة، المسيو سيجوندي، تريد أن تراك. من المحتمل أن تعمل عندها في منزلها إذا أعجبْتَها.

فرحت، لكن هذا الشرط: «إذا أعجبتها...» آلمني.

استقبلتني زوجة مراقب المزرعة بلطف. شابة، جميلة، متوسطة القامة، ذات سمرة خفيفة. ذكّرتني رشاقة جسمها بقوام أسية. خجلت أمامها ووقحت في خيالي. موضوع جديد لأحلامي. كلّمتني بالإسبانية. أجهدتُ نفسي باضطراب كي أتذكر الكلمات الإسبانية القليلة التي بدأت أنساها. أعطتني عطلة ثلاثة أيام وبعض النقود قبل أن أبدأ عملي معها. قضيتها متسكعاً في المدينة بين السينما والسيرك والمقاهي في حي المدينة الجديدة. كنت أحمل معي من المدينة زجاجة خمر أشربها ليلاً في الكوخ المجاور لمنزل خالتي في المزرعة. يشاركني في وحدتي الليلية، كلب خالتي الضخم «تيجري» (Tigre).

علّمتني مخدومتي غسل الصحون، قَلْيَ البيض والسمك والمقليات الأخرى. ذات مرّة طبخت لها طبخة مغربية. استلذّت طبخة الطاجين. صارت تقول لي مرّة في الأسبوع:

- اليوم سنأكل طاجينكم المغربي. عليك أنت أن تطبخه وحدك.

شعرتني سعيداً معها. صارت موضوع رغبتي الجنسية. لم أعد أفكر في الشجرة - المرأة. الحنين يحزنني عندما أفكر في بغايا بورديل تطوان. على مهل أو بسرعة. بتقبيل الشفتين وضمّ النهدين أو مجرّد أن يدخل الشيء في الشيء. لا بدّ لي من رفيق هنا لكي أتشجع. لم أعرف

كيف أتردّد على بيوت الدعارة التي سمعت عنها، لكن الرفاق عبوسون في وهران. لا يكادون يبتسمون.

كنت أرى، أحياناً، مسيو سيجوندي الإيطالي يقبّل زوجته الفاتنة وينزّه يديه على جسمها على مرأى مني. في غالب الأحيان أحمل لهما الإفطار إلى السرير. زوجها عارٍ حتّى النطاق وهي تَشِفُّ غلالتها عن حلمتيها. لأول مرّة أمرتني أن أغسل لها سليبات زوجها. قلت لها في البداية: نعم، على مضض لكن عندما وضعت السليبات في الماء قلت لنفسي: الرجل لا ينبغي له أن يغسل الثياب الداخلية لرجل آخر. قلت لمخدومتي مونيك:

- لن أغسل سليبات مسيو سيجوندي.

- لماذا لا؟

- إنها سليبات مسيو سيجوندي.

- وماذا في ذلك؟

قلت لها خافضاً رأسي:

- الرجل لا يغسل الثياب الداخلية لرجل آخر.

ضحكت ثم قالت:

- وثياب المرأة؟

قلت بحيرة:

- ثياب المرأة... شيء... شيء آخر. يمكن للرجل أن يغسل ثيابها إذا هي لم تستطع أن تغسلها بنفسها.

قالت باسمة:

- أنت عجيب. (أضافت): أنت رائع. قل لي، أهذه عادة عندكم في المغرب؟

لم أكن أعرف بعد أهي حقيقة عادتنا أم أنها صادرة عن تفكيري

الخاص. لم يسبق لي أن مررت بتجربة تماثلها. إنها مشكلة مع هذه المرأة. قلت لها:

- نعم، عيب أن يغسل الرجل ثياب رجل مثله.

- هذا غريب عندكم.

ضحكا كثيراً هي وزوجها على الحادث. بعد أيام أمرني زوجها بالقوة أن أغسل له سليباته. رفضتُ. هو يصرّ وأنا أرفض. أفهمته أن هذا العمل تقوم به المرأة الوهرانية التي تنظف لهما المنزل. عبثاً رجته زوجته أن يكفّ عن عناده. تكلّما بصخب وغضب بالفرنسية التي لم أكن أعرف منها سوى كلمات قليلة. قال لي بحدّة:

- لماذا ترفض أن تغسل لي سليباتي؟

- لأنه هكذا.

- أتعتقد أن ثيابك أنظف منها؟

لم أجبه. صاح بغضب:

- اذهبْ إذن إلى منزلكم ولا تعد أبداً.

قلت لنفسي: طز في كل أوامر المخدومين. لم يبقَ لي سوى أن أغسل خراء المسيو سيجوندي. سأعود إلى تطوان. حياتي هناك وليست هنا.

بعد ثلاثة أيام أعادوني إلى العمل. جاء والدا مخدومتي الجميلة من سيدي بلعباس. حدّثني أبوها عن أصله الإسباني. تأسّف حين أدرك أني لا أعرف القراءة والكتابة بأية لغة. سألني:

- ألا يعلّمون عندكم العربية والإسبانية في تطوان؟

- نعم، سمعت أنهم يعلّمون العربية والإسبانية.

- لماذا إذن لم تذهب إلى المدرسة؟

- لأن أبي لم يفكر أن يُدخلني إلى المدرسة.

- أهو لم يكن يريد أم أنت الذي لم تكن تريد أن تذهب إلى المدرسة؟

- لا أدري. أنا لم أهرب قط من المدرسة. إننا جد فقراء، والدراسة تكلّف هناك بعض المال.

تأمّل جبهتي للحظة وسألني:

- كيف حدثت لك هذه الندبة؟

- داستني دراجة في سباق للدراجات عندما كنت أعبر إلى الرصيف الآخر.

أمسيات وهران، في الصيف، طويلة وجميلة. الشيوخ يلعبون «الداما»، الشبان يتبارزون ابتهاجاً بـ«المطرك»[1]، النساء يجلسن على عتبات منازلهن يتحدثن، الأطفال يتوزعون هنا وهناك يلعبون ويخترعون أشكالاً من التراب والخشب والقصب.

زرت سيدي بلعباس مع مخدوميَّ. رحّب بي كثيراً والدا مخدومتي وخالتها. والداه أكثر عطفاً عليّ منهم جميعاً. تجولت في المدينة. بدت لي موحشة. أعجبني شارعها الرئيسي والكاتدرائية. سمعت في الشوارع إسبانيين يتحدثون بلغتهم[2]. رأيت سيركاً. العرض يبدأ في الخامسة. لكن مخدوميَّ أخبراني أننا سنعود إلى وهران في السادسة. دخت بكآبة. شربت كأسَي نبيذ في حانة إسباني. زرت معرض الحيوانات الملحق بالسيرك. توقفت عند قفص قرد. الأطفال يلاعبونه بشراسة. لم أعرف كيف حدث ذلك: شعرت بأظافر القرد تشطب وجهي. ضحك الأطفال وتأسفوا. أبعدهم الحارس عن القفص. القرد يقفز في قفصه

---

(1) المطرك عصا يتبارز بها الجزائريون جدّياً وابتهاجاً، بعضهم قد يتفنن في صنعها، خاصة مقابضها.

(2) فيما بعد عرفت أنهم من مناهضي حكم فرانكو.

هائجاً، مكشراً عن أسنانه. منظر أنساني ألم وجهي: شاب وشابة، من لاعبي السيرك، يتعانقان بحب وراء الخيمة الكبيرة بلباسهما اللامع. فكرت: ما أجمل حياة السيرك! تذكرت بستان عين خباز، أسية تتعرى، انزلاقي فوق جسم فاطمة العارية وبغايا «السانية». حرارة أفخاذ النساء. ذلك ما كنت أحنّ إليه.

صبغوا لي وجهي في منزل خالة مخدومتي باليود. تركتني خالة مخدومتي أتنزه في حديقتها. الحديقة معنكبة. تحت قبة الحديقة وجدت مقعدين خشبيين مهترئين، مغبرين. ملأني المشهد بحزن. الحديقة موحشة. أشياء مكسرة وأخرى ممزّقة. العصافير على الأشجار. تلوّث رأسي وكتفاي بذرقها.

في اليوم التالي اسودّت خدوشي. يوم الأحد لم يأخذني مخدوماي معهما في سيارتهما. بقيت وحيداً في المنزل. فتحت الراديو. بعد لحظة أقفلته وشغلت الفونوغراف. كلمات الأسطوانات لم أكن أفهمها. موسيقاها هي التي تطوف بي عوالم فيروزية اللون. مخدومتي تعرف حبي لمقطوعة «الدانوب الأزرق». حين يكون مزاجها رائقاً تقول لي باسمة: «سأضع لك أسطوانتك. «ستراوس» موسيقي عظيم».

أخذت إضمامة صورها. تأمّلت صور عائلتها بسرعة. قلت لبعض صورها وهي طفلة: اكبري! اكبري بسرعة! بدأت تكبر في كل صفحة من الألبوم أقبلها. توقفت عند صورها الشاطئية خارجة من الماء أو مستلقية على الرمال مع زوجها أو وحدها. ثلاث صور تبدو فيها عارية تماماً: الأولى واقفة. منحنية قليلاً إلى الأمام، واضعة يداً على يد أسفل بطنها، الثانية على ركبتيها جالسة فوق ديوان من الفراء، صدرها بارز، مستندة إلى الوراء بيديها، استثارتني في الخيال:

- أهو جميل هذا الوضع؟

- رائع.

في الصورة الثالثة مستلقية على الديوان، رأسها يتوسد يديها، ساقها اليمنى مقوّسة قليلاً. قال لي وضعها هذا:

- تعال!

قالت شهوتي لصوتها:

- أنت لي.

مَن صوّرها هكذا؟ زوجها؟ لو كانت عندي آلة تصوير في ذلك الصباح لصورت أسية آتية نحو الصهريج، عارية تستحم، حائرة تفتش عن منامتها، خائفة هاربة.

نزلت إلى قبو المؤن لاحتفل بالعرس الخيالي. فتحت صنبور البرميل وملأت قدحاً بنبيذ أعرف طعمه الجيد. وضعت زيتوناً أسود وبعض الجبن الدنماركي في صحن. أشرب وآكل على مهل. إحدى صور مونيك الجميلة أمامي تغمرني. نفخت فيها الحياة. تمططت مونيك. نفخت الصورة في جسدي رعشة الحلم اللذيذ. أهي الصورة في خيالي أم خيالي في الصورة؟ جسدي يتدغدغ. يعنف قليلاً. أخرجت ثعباني وبدأت أدلّكه وألاطفه. ينتفخ، يحمرّ، يعرق ويلهث. يتعسل فمي، تتراءى الألوان متموجة. كل الألوان لا لون لها ولها كل الألوان.

أحسست بخطوات. زررت فتحة سروالي. قالت:

- لكن ماذا تفعل هناك؟

- . . .

- وهذا الألبوم، ماذا تفعل به هنا؟

- . . .

أخذتْ ألبومها وصعدتُ وراءها.

- مَن سمح لك أن تتفرج على ألبومي؟

صفعتني. أكملتُ صفعتها لذّتي.

- شربت، أليس كذلك؟ لا أسمح لك أبداً أن تفعل هذا هنا.

سحتُ في الحقول غاضباً على نفسي وتيجري يتبعني. تذكرت الصابونة المعطرة والكوب في القبو. ستقول مونيك الجميلة: يستعمل أيضاً صابونتي. آلمني خجلي. هي تعرف الآن أني أضاجعها في خيالي.

عند عودتي أبصرت جمعاً من عمال القرية وأُسرهم يتجمعون حول عدد كبير من رؤوس الغنم التي داسها القطار. بعضها ذبحوها وبعضها نفقت قبل أن يذبحوها.

في الليل بدأ عواء الثعالب قرب منزلنا. فكرت: تفترس الآن الأحشاء. لو كنت كبشاً بين ذلك القطيع لكانت الثعالب تمزق أحشائي الآن بأنيابها.

دخل تيجري ينزف دماً. يدور حول نفسه، يخرج ويدخل، يتأوّه، يحاول أن يلعق جروح عنقه. أيقظت خالتي في منزلها. وضعت له في جروحه الرماد وضمدته. قالت:

- جروحه عميقة. لا شك أن خمسة أو ستة من الثعالب قد تعاركت معه.

ربطتُه في كوخي من وسطه خوفاً من أن يخرج. رأيته يموت شيئاً فشيئاً. مات قبل أن أنام.

في الصباح حملت جثته بعيداً في عربة يد ودفنته تحت شجرة زيتون. تلك أول مرّة أدفن فيها جثة. استولى عليّ شعور غريب. لماذا يسوق القدر هذا الكلب إلى الموت بهذا الشكل الفظيع؟ القطيع أيضاً داسه القطار. الراعي غبي. تيجري غبي. تيجري لا يعرف معنى الموت. لا شك أن العالم مليء بالغباء. أنا أيضاً غبي؟

لم أرد أن أعود عند مخدومتي. الخجل ما زال يؤلمني. قالت لي خالتي:

- إذا لم تكن تريد أن تذهب عند السيدة سيجوندي فأنت تعرف ما ينفعك. لا بدّ أن تشغل نفسك بعمل ما.

تذكرت ما كان قد قاله لي أبي في تطوان: «إن الأكل والنوم في الدار يكلّفان مالاً».

جاءت مونيك عند خالتي. أخذتُ أترجم ما تقوله الواحدة للأخرى. خالتي لا تعرف سوى الريفية والدارجة الوهرانية. مونيك تكلمني بالإسبانية. مشرقة هذه المخدومة. بدت لي ألطف في هذا اليوم. مزاج المرأة صعب الفهم؛ حين يعتقد الواحد في امرأة أنها ستسبب له مصيبة إذا بها تنقذه. حين يعتقد أنها ستنقذه ربما تقوده إلى مصيبة: الإنقاذ والهلاك متوقّف على مزاجها.

مونيك إذن لم تكره فعلي، لكن لا بدّ من لوم. قالت لي:

- لقد اعتقدت أنك مريض. لماذا لم تجئ اليوم إلى العمل؟

- تيجري قتلته الثعالب في الليل.

- أخبرني زوج خالتك. مسكين. لقد كان كلباً قوياً وجميلاً. أين دفنته؟

- تحت شجرة زيتون.

- حسناً فعلت. سيعثر زوج خالتك على كلب آخر.

تألّمت مع نفسي: كلب ذهب، كلب سيأتي. يا إلهي! كن أيضاً رحيماً بالكلاب.

نهضتْ وأمسكتني من يدي. يدها دافئة. رعشات لذيذة تغزو جسدي.

- تعال معي إلى المنزل.

هي إذن لم تخبر زوجها. إني أكرهه وأحبها: مثل أبي وأمي.

بدأت أحلم كثيراً. أحلم أني أطير أو أعيش في كهف مفروش بالحرير وألوان لامعة تزيّن الجدران والبسط والبخور والعطور. أشير بيدي فيأتيني طبق مليء بما أشتهي. أصفق بيدي فتأتي فتاة رائعة لم تمسّها بعد يَدُ إنسان. ترقص لي عارية وسط ضباب من البخور وضياء الشموع.

ذات صباح رأيتها بعد أن خرج زوجها تأخذ علبة القطن وسليباً وتدخل الحمام. رأيت مراراً قطناً ملوّثاً بدم قاتم في القمامة. من أين يجيء هذا الدم؟ وضعت عيني على ثقب الباب. تخلع سليبها. تجلس على المغسلة وتفتح الماء. أهي تبول؟ كم هو جميل أسفلها. مو نيك تبول، مونيك تخرأ. ليتها لا تبول ولا تخرأ. تغسل شيئها وتحكّ عانتها. تضع منشفة بيضاء في جرحها. هكذا رأيت المرأة التي نعست معها في بورديل تطوان تفعل عندما انسحبت من فوقها. تضع القطعة القطنية في جرحها. تلبس السليب النظيف. أهنّ كلّهن ينزفن هكذا؟ مونيك الجميلة تنزف دماً! شيء مقرف إذا كنّ ينزفن دائماً.

صحبت معي إلى الحقل غلام أحد الجيران. يصغرني. سنصطاد عصافير كثيرة. هكذا قلت له. كنت أحمل مصائد. غلام وسيم، رقيق، يلبس الشورط، بشرته جميلة، وجنتاه موردتان، شفتاه قرمزيتان، صغيرتان. منذ أيام وهو يسبب لي دوخة لذيذة كلّما رأيته. نصبنا المصائد وجلسنا تحت شجرة زيتون. أكلنا لحماً مقلياً وبيضاً مسلوقاً. دخن وشرب معي. قال:

- إنني أدخن وأشرب لأول مرّة.

قلت له كما قيل لي في تطوان:

- لن تَسعل أو تمتعض في المرّة المقبلة من الشراب والدخان.

هكذا حدث لي أنا في المرّة الأولى عندما كنت في تطوان. (أضفت): هل دُخْتَ؟

- قليلاً.

اقترحت عليه أن ندخل وسط سنابل القمح عسانا نعثر على بيض الطيور. كنا نتنزه ورغبتي فيه ترعش جسدي. شفتاه تلمعان. جلسنا. استلقيت على ظهري. استلقى إلى جانبي. تطوان! تذكرت أغنية تبدأ هكذا:

«عشقت طفلة أندلسية، صغيرة، شابة، خمورية...»

إنه طفل؟ شيئي ينتصب. أنه طفلي. عيناي تدمعان باللذة. لاطفت يده، سحبها وجلس ناظراً إليّ مستغرباً. عيناي دامعتان باللذة. خاف.

- ماذا تريد أن تفعل لي؟

- لا تخف. أنت جميل. تمدّد إلى جانبي.

داعبته بيدي. كدت أبكي من اللذة. قال:

- أنا لا أحب مثل هذه المداعبات.

قالت له عيناي:

- أرجوك. إني أحب أن ألاطفك.

همَّ أن يقف. أمسكته من يده بعنف. جسمي يرتعش. الجنون في رأسي. سحب يده بقوة ووقف. أراد أن يهرب. عانقت ساقيه وجذبته بقوة وجنون تحتي.

صار لي. طفلي!

- سأشكوك لأمي. سأشكوك لأبي وأمي. سأشكوك...

أمهات العالم. آباء العالم. تارة يعضّ يدي وتارة يعضّ التراب. جسدان في جسد. يخمشني. أعضّه في رقبته. يكفّ عن الصراخ والاهتزاز. يستقرّ دفئي في دفئه. أُلامس عضوه بيدي. ينتصب شيئه في يدي. يتلذذ. أبوس رقبته، شعره، وجهه، فمه...

شكا لأبويه. اللعين! في تلك الليلة أنّبتني خالتي. خجلتُ.

أنكرتُ. حلفتُ لها أني بريء. كرهت ملذات جسدي. بكيتُ. رأيت خالتي في اليوم التالي تبوس رأس أم الغلام طالبة عفوها. جسدي. تفو!

قالت لي خالتي:

- لا بدّ أنك تعذب أمك كثيراً في تطوان. كن عاقلاً.

قلت لها في خيالي:

- كيف ينبغي لي أن أكون عاقلاً يا خالتي؟ كيف؟

- لا تفعل كل ما هو قبيح.

- لكني أحب ما هو قبيح لذيذ.

- لا أفهمك.

- في تطوان كانت لي أفخاذ بغايا بورديل «السانية». وهنا هل أشتهي فخذيك؟ فخذا مونيك لزوجها. فخذاك لزوجك. وأنا؟

مخدومتي تلاحظ فتوري في العمل وشرودي. قالت:

- لا شك أنك تشتاق إلى رؤية أهلك في تطوان.

- لا أدري.

- أكيد أنك مشتاق لأهلك.

قلت لها في خيالي:

- أعطني فخذيك أُعطِك أهلي.

جنون. الشوق إلى تطوان جنون. الخمر والنساء والكيف. جنون جميل. تطوان مجنونة. ليس هنا جنوني. في أي مكان في العالم سأبحث عن جنوني.

قالت:

- اسمع، سنعطيك إجازة شهر كامل لتزور أسرتك ثم تعود إلينا.

وافقتها. كنت قد سرقت لها إحدى صورها ومنديلاً صغيراً عطرتهُ بأزكى ما عندها من عطور.

لم أكن أرى جدّتي وخالي إلاّ عندما كانا يزوران خالتي في أيام العطل. أحياناً يأتي هو أو هي فلا أراه أو أراها. لا عاطفة نحوهما. لا محبة، لا كراهية. هو وهي. هذا كل شيء.

لم تبدُ لي وهران عزيزة إلاّ يوم رحيلي. ألِأَنني أملّ مما أحبّه؟ سمعت أحدهم يقول:

«الداخل إلى وهران زربان (مستعجل) والخارج منها هربان (هارب)».

في طريق عودتي إلى تطوان فكرت في أيهما أفضل: وهران منفى جميل وتطوان سجن جميل. سجن الوطن ولا حرية المنفى.

قضيت يومين في مليلية ويوماً في الناظور. تحدثت عن وهران مع ناس لا أعرفهم. قال لي أحدهم: «الناس يهاجرون إلى وهران وأنت تهجرها!».

5

عندما وصلت تطوان تيقّنت أني لن أعود إلى وهران. سبقتني رسالة من خالتي إلى أمي تقول لها فيها بأني أسبب لها مصائب لا تقوى على تحمّلها، وأنه من الخير أن أبقى في تطوان. عندما أخبرتني أمي قلت لها:

- ومن قال بأني أريد العودة إلى وهران؟

وجدتُ أمي قد ولدت طفلة ماتت في الرضاع. لكن بطنها بدأ ينتفخ من جديد، أبي ما زال يقضي معظم وقته في ساحة الفدان مستلذاً بطالته. ينام كثيراً. يأكل مثل خنزير. يتناول النشوق ويعود أحياناً ثملاً إلى المنزل. ما زال يسبّ الناس دائماً والله أحياناً. لا يحبّ أحداً في هذا العالم. إذا اقتربت منه قطة يمسكها من ذيلها ويخبطها مع الحائط. من الغريب أنه يعامل الدواجن (مثل الدجاج والأرانب والمواشي) بلطف قبل أن يذبحها. ما إن يقبض على دجاجة أو أرنب للذبح حتّى يخيّل إليّ أن الحيوان يموت بين يديه القويتين قبل أن يُنْحَر.

أختي أرحيمو كبرت، أمي صارت تعتمد عليها كثيراً في الدكان. صالحني رفاق حي الطرانكات مع كوميرو، لكنني ظللت أحذر من انتقامه. رأيت ندباً يقسم خده الأيمن. كثير من الرفاق صاروا يهابونني. كانت لي طريقة خاصة في وضع شفرة حلاقة أو شفرتين ملصقتين في

فمي وأتكلم دون أن أجرح فمي. مثل هذه اللعبة تؤكد لهم مهارتي في الضرب بالشفرة.

في ماخور السانية ذهبت نساء وجاءت أخريات. فتيات قبيلة بني عروس مشهورات بجمالهن في الماخور وكذلك الغلمان الذين يرقصون في المقاهي الشعبية رقصات أنثوية لابسين القفطان والزكدون والحزام الجبلي الشبيه بعجلة سيارة. أيضاً ذهب حماة موشومون وجاء آخرون موشومون مثلهم.

أستمتع بالنوم في الدروب صحبة المتشردين أو وحدي. ذات صباح باكر أيقظتني في درب فتاة حنونة عرجاء وجميلة. سألتني:

- ألست أنت ولد السيدة ميمونة؟

- نعم.

- أنا أعرف أمك. لماذا لا تنام في داركم؟

- أبي طردني.

جاءتني برغيف مزبد وكوب قهوة بالحليب. خجلت أن أرفض لها كرمها معي، لكنني صرت أحتاط كي أفيق باكراً وأنصرف من ذلك الدرب المنعزل والدافئ. لم يعد يروق لي عطف الناس عليَّ: لا الرجال ولا النساء.

في فصل الشتاء تعوّدت أن أنام في ركن مخبزة. أكوّر نفسي كالقنفذ. ألصق ظهري إلى جدار الفرن الساخن. حين أفيق في الليل، لأغيّر وضعي أو لأبول، أجد فوقي قططاً تنام. أحياناً أستعذب شخيرها الخفيف الذي يشبه هدير معمل بعيد. أستلذ أيضاً كل صوت حزين يصلني من بعيد أو همساً عن قرب. بعض الأغاني التي أسمعها من المقاهي البعيدة كانت حزينة ورائعة: أسمهان، أم كلثوم، عبد الوهاب وفريد الأطرش. هؤلاء كانوا المفضّلين عندي في العالم العربي.

أيقظني ذات صباح رجل سائلاً إيّاي:

- ألست أنت ابن السيد حدو؟

- كلا. لست أنا.

أعاد السؤال بإلحاح وحيرة:

- ألست أنت ابنه محمد الذي عاد من وهران؟

- قلت لك لا. ولا أعرف شخصاً بهذا الاسم.

- ما اسمك إذن؟

- محمد.

- لكن أباك هو السيد حدو بن علال وأمك هي السيدة ميمونة.

- قلت لك بأني لا أعرف سوى نفسي.

- من هو أبوك إذن؟

- مات.

- مات؟

- نعم، مات من زمان.

- ماذا كان اسمه؟

- لا أدري. كنت أعرف اسمه، لكني نسيته. كنت في بطن أمي عندما مات.

تأمّلني لحظة وقال:

- ما شاء الله! ما شاء الله!

مدّ لي بسيطتين قائلاً:

- هاك، اشْتَرِ لنفسك إفطاراً. لا بدّ أنك جائع.

قلت له بصوت جاف:

- لست في حاجة إلى شيء. عندي نقود.

- عندك نقود وتنام هكذا هنا مثل قط. هل أنت أحمق؟

قلت له غاضباً:

- القط العجوز هو أنت والأحمق الحقيقي هو أنت.

نظرت إليه بجنون. صرخت في وجهه وأنا أنهض: عاووو! عاو عاو!

انصرفت وتركته خلفي يردّد: «باسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله من أولاد هذا الزمان».

وضعت أمي طفلة سمّوها الزهرة مثل الطفلة التي ماتت قبلها. هذه أيضاً عضّها في ليلة جرذ في يدها فماتت.

كثيراً ما يباغتني أبي في الشارع من الخلف ويقبض عليّ من ياقة قميصي أو يلوي ذراعي إلى ظهري بيد وباليد الأخرى ينهال عليّ ضرباً حتّى يسيل دمي. عندئذ أعرف أن حزامه العسكري السميك ينتظرني في المنزل. حين تتعب يداه وقدماه من الضرب يعضّني في كتفي أو في ذراعي قارصاً أذنيَّ، صافعاً وجهي. إذا ضربني في الشارع غالباً ما يتدخل بعض الناس ويخلّصونني منه، لكنه لم يعد يفعل. هكذا فحين يقبضني أسقط على الأرض وأصرخ بجنون. يشطب بي الأرض رافساً إيّاي حتّى أفلت منه ثم أجدني بعيداً لاعناً إياه، كارهاً كل الناس، باصقاً على السماء والأرض. ذات يوم كنت مع نشالين في مقهى ندخن الكيف ونشرب الشاي الأخضر. قرّرنا أن نسرق لنقضي ليلة في البورديل. ذهبنا إلى السوق الجديد. الزحام خانق. فاجأني من الخلف وقبض عليّ من ياقة قميصي. قبل أن أشرع في الحيلة التي تخلّصني منه هاجمه رفيقاي. ضرباه باللكم ونطحات الرأس. سمعته يصرخ ويئن ويستغيث. رأيته يغطي وجهه بيديه والدم يسيل من بين أصابعه بغزارة. وقفت بعيداً أنتظر نهاية المشهد. تمنّيت لو أني أشاركهما في ضربه. لو كان في مكان خالٍ من الناس لشاركتهما. كان عزاء لي أن أراه يُضْرَبُ على مرأى مني حتّى يسيل دمه كما أسال دمي كلما ضربني. قال لي عبد السلام الذي لحق بي:

- ابن القحبة. ماذا حدث لك مع ذلك الكلب؟

- لا شيء، إنه أبي.

- أبوك؟

- نعم، لكنه يستحق أكثر مما حدث له.

قال السبتاوي الذي وصل:

- ولد الزبل. ولد القحبة.

قال لي:

- ما له معك؟

قال له عبد السلام:

- إنه أبوه.

- أبوه؟ (أضاف لي): أبوك؟

- نعم، أبي. (أضفت): إنه يستحق أكثر مما فعلتماه له. إنه كلب.

عندما بلغنا درب «الطلعة» رأيت رجلاً مخموراً يخرج من دار. كانت ليلة باردة، ماطرة. قال عبد السلام:

- المطر سيخفف من هذا البرد.

تخطانا الرجل السكران يترنح. سمعنا ارتطاماً على الأرض. قال البيتاوي:

- إنه جد سكران. لا بدّ أنه قضى اليوم كله يسكر هنا. أنا أكره السكر في النهار.

نهض الرجل السكران بصعوبة. دخلنا نفس الدار التي خرج منها. استقبلتنا امرأة أنفاسها مخمورة. جسمها رشيق، لكن وجهها متعب. لابسة قفطاناً من المخمل أسود. أمسكتْ وجه عبد السلام بين يديها بحنان ورقّة وباسته في فمه: قبلة مسموعة. قالت له:

- ماذا حملت لي معك اليوم؟ ماذا حملت لأمك؟

إنها أمه إذن. أمه تبوسه في فمه هكذا كأنه عشيق صغير. قال لها عبد السلام:

- كل شيء. كل ما تريدينه سآتيك به ما دمت حياً.

ثم أعطاها سلسلة ذهبية يتدلّى منها صليب. فحصت الصليب وقالت:

- هذا سأخلعه لأرميه أو أذوبه عند الصائغ لأجعل منه «خميسة».

رأيت السبتاوي يتجه إلى حجرة مضاءة. أصوات رجال ونساء وضحكات. قدّمني عبد السلام إلى أمه المخمورة:

- ماما، هذا صديق جديد. محمد. (فحصتني بعينيها الناعستين). سيسهر معنا هذه الليلة.

احتضنت وجهي برفق بين يديها وقبّلتني في شفتي. قبلة متمهلة ذات رنين. استعذبتُ أنفاسها المخمورة الممزوجة بعطر قوي.

- مرحباً بك عندنا.

تأمّلتني لحظة ماسكة وجهي بين يديها مبتعدة قليلاً إلى الوراء. عيناها ناعستان مشرقتان نديّتان. أمالت رأسها قليلاً إلى الوراء. أكاد أرى وجهي في عينيها الدامعتين. ماذا تريد مني هذه المرأة؟ أهي تسحرني؟ اضطربتُ. عيناها جميلتان. عبد السلام ينظر إلى أمه مبتسماً. أهي حقيقة أمه أم هي لعبة؟ ربما تكون تبنّته. قالت لنا:

- اطلعوا إلى الغرفة كلكم. سيأتيكم كل ما تريدونه.

صعدت مع السبتاوي إلى الطابق العلوي وتركنا عبد السلام يتفاهم معها حول سهرتنا.

حملت إلينا فتاة، في حوالي العاشرة، صينية وزجاجة كونياك تريّ. قال السبتاوي:

– ليس أحسن من الكونياك في هذا اليوم البارد.

قلت له:

– وهاضم.

كنا قد أكلنا طعاماً دسماً. محفظة النقود التي سرقها السبتاوي كانت تحتوي على ثلاثة آلاف بسيطة. قال:

– عبد السلام يتفاهم مع أمه لجلْب ثلاث فتيات جميلات من خارج الدار. هناك فتيات كثيرات لا يقحبن علانية. يبقين في منازلهن رهن طلب القوادات. بعضهن متزوجات. قد تجد بينهن من هي عذراء.

– وهل يمكن نكاح عذراء؟

– إنها تسهر مع الجماعة، وفي نهاية السهرة ترسل معها القوادة من يصحبها إلى دارها أو تنام معها حتّى الصباح.

– وإذا أراد الواحد أن يفتضّ فتاة عذراء!

– في هذه الحالة ينبغي دفع ثمن افتضاضها.

– كم، مثلاً؟ (نظر إليّ بتعجّب). أضفت:

– إنني أسأل فقط.

– هلا تريد أن تفتضّ واحدة؟

– إذا كان ممكناً ذلك فلماذا لا!

– إنها تكلّف ألف بسيطة أو ألفاً وخمسمائة بسيطة.

– أليس عند أم عبد السلام هنا فتيات؟ لقد سمعت أصواتهن في الحجرة التي دخلتها أنت.

– عندها فتاتان مُحترفتان، جميلتان، لكننا شبعنا منهما أنا وعبد السلام، هذه الليلة ليس هناك سوى فتاة جديدة تشرب الكونياك لتسكّن ألم ضرس.

سمعنا أصواتاً رقيقة ضاحكة. قال السبتاوي:

- ها هنّ طالعات.

أطلّت علينا أم عبد السلام باسمة ثم ظهرت خلفها ثلاث فتيات لابسات القفاطين. إنه عرس، عرس حقيقي. ملأت أم عبد السلام كأساً لنفسها وانصرفت به. دخل عبد السلام حاملاً في يده كرتوشة سجائر فرجينيا. جلست كل واحدة إلى جانب كل واحد منا دون اختيار.

لم أخرج خلال ثلاثة أيام. ينصرفن في الصباح إلى الحمام. في المساء يعدن نظيفات، معطرات، مكحلات ومسوّكات. السبتاوي وعبد السلام يخرجان معاً وأفضّل أنا البقاء نائماً أو حالماً في يقظة بذكرياتي في طنجة وتطوان ووهران. في الليل يصير للحياة طعم الخلود.

لم أنفق سوى ثلاثمائة بسيطة. أحياناً تأتيني عزيزة، أم عبد السلام، لتحدثني عن حياتها وتشرب وتدخن سجائر شقراء. أحياناً تدخن الكيف. في المساء الرابع لم يعد عبد السلام والسبتاوي. طلبت مني أن أخرج لكي أفتش عنهما. دختُ وعرقتُ عندما خرجتُ من الدار. بعد ساعتين عدت. أخذتْ تنتحب متسائلة:

- لا بدّ أن يكون رجال الشرطة قد قبضوهما؟

لم أعرف كيف أجعلها تطمئن. بين حين وآخر أردّد برتابة:

- أتمنّى ألاّ يكونوا قد قبضوهما.

ظلّت تتردّد عليّ حتّى الواحدة صباحاً حاملة في كل مرّة كأساً ملأى بالكونياك. تارة تنتحب وتارة تضحك.

قالت:

- هناك في الأسفل فتاة ستنام وحدها هذه الليلة. هل تريد أن تنام معك؟ لا تدفع لها شيئاً. أنا سأتفاهم معها.

ابتسمت لها. شربت كأسها دفعة واحدة. نهضت. انحنت عليّ.

أمسكت ذقني في يدها وباست فمي بلذّة. قالت:

- إنك تذكّرني بأخي «سلاّم».

لأوّل مرّة أرى امرأة سكرانة.

خطت خطوات خارج الغرفة ونادت على الفتاة:

- ياسمينة، اطلعي!

سمعتهما تتهامسان قرب الباب. لا بدّ أنها توصيها بي. دخلت الفتاة، خجولة، لابسة قفطاناً. رائحة عطرها قوية. قالت:

- مازال البرد شديداً رغم الأمطار الغزيرة التي سقطت.

صببت لها الكونياك بالليمونادا. أخذت ترشف من الكأس رشفات صغيرة. لم نتكلم كثيراً. خفّف حضورها مللي. أمسكت يدها في يدي. قالت لها عيناي وبسمتي:

- أنا لا أفهم كثيراً من الأشياء. وأنت يا ياسمينة؟

قالت عيناها وبسمتها:

- أنا كذلك لا أفهم كثيراً من الأشياء في هذا العالم.

نظرت إلى المصباح. لا بدّ أن نطفئ الضوء حتّى لا نظلّ هكذا مثل أخوين.

6

صالحني الجيران مع أبي. بدأت أساعد أمي في الدكان بانتظام. حتّم عليّ أبي ألا أخرج للسهر في المقهى. إنه عذاب لا يحتمل ألا أخرج في الليل. إن الليل هو كل ما أملك ما دمت أقضي النهار في الدكان مع أمي.

ذات صباح، وقف أمام الدكان شرطيان سرّيان: مغربي وإسباني. قال لي الشرطي المغربي:

- تعال معنا.

فكّرت في عبد السلام والسبتاوي. رجوت من ابن بائعة النعناع قبالة دكاننا أن يبقى مكاني في الدكان حتّى أعود أنا أو أمي من مخازن الخضر. قاداني إلى مركز الأمن. قال لي الشرطي المغربي في المخفر:

- أين عبد السلام والسبتاوي؟

- لا أعرفهما.

- كيف لا تعرفهما!

- لا أعرفهما.

صفعني مرتين وشدّني من قميصي على صدري:

- اسمع، إذا لم تقل لنا الحقيقة سنقلب لك وجهك إلى الوراء. أتفهم أم لا؟

أطلّ الشرطي الإسباني من مكتب وقال:

- أدخله.

عندما دخلت تطلّع إليّ الضابط وقال:

- أهاه! أنت هو إذن.

كنت أعطي لابنه خوليو، في عين خباز، العصافير التي تخنقها مصايدي، لأني كنت أعتبرها جيفة. كانت زوجته تسخّرني عند البقال وأصحبها أحياناً إلى السوق لأحمل لها السخرة.

- أين تسكن أسرتك الآن؟

- في حي الطرانكات.

- هل ما زالت أمك تبيع الخضر؟

- نعم.

- وأنت، ماذا تعمل؟

- أساعدها في الدكان.

- لكنك أيضاً تصاحب بعض النشالين وتسرق معهم.

- أبداً.

- ألا تعرف عبد السلام والسبتاوي؟

- أراهما في قهوة الطرانكات. لكني لا أصاحبهما.

- ألا تعرف أين يمكن أن يكونا الآن؟

- لا أعرف.

- منذ كم لم ترهما؟

- منذ أكثر من أسبوع.

- آي يايايای!

بعد لحظة قال:

- طيب، يمكن لك أن تنصرف، لكن إحذر أن يقبضوا عليك يوماً ما مع اللصوص.

شكرته وخرجت. خارج المخفر بدأت أبصق بين الحين والآخر نجمات من الدم الذي كنت أبلعه وانا اجيب الضابط «ألفا» (Alva) كما كنا نسمّيه في عين خباز.

في المساء وجدني صديقي التفرسيتي في مقهى الطرانكات أدخن الكيف مهموماً. فاحت منه رائحة النشوة. ألحّ عليّ أن أصحبه إلى سهرة سيقيمها أخوه الأكبر في أحد بساتين «كيتان» عند صديق له. اشترى التفرسيتي زجاجتين من نبيذ مالقة الحلو. ذكر لي أنه حضر عدّة مرات مثل هذه السهرة التي سنذهب إليها. يقيمونها مرّة كل سبت في ذلك البستان.

- حينما يسكرون ينهضون إحدى الفتيات لترقص لهم عريانة.

تعجّبت:

- ترقص عارية تماماً؟

- وأكثر من هذا.

- ماذا أكثر؟

- اترك ذلك حتّى تراه بنفسك.

ركبنا سيارة أجرة. كان التفرسيتي قد أصبح له رأسمال. يبيع الخضر والفواكه لحسابه. ذكر لي، في زهو، أنه يسكن مستقلاً عن أبويه وله عشيقة جميلة طلقت بعد ثلاثة أشهر من زواجها.

نزلنا. سألته عن موقع البستان. قال:

- بعد دقائق سنصل.

الليلة قمراء والجو دافئ.

- إنها تحبّني. تستطيع أن تقتل نفسها إذا طلبت منها ذلك. أحياناً

أضربها حتّى أدميها. تذهب غاضبة فأقول لنفسي: هذه آخر مرّة. إنها لن تعود، لكنها تعود بعد يوم أو يومين.

- وهل تحبّها أنت؟

- أووه، لا أدري. لقد آلفتها. إذا كانت الألفة هي الحب فإني أحبها.

- لماذا تضربها إذن؟

توقفنا. فتح زجاجة وشربنا منها بالتناوب بعض الجرعات.

- أعتقد أنها تجد لذّتها عندما أضربها. إنها تشاكسني. تفعل ما أنهيها عنه.

فكرت: لقد أصبح التفرسيتي يتصرّف كرجل مع المرأة. قلت له:

- إنك محظوظ.

- لماذا؟

- لأنك لك امرأة تأتيك متى تشاء وتضربها متى تشاء.

ابتسم وقال مزهواً:

- أنت أيضاً ستكون لك امرأة.

- ربما.

- أنا أضمنها لك.

فكرت: التفرسيتي صار يضمن لنفسه ولغيره. «بالمال يستطيع الإنسان أن ينكح العالم». هذا ما قاله حشاش في مقهى الطرانكات.

اقتربنا من المكان. سمعنا موالاً وتوقيعات على المندولينا. قال:

- لقد بدأوا.

توقفنا قدام باب من الخشب. دفعه فتراءت لنا أضواء فوانيس. سمعنا صوتاً:

- من هناك؟

ردّ عليه التفرسيتي:

- أخو التفرسيتي.

صوت جميل لشاب يموّل:

يـا لـيـل طُـلْ أو لا تَـطُـلْ   لا بـدّ لـي أن أسـهـركْ
لـو بـاتَ عـنـدي قـمـري   مـابِـتُ أرعَـى قـمـركْ

رجال ونساء، جالسين تحت شجرة. البستان يعبق بروائح الزهور. رائحة مسك الليل قوية. قلت لنفسي: «هذه جنة». الأرض مفروشة بالزرابي والوسائد. رحّب بنا أخو التفرسيتي. أعطيناه الزجاجتين. قال:

- نبيذ موسكاطيل. عظيم.

جلسنا. كنا نحن الاثنين أصغرهم. كانوا قد شربوا. همس شاب في أذن فتاة. قامت واختفت بعيداً عنا. امرأة في حوالي الثلاثين تصبّ الخمر. بدأ عازف المندولينا لحن الرقصة يصاحبه شاب بالدربوكة وفتاة بالدف. صاح صوت الشاب الذي كان قد همس في أذن الفتاة:

- أنيسة! أنيسة! أنيسة!

تعالت أصوات بنفس الاسم. جاءت أنيسة في مشية راقصة. ترقص وتوزع علينا بسماتها. لم تكن تلبس سوى غلالة شفافة بلا رافعة للصدر. إن الشيطان يرقص الآن في جسدها. شيطان سكران. همس في أذني التفرسيتي:

- هل سبق لك أن شاهدت من قبل مثل هذا المنظر؟

- أبداً. حتّى في السينما لم أشاهد فتاة ترقص ونهداها شبه عاريين مثل هذه.

- ها أنت ترى. أتمنّى أن يفعلوا لها مثلما فعلوا لها في إحدى هذه السهرات. لقد أجلسوها عريانة في جفنة كبيرة وصبّوا عليها غرافتين من النبيذ الإسباني ثم راحوا يملأون كؤوسهم ويشربون.

كلمات الصنعة الأندلسية تقول:

يا ليلة حزتِ الجمالْ   والسعدُ أقبلْ
لَكِ المفاخر والكمال   والعزُّ أجمل
بلغتُ قصدي والآمال   في البدر الأكمل
جاد بانشراح وقْتُنا   والبعد ممنوع
الفرح أقبل والهنا   والشمل مجموع

7

صرت أفكر: إذا كان من تمنّيت له أن يموت قبل الأوان فهو أبي. أكره أيضاً الناس الذين يشبهون أبي. في الخيال لا أذكر كم مرّة قتلته! لم يبقَ لي إلا أن أقتله في الواقع.

رفضت عشاء أشتهيه. السينما تناديني. فيها أنسى همومي. سآكل الدجاج بالجلبانة في خيالي. يدي ترتعش حين أمزق شريحة لحم أمامه. لماذا يحدجني بسخط؟ آكل بحذر مثل قط. أناهُ حاضرة حتّى في غيابه. إرادته هي اختيارنا. لهذا السبب أفضّل أكل حصتي على انفراد. ينبغي لك ألا تتناول طعامك وحدك. إنها عادة سيئة. «ليست أسوأ من حضور أبي» هكذا أجيبها في خيالي.

أبي أقرب منا إلى الإله وأقرب إلى الأنبياء والقديسين. كثيراً ما تمنّيت لو أنني أتصور طعاماً فأشبع. لقد جعلني أرتاب في كل ما يقدّم لي من طعام وأشياء أخرى.

- أبوك لن يتغدى معنا اليوم. اجلسْ إذن على المائدة وكلْ.

- لا أريد.

- اجلسْ وكلْ أقول لك.

أصرخ:

- كلا. هل تفهمين؟

- لماذا؟

- تعشيت دجاجاً بالبصل والزبيب واللوز.

- أين؟

وضعت سبابتي على جبهتي:

- هنا.

- إنك مجنون. احذر أن يدخل ويجدك تأكل وحدك.

حبي لها يمتزج بكراهيتي لأبي.

دخل. ها هو الآن قد حضر كوجبة الكرشة التي أشمئز منها منذ أن مات خالي ورأيت الناس يأكلونها بعد الجنازة.

- لماذا لا تأكل؟

- شبعان.

- كذاب. أنت لا تشبع. لا أريد أن تشبع كما تريد أنت.

- احلف أني الآن شبعان.

- أنا أعرفك جيداً يا ابن هذه القحبة.

- يعرفني الناس إذا كنت قحبة.

صفعها. صرخ في وجه أمي وأختي:

- توقفا أنتما عن الأكل وإلاّ سأجعلكما تأكلان الخرق.

قال لي:

- وحدك ستأكل كل هذا الطعام. (وحدك. ستأكل كل شيء. وحده، وحده، وحده...)

قلت حتّى لا يبدأ في ضربي:

- نعم، نعم.

- ابدأ إذن.

اعترضت أمي:

- هل جننت؟ ستقتله.

- فليمت وبعده أنت.

تتوسّل إليه وهو واقف ونحن جالسون. بدا لي مثل عملاق يتحكم في الأقزام. نحن كنا أغنامه. يستطيع أن يبدأ بذبح من يشاء. أختي أرحيمو منكمشة على نفسها وأمي تبكي.

- بعد اليوم لن تعاف ما يُقدَّم لك من طعام.

صفعني. هدهدتُ بلساني باطن شفتي السفلى. انسلاخ مؤلم.

- حتّى الجيفة لن تعافها بعد اليوم.

فمي يمتلئ بمسيل دام دافئ، مالح وحلو. أحسُّ بتفاعل يُوسع معدتي. بدأت آكل. كراهيتنا تتعمق. لو كنت أقوى منه لجعلته يأكل الحلفاء.

أفقتُ في المستشفى المدني. أتنفس ببطء. غسلوا لي معدتي وانا في غيبوبة. المغص يمزق معدتي.

صوته:

- أين هو؟

- نائم.

- سيتعشّى معنا.

- إنه متعب. اشتغل معي كثيراً في الدكان.

تضلّله. هذا ما لا يجعلني أكرهها كما أكرهه أو أتمنّى موتها كما أتمنّى له.

سمعته يتكلم وحده. لم أستطع أن أتراجع. لقد أحسَّ بدخولي. وجدته جالساً وحده. سحنته شرسة. تجعدتْ أساريره حين رآني. الغائبون حاضرون أيضاً في حضوره. يلعننا حاضرين وغائبين. يستحضرنا وقتما يشاء هو. إنه كالإله. من أعطاه هذه القوة؟

- أين أمك؟

- تشتري السلعة من المخازن.

- من تركت في الدكان؟

- أرحيمو.

- وأنت؟

- لم ترد أمي أن أصحبها إلى المخازن.

- وتجيء الآن إلى الدار لتأكل.

- أبداً.

- وإذن؟ أنا أعرفك. تحسبني ذهبت إلى ساحة «الفدان». إنك لست إلا ولد قحبة. ألا أقول الحق؟ تأمّل جيداً وجهي. (أنا خافض رأسي). كأنني لم ألدك. ربما نام مع أمك رجل آخر. يثق الإنسان في الشيطان ولا يثق في النساء. أرى انك لا تشبهني في شيء. ربما تشبهها هي. أولادُ القحاب يشبهون أمهاتهم. إنها دائماً تدلّلك. تتواطآن عليّ. كلاكما يحاول أن يدافع عن الآخر. لا تباليان أبداً بما أقوله. أليس حقاً ما أقوله؟ تكلّم أيها الملعون. أعرف أنك تكرهني. تتمنّى لو أني أموت. (فكرت: ها أنت بدأت تقول شيئاً معقولاً). تحبها. لا تحب إلاّها. (فكرت: هي لا أكرهها. أما أنت فمن يحبك في هذا العالم؟) أرى هذا الحب في عينيكما معاً. تدلّلك كما لو انك ما زلت ترضع منها. حليبها لا يزال بين أضراسك. هي أمك. لكني أنا أبوك. إذا كان هناك من يجب أن تطيعه فهو أنا. لا أحد إلا أنا. الطاعة لي وحدي ما دمت حياً. أتسمعني؟ (أسمعك يا خليفة الله في أرضه التي يحكمها آباء مثلك). لكن الكلام معك لا يجدي في شيء. تعتبرني غائباً حتّى حين أكون حاضراً. أتسمعني أيها المسخوط؟ (أسمعك يا ولي الله). إنك لست إلا عضاض ثدي أمك.

ظللت ماثلاً أمامه كما يريد لي هو أن أكون.

- ماذا جئت تفعل هنا بالضبط؟

- أمي أرسلتني.

- لماذا؟

- لأنظف الغرفة.

- إنك تذكّرني بجميع الكذابين. إنها لا تتركك في الدكان لأنك تسرقها وتشاكسها. لا تصحبك معها إلى المخازن لأنك تأكل هناك متاع الناس. الباعة والحمّالون يقولون لي عنك كل شيء. تحشو جيوبك بالفاكهة. ما زلت أفكر كيف ينبغي لي أن أتخلص منك. (وأنا أيضاً أيها الأحمق..) إني أكرهك. (وأنا أيضاً أيها المجرم). الآن اخرجْ إلى الدكان. احرسْ مع أرحيمو حتّى لا يسرقها الأطفال.

هبطت الدرج أرتعد. لن أتخلف عن الذهاب إلى السينما هذا المساء. «إنه متعب. اشتغل كثيراً معي في الدكان». تضلّله. هذا يمنعني من كراهيتها.

صعدت إلى السطح بحذر. إنه الآن صامت. ربما يحشو فمه بلقمة كبيرة. إنه يأكل كوحش.

ألتفت ورائي وأنا أربط الحبل. انبثق شبحه.

- إلى أين أنت ذاهب يا ابن الحرام؟ تعال. إلى أين؟

ارتميت بلا تردّد على أسلاك الكهرباء الغليظة. سمعته يسبّ. يتوعدني بيديه المطبقتين على عنقي في الفراغ.

- حدست هذا.

بصيرتي إلى أسفل. دخْتُ. سيخرج من المنزل ويتلقّفني. سيعجنني. عقله مريض. تنفستُ بعمق. هويتُ مغمضاً عينيَّ. تكوّرت فوق الحجارة والزبل. شيء حي خبط تحت رجلي:

- رأسي! من أنت؟ سارق؟ اقبضوه. قف هناك. . !

كل ما أدوسه ينزلق تحت قدميَّ الحافيتين. لا أميّز بين البطيخ الأحمر والأصفر والرؤوس إلا عندما أسمع صراخاً تحت قدميّ. صاح العساس الإسباني الذي جاء قادماً.

- آيه! قف هناك! تعال هنا!

جعلت الشيخ الإسباني يشطح مهدداً إيّاي بهراوته.

- أقول لك تعال! اللعنة عليك!

سمعت زعيق صفارة الحارس. شبح أحدهم يركض يائساً في القبض عليَّ. خمسة أو ستة منهم يتابعونني بحركات وإشارات.

حمل إليّ السكون دمدماتهم المتلاشية. كففت عن الركض. لكني خشيت أن يعترض طريقي أحدهم من الجهة الأخرى. ربما يكون أبي الملعون بالذات. استأنفت ركضي بأقصى سرعة. فكرت: سأظلّ أجري حتّى أتهاوى. حتّى أسقط مثل كرة من البلاستيك يثقبها طفل.

في السينما أشعلت سيجارة. أهدهد بيدي بناني الدامية. تخيّلت يديّ أبي تطبقان عليّ. إنه في خيالي كغريم البطل على الشاشة الآن. أنا البطل. ضغطت على الزناد: طراطا طاط. . . طرا طاطاطا. . طران. أبي يموت. الرصاص يبرد في قلبه ومخّه. الدم يسيل منه كما يسيل دم عدو البطل على الشاشة الآن. أطرافه ترتعش لآخر مرّة. مات أبي في خيالي كما مات خصم البطل على الشاشة. هكذا تمنّيت دائماً أن أقتله.

بعد خروجي من السينما اتجهت إلى ساحة الفدان. جلست على المقعد الجرانيتي مستعيداً قتل البطل لغريمه. أبي يتمرّغ في دمه وأنا أنظر إليه بانتصار. أطفال وشبان وشيوخ نائمون على الأرض وفوق المقاعد كالأسماك الميتة على الشاطئ. حين يصل شخص يختار مكانه ثم ينبطح وينام. معي خمسة وسبعون بسيطة. لففتها جيداً وطمرتها في

التراب، قرب ساق وردة خلف المقعد الذي سأنبطح عليه. نمت. حلمت أن أبي يطاردني. أحسست بيد تفتش جيوبي. لم أتحرك. تركت عينيَّ نصف مغمضتين. الشخص أكبر مني. إذا أراد أكثر من تفتيشي فسيكون لي معه شيء آخر. انقلبت ببطء على ظهري لأساعده على تفتيش جيوبي. انصرف. رأيته يُحوِّم حول نائمين آخرين. حلمٌ ينتهي في تطوان وحلم يبدأ في طنجة. كنت ما زلت في تطوان وأنا أضيع في شوارع طنجة.

8

أفقتُ مذعوراً. الغلام يهزّني من كتفي ويقول لي:

- قمْ! البوليس! البوليس!

اختفت الستون المتبقية معي من جيبي ونزعوا لي حذائي دون أن أفطن. قلت للغلام ونحن نجري:

- سرقوني.

- كم؟

- ستون بسيطة.

- يخلفها الله.

خفّفنا سرعتنا. أضاف:

- أنت محظوظ.

كنا نلهث.

- ماذا تعني؟

- إنهم يغتصبون إذا لم يجدوا ما يسرقون.

قصدنا مقبرة بوعرقية. سألته:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- اتبعني واسكت. لا تخف من شيء.

دخلنا عالم الصمت الأبدي. فكرت: هنا مدفون أخي عبد القادر.

حين يموت أبي سأزور قبره لكي أبول عليه. إن قبره لن يصلح إلاّ لمرحاض.

مشينا فوق القبور. وقفنا قدام مقبرة عائلية مسورة. قفز الرفيق فوق السور. قال:

- اقفز، ماذا تنتظر؟

قفزت. أخذ يفرش الأرض بقطع كبيرة من الورق المقوّى كانت متراكمة في زاوية. قال:

- هذا مكانك.

ثم شرع يفرش مكانه. تقرفصتُ وذراعاي على ركبتيَّ. جلس وسألني:

- من أين أنت؟

- ريفي.

- وعائلتك؟

- في تطوان.

- تسكنون هناك؟

- كنا نسكن هنا في طنجة ثم انتقلنا إلى تطوان.

- هربت؟

- نعم.

- حتّى أنا هربت.

- من أين أنت؟

- من «جبل حبيبي».

فكرت: هو جبلي إذن.

- لماذا هربت؟

يبحث عن شيء في جيبه.

- طردتني زوجة أبي.

- وأمك؟

- ماتت.

أخرج عقبين. سألني إن كنت أدخن. قبلت العقب. شممته: رائحة تبغ أشقر. أشعل لي. سحبت نفساً عميقاً. سعلت ثم غمرني ارتخاء لذيذ. حلقي ناشف. سألته:

- هل تعرف تطوان؟

- ليس كثيراً. هربت إلى طنجة بعد أن سكنّا في تطوان حوالي شهرين.

- ماذا يعمل أبوك؟

- حمّال. وأبوك أنت؟

- لا شيء. كان جندياً في الجيش الإسباني ثم هرب. قبضوه وحكموا عليه بسنتين. من يوم أن خرج من السجن وهو يهش على الذباب في ساحة الفدان.

- ومن يعيل أسرتك؟

- أمي تبيع الخضر والفواكه في حي الطرانكات.

- وأنت، ماذا كنت تعمل؟

- أحياناً كنت أساعد أمي في الدكان وأحياناً أحترف أعمالاً أخرى.

- ولماذا هربت؟

- كان أبي يضربني كثيراً. أحياناً كان يعلّقني من رِجلي إلى فرع شجرة ويضربني بحزامه العسكري. كنا نسكن في عين خباز في ذلك الوقت.

- أنا أيضاً كان يضربني أبي عندما تشكوني إليه زوجته.

- وهنا. ماذا تعمل؟

- حمّال. وأحياناً أسرق.

بعد لحظة قال:

- أنا متعب، سأنام.

كانت حوالي الواحدة بعد الزوال عندما هبطت الميناء. كنت حافياً. جد متعب. شربت كوب ماء في أحد مقاهي الميناء. رأيت هناك كشكاً لبيع البيصر. بسيطة واحدة وأشرب فنجان بيصرة. أحسست بوجع قاس في معدتي ماشياً تحت شمس كاوية. جنون الجوع والقيظ يفقدانني رؤية الأشياء في وضوح. التقطت سمكة صغيرة جافة ومُداسة. شممتها. رائحتها مقيئة. سلختها. مضغتها باشمئزاز. طعمها نتن. أمضغها وأمضغها دون أن أقوى على بلعها. حجارة ناتئة تؤلم أخمص قدمي. أمضغ السمكة كعلكة. تفلتها. رائحتها بقيت في فمي. ألوك فراغ فمي. ألوك وألوك. أمعائي تبقبق. تبقبق وتبقبق. دختُ. دختُ وتدفّق الماء الأصفر من فمي وأنفي. تنفست بعمق. قلبي يخفق بعنف. بصلة ويزول هذا الدوار. العرق يسيل على وجهي، يسيل ويسيل. فكرت في الرفيق الذي أنقذني ليلة أمس من دورية حملة القبض على المتشردين. لماذا لم يوقظني في الصباح؟ ربما حاول فلم أستيقظ. لم يعرف أحدنا اسم الآخر.

صياد يأكل فطيرة محشوة. آكلها معه في خيالي. يستند على حافة مركب الصيد وأنا متعباً أنظر إليه لعله يرمي شيئاً وآكل. قرد مربوط إلى صاري المركب يمسك بين يديه شيئاً يحاول بعصبية أن يكسره بأسنانه. تمنّيت أن يكون ذلك الصياد يمضغ بلا طعم كما كنت أنا أمضغ سمكتي النتنة. ينظر شارداً إلى مباني طنجة القديمة. قلت له في خيالي: «ارمِ خبزك كما رميت أنا السمكة النتنة». ناداه رفيق في المركب. رمى الفطيرة إلى الماء ثم ذهب إليه. انبجس طعم الملح لذيذاً في فمي.

أحسست بلذة تنعش جسدي الرخو. تعبي يخف. نزعت قميصي وسروالي وقفزت إلى الماء. طفوت تحت قطعة الخبز. ضحك الصياد. رفعت رأسي إليه. قبضت على الشطر وفتته في قبضة يدي. قِطَعُ الخراء تعوم حولي. بقع من زيت المراكب. سبحت نحو السلم الحجري. قطع أخرى من الخراء والخبز تطفو أمامي. اختلط في ذهني الخبز بالخراء. تسرّب الماء القذر إلى حلقي. اختنق تنفسي. صعدت درجتين. انزلقت وسقطت في الماء. الماء يتسرّب إلى حلقي. صعدت ناشباً أظافري في الصخر حتّى دَمِيَ بعضها. عندما بلغت آخر درجة تخيّلتني أسقط مرّة أخرى. جسمي مدبق بزيت المراكب. في أذني صمم. التقطت قميصي وسروالي وانصرفت. ناداني الصياد. التفتُّ إليه. لوّح لي بيده أن أعود. قهقهاته تخفت شيئاً فشيئاً. ناداني:

- ايه! يا ولد. تعال هنا. إنه فقط مزاح. تعال. هاك خبزاً آخر.

قال الصياد الآخر فوق المركب:

- مسكين الولد، مسكين!

لم ألتفت مرّة أخرى إليهما. رأيت في الطريق بعض الأسماك الصغيرة المداسة. سمعت سقوطي في الماء. أظافري دامية. رفعت وجهي نحو السماء. إنها أكثر عراء من الأرض، أكثر عراء.

صفعتني الشمس الحارة. أرتعش من العياء. أرتعش وأرتعش. قط يسترخي في اطمئنان في قعدة ظليلة. يتأمّلني ناعساً بلا مبالاة. بطنه البيضاء - السوداء تعلو وتنخفض ببطء. التقطت سمكة أخرى صغيرة جافة، رائحتها أكثر نتانةً من السمكة الأولى. أقيء الماء المالح. أقيء وأقيء حتّى لم يبقَ إلاّ صوت القيء، إلاّ صوته.

قصدت الشاطئ. فارغاً أحسني، رخواً. أتخيّل أني سأسقط ولا أستطيع أن أقوم. لكي أنسى ما حدث رحت أتأمّل خطواتي على الرمل تلعقها الأمواج. رميت قميصي وسروالي على الرمل. أخذت أفرك

جسمي بطحالب البحر والرمل. أفرك وأفرك. شعر رأسي أكثر تدبقاً من جسمي. ظللت أحكّ جسمي وأغوص في الماء حتّى احمرّ جلدي. ظلّ جسمي متدبقاً لكن أقلّ قذارة.

في المساء، بعد تسكع طويل، انبطحت قبالة محطة القطار. فشلت في حمل حقائب بعض المسافرين. كنت ما أكاد أقترب من أحد المسافرين حتّى يصرخ في وجهي أحد الحمّالين:

- ارجع إلى الوراء. امشِ من هنا. امش يلعن الفرج الذي خرأك. عمرتم لنا هذه المدينة السعيدة مثل الجراد.

شتموني، بصقوا عليّ ودفعوني. شاب أقوى مني ركلني وضربني على قفاي، لكني بقيت هناك عنيداً. مرّة واحدة فقط استطعت أن أقنع مسافراً أجنبياً بحمل حقيبته الثقيلة. بينما كنت أحاول حملها هجم عليَّ حمّال قوي، شاتماً إياي. حمل الحقيبة وبقيت هناك. اللعنة على الخبز. القط الذي رأيته في مرفأ مستودع الأسماك ربما هو أسعد مني. إنه يستطيع أن يأكل السمك القذر دون أن يتقيّأ. سأسرق وأتسول، لكني في السادسة عشرة. السبتاوي كان على حق: «التسول مهنة الأطفال والشيوخ العجزة. عيب أن يتسول شاب قادر على السرقة إذا لم يجد العمل». هكذا قال لي.

جلس على مقربة مني شاب. أخرج علبة سجائر سوداء وسألني:

- أتدخن؟

هزت له رأسي وقلت بضعف:

- نعم.

انبعثتْ لدي رغبة في أن أفني هذا الجسد الجاف بأي شيء. حلقي ناشف وقلبي يخفق بوهن.

- ما لك؟ مريض؟

- لا.

اقترب مني وأخذت منه السيجارة. أشعل وقيدة. قلت له:

- شكراً. ليس الآن.

نهض وقال:

- انتظرني حتّى أعود.

شممت السيجارة. إذا دخنتها فسأقيء من جديد دون أن يخرج من جوفي شيء. سمعت هدير طائرة، رفعت عيني إلى السماء، الهدير يتلاشى بعيداً دون ان أرى الطائرة. سمعت صوته يقول:

- هاك. يبدو أنك جائع.

اللفافة كانت قد سقطت من يدي. غفوت إذن. مدّ لي نصف خبزة محشوة بالسردين المصبر. رأيت في يده زجاجة نبيذ. أخرج من جيبه كأساً صغيراً وملأه. شربه وعمّره ثانية. سألني رافعاً الكأس إلى فمه:

- من أين أنت؟

- من الريف.

شرب كأسه. لحس شفتيه بلذة.

- متى جئت إلى طنجة؟

- البارحة.

- وأين تنام؟

- في الشارع. في أي مكان أستطيع النوم فيه.

أكلت بلذة. بعض اللقمات أبلعها دون أن أمضغها. عمّر الكأس ومدّها لي. شربت الكأس دفعة واحدة. الأشياء بدأت تستعيد صفاءها في ذهني. دخنت وشربت الكأس الثانية. عندما شربت الكأس الثالثة قال لي:

- هل تريد أن تنام في بيتي؟

تطلّعت إليه. عيناه ليستا بريئتين. اللعنة على مثل هذا الإحسان!

- بارك الله فيك. لي عمّ يسكن في عين قطيوط. سأفتش عن داره وأنام عنده.

- كما تريد.

نفض الكأس ووضعها في جيبه ثم نهض وقال:

- إلى اللقاء. اعتنِ بنفسك.

لم أحقد عليه. لقد أسْكَتَ عصافير بطني. نهضتُ ومشيت في شارع النخيل. المطاعم غاصّة بالناس. رائحة الشواء في الهواء. نسيم المساء ينعشني. الأشياء تصفو أكثر فأكثر في ذهني. الرجال يغازلون مؤخرات النساء الجميلات. توقفت سيارة حذاء الرصيف الذي أمشي عليه. عجوز يشير لي أن أقترب منه. اقتربت من السيارة. فتح الباب وقال بالإسبانية:

- اركب!

ركبت إلى جانبه. ماذا تريد مني؟ هذه هي المرّة الأولى التي أركب في سيارة فخمة مثل هذه. يقود ببطء. قلت له بالإسبانية:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

قال راسماً بيده حركة دائرية:

- جولة، جولة قصيرة.

إنه أيضاً يريد مني شيئاً غير عادي لكن لا خوف منه. أستطيع أن أدافع عن نفسي إذا لم يعجبني ما يريده مني. سألني:

- من طنجة؟

- أنا من تطوان.

كنا نتجه إلى إحدى ضواحي المدينة. إنه «حساس». هذا لا شك فيه. أوقف السيارة في مكان مظلم. في طريق مشجرة. المدينة خلفنا

متلألئة. أشعل ضوء السيارة. ها هي الجولة القصيرة تتوقف هنا. لامس فتحة سروالي بحركة لطيفة. الجولة الحقيقية تبدأ. يفكّ زراً تلو زر بمهل. أضاء ضوء السقف وانحنى عليه. أنفاسه تدفئه. لحسه ثم أدخل نصفه. أخرجه وادخله وشيئي يزداد انتصاباً. لم أجرؤ أن أنظر إلى وجهه:

– برافو! برافو! ماتشو! Macho

يلحسه، يمصّه، يهيّج منبت خصيتي بأصابعه. أحسست بأسنانه وإذا هو عضّه من كثرة اللذة! لكي أسرع في القذف تخيّلتني أغتصب أسية في تطوان. قذفت في فمه. همهم مثل حيوان بلذة. أخرج منديله ومسح فمه الذي كان يقطر بحليبي. وجهه محتقن. عيناه جاحظتان، شفتاه مرتخيتان.

زررت فتحة سروالي. شبكت ذراعي حول صدري كأن شيئاً لم يحدث. إن النساء كثيرات. لماذا هو الإنسان لوطي؟ هكذا فكرت.

أخرج علبة سجائر ومدَّ لي منها سيجارة. أشعل لي ولنفسه. فتح الراديو. انبعثت موسيقى هادئة، جميلة. ارتخى على مقعده وأخذ ينظر حالماً من خلال واجهة السيارة. أعجبني الفصل الموسيقي. أنا أيضاً ارتخيت وفكرت في وهران وعملي مع مونيك الجميلة. إنها اليوم مجرّد اسم. قد أذكره وقد لا. الفرح والحزن يتصارعان في نفسي. تملّكتني رغبة في البكاء. ماذا أفعل مع هذا العجوز الذي مصّني؟ سأحقد على نفسي والناس إذا ظللت هكذا.

في طريق عودتنا لم نتكلم. أعطاني خمسين بسيطة وأنزلني قرب المكان الذي أخذني منه. صافحني قائلاً:

– إلى اللقاء.

يده ملساء. رخوة. شيعته بيدي قائلاً:

- إلى اللقاء.

استنشقت هواء مشحوناً بدخان سيارته. حوالي خمس دقائق يمصّون خلالها للواحد شيئه ويعطونه خمسين بسيطة. هل كل من هم مثل هذا العجوز يمصّون؟ حرفة جديدة تُضاف إلى الحرفتين الأخريين: التسوّل والسرقة. أخرجتُ ورقة الخمسين بسيطة وفحصتها. أعدتها إلى جيبي. إن شيئي يمكن له أيضاً أن يرتزق ليُعينني على العيش. يمكن له أيضاً أن يتلذذ. أذلك العجوز يجد في مصّ أزباب الناس نفس اللذة التي أجدها أنا في مصّ صدور النساء؟ ما زال دافئاً ولزجاً يقطر بين فخذي. هكذا يقحب الناس إذن.

في السوق البراني دخلتُ مطعماً صغيراً قذراً. طلبتُ صحناً من السمك المقلي ونصف خبزة بيضاء. قبالتي رجلان. يبدو عليهما أنهما يعملان في أشغال البناء. فوق الطاولة الجالس إليها إبريق من الصفيح كان من قبل صفيحة زيت السيارات. نشرب منه ماءً دافئاً ثلاثتنا بالتناوب. تنبعث من داخله رائحة كريهة. حول الطاولتين الأخريين أشخاص آخرون يائسون. كلنا نأكل بصمت. رنين الملاعق والصحون وأدوات الطبخ وصوت المطعمي يأمر الغلام الخادم أن يفعل عملاً ما أو يتركه. أحياناً تسمع تجشؤات الذين انتهوا من الأكل تعقبها: «الحمد لله» ممددة الصوت.

دفعت لصاحب المطعم أربع بسيطات وخرجت. تلاشى عيائي. امرأة جميلة تمرّ وهو ينتصب. أغانٍ مصرية ومغربية تُسمع من المقاهي والمطاعم. قرب مقهى وقف شاب سكير، عاري الصدر، يجدف على الله بصوت صارخ ناظراً إلى السماء. خرج شابان من المقهى وأحنيا له رأسه وصبَّ عليه أحدهما جرّة ماء ثم سحباه إلى داخل المقهى. الشابان أيضاً يترنحان. أيكون الغلام الذي أنقذني أمس في المقبرة الآن؟ إذا لم أجده فهل أستطيع أنا أنام هناك وحدي؟ اشتريت من البقال

خمس سجائر «فيليب موريس» مفردة. حينما اقتربت من مدخل المقبرة فكرت: إن المقبرة هي المكان الوحيد الذي يمكن للواحد أن يدخل من بابه في أية ساعة يشاء، نهاراً أو ليلاً، دون أن يطلب من أحد إذناً بالدخول. معهم الحق، لماذا الحارس؟ ليس فيها أية ثروة. إن الموتى لا يتاجرون، لا يخافون، لا يحزنون ولا يتخاصمون، كل ميت في مكانه. حين يتهدم قبره يدفنون مكانه ميتاً آخر. إذا كان العالم قديماً فإن الأرض كلّها قبور.

قِطَعُ الكرتون ما زالت متراكمة في مكانها. هل قبضوه؟ فرشتُ مكاني. ربما يجيء. أشعلت سيجارة. فتلت ثلاث وقيدات وأدنيتها من الشاهد الرخامي. استطعت أن أفهم من الأرقام أن الميت (لم أعرف أهو رجل أم امرأة؟) قد عاش 51 عاماً. هناك أيضاً نجمة سداسية. نجمة يهودية على قبر مسلم يا للغرابة! ما معنى أن يعيش الإنسان ثم يموت؟ قبور يُعْنَون بها وأنا فوقها. ألهذا معنى؟ عضوي التناسلي يُباعُ بخمسين بسيطة. ما معنى هذا؟ الأسئلة كثيرة، لكني لا أفهم معناها بوضوح. كل ما أعرفه هو أن الحياة يجب أن أحياها. دخنت العقب بلذة ثم أطفأته ونمت.

استيقظت باكراً. غلام جديد ينام في مكان ذلك الغلام الذي أنقذني من حملة المتشردين. تحسّست ما تبقّى من الخمسين بسيطة في جيبي. ما زالت بقية البسيطات في مكانها. كان على حق ذلك الغلام: «ليس هناك مكان أكثر أماناً من المقبرة». أعتقد أن الناس يحترمون أنفسهم أمواتاً أكثر مما يحترمون أنفسهم أحياء.

اشتريت من باب الفحص نعلاً مطاطياً بخمس عشرة بسيطة. قدماي قذرتان ومتعبتان. تناولت إفطاري في مقهى شعبي تفوح منه رائحة الكيف ومأكولات الصباح. دخنت اللفة الأولى بلذة. غالباً ما تذكّرني سيجارة الصباح بتلك التي دخنتها لأول مرّة. يوم جديد مع

قليل من اليأس وكثير من الأحلام. سأسرق في السوق كما فعلت مع السبتاوي وعبد السلام. سأحاول قبل أن ينفذ ما بقي لي من النقود.

دخلت السوق. امرأة أجنبية تدفع ثمن مشترياتها ثم تعيد محفظة نقودها الصغيرة المحشوة بالأوراق المالية إلى حقيبتها. انتبهتْ إلى نظرتي نحو حقيبة يدها. شدّتها بحرص. قالت لي نظرتها اللطيفة: ألا تحشم؟ خجلتُ وخرجتُ من السوق. إنه بؤس العالم يا سيدة العالم. إن الذين يملكون هم أيضاً لا يحشمون. إنهم يشتروننا بأبخس الأثمان. ربما أنت لا تحتاجين أن تبيعي نفسك.

قضيتُ النهار كلّه تبتلعني وتتقيّأني الدروب. كانت أجساد النساء التي رأيتها قد هيّجتني بجنون. دخلتُ مرحاضاً عمومياً واستمنيت على إحدى المؤخرات التي بقيت منطبعة بتشكيلها الجميل في ذهني أكثر من غيرها. في المساء اكتشفت أنه يمكن لي أن أنام في «فندق الشجرة». بسيطة واحدة يدفعها الداخل ثم ينام حيث يشاء. الاصطبل الكبير تغطيه سقيفة من الاسمنت ينام فوقها الناس وتحتها الدواب. مقهى، مطعم، حوانيت، بيوت صغيرة للإيجار، بغايا، دكاكين خضر وفواكه، اصطبل يشبه مدينة صغيرة. صاعداً الدرج إلى السقيفة اصطدمت بسكير. امتدّت يده إلى وجهي ملاطفاً وقال:

- آ، الغزال! فاين ماشي آهذا الغزال؟

أبعدتُ يده بعنف. قفزتُ درجتين صاعداً بخوف. أطلقَ قهقهات:

- كتضرب ياك العايلْ! كتنفر! (يمسك في يده زجاجة نبيذ خاوية). استنني. غادي نمشي نعمر هاد القريعة ونرجع دابا. عندك تمشي.

هبط مقهقهاً وصعدت خائفاً. سمعته يقول:

- جابك الله هاد الليلة. يا لطيف! أنا راجع دابا! والله ما تفلت من يدّي هاد الليلة.

عشرات الأشخاص منبطحون وجالسون فوق أرض السقيفة. أكثرهم ينامون. يشربون، يدخنون الكيف، يثرثرون ويغنون. سكير يضمّ إليه غلاماً ثملاً، يبوسه على خدّه. قال له أحدهم:

– ماشي دابا. خلي العايل عليك. من بعد، من بعد أعمل معه اللي بغيتي. هذي هي البسالة. أتقول عمرك ماشفت العواول.

لن أنام هنا. أفضّل النوم في المقبرة على أن أنام في هذا البورديل. حينما استدرت لكي أهبط سمعت شخصاً يناديني.

– أيه! آذيك الغزال. زيارتنا بركة. أجي تشرب شي كاس معنا، أجي، آش عائدك؟ ماغاديشي ناكلوك.

قلبي يخفق بعنف. يجب أن أشتري سكيناً أو عدة شفرات حلاقة. هبطت الدرج في الظلام الخفيف مسرعاً. توقفت أمام اصطبل الحيوانات. اتّجهتُ إلى ركن وجلست مسنداً يدي على ركبتي متقرفصاً. دخنت واحدة وحلمتُ قليلاً. هل تعمّد الله أن يخلق هذا العالم على هذا الشكل من الفوضى والتنوع؟ رائحة الحيوانات كريهة. على بعد خطوات من مكاني فرس واقفة. شبكت ذراعي فوق ركبتي ونعست. نمت جالساً خائفاً من أن يغتصبوني. أحسست برشاش حار كريه الرائحة يسقيني. انتفضت برعب. شتمت العالم. الفرس تكمش فرجها وتفتحه وتتحرك إلى الوراء. نهضتُ بسرعة وابتعدت عن المكان.

عند الباب سألني البواب:

– هل ستعود؟

قلت له بصوت غاضب:

– كلا، لن أعود إلى هذا المكان القذر.

– ما لك؟ هل فعلوا لك شيئاً؟

– بالت عليّ فرس.

- لماذا نمت بين كوارعها؟ لماذا لم تنم على سطح السقيفة؟ امشِ إلى الحمام. لا تنم قبل أن تغتسل حتّى لا تمرض.

قلت له:

- انصح نفسك.

أقفل الباب من خلفي بصخب. الجو دافئ. الطرق خالية. هل أذهب إلى الحمام كما قال؟ وثيابي؟ بَوْلُ الفرس تسرّب إلى كل جسمي. بدأت أحكّ جسمي. قرب باب المقبرة اليهودية القديمة رأيت ثلاثة مشردين سكارى يشربون ويغنون. ناداني أحدهم:

- آجي! فين ماشي؟

التفتّ بسرعة خلفي.

- آجي أذاك اغزال؟ آجي عندنا تجلس معنا! ما تخاف شي!

نهض مترنحاً قصدني. قال له أحد رفيقيه:

- اتركه عنك. لسنا في حاجة الآن إلى أولاد.

ركضت نحو السوق البراني. التفت فرأيت السكير يعود إلى رفاقه.

اشتريت صابونة من السوق الداخلي. كان عامراً بالسكارى والبغايا واللوطيين والشحاذين. في طريق البحرية، قرب الجامع الكبير، أوقفني شرطيان مغربيان باللباس الرسمي. قال لي الأول:

- أوراقك.

- ليس عندي أوراق.

- من أين أنت؟

- من تطوان.

سألني الثاني:

- أين تسكن في تطوان؟

- في حي الطرانكات.

- في الطرانكات بالذات؟

- نعم، وراء حمام اليهودي.

- هل تعرف مولاي علي؟

- نعم، إنه جارنا، يبيع الخضر قدام دكاننا.

- وماذا تعمل أنت هنا؟

- لا شيء. جئت أبحث عن عمل.

- وأين أنت ذاهب الآن؟

- كنت نائماً في فندق الشجرة وبالت عليّ فرس.

- فرس؟

- نعم، فرس: كنت نائماً في اصطبل الحيوانات وبالت عليّ فرس.

تبادلا نظرة وقال لي الثاني:

- هل تعرف دار الدباغ؟

- لا أعرفها.

- آجي معنا.

عند المنعطف نَعَتَ لي دار الدباغ وقال:

- ادخل هناك. ستجد عيناً ماؤها دافئ، اغتسل جيداً وفي الصباح اغسل ثيابك.

بعد اغتسالي صَوْبنت سروالي وقميصي عافساً عليهما بقدميّ. من المقهى تُسمع أصوات تحتجّ على الغش في لعب الأوراق. خرج رجل من المقهى يترنح وقال لي:

- ماذا تفعل؟ هل أنت أحمق؟ ليس حسناً غسل الثياب في الليل. إنه فأل سيّئ.

أنفاسه جد مخمورة. توقفت عن العفس وقلت له:

- بالت عليّ فرس في فندق الشجرة.

- فرس؟

- نعم.

- هم م م... ! اغسل إذن نفسك وثيابك حتّى لا تمرض. إن الماء يزيل حتّى الجذام.

عندما انتهيت حرت في تجفيف السروال والقميص. عصرتهما ولبستهما وخرجت.

قرب محطة القطار أخذت أتمشّى ذهاباً وإياباً لعلّ ثيابي تنشف قليلاً. أنام في إحدى عربات القطار القديمة غير المستعملة أم أذهب إلى الشاطئ؟ فوق الرمل لن يسألني أحد، لكن في عربة القطار قد يقبض عليّ الحارس الليلي. تذكرت ما قاله ذلك الغلام: «إنهم يغتصبون الواحد إذا لم يجدوا ما يسرقون منه». كان في جيبي أكثر من عشرين بسيطة. لكن قد يسرقون ويغتصبون سواء على عربة القطار أو على رمال الشاطئ. يمكن لهم حتّى أن يذبحوا ضحيتهم. ربما عربة القطار أسلم. قفزت فوق الحاجز. الأحجار الناتئة تؤلم أخمص قدمي. خشيت أن يتمزق قاع نعلي المطاطي - القماشي. سرت بحذر وبطء. قفزت إلى عربة البضائع. أشعلت وقيدة. وإذا اعتدى أحد عليّ؟ نزلت إلى الأرض واخترت حجرين حادين. حين صعدت في المرّة الثانية سمعت حفيف تمزق في سروالي. بصقت شاتماً العالم. استلقيت. وضعت حجراً في قبضتي وتركت الآخر قرب رأسي. لا بدّ لي من شراء سكين. سكين أو شفرات الحلاقة. يجب أيضاً أن أعثر، في هذه المدينة - المتاهة، على مفلس مثلي. ماذا يكون قد حدث لذلك الغلام الذي أنقذني من حملة التفتيش على المتشردين؟

9

كنا في مقهى التشاطو. خسرت آخر فلس في لعبة «العيطة». عندما بدأنا اللعب كان صديقي الكبداني يربح وأنا أخسر. بقي هو الرابح وأنا الخاسر. بقيتْ عندي خمس وعشرون بسيطة حين قال لي:

- ما عندك حظ في هذا اليوم. توقف عن اللعب.

قلت له بجفاف:

- انصح نفسك. أنا أعرف ما أفعله بنفسي وبفلوسي.

كانت حوالي الثانية عشرة والنصف بعد الزوال حين سلف لي الكبداني خمس بسيطات. اشتريت بثلاث بسيطات من الكيف وطلبت شاياً أخضر ببسيطتين.

من خلال شباك السدة أرى السوق الكبير. إنه يوم الأحد. الساحة عامرة بالبائعين الجوالين والمتشردين والمتجولين الذين لا يشترون شيئاً. الريح تهبّ والسماء غائمة. المطاعم والمقاهي والمتاجر المغربية مقفلة. فوق أبواب بعضها رفعت الراية المغربية والراية السوداء. أصحاب بعض المقاهي الشعبية استغلّوا هذا اليوم للقمار. عندما سألت في هذا الصباح التشاطو عن هذه المناسبة الوطنية قال لي بصوته الذي يخرج نصفه من فمه ونصفه من أنفه:

- إنه اليوم المشؤوم.

- ما معنى اليوم المشؤوم؟

- ألا تعرف معناه؟

- لا.

- 30 مارس (آذار) 1912 هو اليوم الذي عقدت فيه الحماية الفرنسية مع المغرب في عهد مولاي عبد الحفيظ. اليوم، 30 مارس 1952 تمرّ أربعون سنة على حماية فرنسا للمغرب. لهذا صار يعتبر 30 مارس اليوم المشؤوم.

- واليوم ماذا نريد نحن المغاربة من الفرنسيين؟

- نريد منهم أن يخرجوا. اليوم تنتهي عقدة الحماية.

- هل نطالب أيضاً أن يخرج الإسبانيون؟

نظر إليّ نافد الصبر قائلاً:

- اسمع، ليس عندي وقت الآن للكلام الكثير في هذا الموضوع. اطلع إلى السدة واستقصِ هناك بعض الرفاق عن هذه الأشياء.

الكبداني كان قد ربح حوالي ثلاثمائة بسيطة عندما أعلن توقفه عن اللعب. قال له اللاعب الأول بغضب:

- أكمل معنا اللعب.

- وإذا لم أرد أن أستمرّ في اللعب. هل أستمرّ معكم بالقوة؟

- نعم أكمل.

- أنا جائع. سأذهب لأتغدّى.

احتجّ الأشخاص الثلاثة تباعاً:

- كلنا جائعون، إلعب معنا.

- وإذا كنت لا تريد أن تكمل معنا اللعب فاقسم معنا ما ربحته لنا.

- نعم، افهم نفسك، هذا هو أحسن حل، إذا لم تكن راغباً في استمرار اللعب.

ضحك الكبداني هازئاً. أخذ من «السبسي» الذي عمرته له. قال الثالث:

- لن تكون النهاية بخير إذا لم تكمل معنا اللعب. لا بدّ أن تكمل معنا اللعب.

صاح التشاطو من أسفل المقهى:

- لا أريد الصداع في قهوتي. اخرجوا إلى الشارع وتقاتلوا.

كان التشاطو قد تخلّى عن قبض فائدة الربح في كل لعبة بعدما انسحب معظم اللاعبين. لقد تركهم يلعبون اللحظات الأخيرة كما هي العادة. سمع صوت صاخب: - أيها الناس! أيها المغاربة المواطنون! إنكم تعرفون أن هذا اليوم هو اليوم المشؤوم. في مثل هذا اليوم، منذ أربعين عاماً، وبالضبط في عام 1912 عقدت الحماية الفرنسية على المغرب ولم نعد أحراراً.

تزاحمنا على شباك السدة. قال الكبداني:

- إنه المرواني الأحمق بائع الأرغفة المقلية الباكستانية.

- ماذا يقول للناس؟

- ماذا سيقول؟ أحمق يهرج على الناس!

- الأحمق هو أنت. إنه يعرف ما يقول.

- يقولون إنه مخبر يعمل مع المخابرات الإسبانية.

- ليس غريباً، لكنه الآن يدافع عن المغاربة.

- ليس من حقنا أن نتّهمه.

- أؤكد لكم أنه يعمل مع منظمة سرّية يموّلها الإسبانيون الذين يريدون أن يلغى النظام الدولي في طنجة ليحكموا فيها وحدهم.

صاح التشاطو:

- كفّوا عن مثل هذا الجدال الخاوي. أنا لا أريد هذه المجادلات

السياسية في قهوتي. اخرجوا إلى السوق وتناقشوا وتصايحوا.

صاح المرواني بصوت صاخب، رافعاً يديه بحركة حماسية في الهواء:

- الجلاء للاستعمار!

الجموع:

- الجلاء! الجلاء!

المرواني:

- عاش المغرب حراً مستقلاً!

الجموع:

- عاش!

المرواني:

- يسقط الخونة!

الجموع:

- يسقط!

المرواني:

- الجهاد في سبيل الله!

الجموع:

- الجهاد! الجهاد يا عباد الله!

صعدت امرأة «جبلية» فوق صندوق خشبي وأخذت تزغرد. تصايحت نساء أخريات.

هبطنا من السدة ووقفنا نطلّ من خلال حاجز المقاعد والطاولات المتراكمة فوق بعضها. قال التشاطو من فمه وأنفه:

- ارجعوا إلى السدة أو اخرجوا.

قفزت فوق الحاجز إلى الخارج. قلت للكبداني:

- أتأتي أم لا؟

تردّد ثم قفز. قال له أحد اللاعبين الخاسرين:

- إرجع إلى مكانك. لا تهتم لما يقوله وجه الزب.

قلت لشاتمي:

- وجه الزب هو وجه أمك.

بصق عليّ. بصقت عليه. رمى عليّ مقعداً. تفاديته. قلت له:

- تفو على فرج أمك.

أراد أن يقفز. التقطت المقعد وأعدته له. تفاداه. لم يتركوه يقفز. قال لي:

- سترى فيما بعد. سأريك من أنا. سأبصق لك في ثقب مؤخرتك عندما أقبضك.

قلت له قابضاً بجماع يدي على أسفل بطني:

- ستقبض لي في هذا.

صرخ التشاطو:

- اخرجوا إلى الخارج وتقاتلوا. اتبعوهما.

انسحبنا أنا والكبداني. كان في جيبي مقشط وشفرتان للحلاقة. كنت متحمساً لاستعمالها. إما أن أخسر وإما أن أربح. هذا ما خططته لحياتي في هذه المدينة الممسوخة.

- إنهم يريدون أن تبقى معهم هناك لعلهم يستردّون منك ما ربحته لهم.

- لست صبياً. أعرف جيداً هؤلاء أولاد القحاب.

- كانوا يخادعونك في اللعب. هل فطنت؟

- فطنت، لكني كنت أتركهم يغشون ما دمت أنا الرابح.

الجموع تتكاثر. رأينا المرواني يشير إلى الجهات التي ينبغي لهم أن يهاجموها. عندما اقتربنا من الجموع قال لي الكبداني:

- معظم هؤلاء الذين تراهم ليسوا من طنجة.

- ومن أين جاءوا إذن؟

- انظر إلى سحناتهم. إنهم من «الريف».

- الأمر دبّره الإسبانيون إذن.

- هذا ما قلته في المقهى.

بدأت الجموع تتجه نحو الحافلات العمومية. كان هناك ركامات من الحجارة وطريق محفرة تعمل فيها الأشغال العمومية. أخذوا يحشون جيوبهم وقلنسوات جلابيبهم بها. تفرقوا في أربعة اتجاهات رئيسية: طريق النظام، عقبة الشاطئ، طريق باب الفحص وطريق السمارين. جماعة هاجمت مركز الشرطة الجنائي بالحجارة. التخريب بدأ في كل مكان عبر السوق. الكبداني وأنا اتجهنا مع الجماعة التي هاجمت طريق السمارين. حجارة تسقط على الشرطي. سقطت خوذته البيضاء. الدم يسيل على وجهه. غطّى وجهه بيد ووضع يده الأخرى على حاملة مسدسه. هرب نحو المخفر. يطاردونه بالحجارة. حجر يهشم ساعة كبيرة ثابتة في أعلى جانب باب متجر هندي. الساعة تشير إلى الواحدة والربع. واجهة متجر الأحذية يكسر. قلت للكبداني:

- لنأخذ بعض الساعات وآلات التصوير.

- كلا.

- لماذا لا؟

- لا نعرف بعد ما سيحدث. من المحتمل أن يلقانا رجال الشرطة ويفتشونا.

- انظر الآخرين كيف يأخذون الأشياء.

- ليفعلوا ما يشاءون. إذا كانوا هم يلقون بأنفسهم في بئر فهل ينبغي لنا أن نلقي بنفسينا معهم؟

واجهات أخرى تكسر.

- إن مثل هذا المثل باطل. هذا جبن.

- اسرق وحدك إذا شئت، لكني سأذهب وحدي.

طلقات نارية في ناحية المخفر الجنائي. قال الكبداني:

- لقد بدأ رجال البوليس يطلقون النار على الناس.

صرخات. هروب. متجر الأحذية «ريكس» تكسر واجهاته. حشد كبير من المتمردين يفرّون نحو مكاننا حاملين الحجارة في أيديهم. صرخات النساء والأطفال. الباعة يتركون دكاكينهم. جذبني الكبداني من ذراعي:

- تعال. أسرعْ قبل أن نقتل هنا.

اختبأنا وراء صندوق صراف يهودي قرب باب السوق. تكسير المتاجر مستمرّ عبر طريق ساحة «بيريث جالدوس». الطلقات النارية تقترب من مكاننا. صرخات وركض. سمعت طلقات قربنا. رفعت رأسي. رجل يتمرّغ على الأرض والدم يسيل من رأسه. شرطي مغربي يجري شاهراً مسدسه في يده بعصبية وحيرة. قال الكبداني:

- إحنِ رأسك ولا تفضحنا.

- انظر من خلال هذا الشق. هل ترى جيداً؟

- إني أرى، لكن اسكت.

الجموع تجري صارخة. طلقات نارية سريعة تقترب منا. أراد أن يختبئ معنا شاب مغربي. دفعناه عنا وقلنا له أن يذهب إلى مكان آخر.

- امشِ بسرعة. مكاننا ضيق.

توقف ثلاثة شبان عن الركض. اثنان ساعدا زميلهما القصير على الصعود فوق سقيفة دكان. طلب منهما أن يختفيا بسرعة.

الطلقات النارية المتتابعة تقترب منا. صراخ وصوت جسم يسقط على الأرض. قلت للكبداني:

- قتلوا واحداً آخر.

- إني أسمع وأرى.

ظهر شرطي حاملاً رشاشاً. قفز الشاب القصير صارخاً فوق الشرطي. رفعنا رأسينا معاً. الشرطي منكفئ على وجهه والشاب فوقه يضربه على رأسه بقبضة يده كما لو أنه يدقّ مسماراً. قال الكبداني:

- هل تعرف ذلك الشرطي؟

- من هو؟

- إنه المفتش بارثيا (Barcia). أبوه مغربي وأمه إسبانية.

نهض الشاب وأمسك الرشاش الذي سقط على بعد خطوات منهما. حاول، بحركات عصبية، أن يستخدمه. لم يعرف كيف يشغله. المفتش بارثيا ما يزال مغشياً عليه. رفع الشاب الرشاش إلى فوق وخبطه على الأرض بقوة شاتماً الرشاش:

- يلعن دينك.

ظهر شرطي. أطلق من مسدسه طلقات متتابعة. استدار الشاب صارخاً. أطلق الشرطي ثانية على بطنه. سقط الشاب ملتوياً على الأرض. قلت:

- لقد اخترق الرصاص ظهره وبطنه.

- إني أرى كل شيء.

- لم أرى قط إنساناً يموت بهذا الشكل إلا في السينما.

- ها أنت تراه الآن.

- لا بدّ أنهم يقتلون الناس بهذا الشكل في أماكن أخرى.

- وماذا تظن، هل سيوزعون عليهم الحلوى.

جبين الكبداني عرقان. قلت له:

- اضبطْ نفسك قليلاً.

- ماذا تقول؟ ابلع لسانك.

- إنك ترتعد.

قال بغضب:

- أنا أرتعد؟ ألن تبلع لسانك؟ هل تريد أن يخرجوا لنا مصاريننا هنا مثل ذلك الشاب هناك؟

- أنت خواف.

- طيب، لكن ابلع لسانك.

ظهر شرطي ثالث. طلقة في الهواء. ساعد الشرطي الثالث زميله على إنهاض المفتش. التقط الشرطي الثاني الرشاش والقبعة ووضعها له على رأسه سائلاً إياه:

- هل أنت بخير؟

قال المفتش دائخاً:

- لا بأس. لا بأس.

قال له الشرطي الثاني:

- لقد أطلقت النار على ذلك الكلب.

اقتربوا من الشاب. حرّكه أحدهم بقدمه ثمّ ابتعدوا مسرعين في اتجاه السوق الداخلي. قال الكبداني:

- لنغادر هذا المكان قبل أن يكتشفونا.

- إلى أين؟

- إلى أي مكان.

طلقات أخرى تقترب نحو مكاننا. قال:

- هيا، طِرْ!

خرجت أنا الأول. قلت:

- انظر، إن جسمه يتحرك.

صاح، جاذباً إياي من ذراعي:

- طر! هل تريد أن يطيّروا لنا رأسينا؟

رأينا الشرطة الثلاثة يسرعون نحو السوق الداخلي الذي يبدو خالياً. ركضنا في طريق المنصور. في عقبة الفرنسيس توقف الكبداني ليبول. أحسست أيضاً برغبة التبول. الهاربون يجرون قدّامنا ونحن نبول على باب متجر.

في رحبة «السقاية» رأينا شاباً حاملاً في يده اليمنى قفة يميل جانبه الأيمن بسبب ثقلها. قال الكبداني:

- إننا محظوظان.

- لماذا؟

- ها هو قابيل. سنصحبه إلى كوخه في سيدي بوقنادل.

كان قد حدّثني عنه وعن عمله معه حمالاً للبضائع المهربة.

- هل هذا هو المهرّب الذي يلعب بالمال الكثير كيفما يشاء كما تقول عنه أنت؟

- نعم، إنه هو، عنده مال يكفي لتغطيتنا به من القدمين إلى الرأس.

- فكرت: إن منظره يوحي أنه لا يملك مائة بسيطة في رأسماله.

الساحة خالية. بين حين وآخر يعبرها أشخاص مسرعين. صاح الكبداني:

- قابيل!

توقف قابيل. وضع القفة على الأرض. سأله الكبداني:

- إلى أين أنت ماش؟

- إلى الكوخ، تعاليا معي. هناك سلافة وبشرى. لقد حلقت لتلك القحبة القذرة رأسها وحاجبيها.

حملنا، الكبداني وأنا، القفة بيننا وسرنا نحو طريق أمراح. سأله الكبداني:

- ألا تعرف ما يحدث في المدينة؟

- لا أعرف بالضبط. ماذا يحدث؟ عندما خرجت من مخزن الخمور الإسباني رأيت الناس يجرون قدّامي. هذا كل ما رأيته.

- ألم تسمع طلقات النار؟

- سمعت بعضها عن بعد، لكني لم أعرف ما كان يحدث. ماذا وقع؟

- رجال الأمن يطلقون النار على المغاربة.

- لماذا؟

- بسبب ذكرى 30 مارس.

- والمغاربة بماذا يضربون؟

- بالأحجار، بماذا يضربون؟

- هل مات كثير من الناس؟

- يطلقون النار على كل مَنْ يمرّ أمامهم من المغاربة.

سمع وراءنا صوت يصرخ:

- ابتعدوا عن الطريق! ابتعدوا!

رجل يحمل على ظهره رجلاً جريحاً ورجل آخر يمشي خلفه.

سأل قابيل الكبداني عني:

- والأخ الذي معك ماذا يعمل؟

- كان بائعاً متجولاً «للحريرة» والسمك المقلي. ترك عمله لأن صاحب المطعم لم يكن يعطيه أكثر من خمس بسيطات في اليوم. لقد كان يشتغل عنده من الفجر حتّى منتصف الليل.

الكوخ يشرف على منحدر شاطئ سيدي بوقنادل. له باب يؤدي

إلى ساحة أمراح وباب يؤدي إلى الشاطئ. فكرت: إنه حقاً كوخ مهرّب.

وجدنا سلافة تغني أغنية لفريد الأطرش بصوت يشبه الأنين: «اللي ينساك إنساه ولا يهمك جفاه». رأسها وحاجباها حليقان بالموسَى، وجهها يشبه وجه غلام أمرد، لابسة زكدوناً رقيقاً مخططاً بالأسود والأبيض واللون الذهبي. بشرى مستلقية على «المطربة» في يدها «سبسي» لابسة قفطاناً أحمر مزوّقاً بأسلاك ذهبية، فوقه «دفين شفاف». ذكّرني منظرهما بالأيام الثلاثة التي قضيتها في منزل السيدة عزيزة في تطوان. فكرت: في تلك الأيام كان عندي ألف بسيطة. اليوم جيوبي مثقوبة وبلا عمل قارّ.

كان طاجين السمك بالبطاطا والطماطم (تاجرا) تفوح منه رائحة الصعتر جاهزاً فوق «الطيفور». جاءتنا سلافة بالطشت والإبريق والصابونة لنغسل أيدينا. تحاول أن تتماسك صابّة الماء على يدي الكبداني. عند نوبتي نظرت إليّ باسمة، ثم أطلقت ضحكة خفيفة. تتوقف عن صبّ الماء على يدي ثم تبتسم وتستأنف الصبّ والإبريق يتمايل في يدها. إنها ثملة. عند نوبة قابيل أخذت تضحك وهو عبوس. غاضب. خطف الإبريق من يدها صارخاً:

– أطلقيه من يدك يا هذي القحبة القذرة. هل تلعبين معنا؟

– القذرة هي أمك. هل تعرف؟

هدّدها بصفعة. تدخّل الكبداني. أمسك الكبداني الإبريق وأخذ يصبّ على يدي قابيل. قال لها:

– في المرّة المقبلة لن أحلق لك فقط شعرك وحاجبيك إنما سأكورك من على المنحدر.

– جرّب إذا ولدتك أمك رجلاً. جرّب وسترى من سيكوّر الآخر أهي أنا أم أنت؟

قالت بشرى:

- ألن تكفّا عن هذا الصداع؟ سأغادر إذا لم تكفّا.

الطاجين لذيذ، مليء بالتوابل الحارّة. حينما انتهينا من الأكل ظللنا نتحدث عن الحادث المشؤوم، نشرب النبيذ، ندخن الكيف ونستمع إلى أسطوانات أم كلثوم القديمة حتّى الخامسة مساء. كنت قد غفوت فوق المطربة عندما قال لي الكبداني:

- محمد، إننا سنخرج. ابقَ أنت هنا معهما حتّى نعود. عد إلى النوم إذا شئت.

- نعم، سأنام قليلاً.

سمعت الباب يغلق بالمفتاح. كنت قد حلمت بصفّ طويل من الرجال العراة، في ساحة كبيرة، يمرّون واحداً فواحداً أمام ثلاثة أو أربعة أشخاص عراة مثلهم واقفين وقدامهم طاولة وأدوات طبية يحزّون لهم أعضاءهم التناسلية ويرمونها في برميل. وعلى مدار الساحة المسيّجة بمتاريس تقف حشود من النساء العاريات يبكين هؤلاء الرجال.

سلافة وبشرى نائمتان: بشرى نائمة على جنبها الأيمن، مديرة وجهها إلى الحائط وسلافة تنام على بطنها، مديرة هي أيضاً وجهها نحو الحائط. بدا لي شكلها المتراخي كأنها أُنقذت من الغرق. هيّجتني مؤخرتها البارزة التكوير. قبل أن أعود إلى النعاس سمعتها تتحرك وتقول:

- ذهب ذلك القواد الكلب.

فتحتُ عيني ببطء. قامت وأشعلت الضوء. كانت مستيقظة إذن. تمططت بشكل أبرز صدرها ومؤخرتها. انتصبت مثلما هو شيئي منتصب ونظرت إليّ بدلال: عيناها ناعستان.

- أحتّى أنت تنام؟

جلست وقلت لها:

- أستريح قليلاً.

أخذت زجاجة النبيذ المنصفة وكأسين.

- تعال إلى الحجرة الأخرى حتّى لا تفيق بشرى.

أتبعها أم لا؟ إنها هي التي تحكم هنا. ربّة كل شيء هنا. عندما وقفت شعرت بدوخة تعبر رأسي واضطراب في القلب. صداع خفيف في جانب رأسي الأيمن. نظرت نحو بشرى. أهي أيضاً مستيقظة؟ صمتها يخيف. النساء يتفاهمن مع بعضهن في مثل هذه الظروف. دخلت الحجرة الأخرى. حجرة النوم مفروشة بأشياء فاخرة. لم أرَ من قبل حجرة في كوخ مفروشة بهذا الشكل الجميل. في ركن توجد صناديق من الكرتون متراكمة. ربما تحتوي على سلعة. جلست على الفراش. أنا على المطربة.

- تعال واجلس إلى جانبي.

تردّدت. أضافت:

- هل تخاف من قابيل؟

- نحن لا نعرف بعضنا من قبل. الكبداني هو الذي عرّفني به أثناء هروبنا من الحادث المشؤوم.

- إنه غير قادر على فعل أي شيء حتّى وإن وجدك نائماً معي. أنا التي أعرفه. إنه مثل كلب ينبح ولا يعضّ.

فكرت: هذا ممكن، لكنه سيطردني من هنا وتبقيان أنتما مع بعضكما. لا شك أنه يحبّك. رأيت وسمعت ما يثبت لي أنك الحاكمة.

قمت وجلست قربها على الفراش. ملأت الكأسين بنفسها. مدّت يدها إلى علبة سجائر التبغ الأشقر فوق طاولة صغيرة قرب السرير. أشعلت واحدة. رموش عينيها سوداء. عيناها كبيرتان مختلجتان

بحمرة. وضعتها لي في فمي وأشعلت أخرى لنفسها. تذكّرتُ للاّ حرودة في تطوان تضع لي سيجارتها في فمي.

- وإذا استيقظت بشرى!

- إنها أختي.

- أختك؟

- مثل أختي.

- فهمت.

نظرتْ إليّ باسمة. شفتاها صغيرتان مثل خاتم الإصبع، في لون الفراولة. المرأة ذات الفم الصغير يكون فرجها صغيراً. هكذا سمعت. ابتسمت لها. شربت كأسها. تمدّدت على ظهرها. تدخن ناظرة إلى السقف. تضغط على يدي ثم تتركها ثم تأخذها وتفلتها. إنها تتسلّى. تتيقظ ثم تشرد، تجلس ثم تستلقي. دافئة يدها، طويلة أناملها التي تغري بقضمها. رغبة دفء اللحم ترعشني. تمدّدت جنبها. أدخن وأنظر إلى دمية صغيرة معلقة على الجدار. أضغط مثلها على يدها الرخوة، الحارّة الآن. تذكرت الشاب الذي لم نتركه يحتمي معنا خلف صندوق الصراف. شعرت بندم. يدقّ رأسه كما يدقّ مسماراً. سقط متمرغاً والدماء تسيل منه. صامتان ويداها في يديّ تتنزهان. هل يتمتّع معها قابيل هكذا؟

تحرّكنا معاً. تباسمنا. تراقصت عيوننا.

- انتظر. سأخلع ثوبي.

أطفأت سيجارتها في المنفضة. النشوة تدغدغ رأسي وثوبها ينسلّ من رأسها وذراعيها. سليبها وردي، بلا رافعة صدر. نهداها صغيران مثل ليمونتين. تذكرت مصّ البرتقال على الشجرة - المرأة في وهران. تلك امرأة من خشب. إن الإنسان يعشق اللحم.

- اخلع ثيابك.

- من الأحسن أن أبقى لابساً. لن يكون لي الوقت كي ألبس إذا جاء قابيل والكبداني.

- لن يعودا إلا بعد ثلاث أو أربع ساعات، أنا أعرفهما جيداً.

- أين تظنين أنهما موجودان الآن؟

- لا أدري. إنه لا يقول لي قط أين يذهب، لكني أعرف أنه يتأخر عندما يخرج مع أحد أصدقائه. إنه يكون أكثر حماقة حينما يكون مرفوقاً. ربما ذهبا معاً إلى البورديل.

- لكن الحالة اليوم ليست عادية في المدينة كلها.

- هناك بيوت دعارة كثيرة غير البورديل.

وجهها الغلامي الأبيض المورد الخدين له شكل قلب. أغمضتُ عينيّ وسقط رأسي على صدرها العاري الحار، فكرت: مخدّة من لحم تخفق بعنف. هذه الوسادة من اللحم تخفف صداع رأسي. أصابعها تغوص بلطف في شعري الغزير. يدي تمتدّ في عماء إلى رأسها. نسيت أن رأسها حليقة. دغدغت شعيراتها المنتصبة كفّيَّ. حين ألاطف رأسها من جبهتها حتّى قفاها يقف شعرها. لا بدّ أنه يغار عليها حتّى يحلق رأسها وحاجبيها. داعبت تصلّب نهدها الداخلي الكروي. تتدغدغ أكثر حين أمصّ نهدها الأيسر. تغطّيه بيدها ضاحكة. هي تريد الأيمن وأنا أريد الأيسر. وبين لعبة الأيسر والأيمن صارت تتدغدغ في كليهما. لعبنا قليلاً ضاحكين. بين هذا وذاك صرنا طفلين.

شغلت يدها في أزرار فتحة بنطالي. أطلّ قائماً في يدها. نزّهت يدها عليه من حشفته إلى منبته. تحكّ به شفري فرجها. عانتها سوداء وقاس زغبها. خشنة عانتها مثل رأسها. أنا ألحّ على الولوج وهي تلحّ على الحكّ. تضغطه. تخنقه، تقيس حجمه هبوطاً وصعوداً في يدها

المكوّرة. أنا أعدّ فقرات عمودها الفقري. انتشلته من يدها. نتداخل. نتخارج. تضمّني إليها بساقيها وذراعيها. قلت له: اجعل نفسك قوياً معها. كن صديقاً لشيئها أيها الأعور.

أفقت على صوت بشرى:

- سلافة، قومي. هل أنت نائمة؟

جلست بسرعة على حافة السرير وسألت بشرى:

- ألم يعد الكبداني؟

أجابتني بعد هنيهة:

- ليس بعد.

ذهبت إلى حجرة الجلوس. سمعت سلافة تقول لبشرى:

- لم يعد ذلك القواد.

وجدتها جالسة تدخن سيجارة. قالت لسلافة:

- أخاف أن يكونوا قد قبضوهما بسبب ما وقع في المدينة.

- لتحرقه النار.

دخلت المرحاض واغتسلت: حينما خرجت وجدت سلافة خفيفة، مرحة. حدَّقَتْ فيَّ باسمة. نشوة الانتصار بادية على وجهها. جلست على المطربة. انحنت عليّ وأمسكت وجهي بين يديها ملاطفة إياه وقلبي يخفق بعنف. باستني في فمي كما لو أنها تقبّل طفلاً. ابتسمت لها ورأيتها تدخل المرحاض. ذكّرتني بفتاة عين قطيوط. أين هي الآن؟ وضعي الآن يختلف. بشرى جالسة مهمومة واضعة مرفقيها على ركبتيها ووجهها بين كفّيها. بعد لحظة قامت ووضعت في الحاكي أسطوانة «أكذب نفسي» لأم كلثوم. تذكّرت تطوان وحيّ عين خباز والحشاشين والسكارى في القهوة التي عملت فيها. كدت أنتحب. بدت لي جميلة طفولتي في ذلك الحيّ.

المفتاح يدار في القفل. دخل الكبداني ثم قابيل. يبدوان متعبين وحزينين. سألت الكبداني:

- ماذا هناك من جديد؟

خفض صوت الحاكي وأم كلثوم تغني: «أكذب نفسي عنك في كل ما أرى».

- كل شيء انتهى الآن. خرجوا وقتلوا كثيراً من المغاربة.

دخل قابيل حجرة النوم وجلس الكبداني قبالتي. خرجت سلافة من المرحاض وسألت الكبداني:

- أين كنتما؟

- كنا في مهمة.

قالت ساخرة:

- قل لي بصراحة بأنكما ذهبتما إلى البورديل وكنتما في دار السعدية الكحلا أو في دار الزهرة الحمقا أو عند برغوثة.

قبل أن يجيبها الكبداني قال لها قابيل:

- ألن تغلقي فمك القذر؟

صرخت:

- الفم القذر هو فمك.

ثم دخلت حجرة النوم. وقف الكبداني وقال لي:

- لنخرج للحظة ثم نعود.

خرجنا من الباب المؤدي إلى منحدر سيدي بوقنادل. صفعني هواء بارد. أشعلنا سيجارتين. أضواء البواخر الراسية في الميناء رائعة. قال:

- سأخبرك بشيء جديد يهمك أن تعرفه.

- ما هو؟

- لقد وافق قابيل على أن تعمل معنا غداً.

- هذا مهم جداً.

- لكن بشرط.

- ما هو؟

- أن تبقى هنا في الكوخ هذه الليلة ونهار الغد كله حتّى يحين موعد العمل في المساء.

قلت لنفسي: هذا ما أريده.

- ولماذا هذا الشرط؟

- سأشرح لك: قابيل لا يعرفك جيداً بعد، وهو يخشى أن تبوح بسر العملية لأحد.

- لقد فهمت.

- أنا أعرفك، لقد تحدثت إليه عنك وأقنعته بأنك جاد ومخلص وشجاع.

- شكراً.

- لقد سبق له أن وشى به بعض الحمالين مرّات كثيرة. هو مقتنع اليوم أن وقوعه في فخ رجال الجمارك أو رجال الشرطة السرّية سببه وشاية الحمالين الجدد. يحدث أحياناً أن يكون الجمركيون أو الشرطة هم الذين يرسلون هؤلاء الحمالين الوشاة ليعملوا مع المهرّبين. بسهولة يعرف مكان العمل، الساعة، وأحياناً يعرف حتّى نوع السلعة المهرّبة. إن الحمّالين يأخذون مبلغاً مضاعفاً ثلاث أو أربع مرّات من البوليس السرّي أو من رجال الجمارك أكثر من المبلغ الذي يتقاضونه من المهرّبين.

- غريب.

- وأيضاً يشعرون أنهم محميّون.

بعد صمت أضاف:

- قابيل شخص طيب، عيبه هو أنه بخيل. في غالب الأحيان يدفع من يعمل معه إلى أن يسرقه لكي يأخذ أجرته التي يستحقها. (أضاف): ليس سخياً إلا مع النساء. مع نساء من نوع سلافة.

سألته:

- أهو يغار على سلافة؟

- إنه يعرف أنها تستطيع أن تفتح فخذيها حتّى لقرد.

- وإذن.

- مع ذلك يحبّها.

- لكن لماذا حلق لها شعر رأسها وحاجبيها؟

- حلق لها رأسها وحاجبيها حتّى لا تغيب طويلاً. أحياناً تغيب عنه أسبوعاً أو أكثر.

- هكذا يحبّها إذن.

- بجنون.

- وأين تكون عندما تهرب منه؟

- تسكر وتقحب في سهرات منازل الأصدقاء والناس.

- وهي، أتحبّه؟

- وهل مثلها تحبّ؟ تحبّ ماله. إنها تصارحه بذلك. سمعتها يوماً تقول له: «أيامك خسارة معي. فتش عن غيري تحبّها. ينبغي لك أن تفهم أني لا أحبك».

- وبماذا يجيبها هو؟

- إنه لا يصدّقها. يعتقد أنها تحبّه أيضاً على طريقتها. لم أره قط يضربها.

- إنه شخص غريب.

- هو يعتقد أنها قد سحرت له.

- وهل تعتقد أن هذا صحيح؟

- كلا، إنها خرافة. إنه يحبّها وكفى.

- ولكن كيف استطاع أن يحلق لها؟

- أسكرها ووضع لها الحشيش في الشاي. عندما نامت حلق لها بالموسَى.

- وماذا فعلت معه عندما أفاقت؟

- كسرت بعض أدوات المنزل وسبّته وأقسمت إنها ستنتقم منه ذات يوم.

- وبشرى؟

- إنها صديقتها. سلافة أيضاً تكون مجنونة حين تهجرها بشرى.

- أليس لبشرى عشيق؟

- لا أدري. أعتقد أنها لا تحبّ إلا نفسها. مزاجها صعب، لكنها طيبة، لا تحقد على أحد. لا تتكلّم إلا عند الضرورة. الحق يكون معها دائماً إذا هي تكلمت.

- لاحظت ذلك.

أشعلنا سيجارتين أخريين. فكرت في أن أطلع الكبداني على ما فعلته مع سلافة، لكني خفت أن يغار أو يحسدني. ربما يخبر قابيل ليبرهن له على إخلاصه الحميم.

حينما عدنا إلى الكوخ كانت أم كلثوم أيضاً تغني بصوتها القوي:

إني أغار من الكؤوس فجنبي كأس المدامة أن تقبّل فاك

10

في الصباح بقينا، سلافة وأنا، في الكوخ. قابيل والكبداني خرجا دون أن يخبراني عما سيفعلانه في الخارج. بشرى ذهبت لتزور أمها. لم ترها منذ بضعة أيام. خمنت أن يكون قابيل والكبداني قد ذهبا ليهيّئا الوسائل التي سنعمل بها في عملية التهريب. سلافة تنظف حجرة النوم وأنا مستلق أدخن سجائر شقراء وأفكر في وضعي الجديد بقلق.

- سلافة، هل هناك كأس خمر؟

أطلّت عليّ باسمة:

- انتظر قليلاً. سنفتح زجاجة نبيذ ونشربها معاً.

ابتسمت مرّة أخرى واختفت. فكرت: لقد دخلنا في لعبة العشق. القلق يتصاعد في نفسي. إن إغراءها بدأ يشقيني. ذكّرني وضعي في الكوخ بذلك الصباح الذي حبسني فيه صاحب الغرسة الذي كنت آكل له إجاصة في حيّ عين قطيوط، لكن الوضع يختلف. أستطيع أن أبقى هنا أو لا أبقى. نهضت. وقفت على المطربة وأطللت من الكوة المفتوحة على البحر. السماء غائمة. البحر هائج. بعض البواخر الكبيرة والصغيرة تعبر البحر. وقفتْ ورائي. وضعتْ يديها على كتفي. أنفاسها حارة في أذني اليمنى. تدغدغ جسمي كله.

همست:

– ماذا تنظر؟

أنفاسها ودفؤها جعلاني أنتصب. هل صرت عشيقها؟ البؤس والحب. أليس هذا رائعاً؟

– أنظر إلى البحر. لم أسافر قط في البحر. إنه يغريني بالسفر فيه إلى أبعد مكان في العالم. هل سافرت أنت في البحر؟

– أنا؟ (ضحكت). اسألني فقط إن كنت خرجت من طنجة. لم أسافر في البحر ولا في البر.

تخيّلت أني أراها قادمة إليّ ماشية في الفراغ ثم سابحة ثم طائرة في ثوب أبيض.

– ألم تخرجي قط من طنجة؟

– أبداً. أين تريد لي أن أذهب؟ مع من؟ (أضافت): عندي إحساس أني إذا غادرت هذه المدينة فلن أعود إليها أبداً. أبداً لن أعود.

– عندي نفس الإحساس.

– لماذا؟

– لا أدري.

التفتُّ إليها. فتحت عينيها بقوة في عيني كما لو أنها تقول لي: «ألا يعجبك ردّي على سؤالك؟» لم أستطع أن أقاوم نظراتها. خفضت نظراتي. إنها بدأت تقلقني. حوّلت نظراتي نحو الباب.

– نحو ماذا تنظر؟

– نحو الباب.

– ما له؟

– لا شيء.

– فيمَ تفكّر؟ إنك تفكر في شيء.

– أفكر في الباب.

- لماذا؟

- أكره أن يقفل عليّ أحد الباب.

جلسنا. فكرت في الموت. الحب دائماً يجعلني أفكر في الموت. أحسّ نفسي سارقاً ومسروقاً. زجاجة نبيذ وقدحان فوق الطيفور.

- أنا أيضاً كان يضايقني أن يقفل عليّ أحد الباب، لكني تعوّدت.

- أنا لم أستطع أن أتعوّد، ولا أريد أن أتعوّد.. إنني أشعر كأنني في سجن.

- عندك الحق.

إننا الآن سيان، أنا وهي، أمام هذا الباب المقفل: هي عشيقة قابيل وأنا حمّاله الذي لا يثق به بعد. فكرت أن أقوم وأكسره، لكني سأفسد كل شيء: صداقتي مع الكبداني، علاقتي بسلافة وإمكان أن أصير حمّال قابيل مثل الكبداني الذي يثق به.

- في أي شيء تفكر؟ كفاك من التفكير. افتح الزجاجة.

أخذت المبزل من فوق الطيفور. قالت بعد لحظة:

- عندي شيء أقوله لك.

نظرت إليها:

- ما هو؟

- أن نغادر طنجة إذا شئت.

نظرت إليها بإمعان.

- إلى أين؟

- إلى أي مكان؟ إلى الدار البيضاء، مثلاً.

فكرت أن أقول لها: ورأسك وحاجباك الحليقان؟ لم أرد أن أحزنها. ربما هي ناسية.

- وماذا سنفعل هناك؟

- أي شيء.

فتحت الزجاجة وملأت القدحين.

- لكني لا أتقن أي عمل. وأنت ماذا ستفعلين؟

- أستطيع أن أقوم بأي عمل. أن أعمل، مثلاً، خادمة عند إحدى الأسر الفرنسية. إن صديقتي فضيلة هناك وجدت عملاً بمجرّد أن وصلت واتصلت بأسرة فرنسية.

فكرت في الكبداني الذي قال لي بأن سلافة تكون مجنونة عندما تهجرها بشرى.

- وبشرى؟

- ستذهب أيضاً معنا.

فكرت: أليست حمقاء هذه المرأة؟ قلت لها بخبث:

- فهمت جيداً ما تقولين.

- إنها طيبة. ما لها؟ ألا تراها طيبة؟

- لم أقل إن عيباً فيها. سألتك فقط.

قالت بتوتر:

- إنها أخت. إنك لا تعرفها بعد. حين تعرفها ستعتبرها كأختك.

فكرت: إنني أفهمك الآن جيداً يا سلافة. سنصير أخويها وتصير أختنا التي تصالحنا عندما نتخاصم. هي الرزينة ونحن الطائشان. مددت لها كأسها. مدت لي كأسها لأشربه من يدها وجعلتني أمدّ لها كأسي لتشربه من يدي. ذراعانا متقاطعتان شاربين ببطء. ابتسمنا كطفلين. حركة رائعة لم أتمتع بها من قبل. نظرت نحو الباب. نظرت هي أيضاً. طلبت فمي بعينيها الناعستين. مالت عليّ. تسكب فيه شيئاً فشيئاً ما تبقّى من النبيذ في فمها. أمتلئ بلذائذ كثيرة من خلال هذه المرأة. انسحبنا إلى حجرة النوم.

قبل المضاجعة وبعدها يكاد يغلبني البكاء. لا أعرف لماذا!

كنا في قاعة الجلوس عندما دار المفتاح في قفل الباب. فريد الأطرش يغني: «امتى تعود يا حبيب الروح؟» وسلافة تفكر. لا هي حزينة ولا هي فرحة. لا أعرفها إلا عندما تبتسم أو تصرخ. من يدري ما تفكر فيه الآن؟ ربما هي قلقة لأني لا أجيبها بصراحة عن مشروع مغادرتنا طنجة إلى الدار البيضاء. تركتها لنفسها. دخل الكبداني حاملاً معه قفة ملأى بالتسويقة، متعباً. قلت له:

- آ. قابيل، جئت!

نظر إليّ باستغراب، اعتذرت له باضطراب:

- عفواً كنت أفكر في شيء. ما هي الأخبار؟

- أف، مصيبة.

وضع القفة قدام سلافة وقال لها:

- هاك، اقلي السمك كله، هذا ما قاله قابيل.

قالت بحدّة:

- أفي هذه الساعة تأتيني بالسخرة؟

- كنا مشغولين في مهمة.

- ماذا يهمّني أنا؟ كان ينبغي أن تأتيني بالسخرة قبل الآن.

فكرت: إنها تكذب. سألته:

- هل حدث شيء جديد؟

- لقد اتضح الآن كل شيء. الإسبانيون هم الذين خططوا للحادث المشؤوم.

- إذن ما كانوا يقولونه عن المرواني في مقهى التشاطو صحيح؟

- ربما. مَن يعرف! ما يعرفه معظم الناس حتّى الآن هو أن الإسبانيين هم سبب المأساة المشؤومة.

- استغلّوا إذن ذكرى 30 مارس واستعملوا المغاربة في هذه القضية كبيادق.

- هذا ما يبدو.

- هذه مصيبة.

- لقد مات عشرات المغاربة ولم تمرّ إلا ستّ أو سبع جنائز من السوق الداخلي بعد أن صلّوا على الضحايا في الجامع الكبير.

- والأموات الآخرون؟

- لا بدّ أنهم أخفوهم حتّى لا يثيروا غضب المواطنين المغاربة. إن معظم الذين ماتوا ليسوا من طنجة. يَسْهُلُ دفنهم سرّاً.

بعد لحظة سألته:

- هل يسمحون للناس أن يتجولوا في الشوارع؟

- نعم، لكن الحراسة ما زالت شديدة في جميع الطرق. يلقون القبض على المشبوهين. إن العسكريين يتعاونون مع رجال الأمن في الحراسة.

- وقابيل؟

- ذهب إلى منزل أبويه. (أضاف): وبشرى، ألم تعد بعد؟ قالت سلافة:

- ليس بعد. لماذا لا تذهب وتصحبها معك إلى هنا؟ قد تكون خائفة من العودة بسبب الحراسة. (أضافت بصوت رقيق فيه رجاء): اذهب وإيتِ بها.

- لا اعرف أين تسكن؟

- تسكن في دار البارود قدام مقهى الماكينة. اسأل عنها أي واحد تجده هناك يدلّك على مسكنها. لا بدّ أن تجد بعض الأطفال يلعبون في الحيّ. إنها معروفة في حيّها.

- ستعود وحدها. (أضاف): الناس لا يخرجون إلا لما هو ضروري وقريب من منازلهم. أما الأطفال فلم أرَ ولو واحداً طوال الصباح.

قالت بحدّة:

- خلاص. الفناء في العالم. إنك لا تريد أن تذهب وكفى.

- ليس هكذا، إنما...

قاطعته غاضبة:

-كفى، أرجوك لا تقل لي شيئاً أكثر.

بعد لحظة قالت كما لو أنها تكلّم نفسها:

- انا أعرف ما سأفعل بنفسي: أحلف لكم أنني إذا بقيت هنا معكم فابصقوا وبولوا عليّ.

قال لي:

- لقد رتبنا كل شيء. هيّئ نفسك للعمل الليلة. سيعمل معنا ثلاثة حمّالين آخرين. سنستخدم سيارتين: واحدة لشحن السلعة والأخرى لنقل الحمّالين. أنا سأكلف بنقل السلعة في زورق من المركب إلى الشاطئ. أنت ستكون مع الحمّالين الثلاثة الذين سينقلون الصناديق من الشاطئ إلى السيارة. عليك أن تكون شجاعاً، قوياً وسريعاً في حمل كيسك. قد يحدث أن يفاجئنا رجال الجمارك على الشاطئ أو عند دخولنا المدينة. في هذه الحالة عليك أن تعمل بتعليمات قابيل أو شريكه الذي ستعرفه أثناء العملية. قد يحدث نفس الشيء مع الشرطة السرّية أثناء إنزال السلعة في المدينة. لا أكتمك أن العملية لا تخلو من الخطر والمغامرة. ربما يطلقون علينا النار في حالة الفرار. هل فهمت؟

- نعم.

- أحياناً يحدث أن يرشي صاحب السلعة رجال الجمارك أو الشرطة السرّية. غالباً لا يتفقون على مبلغ الرشوة. هنا يحدث الفرار والعنف.

- ماذا تقصد بالعنف؟

- أحياناً تدور المعركة بالسلاح.

فكرت: قابيل يملك إذن سلاحاً. ينبغي لي إذن أن أحذر من علاقتي مع سلافة. ماذا يمنعه من أن لا يطلق علينا النار، إذا وجدنا في الفراش؟

- وهل قابيل مسلح؟

- أوه، ها أنت تتدخل فيما لا يعنيك. إنني أقول لك فقط ما يمكن أن يحدث. لا يهمك أو يهمني إذا كان قابيل وشريكه يملكان سلاحاً أو لا. أتفهم؟

- نعم، لكنني أسألك فقط.

فكرت: لقد انزلقت على قشرة موز. ربما يعرف الآن أن لي علاقة مع سلافة.

- إنني أقول لك أشياء لا يمكن لي أن أقولها لأي حمّال آخر.

- أنا أعرف.

سألها:

- سلافة، أين السبسي؟

أجابت من المطبخ:

- لا أدري. فتش عنه.

فكرت: لقد بدأت تنتقم منه. تذكرت أننا دخّنا، هي وأنا، قليلاً من الكيف في حجرة النوم. تظاهرت أنني أفتش معه عن السبسي في حجرة الجلوس. ذهب إلى حجرة النوم. قال:

- لقد وجدته.

قمت ووضعت في الحاكي أسطوانة «عندما يأتي المساء» لعبد الوهاب.

ركبت مع ثلاثة حمالين شبان وشيخ يقود السيارة. كنت أصغرهم. رائحة خمر تفوح من السائق. يسوق جيداً. لا يتعدّى مؤشر السرعة 70 كلم. في المنحدرات والمنعطفات ينخفض المؤشر إلى 40 أو 30.

وصلنا إلى رأس سبارطيل حوالي الثانية صباحاً. توقفت سيارتنا وراء سيارة كبيرة سوداء. نزلنا. فتح باب السيارة الأخرى. خرج رجل طويل القامة، قوي. قدّرت أنه في حوالي الخامسة والأربعين. اقترب منا بهدوء وسأل السائق:

- كيف هي الحالة في الطريق؟

- حسنة. لم نشكّ في شيء.

نزلنا ثلاثتنا ما عدا السائق. فهمت مما قاله السائق الشيخ أننا لم نلتقِ بأية دورية للحراسة. أدركت أن هذا الرجل القوي هو شريك قابيل. قال لنا:

- كونوا رجالاً.

ثم وضع يده على كتفي مركّزاً نظراته عليّ:

- من أية ناحية من الريف أنت؟

- من بني شيكر.

- أعرف الشيكريين. الريفيون شجعان.

سحب يده وأضاف:

- أنا أعرف الريفيين جيداً. كانوا معي في الحرب الإسبانية الأهلية. كن رجلاً مثل رجال بلادك.

انشرحت ملامحي. أخرج علبة سجائر ومدّها إلى كل واحد منا. فكرت: إنها بادرة حسنة منه. قذر مَن يخون هذا الرجل. إن له شخصية طيبة وجذابة. قابيل يبدو طفلاً أمام هذا الرجل. قد يكون قابيل أيضاً طيباً، لكن شخصيته ضعيفة. يلزمني أن أكون مخلصاً. قال لنا:

- هل أنتم مستعدّون؟

قلنا له واحداً بعد آخر:

- نعم.

هبطنا منحدراً صعباً. نسير بين الأشجار والحشائش والصخور. فكرت: هل من هنا سنعود صاعدين مثقلين بالبضائع؟ قال لي شريك قابيل:

- ناديني القندوسي إذا أردت أن تناديني.

أدركت أن هذا اللقب هو لقب المهنة السرّي. الطريق التي كنا نسلكها كانت وعرة. تعثرت مرّات في الحفر والحجارة الناتئة. قال لي:

- ينبغي لك أن تحذر جيداً من السقوط عندما تعود حاملاً ثقلك. إن ما في داخل الصناديق يتكسر.

فكرت: ماذا سيكون داخل الصناديق؟ شيء يتكسر. تراه ماذا؟

حينما بلغنا الشاطئ أخرج مصباحاً بطاريا وأخذ يرسل علامات نحو البحر. تلقّى جواباً بنفس العلامات الضوئية.

وجدنا هناك قابيل جالساً وحده. إلى جانبه حزمة أكياس وحزمة حبال.

- آ، وصلتم. هل كل شيء جاهز؟

- كل شيء حسن حتّى الآن.

بدأ يسمع هدير محرك وإشارات ضوئية ترسل نحو الشاطئ. أجاب

القندوسي بنفس العلامات. البحر هائج قليلاً. الهدير يقترب. قال لنا القندوسي:

- كونوا على استعداد.

توقف الهدير. بعد حوالي ربع ساعة من الصمت أرسلت من المركب علامات أخرى. أجاب عليها القندوسي بنفس العلامات. قال لنا:

- الزورق آتٍ إلينا. لنقترب.

عندما اقتربنا من حافة الشاطئ خلع حمّالان نعليهما المطاطين وبنطاليهما. تراءى لنا الزورق ينخفض ويعلو مع الأمواج العالية. دخل الحمّالان في الماء. أحاطا الزورق من الجانبين. نزل الكبداني إلى الماء وأخذوا يدفعون الزورق إلى حافة الشاطئ. شرعنا جميعاً ننقل الصناديق إلى الرمل غير بعيد عن حافة الشاطئ. الصناديق لم تكن كبيرة ولا ثقيلة كما كنت أتصور. فكرت بأن ما بداخلها لا بدّ أن يكون ثميناً: ربما تحتوي على ساعات.

أنزلنا بسرعة تسعة صناديق. سأل القندوسي الكبداني:

- هل هناك خطر في عودتك إلى المركب؟

- لا أظن.

- إذا كنت تعتقد أن هناك خطراً في عودتك إلى المركب فيمكننا أن نسحب الزورق إلى الشاطئ وفي الصباح ندبّر شأننا معه.

- ما أظن أن هناك خطورة.

- احذر جيداً من الصخور.

- إنني أعرف هذه المنطقة جيداً.

قلت للكبداني:

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء. (أضاف): بعد حوالي ساعة سأجدك في الكوخ.

كان زورقه سيجره المركب حتّى ميناء طنجة.

شرع الحمّالان العاريان حتّى النطاق يدفعان الزورق إلى البحر والكبداني رافع المجدافين عن الماء. رأيت الكبداني يختفي في ضباب الليل وهدير الأمواج.

وضعنا بسرعة صندوقين في كل كيس. قال لي القندوسي، بعدما انتهينا من ربط فوهات الأكياس:

- إذا لم تكن قادراً على حمل صندوقين فاحمل واحداً.

قلت له واثقاً من نفسي:

- إنني أقدر أن أحمل ثلاثة صناديق إذا شئت.

أردت أن أتحدّى قوتي وسني. ربما ما يدفعه إلى الشك في قوتي هو نحول جسمي. فكرت: إن مثل هذا العمل أفضل لي من التسول والسرقة، أفضل من ترك عضوي يمصّه عجوز، وبيع «الحريرة» والسمك المقلي للبدويين والعمال في السوق البراني و«فندق الشجرة». أفضل من أي عمل آخر كنت أقوم به من قبل. إنها مغامرة تجعلني أشعر برجولتي وأنا في السابعة عشرة من عمري. إن مرحلة جديدة من حياتي تبدأ في هذا الصباح الباكر.

حملنا الأكياس ومشينا في نفس الطريق التي هبطنا منها. القندوسي يتقدمنا وقابيل خلفنا لا يحمل شيئاً. يبدو أنه ثمل. أعتقد أنه لا يستطيع أن يواجه مغامرة إلا وهو ثمل. كل واحد منا، نحن الحمّالين، يحمل كيساً يحتوي على صندوقين. الصندوق التاسع حمله القندوسي في كيس. بعد دقائق بدأ حملي يثقل عليّ شيئاً فشيئاً. ألم في عظام كتفي وفي رقبتي. ألأنني لم أضع الكيس في وضع حسن؟ لم أجرؤ أن أغيّر

من وضع الكيس على كتفي حتّى لا أجعل القندوسي يظن أني تعبت ونحن ما زلنا في وسط الطريق. قد لا يستخدمني في عملية أخرى إذا بدوت في هذه العملية الأولى رخواً. قابيل بدا لي أخيراً مجرد شخص فائض. أينبغي لي أن أطيع أوامره أم لا؟ لكن لماذا هذه المشاعر العدوانية نحوه؟ إنه حتّى الآن طيب معي. عليّ أن أتخلص من هذه المشاعر الشريرة رغم أنها تخفّف عني ألمي. سأصمد. هذا أفضل. سأصمد رغم أني أحس بكتفي تتنملان وعظام رقبتي تطقطق. ألهث قليلاً وحلقي ينشف. عياء تنفسي ربما هو ناتج عن كثرة تدخيني السجائر الشقراء والكيف. سلافة سبب في هذا العياء. لقد ضاجعتها أربع مرّات البارحة. ها أنا الآن أشتاق إلى مواقعتها. سأجامعها إذا نجحت هذه المغامرة وسبقت قابيل والكبداني إلى الكوخ. لكن والمفتاح؟ الأجر الذي سأقبضه عن عملي هذا يبدو لي مقدماً تافهاً ما دمت أجد كل شيء في الكوخ. قيمة المال نافعة لي فقط خارج الكوخ. أتمنى الآن لو كانت معنا سلافة. أن تمشي أمامنا دون أن تحمل شيئاً. هل بدأت أحبها؟ مشاعر عدوانية تتملكني فجأة نحوها. أتخيّلني أسبّها وأصفعها كي أثير غضبها. أحبها غاضبة أكثر مما أحبها هادئة. أحبها حزينة أكثر مما أحبها فرحة. أحبها حمقاء. أحبها كما تكون مع قابيل، مثلما أراهما يتشاكسان.

عندما بلغنا الطريق وجدنا السائقين خارج السيارتين ينتظراننا. تعاونا معنا بسرعة على شحن السلعة في السيارة الأولى. ركب القندوسي وحده في سيارة السلعة وركب معنا قابيل في سيارة الحمّالين. كانت سيارتنا تسبق الأخرى. مسافة حوالي مائة متر تفصل بين السيارتين. السرعة متوسطة. فكرت: لا بدّ أن يكون لهذا السبق ولهذه المسافة الفاصلة سرّ. خلال الطريق لم نتبادل أية كلمة بيننا. بين حين وآخر يسعل الحمّال الجالس عن يميني ويسحب نفساً عميقاً من

أنفه بحركة عصبية. مررنا بطريق مقبرة الكلاب. عند مفترق طرق بوبانة توقفت السيارتان. نزل قابيل ثم رأيت سائق السلعة ينزل ويتجه نحونا. قال قابيل لسائق سيارتنا:

- أوصلهم إلى حيثما يريدون.

مدّ لي المفتاح قائلاً:

- اذهب إلى الكوخ. لا تفتح إلا للكبداني إذا جاء.

احتلّ سائق سيارة السلعة مكان قابيل واتجهنا في طريق الدرادب. تركنا سيارة السلعة واقفة في مكانها. تأكدت الآن أن القندوسي وقابيل لا يثقان بأحد. بعد أن تختفي سيارتنا سيقصدان مكاناً مجهولاً ويفرغان سلعتهما. لم يطلب مني أن أفتح له إذا جاء. لا بدّ أنه يملك مفتاحاً آخر. أتمنّى أن يبقى منشغلاً في عمله حتّى الغد.

عندما بلغنا عقبة الدرادب قال لنا السائق الذي تفوح منه الآن رائحة الخمر أكثر من ذي قبل:

- إلى أين تريدون أن أوصلكم أيها الإخوان؟

قال اثنان:

- اتركنا في السوق الكبير.

قلت له:

- أنا اتركني في القصبة.

- أنا أعرف.

قال الحمّال الذي يسعل:

- أنا أيضاً اتركني في القصبة.

نظرت إليه. نظر إليّ هو أيضاً دون أن نتكلم.

في السوق الكبير نزل الحمّالان. رأينا شرطيين يتجولان. دخلت

السيارة من باب الفحص. الشوارع خالية. شرطيان آخران يقفان تحت شرفة إحدى العمارات. خشيت أن يوقفا سيارتنا ويطلبا منا أوراق التعريف الشخصية.

في ساحة القصبة نزلنا أنا والحمال وبقي السائقان مع بعضهما. قلت لرفيقي:

- أنا سأذهب من هنا إلى أمراح.

سعل وقال:

- تلك أيضاً طريقي.

لم أجرؤ أن أسأله عن سير العملية التي قمنا بها. بعد لحظة سألني:

- أهو الكبداني صديقك؟

- نعم.

- إنه شاب طيب. (أضاف): أهذه هي المرة الأولى التي تعمل فيها حمالاً في مثل هذا العمل.

- نعم، لأول مرة.

- وقابيل صديقك؟

- الكبداني هو الذي عرّفني به. وأنت تعرف قابيل جيداً؟

- كلا. أنا أعرف القندوسي. إنه رجل شجاع. رزين. إذا وعد بشيء يفي به. كل حمّالي التهريب يحبّون العمل معه.

- أنا سأذهب من هنا.

- إنك تسكن مع قابيل إذن.

- كلا. إنني مجرد ضيف عنده. ليس لي مكان ثابت أنام فيه.

تودعنا ودخلت في ظلام الدرب. لا أسمع سوى خطواتي.

سمعت مواء قطّين ثم معركة. مرَّ قدامي أحدهما يطارده الآخر. لا بدّ أنهما ذكر وأنثى. القطة هي الهاربة كما هي العادة. أتمنى ألا تكون سلافة مثل هذه القطة في هذه الساعة. المضاجعة في نهاية الليل. ستكون أول تجربتي.

وضعت أذني على باب الكوخ. القطان يتماوءان بعيداً عني. أدخلت المفتاح بمهل وفتحت. حجرة النوم مضاءة. أهي ما زالت يقظى؟ أقفلت الباب تاركاً المفتاح في ثقب القفل. دخلت حجرة النوم. على الطيفور زجاجة نبيذ والسبسي وعلبة الكيف. تنام على جنبها الأيمن منكمشة على نفسها. أشعلت الضوء في حجرة الجلوس. رأيت بطانيتين ووسادتين فوق المطربة. فكرت: بطانية ووسادة لي والأخريان للكبداني. خلعت ثيابي. سمعت حركتها في الفراش. عندما دخلت وجدتها قد غيّرت وضعها. تدير وجهها إلى الحائط وما زالت منطوية على نفسها. جلست على حافة السرير واضعاً يدي على كتفها. تردّدت في إيقاظها. تمدّدت بهدوء وراءها. قالت بتذمّر:

- إن قدميك باردتان كالثلج.

بعد لحظة بدأت يدي اليمنى تتنزه في بستان جسمها: في صدرها برتقال وتفاح، في مؤخرتها الإجاص والخوخ وبين فخذيها الكاكي و. . . نزعت لي يدي بسرعة عندما بلغت شجرة الكاكي. قالت:

- لا تلمسني هناك. فيَّ الدم. نَمْ. إذا كنت ستنام.

- فيك الدم؟

- نعم، فيَّ الدم. ألا تعرف هذا في النساء؟

تذكرت مونيك في الحمام تنظف شيئها الملوث بالدم. الآن هي إذن مثل مونيك.

- أفهم الآن. (أضفت): وكم سيبقى فيك الدم؟

- أف! ثلاثة أيام على الأقل.

فكرت: ها هي فرصة مضاجعتها في الفجر قد ضاعت. شيئي منتصب في منطقة الخوخ. حين أراد أن يتنزه أجفلت منقلبة على ظهرها قائلة:

- احشم قليلاً. هذا لن أفعله معك.

- مجرد نزهة قصيرة ويتمّ الأمر.

- ماذا تقول؟ أنت أحمق أم ماذا؟

- ولماذا لا؟

- هذا الشيء لا يفعل مع النساء. عيب وحرام. أتفهم الآن؟

- حرام؟

- نعم، حرام.

تمدّدت على ظهري مثلها. أتأمّل فوق الغطاء بروز شيئي المنتصب. كيف أجعله ينام؟ إنه عنيد. لأول مرّة أراه عنيداً بهذا الشكل. ضغطت على يدها في يدي لحظة ثم وضعتها فوقه. انتظرت أن تلاعبه بيدها كما فعلت معه في أول يوم. لكن يدها ظلّت قابضة عليه بتصلّب دون أن تتحرك. حين وضعت يدي فوق يدها وجعلتها تلاطفه نزعت يدها وقالت بتذمّر:

- اتركني. ألا تستطيع أن تنام دون أن تفعل هذا الشيء؟

في هذه اللحظة كانت يدي هي التي حلّت محل يدها المتصلبة. بدأتُ أدلّكه وأحممه بلطف. قالت:

- ماذا تفعل؟

- خليني. (أضفت): لا بدّ أن أفعل له هذا حتّى ينام. لو كنت مكاني لفعلت له نفس الشيء.

– ستوسخني. اذهب إلى الحجرة الأخرى وافعل له ما تشاء هناك.
(أضافت): أف من شهوة الرجال.

نزلت من الفراش وأنا أتخيّلني قابضاً على أسية عارية بين ذراعي قدام الصهريج. دخلت الحجرة الأخرى قابضاً عليه برفق حتّى لا يبرد. تغطيت بالبطانيتين وأعدته إلى دفء يدي قبل أن يخور.

في الصباح، حوالي التاسعة، تناولنا الفطور صامتين في حجرة الجلوس. هي شاحبة، حزينة، حالمة. أنا أيضاً شعرت بإنهاك وندم على ذلك الاغتصاب الخيالي. أليس جنوناً أن أتخيّل جسم أسية وأغتصبها وأنا لم أعرف أهي ما زالت حية أم ميتة؟ كان أفضل لي لو أني نمت متدفئاً بجسم سلافة. كنت أحسّ بها إلى جانبي تخفق، تتحرك، ألمسها وأشمّها. أسية كانت عدماً في خيالي. كنت أستمني على العدم.

لم يجئ أحد. أهو نزيف الدم الذي يُحزن سلافة الآن؟ النساء أحياناً يغتصبن، يلدن وينزفن دماً عدة أيام في الشهر. أخشى أن يكون الكبداني قد سقط في فخ رجال الجمارك. حتّى الآن يبقى أفضل صديق لي في هذه المدينة. ربما تكون حزينة على بشرى التي لم تعد! الكبداني كان على حق عندما تحدّث لي عن سلافة وبشرى. ها هو جنون سلافة الحزين قد بدأ. ماذا قد يحدث لها إذا طال غياب بشرى؟ لا أظن غياب قابيل يحزنها. لست أدري. الأمر غامض. نظرت إليها. إنها غارقة الآن في ذهول تام. مع ذلك يعجبني حزنها هذا. ربما شيء ما في نفسها تذكرت خسرانه. قد تكون الآن تفكر في ضياعه إلى الأبد أو في وسيلة ما لاسترجاعه. من الأحسن أن أخرج وأتركها لنفسها حتّى لا تكرهني. العالم حزين وعفن. نهضت واقفاً:

– سأخرج لأرى ماذا يحدث اليوم في المدينة بعد الحادث المشؤوم.

تطلّعت إليّ ذاهلة للحظة. حنت رأسها كما لو أنها لم تستطع أن تفيق من شرودها. ظلّت ناظرة في الفراغ وأنا واقف قدامها. قالت بعد لحظة رافعة رأسها بشرود:

- هل دفع لك قابيل أجرك عن عملك معه أمس؟

- ليس بعد.

- انتظرني لحظة.

قامت ودخلت حجرة النوم. لم أرها حزينة بهذا الشكل من قبل. إنها تشبه بشرى اليوم. تعجبت حين ذكرت اسم قابيل ولم تشتمه كعادتها. ربما لأنها ليست غاضبة. بماذا ستفاجئني؟ قلقي يتضخم. ظهرت حاملة في يدها ثلاث ساعات يد وفي اليد الأخرى ورقتين من فئة مائة بسيطة. نظرت إلى المنديل الجميل الأزرق الذي لفّت به رأسها. إنها تشبه الآن إحدى الفرعونيات اللواتي رأيت صورهن المنزوعة من بعض المجلات. نظرت إليها بدهشة وخجل.

- هاك هذه الأشياء. بع الساعات واحتفظ بثمنها. لا تقل شيئاً لأحد. حاول أن تبيعها بحذر حتّى لا يعرف قابيل. إن العمل مع المهرّبين لا يدوم. ابحث لك عن عمل آخر.

الكلمات التي كنت أفكر أن أقولها لها تضيع مني قبل أن ألفظها. وزعت الساعات والورقتين على جيوب سروالي وكبوطي. نظرت إلى المفتاح في القفل وسألتها:

- هل ستقفلين الباب من الداخل؟

- نعم.

فتحت الباب وخرجت. حين التفتُّ ورائي رأيتها واقفة على عتبة الباب تمسح عينيها. توقفت. أحسست أننا نتوادع لآخر مرّة. قد لا أراها أبداً. فتاة عين قطيوط، أسية، فاطمة، لم أرَ إحداهن بعد.

استأنفت سيري. لم أستطع أن ألتفت نحوها مرّة أخرى. عيناي تدمعان. غمرني إحساس أنها ما زالت واقفة في إطار الباب تتأملني لآخر مرّة. قوة نفسية تمنعني من أن ألتفت إلى الخلف. فكرت أن هذه القوة التي تمنعني من الالتفات والرجوع إلى الكوخ ربما هي نفس القوة التي تبقيها واقفة تتأمّل اختفائي دون أن تستطيع هي أيضاً اللحاق بي لنرجع معاً إلى الكوخ أو لنمضي إلى مكان مجهول. أودع الكوخ لآخر مرّة. ربما أيضاً لن أرى أحداً من رفاق الكوخ[1].

(1) أكتب هذه المذكرات في سنة 1972. لم أر حتى الآن سلافة وصديقتها بشرى. لقد مضت عشرون عاماً. أخبرتني امرأة في سنة 63 أن سلافة وبشرى دخلتا معاً بورديل بوسبير في الدار البيضاء لتحترفا الدعارة رسمياً في نفس سنة 52. بعد شهور تزوجت بشرى نادل مقهى من مدينة الجديدة. بعد فشل زواجها عادت إلى نفس البورديل مع سلافة. لا أدري أين هما الآن.

11

كنت جالساً مع ليلى البوابة في غرفتها. للّازهور، صاحبة الدار، تخدمنا، أحياناً، بنفسها. منذ أن غادرت الكوخ وأنا أسكر. الفتيات في الطابق الأسفل لا يكففن عن الثرثرة. ضاجعت خلال ليلتين ثلاثاً منهن. رشيدة أفضلهن. تتلوّى في الفراش مثل حية. قال لي حميد الزيلاشي عن ليلى البوابة بأنها تبول في الفراش أثناء النوم. حدث له معها ذلك ذات ليلة. سأنام معها الليلة لأرى إن كانت حقاً تبول في الفراش.
صبّت ثمالة النبيذ من الزجاجة في الكأسين وقالت:

- سنطلب زجاجة أخرى، أليس كذلك؟

قلت لها شارداً:

- سنطلب زجاجة أخرى. أخرى وأخرى حتّى نسكر.

قامت ووقفت على عتبة الباب رافعة الستارة بيدها ونادت:

- للّازهور، آجي عندنا.

تركت الستارة تنسدل والتفتت إليّ قائلة:

- ما لك؟ إنك مهموم. هل وقع لك شيء؟ ألست مسروراً معي؟

قلت لها مع نفسي: ليس هناك ما يفعل في هذا الزمان غير أنت والخمر. أنت وسواك. نظرت إليها باسماً:

- أفكر في بعض الأشياء.

- مثل ماذا هذه الأشياء. .؟

جلست وابتسمت لي. أكره أن أتكلم حين لا أريد. أشعلت سيجارة وضعتها في فمي ثم أشعلت أخرى لنفسها. فكرت: هذه الحركة أفضل من الكلام عن لا شيء. تذكّرت سلافة. تأملت جسدها. جسدها أكثر امتلاء من جسد سلافة وأجمل. شعرها طويل، أسود وأملس. سأتغطى به. نزهت عيني في جسدها كله. قالت:

- ما لك تتأملني هكذا؟ ألا يعجبك؟

أكره المرأة حين تعتبر نفسها مثل سلعة.

- قلت لك بأني أفكر في بعض الأشياء.

- لا تفكر كثيراً في هذه الأشياء. إنك تبدو حزيناً. أهي امرأة تحبّها؟

- لا أعرف بعد ما هو الحبّ.

قالت للآزهور قبل أن تدخل:

- ها أنا جئت. خير إن شاء الله.

طلبت منها ليلى أن تدخل. فاحت منها رائحة عطر عربي قوية.

- ها أنا. ليلة سعيدة.

قالت ليلى:

- أعطينا زجاجة أخرى.

قلت لها:

- سأبيت مع ليلى. كم؟

- ستون بسيطة فقط. لغيرك لا أقلّ من مائة بسيطة.

دفعت لها الستين والخمس والعشرين ثمن الزجاجة الأخرى.

صوت فتاة تنادي من الطابق الأسفل على للآزهور.

- أنا جاية.

ثم قالت:

- أف! كم تصرخ رشيدة!

قالت وهي تهمّ أن تخرج:

- سأرسل لكما الزجاجة مع رشيدة أو عليوة العروسية.

خطوات ثم دقتان على الباب. قالت للآزهور:

- من؟

قال الصوت الذي أعرفه جيداً:

- أنا، هل ممكن؟

أزاحت للازهور الستارة جانباً وظهر القندوسي. قالت له للازهور:

- جانا الخير. أنت هو إذن. يعيش من يراك. ما هذه الغيبة. غبت عنا كثيراً.

قال لي:

- أنت هنا مختبئ وأنا أبحث عنك كالأحمق في كل مكان. هيا. قم.

قالت للازهور بلطفها كالعادة:

- آلسي القندوسي، اجلس معنا شوية. اشرب شي حاجة.

اعتذر لها ووعدها أن نعود غداً أو بعد غد.

عندما قمت سألتني للازهور:

- وأنت، هل ستعود هذه الليلة؟

قلت لها تلقائياً:

- طبعاً سأعود. ألم أدفع لك ثمن المبيت مع ليلى؟

قالت:

- دق على الباب إذا وجدته مقفلاً.

سألتني ليلى:

- متى ستعود؟

نظرت أنا إلى القندوسي، وقال لها هو بمرح:

- سيعود وقتما يشاء. إذا تأخر فنامي، لكن وحدك وليس مع زبون آخر.

ابتسمت ليلى. قالت للازهور:

- كن مطمئناً على صديقك. ليس لنا سبعة وجوه. وجهنا واحد مع الجميع.

هبطنا وتركنا للازهور مع ليلى. سألته في الدرج:

- أين هو الكبداني؟

- هذا ليس مكان الكلام. ستعرف كل ما حدث عندما نخرج.

في أزقّة حي بني شرقي التقينا بكثير من السكارى. أحياناً يتوقف ليصافح أحدهم. اكتشفت أنه يعرف كثيراً من الناس. كلهم يسلّمون عليه باحترام وودّ. كنا نسير دون أن نتكلم. عندما وصلنا ساحة السوق الداخلي سألني:

- في أي مقهى تريد أن نجلس؟ في الفوينتس؟ في السنترال أو في لااسبانيولا؟

تركت له الخيار. دخلنا السنترال. قبل أن نجلس طلبت كأس كونياك وطلب هو كأس جين. جلسنا في ركن خال. سألني:

- لكن أين كنت؟ لقد فتشت عنك في كل مكان.

- هنا في طنجة. أين تريد لي أن أكون؟

- وأين تنام؟

- عثرت على محل إقامة في القصبة، في طريق بنعبو.

- أليست هي الدار الملاصقة للمدرسة؟

- تماماً.

- إنك تسكن في مأوى اللصوص والمغامرين والبغايا.

- في الفنادق الأخرى طلبوا مني أوراق التعريف. أنا لا أملك أية أوراق.

صبّ لنا النادل الإسباني المشروبين في كأسين صغيرين. انسحب النادل وقال لي:

- الكبداني مات.

قلت بصوت ضعيف، فاتحاً عينيّ، فاغراً فمي:

- مات؟

- نعم مات. رحمة الله عليه.

شربت كأسي دفعة واحدة ثم ناديت على النادل. أشعلت سيجارة. شرب القندوسي كأسه.

قلت له:

- زجاجة كونياك كاملة.

وافق على أن نشرب معاً نفس الشراب.

- كيف مات؟

- عندما عاد كان المركب قد فرّ من زورق الجمرك. اضطر الكبداني أن يعود إلى الشاطئ. لقد اصطدم زورقه مع الصخور. عثروا عليه ميتاً وزورقه انقذف محطماً إلى الشاطئ.

جاءنا النادل بزجاجة التري. ملأ لنا الكأسين وانصرف.

سألته عن قابيل.

- مقبوض.

- لماذا؟

- يريدون أن يثبتوا عليه موت الكبداني. إنهم يعرفون أنه يعمل معه.

- والمركب؟

- أوقفه رجال الجمارك وفتشوه ثم سرحوه.

- وهل اعترف قابيل بشيء؟

- حتّى الآن لم يعترف لهم بشيء.

شربت كأسي وملأته.

- إنك ستسكر إذا استمررت بهذا الشكل. (أضاف): قل لي، لماذا تركت المفتاح لسلافة؟

- هي التي طلبته مني. لم أستطع أن أرفض. لقد كانت هي التي تحكم في الكوخ.

- أعرف هذا. (أضاف): لقد هربت. جمعت ما استطاعت أن تحمله معها وغادرت.

- إلى أين؟

- لا أعرف. ما هو مؤكد هو أنها غادرت طنجة. هكذا تنتهي دائماً العشرة مع القحاب.

- وبشرى؟

- لا بد أن تكون قد هربت معها. إنهما لا تفترقان منذ كانتا صغيرتين.

فكرت: لا بدّ أنهما ذهبتا معاً إلى الدار البيضاء. نظرت إلى ساحة السوق الداخلي والمقاهي الغاصّة بالليليين والسكارى وقلت له:

- لقد عادت الحالة إلى طبيعتها بعد الحادث المشؤوم.

- لكن الحالة السياسية ليست بخير في المغرب كله. لا بدّ أن تحدث حوادث أخرى أعنف من حادث 30 مارس.

لقد جاء الأوان الذي سيطالب فيه المغاربة بالاستقلال.

- الكبداني كان قد قال بأنه لم تمرّ غير ست جنائز والناس يعرفون أن عشرات من المغاربة قد قتلوا.

- هذا صحيح. لقد بدأت تظهر بعض الجثث التي يقذف بها البحر إلى الشواطئ.

- رموا إذن في البحر جثث الذين ماتوا في الحادث.

- معظم الناس يعتقدون أنهم رموا بعض المغاربة أحياء وجرحى في أكياس. بعض الجثث لم يكن ظاهراً عليها أية آثار للرصاص. عثر الناس على جثة شاب سليمة في شاطئ العرائش والقيد ما زال في يده.

- غريب.

- من المحتمل أن تظهر جثث أخرى.

شرب كأسه وقال:

- الحديث في هذه القضية طويل. عندي خمسمائة بسيطة أجرة عملك في تلك الليلة. كنت سأعطيها لك في هذه الليلة لكن من الأفضل أن أعطيها لك غداً.

- كما تريد.

- سأتركها لك عند سيدي مصطفى، صاحب قهوة الرقاصة. إنه رجل طيب وأمين، هل تعرفه؟

- نعم، لقد تردّدت على قهوته مرات.

فكرت: إنه يشفق عليّ أن أبدّدها في هذه الليلة.

- عندي شيء آخر أقوله لك.

- ما هو؟

- ينبغي لك أن تحافظ على سرّية عملنا. إن الحمّالين الثلاثة الذين عملوا معنا رجال شجعان. لا خوف منهم، لكننا لا نعرف ما قد يحدث. إذا قبضوا عليك واستجوبوك فأنكر تماماً أنك اشتغلت معنا. قد يضربونك، لكن عليك أن تصمد.

قلت معتدّاً بنفسي:

- كن مطمئناً.

- من حسن الحظ أنك لست معروفاً بين الحمّالين الذين يعملون في التهريب.

- ألا تظن أن قابيل قد يعترف إذا هم عذّبوه كثيراً؟

- إنهم حتماً سيضربونه، لكني لا أظن أنه سيعترف لهم.

- والسلعة؟

- سلّمناها لصاحبها الهنداوي في نفس الصباح.

بعد لحظة قال:

- من الأحسن أن تذهب وتنام الآن في فندقك، لكن حاول أن تغيّر مكان إقامتك. سأحاول أن أعثر لك على سكنى لا يتعدّى ثمن كرائها خمسين بسيطة في الشهر.

- والكوخ، من ينام فيه الآن؟

- لا أحد. لقد تركت سلافة المفتاح عند بقال الحي الذي يتعامل معه قابيل. لم يعد صالحاً لشيء ذلك الكوخ بعد أن قبضوا على قابيل.

- تقصد أن الكوخ ربما أصبح مراقباً من طرف الشرطة.

- مَن يعرف! محتمل.

نهضنا. الزجاجة ما زالت منصفة. قلت له:

- هل تسمح أن آخذها معي؟

- خذها، لكن إياك أن تعود عند ليلى البوالة هذه الليلة.

- لا أفكر في ذلك. سأذهب لأنام.

- إنك ما زلت شاباً وأيام الله طويلة.

تركته يدفع للنادل الحساب ووقفت خارج المقهى أنتظره. صافحني قائلاً.

- أظن أنك تستطيع أن تذهب وحدك إلى فندقك.

- لم أعد طفلاً.

ابتسم وانصرف. سلكت طريق التجارة. ألتقي في الدروب ببعض السكارى والبغايا واللوطيين. الساعة حوالي منتصف الليل. أترنح قليلاً.

في درج جنان قبطان اعترضني شاب سكران. الطريق خالية. التفت خلفه وقال لي:

- آ! الغزال! فأين ماشي؟

- شغلك؟

قال بهزء مادّاً يده إلى الزجاجة:

- وهذه الزجاجة في يدك، ألا نشربها معاً؟

قلت له بحدّة:

- اطلق يدك وامشِ فحالك.

تجنّبته لأمرّ. اعترضني بوقاحة قائلاً:

- أنا أسكن قريباً من هنا. في درب زينانة بالذات. تعال معي. سنقضي الليلة معاً. (أضاف بغزل سخيف، محاولاً أن يلمس وجهي): لماذا أنت هكذا صعب؟

قلت له بغضب:

- ماذا تريد مني بالضبط؟

- أن نقضي الليلة معاً.

قلت له ماسكاً الزجاجة من عنقها في يدي:

- لماذا لا تنام مع أمك أو أختك؟

صرخ كوحش:

- تسبّ لي الوالدة. لم تبقَ إلا أنت في حسابي.

تراجعت قليلاً إلى الوراء وهو يقترب مني. سدّد لي ركلة إلى

أسفل بطني. تقوّست حامياً أسفل بطني بيدي من ضربة أخرى ونجوم الألم تدور أمام عينيّ. ركلني مرّة أخرى في نفس المكان. سقطت متكوّراً على الدرج. تكسرت الزجاجة. بقي عنقها في يدي. تفاديت ركلة سدّدها إلى وجهي. أصابتني في يدي التي حميت بها وجهي. ركلات أخرى. أحاول ألا تصيبني إحداها في وجهي. صوت شابة تقول له من نافذة:

- كفاك! لا تضربه هكذا. إنه أصغر منك.

تفاديت ركلة قوية. فقد توازنه وسقط على قفاه. استجمعت قواي وقمت بسرعة وركلته في وجهه.

الشابة تقول:

- كفاكما! ستقتلان بعضكما.

يحمي وجهه وأنا أركله. حين ضربته بعنق الزجاجة على يديه اللتين يحمي بهما وجهه صرخ مثل حيوان:

- أيما وجهي! أيما وجهي! يلعن دينك!

هربت وتركته يصرخ ويسبّني. قالت الشابة:

- هذا ما كنتما تريدانه. هذا ما تريدانه.

سقطت مرات في الدرج. الدم يسيل من وجهي وركبتي ويدي التي أمسك بها عنق الزجاجة. كنت ما زلت أسمع صراخه عندما بلغت باب العصا. أخرجت منديلي ووضعته على أنفي. الدم يسيل من أنفي وفمي.

في مدخل درب بنعبو تعثّرت في العتبة ووقعت. تركت المنديل وعنق الزجاجة هناك. بذلت آخر جهدي لأبلغ باب الفندق. النافذة مفتوحة والغرفة مضاءة. ناديت بصوت مخنوق:

- الزيلاشي! انزل بسرعة!

أطلّ عليّ هو ونعيمة وفوزية. قال:

- محمد، مالك؟

- انزل بسرعة!

بعد لحظة فتح الباب ورأيته أمامي عاري القدمين ماسكاً سكيناً في يده.

- ما لك؟

قلت له ماسحاً دم وجهي بكم كبوطي:

- تعاركت مع سكير. أعتقد أنه يتبعني.

أطلّ بوشتا من النافذة:

- أنا نازل.

سألني الزيلاشي:

- هل هو وحده؟

قلت باصقاً دمي:

- نعم.

- أتمنّى أن يكون قد تبعك.

أترنح راكضاً خلفه. عند المنعطف قلّل من سرعته. توقف وأطلّ بحذر على مدخل الدرب ثم ركض وتوقف مرّة أخرى عند المنعطف الذي يؤدي إلى ساحة القصبة. سأل:

- أين تركته؟

- في درج جنان قبطان.

لحق بنا بوشتا. هو أيضاً كان حافي القدمين، ماسكاً هراوة. لم نجده. قالت لنا نفس الشابة من النافذة:

- لقد ذهب. كونوا عاقلين. إنكم أيقظتم سكان الحي.

نساء ورجال يطلّون علينا من النوافذ والسطوح. بقعة دم في المكان

الذي تركته فيه. تتبعنا آثار الدم عدة أمتار ثم توقفنا عند آخر نقطة من الدم. قال الزيلاشي:

- ليتنا نعرف من أين يكون قد سلك.

قلت له:

- كفى. لنرجع.

- لقد أفلت ولد القحبة.

في طريق عودتنا إلى الفندق قصصت عليهما من بداية اعتراضه طريقي حتّى اللحظة التي ضربته بعنق الزجاجة وهربت. بوشتا يمشي إلى جانبنا صامتاً. أعرف أنه لا يستطيع الاقتراب حتّى من دجاجة تحضن بيضها. مع ذلك وجوده معنا مشجع على مواجهة أية مفاجأة. سألني حميد:

- هل تعرف تلك الشابة التي كانت تكلمنا من النافذة؟

- لا، من تكون؟

- اسمها فتيحة الشريفة. زوجها كان شرطياً مسلولاً يتداوى في منزله. كان يتردّد عليه أحد أصدقائه من الشرطة. كانت تدخن وتشرب بإفراط مع صديق زوجها. أحياناً يدخن ويشرب معهما حتّى يتقيأ الدم. أظن أنه كان يعرف أن زوجته تخونه مع صديقه. ذات ليلة أخذ يغازلها أمامه. أراد أن يطعنه بسكين، لكن صديقه أخرج مسدسه وأطلق عليه النار.

سألته:

- وهل قتله؟

- مات في المستشفى.

- وهي، ماذا فعلوا لها؟

- أجروا معها تحقيقاً وسرحوها.

قال بوشتا:

- حكاية النساء في الحب دائماً قذرة.

قال حميد:

- لها معه طفلتان. لقد رباها المسيحيون حتّى جعلوا منها ممرضة في مستشفاهم التبشيري. تعرف ثلاث لغات أجنبية، لكن عقلها في فرجها مثل معظم النساء.

رأينا نعيمة المسرارة وفوزية العشاقة تطلان علينا من النافذة. قال حميد:

- نعيمة، افتحي الباب.

قالت:

- الباب غير مسدود. ادفعه.

عندما دخلنا سمعت أصواتاً وضحكات وشتائم داعرة. أدركت أن بعض النزلاء ما يزالون يسهرون في الطابق الأسفل والأعلى. خرج الحارس الليلي من حجرة في الطابق الأسفل والسيجارة في فمه. يبدو عليه أنه يشرب مع الجماعة الساهرة في تلك الحجرة. سألنا:

- هل الأمور بخير؟

قال حميد:

- يلعن دين الحياة والذي يحبّها.

صعدنا الدرج وتركناه واقفاً يتأملنا. دخلنا غرفتنا الكبيرة، التي جعل منها صاحب الفندق ثلاث غرف صغيرة بواسطة حاجزين خشبيين. كانوا يسهرون في غرفتي. حميد الزيلاشي وبوشتا يسهران، أحياناً، في غرفتي حتّى في غيبتي. كانت الغرفة الوحيدة في الفندق التي لها نافذة تطلّ على درب بنعبو. قال بوشتا لصديقته:

- فوزية، اهبطي إلى المطبخ وسخّني بعض الماء في الغلاية.

تنبّه حميد إلى تمزّق سروالي عند الركبة وقال:

- آجي معاي إلى الغرفة الأخرى.

دخلنا غرفته وفتح حقيبته. أخرج سروالاً من الصوف ومدّه لي قائلاً:

- انتظر حتّى تأتي فوزية بالماء الساخن لتنظف لك جروحك.

طلبت كأس كونياك. جاءت فوزية حاملة المغلاة. قالت نعيمة:

- ها هو الكونياك.

طلبت مني فوزية أن أخلع ثيابي. تردّدت. قالت:

- هل أنت حشمان؟

خلعت كبوطي وسروالي أمامهما وبقيت في الكلسون والقميص. مرفقي الأيسر منسلخ وملطخ بالدم. تركت لهما نفسي وتعاونتا على تنظيف جروحي بالماء الساخن والكونياك.

كان حميد يفتح زجاجة كونياك أخرى عندما سمعنا دقات قوية على الباب. أردت أن أنهض لأفتح الباب لكن حميد أمسكني قائلاً:

- اجلس مكانك. لا بدّ أن يكون قواد هو الذي يدقّ بهذا الشكل.

ترك الزجاجة من يده وقام. دقات أخرى قوية على الباب. قال حميد:

- من يدق؟

قال صوت بخشونة:

- افتح الباب.

شحب وَجْها نعيمة وفوزية. قالت نعيمة:

- البوليس. لا يمكن أن يدق الباب هكذا إلا البوليس.

قال لي بوشتا:

- خبي الزجاجة في مكان ما.

كنت جالساً على المطربة. بوشتا وفوزية ونعيمة كانوا جالسين على الفراش. أبقيت الزجاجة في يدي. لقد اضطربت. نهضت وأطللت من النافذة. رأيت شرطيين باللباس الرسمي واقفين قدام الباب. فتح حميد الباب ودخل شرطيان سرّيان. قال الأول:

- لماذا لم تفتح بسرعة؟ تكلموا.

طلب مني الزجاجة وأعطيتها له. فحصها قائلاً:

- تشربون كونياك تري إذن. أوراقك.

- لا أوراق لي.

التفت إلى بوشتا:

- وأنت.

أخرج بوشتا ورقة التعريف الشخصي ومدّها له. تأمّلها ووضعها في جيبه. التفت نحو الفتاتين وقال لهما:

- تقحبان في هذه السن الباكرة. البسا جلابيبكما بسرعة.

قيّدني الشرطي الثاني مع الزيلاشي. في الطابق الأسفل وجدنا هناك ثلاثة شبان وفتاتين يحرسهم شرطي سرّي. اثنان مقيدان مع بعضهما. أمسك الشرطي يد بوشتا وقيدها مع يد الشاب الذي كان ينتظر شريكه في القيد. نحن الستة سرنا إلى الأمام والفتيات خلفنا غير مقيدات سلكنا الطريق التي تقود إلى القصبة. صاح شرطي في شابين يتهامسان وراءنا:

- كفى من الكلام.

في ساحة القصبة كانت هناك سيارتا جيب. ركبنا نحن في سيارة وركبت النساء في الأخرى. ركب معنا ثلاثة شرطيين وركب الاثنان الآخران في الثانية. فكرت: إننا صيد ثمين لهم هذه الليلة. كنا متزاحمين في السيارة.

في سوق الزراع اتجهت بنا سيارتنا نحو القسم الجنائي واتجهت السيارة الأخرى نحو السوق البراني. لا شك سيذهبون بهن إلى مخفر السوق الداخلي.

أدخلونا إلى مكتب وفتشونا الواحد تلو الآخر. خلعوا لنا الأحزمة وسيور الأحذية والدراهم وتركوا لنا السجائر والوقيد. وجدوا عند أحد الثلاثة الذين قبضوهم معنا مقشطاً صغيراً. قال له الشرطي الذي فتشه:

- وهذا، ماذا تفعل؟ تكلم. سنرى فيما بعد.

بعد أن سجلوا أسماءنا، قادنا، أنا والزيلاشي، شرطي في ممرّ صغير والمفتاح في يده. توقفنا عند باب. قبل أن يفتحه لحق بنا شرطي كان قد ركب معنا في السيارة. فتح الشرطي الباب ودفعنا الآخر الذي كان يحرسنا في السيارة إلى داخل حجرة مضاءة. كان هناك ثلاثة مساجين آخرين. استيقظ اثنان منهم وظلّ الثالث نائماً. فكّ لنا الشرطي الذي دفعنا القيد ثم انسحب بسرعة وأغلق علينا الباب بعنف. فكرت: إن كل حركة هنا تشكل نوعاً من العقاب. دلكت رسغي الأيسر الذي كان يؤلمني قليلاً. تأملت الباب المصفح وفكرت: إن هذا الباب أكثر صلابة من البابين اللذين أغلقا عليّ من قبل. الأبواب تزداد صلابة. أخيراً ها أنا في سجن حقيقي. قال لي حميد الذي جلس على الأرض واضعاً ذراعه على ركبتيه:

- اجلس. (ثم أضاف): كل هذا يحدث بسبب الخمر والنساء في بلد مسلم يحكمه النصارى. لسنا مسلمين ولسنا نصارى.

جلست إلى جانبه قبالة الشابين المستيقظين. كانت الأرض باردة كالثلج. على الجدران وفي السقف علامات الرطوبة. في ركن كان هناك مرحاض مسطح وصنبور فوق ثقب المرحاض. فكرت: إن كل ما يحتاج إليه الواحد هنا يشكل عقاباً قاسياً.

بدأت الرائحة الكريهة تغثيني وأنا أتأمل المرحاض. أعطاني حميد

سيجارة شقراء ثم أعطى سيجارتين للشابين. كان الثالث الذي لم يستيقظ ينام في وضع مقرفص. سأل حميد أحدهما عن الشاب النائم:

- ما له؟

قال له:

- سكران.

- أحسن له في هذا البرد.

كانا يرتعشان برداً. سأل حميد:

- منذ متى وأنتما هنا؟

قال نفس الذي تكلم من قبل:

- قبضونا هذا المساء. كنا نلعب الورق في قهوة دبو.

كان الشاب الآخر يدخن في صمت خافضاً رأسه. لم يكن يرفع رأسه إلا ليرشف رشفة عميقة من سيجارته ثم يخفض رأسه إلى الأرض. الدخان ينفثه ضعيفاً كالزفير في صباح بارد.

في الصباح بدأنا كلنا نرتعش برداً. نخفي وجوهنا بين الركبتين كلما قام أحدنا ليتغوط أو يبول. الرائحة الكريهة تزداد في المرحاض. أنا وحميد والشاب الثالث الذي وجدناه في الليل نائماً شربنا كثيراً من الماء. دائماً يحدث لي مثل هذا العطش في الصباح حينما أسكر. وقف حميد وأخذ يقوم بحركات رياضية. كان مرحاً. قال لي:

- قمْ وافعل مثلي إذا أردت أن تتدفأ.

قلت له بتعب:

- ليس الآن.

الأشخاص الآخرون يتطلعون إليه كلما قام بحركة عنيفة. كنت أنظر إليه باستمرار. قال لي:

- انهض. إنك كسول. ليس أحسن من هذه الحركات لطرد البرد والتعب.

- إن جروح ركبتي ومرفقي تؤلمني. سيسيل منها الدم إذا أنا قمت بنفس هذه الحركات.

بدأ يلهث وحركاته تثقل وتتباطأ. ذهب إلى ثقب المرحاض وبصق. فتح صنبور الماء وغسل وجهه ويديه ومسد شعر رأسه بقليل من الماء. أقعى وبال وغسل عضوه ويده التي أمسك بها شيئه. شرب قليلاً من الماء وعاد يجلس في مكانه واضعاً يديه فوق ركبتيه. كانت قطرات الماء تتساقط من أطراف أصابعه وذقنه. خفض رأسه. تنفسه يهدأ. رفع رأسه إليّ. تبادلنا نظرات باسمة ثم أطلق ضحكة عالية. لم أستطع أنا أيضاً أن أكتم ضحكتي. قال:

- أولاد القحاب. اصطادونا كما تصطاد القطط الفئران.

سألته:

- أين تظن أنهم أخذوا الفتيات؟

- إلى كوميساريا السوق الداخلي.

- هل تعتقد أنهم سيحاكموننا بتهمة الفساد؟

- لا أعتقد. إننا لم نقم بأية فوضى. لقد وجدونا نسكر فقط مع قحبتين.

- كم من أيام تظن أننا سنبقى هنا؟

- حتّى يوم الإثنين أو الثلاثاء. على الأكثر. اليوم السبت.

بعد لحظة قال:

- أنت محظوظ. (أضاف): وكذلك بوشتا. إنه مجرّد خياط.

قلت له بدهشة:

- أنا محظوظ؟

- نعم. ليس لك سوابق ولم تدخل قط السجن. أما أنا فلي سوابق وقد يتهمونني بسرقة جديدة لم أرتكبها.

- لماذا لم يحبسوا بوشتا معنا هنا؟

- إنها مجرّد صدفة. ما أظنهم أخذوه إلى حجرة أخرى عمداً. سيسرحونه هو أيضاً يوم الإثنين أو الثلاثاء.

- بهذه السهولة؟

- سترى. أنا أعرف جيداً كيف يتصرفون.

بعد لحظة سألته:

- ونعيمة وفوزية؟

- هما أيضاً ستخرجان. في أسوأ الأحوال سيرغمونهما على الدخول إلى البورديل إجبارياً لكي تخضعا للمراقبة الطبية مرّة كل أسبوع. أعتقد أن بوشتا سيتزوج فوزية.

- هل يحبّها؟

- لا أدري، لكنه قال إنه يريد أن يعيش معها.

- وأنت؟

- ماذا تقصد؟

- علاقتك مع نعيمة.

دَوَّرَ سبابته على صدغه وقال:

- أنت أحمق. إنها مثل بقية القحاب اللواتي عرفتهن. لم أخلق لأتزوج قحبة.

سمعت خطوات قرب الباب. التفتنا جميعاً صوب الباب. فتحت الكوة الصغيرة. فتح الباب بصخب وسرعة. فكرت: إنهم يتعمدون مثل هذا الصخب والسرعة ليخيفونا. هذا الفعل يشكل أيضاً جزءاً من العقاب.

دخل رجلان هرمان: واحد يحمل غلاية كبيرة وقفة فيها أكواب من الصفيح والآخر كيساً أبيض من القماش فيه خبز. حيّانا الرجلان ووقف

شرطي خلفهما. تسلّمنا منهما خبزة وكوب شاي أخضر لكل واحد منا. قال لنا الشرطي:

- لكم ربع ساعة لتفرغوا الأكواب.

انسحب الرجلان وأقفل الشرطي الباب. الكوة الصغيرة تركت مفتوحة. كان الشاي والخبز الأسود ساخنين. كنا نأكل صامتين.

قال: في مثل هذه الساعة.

هززت له رأسي. بعدما انتهينا من الأكل أعطى حميد سيجارة للآخرين ليدخنوها فيما بينهم. هو وأنا تناوبنا على تدخين سيجارة أخرى. الشابان اللذان قبضوهما في قهوة دبو لم يتركا شيئاً من خبزهما. الشاب الثالث وفّر أكثر من نصف خبزته. كذلك فعلت أنا وحميد. قمت إلى الصنبور وشربت كثيراً. في الصباح يحل العطش محل شهية الأكل. هذا ما يحدث لي كلما سكرت. ندخن في صمت. الدفء يشيع في جسمي. ندخن ونحسو بقية الشاي جرعة تلو جرعة. ربما الكوة المفتوحة هي التي فرضت علينا هذا الصمت. فكرت: كيف ستصير حياتنا في المستقبل لو كان محكوماً علينا أن نقضي حياتنا في هذا الوضع وفي هذه الحجرة؟ لا شكّ أننا سنظلّ نمثّل أدوار حياتنا حتّى نملّ ماضينا وحاضرنا. سننتهي إلى صمت أبدي. سنختفي الواحد أثر الآخر. أتعسنا هو الأخير في الاختفاء.

فتح الباب ودخل الرجل الذي حمل لنا الشاي. وقف شرطي الحراسة خلفه. شربنا ثمالة الأكواب بسرعة ووضعناها له في قفته التي حملها معه. كان فيها أكواب أخرى. قال لنا منسحباً:

- الله يعفو عليكم وعلينا.

قال له بعضنا:

- آمين!

أغلق الشرطي الباب والكوة بصخب. فكرت: لم تعد هذه الحركات العنيفة تثير في أية رهبة. مع الزمن قد لا تثير حتّى الالتفات إليها، وكذلك وضعنا هذا.

أخرج حميد قلم رصاص صغيراً وأخذ يكتب على الحائط. سألته:

- ماذا تكتب؟

- أكتب بيتين للشاعر التونسي أبي القاسم الشابي.

- ماذا يقول هذا الشاعر؟

- هذا ما يقوله:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة   فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بدّ لليل أن ينجلي   ولا بدّ للقيد أن ينكسر

قلت له بإعجاب:

- عظيم.

- هل تفهم ما يقول؟

- كلا، لكنه عظيم. أُحسّ أنه عظيم. (أضفت): ما معنى الذي يقوله؟

- إرادة الحياة، هذا هو معنى ما يقوله.

- وما معنى إرادة الحياة؟

- إرادة الحياة معناها هو أنه إذا كان هناك شعب مستعبَد أو إنسان ما وأراد أن يتحرر فإن الله يستجيب له، والفجر يستجيب والقيد يتهرس بقوة إرادة الإنسان.

- إنني أفهم الآن.

لاحظت أن الرفاق كانوا يتبعون باهتمام ما يقوله حميد. قلت له:

- إنك محظوظ.

قال مندهشاً:

- أنا محظوظ؟
- نعم، أنت محظوظ.
- لماذا؟
- لأنك تعرف كيف تقرأ وتكتب.
- أنت أيضاً يمكن لك أن تتعلم إذا شئت.

كتبت شيئاً آخر على الحائط وسألني، واضعاً رأس قلم الرصاص القصير على الحرف الأول:

- ما هذا؟
- لا أدري.
- هذا ألف.

ثم أشار إلى الحرف الثاني:

- وهذا؟
- لا أدري.
- هذا حرف باء. وهذا؟
- التاء.

سألني بدهشة:

- كيف عرفت؟
- لأنني سمعت الناس دائماً يقولون: ألف، باء، تاء...
- عندك الحق.

رددت معه الحروف الثلاثة وقال:

- من هذه الحروف الثلاثة يمكن لنا أن نستخرج بعض الكلمات مثل: أب، باب، بات، إلخ...

جلس وقال:

- ذات يوم سأعلمك القراءة والكتابة. عندك استعداد لكي تتعلم.

طلبت منه أن يعيد عليّ البيتين للشاعر التونسي عدة مرات حتّى حفظتهما.

في المساء، أخذ الشاب الثالث يتمشّى في الحجرة متوتراً. كنا جالسين صامتين. أمسك كسرة خبزه التي وفّرها في الصباح وفتتها ثم رماها في ثقب المرحاض. نظرت إلى حميد. قال لي بهمس:

- ليس شغلنا. ليفعل بخبزه وبنفسه ما يشاء.

كان الشابان يتأملان الشاب العصبي بغضب. فكرت: ستحدث مشادة إذا أتى هذا الشاب بحماقة أخرى.

قال له أحد الشابين:

- لماذا رميت الخبز في المرحاض؟

أجاب بحدّة:

- أنا حر في أن أفعل بخبزي ما أشاء.

- لكنك رميت نعمة الله.

- أنا حر. بيني وبين الله.

- إنك خراء.

- أنت هو الخراء.

خطا خطوتين وراح يضرب يديه ورأسه مع الحائط حتّى سقط مغشياً عليه والدم يسيل من جبهته ويديه. قام حميد ودقّ على الباب بعنف. فتحت الكوة وسأل شرطي الحراسة:

- ماذا وقع؟

- هناك واحد ضرب نفسه مع الحائط. الدم يسيل منه.

عاد ليجلس وقال:

- هذا فقط ما يجب علينا أن نفعله.

قال نفس الشاب الذي كان قد عاب عليه ما فعله بخبزه:

- هذا هو عقاب الله في حينه.

فتح الباب ودخل شرطيان سرّيان وشرطي الحراسة باللباس الرسمي. سأل الشرطي السرّي الأول:

- ماذا وقع هنا؟

قال له حميد:

- فتت كسرة خبزه ورماها في المرحاض ثم طفق يضرب رأسه ويديه مع الحائط.

سأل الشرطي الثاني:

- وماذا حدث قبل ذلك؟

قال له حميد:

- لا شيء.

- ألم يتشاجر مع أحد؟

نظر حميد نحونا ثم التفت إليهم:

- أبداً. اسألوه عندما يفيق.

اقترب الشرطي السرّي الأول وتأمّل لطخات الدم على الحائط. قال الثاني:

- سنرى فيما بعد أن لم يكن قد تخاصم مع أحدكم قبل أن يضرب نفسه.

كان هامداً والدم ينزف من جروحه. خرجوا وأقفل الباب. تركت الكوة مفتوحة. بعد حوالي ربع ساعة دخل الشرطة الثلاثة ورجلا إسعاف وحملاه في نقالة. كان ما زال مغمى عليه. تخلفت في مكانه بقع دم. أغلق الباب وتركت الكوة مفتوحة. قلت لهم:

- لا بدّ أنه مريض.

قال حميد:

- ليفعل بنفسه ما يشاء. (أضاف): يبدو أنه مدمن على الخمر أو الكيف.

قال الشاب الأول:

- إنه سخط الله أو سخط الوالدين.

قال الثاني:

- كل واحد يعاقبه الله على أفعاله.

كانت سجائرنا قد نفدت. الأعقاب التي رميناها كانت قصيرة جداً. التقطت واحداً ودخنته.

صباح الإثنين استيقظنا منهكين. كان الشابان مقرفصين. لم يقم حميد بحركاته الرياضية. كان شاحباً، لكنه أقلّنا تعباً. ربما يكون متعوّداً على الحبس. شعرت برغبة في القيء. إذا تغوّط أحد الرفاق فإني حتماً سأقيء. حالتي تذكّرني بظهيرة ذلك اليوم في مرفأ الصيادين.

فتح الباب ونادى شرطي الحراسة على اسمي. حين وقفت شعرت بدوخة وتعب في ركبتي. ودعتهم رغم أني لم أكن واثقاً من تسريحي. تبعت الشرطي إلى الطابق الأعلى وأنا أجرّ حذائي بلا سيرين. كان مجرّد خروجي من تلك الحجرة يعني لي نصف حريتي. أدخلني الشرطي إلى غرفة تنتصب وسطها آلة تصوير كبيرة. انسحب الشرطي وأمرني المصور أن أجلس على المقعد المقابل لآلة التصوير. الغرفة دافئة. الحجرة التي خرجت منها تشبه ثلاجة. اقترب مني وسوّى وضعي أمام الآلة. وقف وراءها وأمرني أن أنظر إلى عدستها ولا أتحرك. أخذ لي صورتين أخريين جانبيتين. لا بدّ أن يجعلوا لي ملفاً عندهم هنا.

سألني عن اسمي ثم أراني كيف أضع إصبعاً إثر إصبع في المدادية وكيف أطبع بصماتي في ورقة بيضاء مقواة. دخل شرطي سرّي وتكلم مع المصور المغربي. تارة يتكلمان بالفرنسية وتارة بالإسبانية. حين

انتهى ألقى نظرة على ورقة مكتوبة وسألني إن كنت أعرف كيف أوقّع اسمي. أجبته بالنفي. قال الشرطي السرّي بالإسبانية:

- كيف تطلب منه ذلك! إنه مثل معظم المغاربة.

قال له المصور بالإسبانية:

- هذا طبيعي.

أمرني المصور أن أطبع إبهامي في المدادية وأوقّع في أسفل الورقة المكتوبة. لم أجرؤ أن أسأله عما هو مكتوب فيها، لكني قلت له بأنني لم أفعل شيئاً خطيراً. قال لي:

- هذا ليس شغلي. اهبط الآن عند الشرطي الذي صحبك إلى هنا.

سألني الشرطي السرّي بالإسبانية عن العمل الذي أمارسه. قلت له بالإسبانية:

- نادا (لا شيء).

قال:

- وبماذا تعيش إذا كنت لا تمارس أي عمل؟

- هكذا. (أضفت): إنني أمارس أي عمل أعثر عليه.

- اذهبْ الآن.

خرجت أجرّ حذائي. في الطابق الأسفل لم أجد شرطي الحراسة. ظللت واقفاً في الممر والباب مفتوح أمامي. أرى الناس يمرّون في الخارج. دخل رجلان باللباس المدني وتخطّياني. لا بدّ أنهما شرطيان سرّيان.

خرج شرطي الحراسة من مكتب وسألني:

- هل انتهى معك المصور؟

- نعم.

قادني إلى نفس المكتب الذي خرج منه. كان هناك اثنان آخران. جعلوني أوقّع بإبهامي ورقة أخرى مكتوبة. أعطيت اسمي لأحدهما وسلّم لي نقودي وحزامي وسيري حذائي. فكرت: ماذا كتبوا أيضاً عني في هذه الورقة؟ في استطاعتهم أن يكتبوا عني ما يشاؤون ما دمت لا أستطيع أن أقرأ ما هو مكتوب في تلك الورقة. لا أجرؤ أن أطلب منهم أن يأتوا لي بمن يقرأها لي قبل أن أوقّعها. قد يعيدونني إلى السجن إذا أنا طلبت منهم ذلك. قال لي شرطي الحراسة:

- انصرف الآن.

خرجت من المكتب ناسياً تعبي وغثياني. عند الباب اصطدمت بشخص. اعتذرت له. دفعني فاصطدمت مع الجدار.

- شف قدامك يا هاد الحمار.

تخطّاني وانحنيت لأعيد إلى قدمي الفردة التي أفلتت. فكرت: لا يمكن أن يسبّ هكذا، في هذا المكان، سوى الشرطة.

في الخارج، عقدت سيري حذائي وحزامي. كان يوماً بارداً ومشمساً. تنفست بعمق ومشيت.

في السوق الكبير دخلت مطعماً لبيع البيصر وأنا أفكر في النقود التي تركها لي القندوسي عند صاحب قهوة الرقاصة.

12

رنّ جرس المنبه. مددت يدي في الظلام وأوقفته. نهضت وأشعلت الضوء. كانت الخامسة صباحاً. النوم ما زال لذيذاً في عينيّ. بعد ساعة ستدخل الباخرة. نظرت إلى نعيمة النائمة بلا هموم. أكره العيش مع امرأة لا تشغل نفسها بشيء. لا عمل لها سوى أن تفتح لي أو لغيري فخذيها. بوشتا تزوج فوزية. ربما تظن أيضاً أنني سأتزوجها. كلهن هكذا: لا يكاد الواحد يبدأ العيش مع إحداهن حتّى توقعه في فخ انتفاخ البطن. إنهن لا يتخذن أي احتياط عمداً. لكن ليس لدي ما أخسر. إذا وقعت في فخها فسأهجر هذه المدينة إلى مدينة أخرى وأتركها تسقط في فخها. لبست ثيابي وحملت قفة السلعة. أطفئ الضوء. خرجت بهدوء.

في الطابق الأسفل غسلت وجهي بماء بارد كالثلج. أيقظت الحارس بحذر. ضرب بيده في الهواء كعادته عندما يكون نائماً ويوقظه أحد، لأنه يشعر أنه دائماً مهاجم. نظر إليّ جاحظ العينين دون أن يتكلم.

- عبد السلام. أنا شكري. سأخرج. قم لتقفل الباب.

أرسل شهيقاً ثم نزل من فراشه متعباً. تقدمّني وفتح الباب الخارجي. فاحت منه رائحة خمر. قال لي وأنا أخرج:

- الله يعاون.

حييته ومضيت في الدرب الهادئ. صباح بنفسجي. لقد ابتلع الليل البؤس. المحظوظون لا يستيقظون في هذه الساعة للعمل. إنهم الآن كالنفايات في الأمعاء. توقفت في عقبة باب العصا وألقيت نظرة على البحر. إنه هائج قليلاً.

في مرفأ الميناء رأيت بوصوف واقفاً قدام كشك يتناول فنجاناً من البيصرة الساخنة. كان هناك عمال يفطرون وآخرون يدخنون الكيف والسجائر. حييته وطلبت فنجاناً لي. اتفقت معه على أن يعمل معي مقابل ثلاثة آلاف فرنك. قال:

- سمعت البارحة أن العنابر ستكون غاصة باليهود المهاجرين إلى فلسطين.

- الجنود الفرنسيون والداكاريون الذاهبون إلى الجزائر يهمونني أكثر. إنهم لا يساومون كثيراً في الأثمان. اليهود معظمهم تجار. حتّى الذين ليسوا تجاراً يفهمون في التجارة.

- لكنهم يغادرون المغرب إلى الأبد ولا بدّ أن يشتروا بعض الهدايا من آخر مدينة مغربية يقلعون منها.

- سنرى.

مشينا إلى المرفأ ونزلنا إلى الزورق. أخذ يجذف ببطء. تذكّرت وهران وذلك الشيخ الذي كان يصرخ في بعتاب: «هيا! انتبه إلى اليمين أيها الريفي الكسول. النوم ما زال في عينيك. سأقول للمسيو سيجوندي أن يأخذك إلى زوجته لتساعدها في قشر البطاطا. أضرب البغلين جيداً. إنك لا تصلح إلا لقشر البطاطا وغسل الصحون...» في مثل هذه الساعة كنا نخرج إلى حقل الدوالي لنعمل. كان الشيخ يثرثر: إن لم يشتمني فإنه يشتم سكة المحراث أو المقوم الذي تنزلق عليه قبضتاه أحياناً من شدة العرق وقبضتاي هما الأخريان تشدان بقوة على زمام

البغلين حتّى أحس كأن في راحتي أشواكاً تنغرز. لولا فعلي مع ذلك الغلام الجميل في الحقل لكنت الآن ما زلت في وهران. كنت هناك أتذكر وجه أمي في وجه خالتي. اليوم أدرك جيداً لماذا كانت تعاملني بلطف. لقد كانت بلا أطفال.

قال بوصوف:

- انظر، الباخرة تدخل الميناء.

توقف عن التجذيف. انتشل المجذاف ووضع عروته في القائم الآخر. أخذنا نجذف معاً. قال:

- الباخرة غاصة بالجنود.

عندما اقتربنا من الباخرة صاح جندي بالفرنسية:

- ايه، ماذا عندكما للبيع؟

أشرت للجنود أن ينتظروا. أخرج بوصوف لفة الحبل وهيّأه في يده لرميه. صحت فيهم:

- أمسكوا الحبل.

امتدّت بعض الأيدي لتلقف رأس الحبل المثقل بعدة عُقد. رمى بوصوف رأس الحبل بقوة. أمسكه جندي زنجي. قلت للسينيغالي بالفرنسية:

- اربط الحبل جيداً.

صاح بعض الجنود:

- هيا، اطلع.

بدأت أتسلق الحبل بخفة. كانت بعض الأصوات تصيح:

- آليه، كوراج، برافو!

- تري بيان!

ساعدني على القفز إلى سطح الباخرة جندي داكاري. كان

بوصوف قد ربط القفة في ذيل الحبل عندما صعدت. بدأت أسحب القفة إلى الباخرة. سألني جندي سينيغالي:

- ماذا عندك للبيع أيها الرفيق؟

قلت له دون أن ألتفت إليه:

- ساعات سويسرية، شالات، مناديل يابانية وقداحات. ساعدني جندي فرنسي على إنزال القفة وقال:

- هيا، أرنا ما عندك.

أخرجت علبة الساعات وتركت الأشياء الأخرى في القفة. قلت لهم:

- هذه هي الساعات.

- كم هذه؟

- خمسة آلاف فرنك.

- أليست زائفة؟

- لا أبيع ساعات زائفة.

- ثلاثة آلاف.

- أربعة آلاف.

- لا. أعطيك ثلاثة.

- خذها، إنها لك.

فكرت: يكفي أن يشتري أحدهم ليصاب الآخرون بهوس الشراء. كانت الساعات تطير من يدي الواحدة تلو الأخرى وجيوبي تمتلئ بالأوراق المالية. عاد إليّ جندي نادم وقال لي:

- ردّ لي نقودي وهاك ساعتك.

فكرت: إذا انهزمت أمامه وأعدت له نقوده فيصاب بهوس الندم كل الذين اشتروا من عندي. قلت له:

- لماذا؟

- قالوا لي بأن ساعتك هذه زائفة.

- اسمع، إن الذي قال لك هذا لا يملك ثمناً لشراء مثل ساعتك الجميلة هذه.

- ألن تردّ لي نقودي؟

- كن رجلاً. إنك اشتريتها باختيارك.

تصوّبت عشرات العيون تجاهي بريبة. نحنح بعضهم. قال الجندي الفرنسي الأشقر:

- طيب، سأحتفظ بها.

انسحبت إلى عنابر اليهود. رائحة قيء ورطوبة. قالت امرأة يهودية بصوت متعب:

- ماذا تبيع أيها الولد؟

- شالات ومناديل يابانية.

تجمّعت حولي يهوديات أخريات. قالت يهودية شابة:

- أرنا إذن ما قفتك.

صاحت أخرى بفرح إلى جانب أمها:

- ماما، كم هو جميل لون هذا الشال!

سألتني أمها عن ثمنه.

- ألف فرنك.

- سبعمائة.

إذا لم أسرع في البيع سأخسر كل شيء. قال شيخ ذو لحية رمادية مدببة، بطنه بارزة:

- إن نسيج هذه الشالات رخيص. يكفي أن تغسل مرّة واحدة لتفقد لونها.

التفتت إليه زوجته:

- اسكت أنت. هذه أشياء تخص النساء.

أضاف الشيخ:

- إنني أعرف جيداً هذه البضاعة التي يبيعها الهنود هنا في طنجة بالجملة.

فكرت: البيع والشراء دائماً صعب مع الشيوخ. إنهم يزعمون، في غرور، أنهم يعرفون كل شيء.

أخذت النساء اليهوديات يتجمّعن حولي ويشترين مني دون أن يأبهن لما يقوله ذلك الشيخ. سمعته يقول لهن: «إنكن حمقاوات. أنتن تشترين أرخص سلعة رأيتها...»

الألوان تطير من يدي وحموضة الروائح تملأ داخلي بالغثيان. سمعت ارتطاماً قوياً. الباخرة ترسو. قبضت ثمن آخر شال وبدأت أنسحب وسط صياحات النساء: «عد إلينا بمزيد من البضاعة».

عندما صعدت إلى السطح صاح جندي سينيغالي في ظهري من بعيد:

- ايه أنت! انتظرني هناك!

لا بدّ أنه يردّ لي الساعة التي اشتراها مني. رأيت حول رامي حلقة جنود. الملعون، الذي لا يصحو قط من السكر، يبيع لهم الساعات بنصف الثمن الذي بعت لهم به. هذه عادته. قلت له:

- أنت دائماً قواد.

قال:

- مع مَن أنت تتكلم؟

- مع اسْتِك.

- عندما نتقابل في المدينة سأريك مَن أكون.

- سأبصق لك في عين مؤخرتك.

اقترب بوصوف بسرعة من الباخرة. ألقيت القفة إلى الزورق. انزلقت في الحبل. راحتاي تنسلخان. انقطع الحبل وهويت في وسط الزورق. صاح بوصوف:

- تفو على هذا البيع والشراء. لقد انشقّ زورقي.

- الجندي السينيغالي، ابن القحبة، هو الذي قطع الحبل.

- تفو على خدمة الزب هذه!

- جذف بسرعة. سيقذفوننا بأي شيء. ليست هذه أول مرّة. إني أعرف هؤلاء الجنود، أولاد الزنا.

صاح بوصوف:

- انتبه!

تفادينا زجاجة بيرة فارغة. صاح بوصوف:

- امسك أحد الألواح لنحتمي بها.

أمسكت لوحاً. سمعت زنجياً يشتمنا بصوت عال ويخنق أحدنا في الفراغ. إنه بلا شكّ يخنقني. تلقيت زجاجتين متتابعتين. صرخت:

- آي! يدي، يلعن دينهم!

رميت اللوح. طفا بعيداً. لحست جرحي. مضى وقت طويل لم أرَ فيه دمي يسيل بهذا الألم الحلو. طعمه ملح وسكر في فمي. بدأت أحس بوخزات مؤلمة في مؤخرتي المتنملة. تخلّى بوصوف عن التجذيف. كنا قد ابتعدنا عن الباخرة. وقف. قبض على أسفل بطنه وراح يصيح:

- خذوا، شدوا لي في هذا!

- كفى. أي جدوى فيما تفعله الآن. إن التيار ضدنا.

أخَذْنا نجذف معاً. بعد لحظة قال:

- لكن ماذا فعلت لهم؟

- لا شيء. إن رامي هو سبب كل ما حدث.

- ماذا فعل؟

- إنه يخفض دائماً أثمان الساعات. سأبول له في اسْته عندما ألقاه في المدينة.

- ألم تتحدث معهم عن الحرب في المغرب والجزائر؟

- أبداً. قلت لك إن رامي هو السبب.

- ومع اليهود؟

- قلت لك لم أتكلم عن السياسة مع النصارى أو مع اليهود. هل تريدني أن أقول للفرنسيين والسينيغاليين ألا يذهبوا إلى الجزائر ولليهود ألا يهاجروا إلى فلسطين؟

التيار يجرفنا والريح تقوى. انكسر مجذاف بوصوف. بقي في يده نصفه. قال:

- تفو! كل هذا من أجل آلافك الثلاثة.

- ليست لومتي.

أخذ الماء ينصب في الزورق مع كل موجة قوية. قلت:

- اسمع، تكلف أنت بإفراغ الماء. أنا سأضع المجذاف في المؤخرة لأوجه الزورق في الاتجاه المناسب.

- سيجرفنا التيار إلى صخور المنار إذا لم نعرف كيف نسير معه.

- سنتدبر أمرنا عندما نقترب من الشاطئ.

- إن حياتي مرتبطة بهذا الزورق، وهو ليس زورقي.

- لن يجرفنا التيار أبعد من فيلا هارز.

- أنت ستريني في تيارات هذا البحر. إنك لا تعرف شيئاً عن هذا. (أضاف): لكن قل لي، كم ستعوض لي إذا انكسر زورقي أو ضاع؟

- سنحاول أن نصل بسلام.

- أريد أن أعرف مسبقاً كم سأقبض.

- سأعطيك ضعف المبلغ الذي اتفقنا عليه إذا حدث فيه أي عطب.

- ستة آلاف.

- نعم.

- من أجل ستة آلاف...

ارتجّ الزورق بعنف. سقط إلى الخلف. قبضت على المجذاف وهويت على كتفه اليمنى ثم على الكتف الأخرى. صرخ:

- جبان! يلعن دينك.

- إذا لم تسكت سأقذفك إلى الماء.

- يلعن دينك. سترى فيما بعد عندما نصل.

قبضت بيدي على أسفل بطني وقلت له:

- سترضع لي هذا.

كان منهزماً في المقدمة فوق المقعد. فككت حزامي لأربط به المجذاف في مؤخرة الزورق. غافلني وضربني بنصف المجذاف الذي كان قدامه. تفاديت الضربة وسقطت الهراوة من يده. تخانقنا. صعدت له ضربة ركبة إلى أسفل بطنه، ثم دفعته إلى الوراء. أمسكت الهراوة لأهوي بها عليه. أخذ يصرخ برعب:

- لا، أرجوك لا...

شحب لونه وجحظت عيناه من الرعب. قلت له:

- إذا لم تكفّ سأقذفك إلى الماء.

كان المجذاف الآخر يطفو بعيداً عنا. أمسكت الهراوة بيدي اليمنى وبيدي الأخرى أخذت أفرغ الماء بعلبة من الصفيح. كان الزورق يدور

ويدور في مكانه أحياناً. بعد لحظة رميت له العلبة وأمرته:

- إنها الآن نوبتك.

أمسك العلبة وطفق يفرغ الماء بهدوء. فكرت في نعيمة: ربما ما زالت تنام. إنها الآن تستريح وتحلم إذا لم تكن قد استيقظت. ما هو بيننا ليس الحب. هذا أكيد. العادة هي التي آلفتنا. أشكّ أني أحبّ لامبالاتها. عندما ستصحو ستغتسل وتنزل إلى الطابق الأسفل في ثياب النوم لتثرثر مع الحارس أو مع صاحب المحل الكسيح. إذا أغراها أحد المقيمين في الفندق كي تنام معه فلا أظن أنها سترفض. قالت لي ذات مرّة: «أنا لا أفهم الحب إلا في الزواج». قلت لها: «وأنا أخاف أن يموت حبّي في الزواج». إن ما يجعلنا نستمرّ معاً هو أن كلانا ليس ملكاً للآخر كلياً. هكذا يظلّ الشوق بيننا.

كنا نقترب من شاطئ فيلا هارز. الأمواج تعلو وتنكسر. الماء عكر. كنت قد سمعت من الصيادين أن كلب البحر لا يقترب من المياه العكرة.

تهيّأنا لنقفز. قفزت أنا الأول. سبحت تحت الماء حتّى كدت أختنق. رفعت رأسي فوق الماء والتفتُّ ورائي. كان بوصوف يتبعني عن قرب. الأمواج ترفعني عالياً ثم أنحدر معها كأني أسقط في هاوية. فكرت: إنني الآن أحمل موتي فوق كتفي. عندما زرت صديقي مانولو في المستشفى الإسباني سمعته يقول في ألم: «خلّصني من هذا العذاب يا ربّ..» كان مصاباً بمرض قاتل في رئتيه فأراد أن ينتحر، لكنه لم يستطع لأن موته كان محروساً بالراهبات. ابتلعت قليلاً من الماء. يجب ألا أفكر في شيء حتّى لا أغرق. ظللت لحظة أسبح كأني في بئر. استعدت تنفسي. سبرت الغور. لمستْ قدماي الرمل. وقفتُ. دفعتني موجة قوية. ابتلعت الماء. خرجت إلى الشاطئ. صحت في بوصوف:

- قف على قدميك. إن القد موجود هناك.

انبطحت على الرمل ليهدأ لهاثي. لم أدرِ إذا كان قد سمعني أم لا. ظل يسبح حتّى حافة الشاطئ. الزورق ينقذف بعيداً عنا.

عندما خرج ألقى نظرة على زورقه ثم نظر إليّ بغضب. لم يكن متعباً مثلي. نهضت وفكرت: إنه ينظر إليّ الآن كأني خروفه الذي سيشويه. طز في الذي خرأه. إذا خشيته فحتماً سأنهزم. سيسلبني كل شيء ويركب على ظهري إذا غلبني. سيتركني هنا عارياً ويذهب. اقترب مني. تراجعت إلى الوراء. قال:

- تعالَ لنرَ ما سيحدث للزورق.

مشى أمامي وأنا خلفه على بعد خطوات منه. كان الزورق ينقذف فوق الرمل. . أخذنا نسحبه إلى الرمل بصعوبة، لم أفقد حذري منه. إنه أقوى. قد يغافلني بضربة تطرحني تحت قدميه. عندما استقرّ الزورق فوق الرمال قال:

- لا بدّ أن شقوقاً قد حدثت فيه.

- أين هي؟ إني لا أرى أية شقوق.

صرخ بغضب:

- أنا الذي أعرف زورقي.

- وأنا لست أعور. اسمع، قل لي ماذا تريد الآن؟

- هذا يساوي عشرة آلاف فرنك.

- لماذا عشرة آلاف؟

- أتعطيها أم لا؟

- سأعطيك ستة آلاف.

- إذن خذ.

تلقيت لكمة على جانب وجهي الأيسر. دارت النجوم في عينيّ. ابتعدت خطوات إلى الوراء لأستردّ توازني. هاجمني مثل ثور. إذا تركته

يقبض عليّ فسيهرس لي عظامي. ليت كانت معي شفرة حلاقة. كنت سأفعل له مثلما فعلت لكوميرو. راوغته. خبط في الفراغ. بدأ المطر يهطل بغزارة. قال:

- ولد القحبة! أتحسب نفسك أنك هنا ستعاملني كما فعلت معي في الزورق بالمجذاف. هنا ستخرأ كل ما أكلته.

ظللت أراوغه بصمت وهو يطلب مني بحركات يديه وجسمه كله وصوته الصارخ أن أقترب منه إن كنت شجاعاً. لن أستهلك طاقتي. سأتركه يهجم. أخذ يضحك ويداه تلحّان في الالتحام بي. قال:

- إنك جبان. مَن سينقذك مني الآن؟

بقيت صامتاً حذراً من أن يغافلني بهجوم يقبضني فيه. ارتمى بسرعة على أسفل بطني. ضبطته من عنقه بيديّ معاً. صعدت له بركبتي اليمنى ضربة تقليدية إلى وجهه. رفع وجهه. لم يندم. نطحته. أفلت. سددت له لكمتين على أنفه ثم واحدة على عينه اليسرى. الأحمر ينزف من أنفه وأخمص قدمه اليمنى. تقوّس صارخاً ثم سقط قابضاً على قدمه. رأيت شظية زجاجة مغروسة في الرمل كخرشوفة شوكية. كان جرحه عميقاً حتّى العظام. بان الشحم النازف، اقشعرّ جسدي. ثم لم أدرِ لماذا تبدّل شعوري فراقني منظر الدم الذي ينزف ويمتصّه الرمل والأمطار تغزر. بدا لي المطر مثل عروق تنزف. تذكّرت منظر الكبش في الريف حينما ذبحوه ووضعوا طاساً تحت حنجرته الفائرة حتّى امتلأ ثم شربته أمي المريضة. عددت ستة آلاف فرنك مبلّلة. نفضتها ورميتها له قدامه.. استدرت ومشيت. سمعته يقول:

- عد يا ابن القحبة. سأبصق لك في مؤخرتك إذا أنت عدت.

فكرت أن أعود وأخنقه. المطر الغزير يهدّئ أعصابي وأنا ماض وهو يسبّ.

عندما اقتربت من الطريق رأيت حافلة المنار آتية. رفعت يدي.

توقفت. صعدت ودفعت للمحصل ورقة ألف فرنك مبللة. قال:

- ما لك؟ هل حدث لك شيء؟

- لا بأس.

التفت إليّ كل ركّاب الحافلة البدويين. كانوا سبعة أو ثمانية. نظرت من خلال النافذة إلى الشاطئ. رأيته يتجه نحو الزورق وهو يعرج.

نزلت من الحافلة في السوق الكبير. أثار منظري المبلل انتباه كثيرين من المارّة. قالت امرأة لزميلتها تحت مظلّة صغيرة مزوّقة وهما ماشيتان ورائي:

- مسكين هذا الشاب!

قالت رفيقتها:

- لا بدّ أن تكون قد حدثت له مصيبة.

وجدت في قاعة الفندق الحارس يتبادل بعض النكات مع المرأة المنظِّفة. كانت تغسل الأرض. تركت الجفاف من يدها وسألاني معاً عمّا حدث لي. قلت لهما بأني تبلّلت بالمطر وصعدت إلى غرفتي. وجدت باب الغرفة مفتوحاً. الأشياء لم تعد في مكانها. القحبة بنت القحبة لعبت دورها معي. أخذت معها كل ما هو مهمّ: راديو ترانزيستور، المنبّه، خمس ساعات يد ودزينة من القداحات.

هبطت إلى القاعة وسألت الحارس:

- ألم ترَ نعيمة حين خرجت؟

- كلا. هل حدث شيء؟

- لا شيء. أعتقد أنها ذهبت نهائياً دون أن تنتظرني لتقول لي وداعاً.

- ألم يحدث شيء؟

هززت له رأسي بالنفي. ثم عدت إلى غرفتي لأغيّر ملابسي وأيبّس أوراقي المالية. لقد تركت لي ثيابي. ربما ستبدأ حياتها مع عشيق آخر في مكان ما كما كانت مع حميد الزيلاشي وقبل أن تكون معه. شيء قذر، لكن لا بدّ منه مع أمثالها.

13

في ذلك المساء، جئت إلى مقهى «سي موح» حاملاً معي مجلة مصرية مختصة في نشر أخبار الممثلين العرب وصورهم. كنت أشتري هذا النوع من المجلات لكي أتفرّج على صور الممثلات بلباس الرقص الشرقي. أحياناً كنت أستمني على بعض صور الراقصات المثيرة للجنس. كان عبد المالك - أخو حميد - هو الذي يقرأ لي هذه المجلات حين يروق له مزاجه. أحياناً كنت أدفع ثمن فطوره أو غدائه. كان قد هجر دراسته في تطوان وجاء إلى طنجة ليتصعلك بعيداً عن أهله في أصيلة. أفضل رواد المقهى يكتب اسمه بصعوبة. كنا نعتبره أهم شخص يتردّد على المقهى. يقرأ لنا الصحف والمجلات الشرقية العربية بصوت قوي وواضح. حين يكون يقرأ موضوعاً سياسياً هاماً عن إحدى الدول العربية يسكت صاحب المقهى الراديو ويصغي كل الرواد إلى ما يقرأه ويشرحه باهتمام كبير. أحياناً كان ينتصب واقفاً ويترك الصحيفة أو المجلة من يده ويتحول شرحه إلى خطبة سياسية، يستعرض فيها ثقافته وذكاءه في تحليل الأحداث ويستشهد كثيراً بآيات من القرآن وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة (كان قد حفظ القرآن عن ظهر قلب في صباه). حين يطلب منه أحدهم شرحاً أكثر وضوحاً لإحدى الأفكار يجد الفرصة ليتعالى علينا، نحن الأميين، الجهلاء، فيزداد شرحه غموضاً. كان دائماً

على صواب في نظرنا. لم يكن بعض الرواد يفرقون دائماً بين قوله وقول الله. كثيراً ما يقول أحدهم: صدق الله العظيم فيصحح له عبد المالك: «أستغفر الله العظيم، هذا ليس قول الله، إنما هو قولي. .» أثناء حديثه غالباً ما كان أحدهم يقاطع كلامه مادّاً له «سبسياً» من الكيف. يتوقف لحظة عن الكلام ليدخن واقفاً ويرشف جرعة أو جرعتين من الشاي الأخضر ثم يستأنف خطبته المعجزة. عندما ينتهي يتلقى تهاني الرواد ويكون صاحب المقهى قد هيّأ له كأساً من الشاي المنعنع وشطيرة من الخبز مزبدة. في بعض الليالي أدعوه للعشاء معي في أحد مطاعم السوق الداخلي ثم ندخل إحدى حاناته لنسكر أو نذهب مباشرة إلى الماخور لنبيت مع بغيين. (كانت لديه أيضاً نزعة غلامية مكبوتة إذ كثيراً ما حدّثني عن جمال الذكورة الذي يفوق جمال الأنوثة). كنت فخوراً أن يصاحبني شخص مثقف مثله. كان يجيبني عن كل الأسئلة (لم أكن أدري إن كان على صواب أو على خطأ، فالله أعلم). كل ما أذكره هو أنني لم أكن أفهم منه إلا القليل.

كان جالساً معه في ذلك المساء كريدا والمساري والعجوز عفيونة، بائع الكيف ومعجون الحشيش في المقهى. طلبت من السي موح كأس قهوة سوداء قوية واشتريت خمس بسيطات من الكيف. كنت مهموماً، وكانوا هم يتحدثون عن الملك فاروق ومحمد نجيب وسياسة جمال عبد الناصر وثورة 23 يوليو. كنت راغباً في مشاركتهم الحديث. دخنت السبسي الأول. حشوت السبسي الثاني ومددته إلى كريدا الذي رفضه. قال لي عبد المالك وانا أمدّ له السبسي:

- احتفظ بكيفك. عندنا كفاية من الكيف.

فكرت مع نفسي: وحين لا يكون عندك الكفاية منه إلى من تلجأ أيها المفلس؟ ألا تطلب مني أن أشتري لك لفة منه؟ قال لي المساري:

- دعنا نتحدث بلا مضايقات.

أولاد القحاب. كلهم ضدي اليوم. إنهم يتكبرون. لست إذن في مستواهم في هذا اليوم. حتّى عبد المالك يهينني هكذا. كنت أدخن السبسي تلو الآخر مفكراً في الانتقام. وضع السي موح كأس قهوتي فوق طاولتي. اشتريت من عفيونة قطعتين من المعجون وأكلتهما ثم شربت جرعات من قهوتي الساخنة حتّى يكون المفعول جيداً. دخل كمال التركي سكران. دعوته أن يجلس معي فرفض. انحنى عليّ وهمس لي بالفرنسية:

- معي نصف زجاجة ويسكي. سأصعد إلى السطح. اتبعني إذا كنت راغباً أن تشربها معي.

وافقت بهزة من رأسي. رشفت من قهوتي عدة رشفات وتبعته حاملاً معي السبسي والكيف. وجدته يشرب من فم الزجاجة ناظراً إلى البحر الذي أتى منه منذ شهور في باخرة تركية نزل منها ورفض أن يعود إليها. أعطيته علبة الكيف والسبسي ليعمر بنفسه. أعطاني الزجاجة. شربت جرعتين..

- كيف هي أحوالك؟

- ما زلت أنتظر أن ترسل لي أسرتي النقود لأعود إلى استانبول.

- والمركب الذي تركته، هل ستعود لتعمل فيه؟

- المراكب كثيرة، سأبحث عن مركب آخر.

ظللنا نشرب وندخن ونتكلم عن همومنا حتّى فرغت الزجاجة. سألته:

- ماذا ستفعل هذه الليلة؟

- لا أدري.

أخفى الزجاجة الفارغة تحت سترته وهبطنا. وجدنا عبد المالك واقفاً كعادته يعلق على الأخبار التي تذيعها إذاعة لندن بالعربية في

المساء. كان كأس قهوتي والمجلة المصرية المصورة ما زالا فوق طاولتي. جلست وعرضت على كمال أن يشرب معي شيئاً. اعتذر قائلاً:

- لي موعد مع محمود المصري في مقهى دار الدباغ. (هذا أيضاً كان يقوم بنفس دور عبد المالك). سيسلف لي بعض النقود.

قال له السي موح:

- لا أريد السكارى في قهوتي.

قال له كمال بالعربية:

- السلام. السلام يا السي موح.

ضحكت. ودّعني بإشارة من يده وخرج. نظر إليّ عبد المالك غاضباً وجلس. قال له عفيونة:

- استمرّ في كلامك يا السي عبد المالك.

قال عبد المالك:

- كيف تريدني أن أستمرّ في الكلام والأولاد يضحكون؟

قلت له:

- أنا لست ولداً. أنت تتكلم عن محمد نجيب وجمال عبد الناصر كأنك تقابلهما كل يوم ويتحدثان إليك عن أسرارهما السياسية. من أين تعرف كل هذه الأخبار عنهما؟

فقد السيطرة على أعصابه وقال غاضباً:

- اسكت يا هذا الأمّي. إنك لا تعرف حتّى كيف تكتب اسمك وتريد أن تحشر نفسك في الموضوع.

قال له المساري:

- لا تهتم به. إنه سكران.

هذه فرصتي لأهين عبد المالك وأنصاره كما أهانني هو وجماعته.

فكرت في كلمات أهينه بها. لم أعرف ما أقوله له. رأسي ثقيل بالكيف والمعجون والويسكي. سأطلب منه أن نخرج لنتضارب. هذه هي أسهل وسيلة لا تتطلّب أي مجهود في التفكير. قلت له:

- انا أمّي وجاهل، لكنك أنت كذاب. أفضل لي أن أكون أمياً وجاهلاً من أن أكون كذاباً مثلك.

أحسست أني انتصرت عليه. قال:

- امشي تقود النصارى في البورديل.

قلت له:

- إذا كانت عندك أخت جميلة فقل لها أن تجيئني لأقودها.

قال لي السي موح بغضب:

- أنا لا أريد الصداع في قهوتي. اخرجا برّا وتضاربا.

قلت له:

- لماذا تخاطبني أنا وحدي؟ أم أنه هو يعرف كيف يتكلم وأنا لا أعرف؟

قال لي كريدا:

- العن الشيطان.

قلت له:

- الشيطان هو الإنسان.

ثم قلت لعبد المالك:

- اسمع، لنخرج إلى الشارع لأريك من هو الأمّي والقواد.

نهض بسرعة واتّجه إليّ. اعترضه كريدا والمساري وعفيونة. دفعهم عنه. قمت وأمسكت كأس قهوتي وقذفت محتواه على وجهه. غطّى وجهه بيديه وامسكني شخص من ساعديّ من الخلف. صرخت في وجهه:

- لنخرج برّا إذا كنت رجلاً.

أطلقني الشخص الذي أمسكني من ساعدي وقال لي كريدا:

- كن عاقلاً.

قلت له:

- ماذا يحسب نفسه هنا؟ إنه مجرّد طالب هارب من دراسته وجاء إلى طنجة ليتسكع.

عدت إلى مكاني وجلس معي عفيونة. عمّر السبسي وأشعله لي ورجاني أن أهدأ.

صعد كريدا والمساري إلى السطح. دخنت. سعلت. من خلال بعض التعليقات التي سمعتها من الرواد أدركت أن بعضهم يتحدثون لصالحي. لا بدّ إذن أن يكونوا قد سبق لهم أن شعروا بنفس المشاعر العدوانية ضد عبد المالك. هبطوا من السطح. كان وجه عبد المالك يبدو كما لو أنه غسله بماء ساخن. اقترب مني كريدا وقال:

- أطلب منك أن تتصالح معه.

قال عفيونة:

- نعم، قم وتصالح معه من أجلنا.

نهضت معهما. دفعونا لنتعانق. أردت أن أرجع إلى مكاني. لكنهم رحبوا بي كي أجلس معهم. دخل كمال يترنح. حول عينه اليسرى هالة بنفسجية. قال لي:

- هاجمني اثنان في بورديل بن شرقي.

- لماذا؟

- لقد اعتبروني نصرانياً. لم يصدقوا أنني مسلم، قالا لي: «كيف تكون مسلماً وأنت لا تتكلم العربية»؟

- لكن لماذا كل هذا؟

- كنت أريد أن أدخل مع فتاة مغربية لكي أنام معها.

- اجلس معنا.

- أفضل تعال أنت معي. سنذهب إلى السوق الداخلي لنشرب قليلاً من النبيذ. لقد سلّف لي محمود المصري بعض النقود.

اعتذرت لجماعة عبد المالك وخرجت مع كمال.

دخلنا دار السعدية الكحلا. قلت له:

- أعرف جيداً صاحبة الدار وفتياتها. لا تخشَ من شيء.

استقبلتنا خديجة السريفية. أدخلتنا حجرة مفروشة بأثاث مغربي. سألتني عما نريده. جاءت صاحبة الدار وقدمت لها كمال. قال لها بالعربية:

- السلام يا مدام.

سألتني:

- هل صاحبك مسلم؟

- طبعاً هو مسلم.

- يتكلم بالعربية؟

- كلا. يعرف فقط بعض الكلمات. إنه تركي.

تساءلت:

- كيف يكون مسلماً وهو لا يتكلم العربية؟

شرحت لها أن هناك بعض الشعوب لا تتكلم العربية، لكنها مسلمة مثلنا. قال لها كمال بالعربية:

- أنا مسلم. الله ومحمد رسول الله.

ابتسمت السعدية. قالت لنا:

- اجلسا. هل تريدان أن تبقى معكما خديجة؟

أحلتُ السؤال على كمال. قال:

- طبعاً ستبقى. وقل لها أن تأتينا بفتاة أخرى جميلة مثلها.

طلبنا زجاجة كونياك وزجاجة صودا. طلبت من خديجة أن تختار لنا فتاة أخرى. خرجت وسألت كمال:

- أتعجبك حقيقة أم نختار غيرها؟ هناك كثيرات أجمل منها إذا شئت.

- إنها رائعة. الفتيات المغربيات يشبهن كثيراً الفتيات التركيات.

جاءتنا خديجة حاملة صينية الشراب تتبعها صفية القصرية. كنت أعرفها. قالت لي:

- أهلاً بالغزال.

قدمت لها كمال وجلست إلى جانبه. قالت لي خديجة: ثمن الشراب مائة وخمس وعشرون بسيطة.

قلت لها:

- وإذا أضفنا ثمن المبيت معكما أنت وصفية؟

قالت باسمة ناظرة إلى صفية:

- ثلاثمائة بسيطة.

أخرج كمال ورقتين من فئة مائة بسيطة. طلبت من خديجة أن تنادي على للاّ السعدية. قالت:

- هات الفلوس. ألا تثق بي؟

- ليس الأمر كذلك. إنني أريد أن أتفاهم مع للا السعدية.

قالت ضاحكة:

- فهمت. أنت تعرف شغلك معها.

رجوتها أن تجلس وخرجت. كانت للاّ السعدية جالسة في أقصى وسط الدار. دفعت لها مائتين وخمسين بسيطة. أفهمتني أننا سننام كلنا في غرفة واحدة.

وجدت كمال يبوس صفية ماسكاً وجهها بين يديه كأنه يخاف أن تفلت منه. ربما سأنام أنا أيضاً ذات يوم مع فتاة تركية. لففت خمسين بسيطة ودسستها في يد خديجة:

- لقد تفاهمت مع صاحبة الدار.

دسّتها في صدرها وباستني على خدي.

كنت قد غفوت عندما هزتني خديجة:

- هل تسمع؟ صفية تقول بأن صاحبك التركي يلحس لها شيئها.

- ليفعل معها ما يشاء.

- ألم تقل بأنه مسلم؟

- وماذا في ذلك؟

قالت صفية:

- اللحس باللسان أفضل.

كنت سأستيقظ في السادسة صباحاً لأذهب إلى الميناء. رجوت خديجة أن تتركني أنام. أكدت لي أنها ستوقظني في أي وقت أشاء. ضمّتني إليها وأدخلت فخذيها بين فخذي وبدأت تحكّ فرجها مع ركبتي اليمنى المثنية. إنها تتخيّل فخذي كأنها شيء الحصان. صفية تتنهّد وخديجة تناضل مع ركبتي. تشدّ شعري بقوة. دفعت فرجها عدّة مرات في ركبتي ثم تراخت. كمال وصفية يضحكان. انقلبت خديجة ونامت على بطنها. مددت يدي ونزهتها فوقها. كانت ما زالت تحكّ ببطء مع الفراش. ركبت على ظهرها لأسافر. حاولت أن تسقطني من فوق سنمها. تمسكت جيداً بشعرها حتى لا أسقط في الفراغ. كانت ناقة تطير فوق صحراء. السقوط من فوقها هو ضياعي في صحراء مجهولة.

في الصباح، بعد صعودي من الميناء، ذهبت إلى مكتبة في واد أحرضان واشتريت كتاباً لتعلّم مبادئ القراءة والكتابة بالعربية.

وجدت عبد المالك في المقهى. قدّم لي أخاه حسن الذي جاء من العرائش ليزوره. اعتذرت له عما حدث لي معه أمس. قال:

- انسَ ما حدث. أنا أيضاً كنت متوتراً.

جلست معهما. أريت لعبد المالك الكتاب الذي اشتريته وقلت له:

- لا بدّ لي من أن أتعلم القراءة والكتابة. أخوك حميد كان قد علّمني في مخفر الشرطة الجنائية بعض الحروف وقال لي بأن عندي استعداداً للتعلم.

- ولماذا لا؟

قال لي أخوه حسن:

- هل تريد أن تذهب إلى العرائش لتدرس هناك؟

قلت له بدهشة:

- أنا؟ كيف يمكن لي ذلك. إن لي عشرين سنة، ولا أعرف حتّى كيف أوقّع اسمي.

- لا يهمّ. أنا أعرف هناك مدير مدرسة. سأكتب لك رسالة وصية لتحملها معك إليه. أنا متأكد أنه سيقبلك. إنه يعطف على الغرباء الذين يرغبون في الدراسة بجدّ. (أضاف): لو لم أكن ذاهباً إلى تطوان لتسوية مشكل لي هناك مع النائب الإقليمي لصحبتني وقدّمتك بنفسي إلى مدير تلك المدرسة. إنه صديقي.

بعد لحظة قال لي:

- اذهب واشترِ ورقة وظرفاً لأكتب لك الرسالة.

خرجت دون أن أصدق ما قاله لي. اشتريت ما طلبه وعدت بسرعة. أخذ مني الورقة ووضعها فوق جريدة عربية وأخذ يكتب بخط جميل. كان يكتب ويتوقف ليدخن معنا الكيف. حينما انتهى من كتابتها وضعها في الظرف وأقفله. أعطاني الرسالة ووضعتها في جيب كبوطي. سألته:

- متى يمكن لي أن أسافر إلى العرائش؟

- متى شئت. لكن حاول أن تذهب في هذه الأيام.

كانت الساعة حوالي الثانية عشرة زوالاً حينما ودعنا حسن ليسافر إلى تطوان. أكد عليّ وهو يصافحني:

- سنلتقي هناك بعد ثلاثة أو أربعة أيام. لا بد! أن تذهب.

خرج وقال لي عبد المالك:

- أنا سأذهب إلى مقبرة بوعرقية.

- لماذا؟

- لقد كلفني هنا في المقهى بعض الإخوان لأقرأ ما تيسّر من القرآن الكريم على قبور عائلاتهم.

- سأصحبك. (أضفت): لي أخ مدفون هناك، هل يمكن لك أن تقرأ على روحه سورة؟

- أخوك؟

- نعم، لي أخ هناك.

في الطريق سألته:

- ماذا حدث لأخيك حسن؟

- لقد ارتكب حماقة: طردوه من المعهد في العرائش لأنهم وجدوه يشرب الخمر ويدخن الكيف في غرفة داخل مسجد يُسمح للطلبة الغرباء أن يقيموا فيها مجاناً. (أضاف): إنه دائماً يقترف مثل هذه الحماقات.

في السوق الكبير، اشتريت باقة من الزهور وعند باب المقبرة اشتريت باقة من الريحان. وجدنا هناك بعض حفظة القرآن يقرأون سوراً على بعض القبور وزواراً يترحمون على موتاهم. كنا نتمشى بين القبور عندما سألته:

- هل تعرف مكان كل القبور التي ستقرأ عليها السور؟

- كلا. المهم هو النية. لا يهم أن أقف قدّام قبر معيّن لأقرأ رغم أني أعرف بعضها. وأنت أين قبر أخيك؟

نظرت نحو السور الذي دفن قربه أخي وقلت له:

- هناك. لا يمكن العثور عليه. إننا لم نبنِ له قبراً قبل أن نرحل إلى تطوان. كنا فقراء.

- سأقرأ عليه سورة ياسين.

توقف فوق ربوة وراح يقرأ على أهل الرفاق الذين كلّفوه. عندما انتهى توجهنا نحو المكان الذي دفن فيه قبر أخي. قلت له:

- هنا. قرب هذا المكان.

أخذ يقرأ. أثناء قراءته كنت أنثر الزهور والريحان على بعض القبور وعلى الأرض غير المقبرة بعد. كان مدفوناً هناك. ربما تحت قدمي أو تحت قدمي عبد المالك أو في مكان ما. فجأة فكرت. لكن لماذا هذه القراءة على قبر أخي المجهول؟ إنه لم يذنب. لم يعش سوى مرضه ثم قتله أبي. تذكرت قول الشيخ الذي دفنه: «أخوك الآن مع الملائكة».

أخي صار ملاكاً. وأنا؟ سأكون شيطاناً، هذا لا ريب فيه. الصغار إذا ماتوا يصيرون ملائكة والكبار شياطين.

لقد فاتني أن أكون ملاكاً.

زمن الأخطاء

زهرة دون رائحة

قدام الحافلة، التي نزلت منها، اقترب مني طفل متسخ، حافي القدمين، في حوالي العاشرة من عمره.

ـ الفندق، أتريد فندقاً؟

ـ سوق الكبيبات، أين سوق الكبيبات؟

ـ اتبعني.

ينظر إليّ وإلى حقيبتي البالية. أراد حملها. أعطيته خمسة سنتيمات إسبانية. تَشاكَرْنا وانصرف. السوق عامر ببائعي المواد الغذائية والثياب المستعملة والجديدة، في الدكاكين وفي ساحة السوق. هناك الجالسون والمتجوّلون. الشمس تغرب. أصوات الإذاعات العربية تُسمع في الدكاكين. تمشيت في السوق بضع دقائق. سألت بائع ثياب بالية عن قهوة السي عبد الله. أشار إليها بحركة سريعة، ولا مبالاة، ومضى ينادي في المزاد العلني على أثمان الملابس التي يحمل بعضها على كتفه، وأخرى في يديه. يسار مدخل القهوة حاجز خشبي معروضة عليه مأكولات: سمك وفلفل مقليان، بيض مسلوق وركام خبز أسود. الذباب ينطّ على الكل. قرب الوجاق، طاولة كبيرة مستطيلة، حولها أشخاص يلعبون الورق، آخرون حول طاولات أصغر، معظمهم يدخن الكيف. البؤس بادٍ على سحناتهم وثيابهم. انتبه بعضهم إليّ. جلست

في ركن. إلى جانبي طاولة صغيرة قذرة. طلبت من الوجاقي شاياً أخضر بالنعنع. فكرت أنه السي عبد الله. كهل جالس قربي يبيع الكيف. ذكّرني بِعَفْيونَة في قهوة السي موح في طنجة. اشتريت منه لفةً. عمّر لي «شقفاً»[1] من مَطويه[2]. كلما طلبت منه «السبي»[3] يمده لي عامراً بكيفه ثم أرده له عامراً بكيفي. يدخنه أو يعطيه لأحد الجالسين قربه[4].

جاءني السي عبد الله بالشاي. سألته عن ميلودي صديق حسن الزيلاشي.

ـ لم يجئ طوال ثلاثة أيام.

في الليل غلبني الكيف، والجوع، والغربة. رشفت من كؤوس شاي بعضهم ورشفوا من كأسي. أحسست بالألفة بينهم. حدثتهم عن تطوان وطنجة ووهران، وحدثوني عن العرائش. قال أحدهم:

ـ كيقولو طنجة اللي ما شافا كتبكي عليه، واللي شافا كيبكي عليها.

---

(1) الشقف: يشبه كشتبان الخياط في حجمه وشكله تقريباً، مقوس ذو فوهتين، أو هو يشبه القشرة الملتصقة بأسفل ثمرة شجرة السنديان، وهو عادة يصنع من الفخار، وفي حالة نادرة من الألمونيوم، وفي حالة أندر من الذهب الخالص.

(2) المَطوي: هو محفظة صغيرة مستطيلة أو مربعة تصنع عادة من جلد الماعز أو غيره، تلف مرتين أو ثلاثاً، وينتهي طرفها الذي تُرْبَطُ به بِخَيط من الجلد لِشَدّها. وهناك «النبولة» التقليدية وهي مثانة الكبش أو العجل، وكلتاهما تستعمل لحفظ مسحوق الكيف.

(3) السبي: هو قضيب يدخل طرفه الأسفل في فوهة الشقف لتدخين الكيف، يصنع عادة من الخشب، لكن هناك بين الموسرين من يصنعه من الفضة. وقد عرفت حشاشاً، اغتنى ببيع الحشيش، صنعه من الذهب الخالص، وهو اليوم يقضي معظم وقته يحدق في الشمس من شروقها إلى غروبها، بعد أن أفلس في تجارته، وعاد إلى التدخين في السبي المصنوع من الخشب. إنه غليون الكيف.

(4) هذه عادة معروفة بين مدخني الكيف في المقاهي الشعبية، وهم أيضاً يتبادلون الرشفات من كؤوس بعضهم بعضاً برهاناً على ألفتهم وتصادُقِهم.

ـ إنها عريقة تهزم كل من يعشقها.

ـ العهرُ الفاحش قَبَّح أجمل ما فيها.

ـ لكنها جميلة وتاريخها عريق.

تكاسلت في الخروج لأفتش عمَّا آكله. صورة الذباب، الذي رأيته عندما دخلت واختفى الآن، تُغشي كلَّما فكرت في أن أطلب شيئاً من مأكولات القهوة. في الغالب لا أقرف من أيّ طعام. أَتْعبني الجلوس، والوجوه التي فقدت حيويتها. النعاس يغلبني. أغمض عينيّ وأفتحهما بِتَراخٍ. شاحباً يبدو لي كلُّ ما أراه. ذهب أكثر من كان في القهوة. المقاعد والطاولات فقدت هي أيضاً وجودها. ألقيت نظرة على الحجرات الثلاث المقفلة. الحجرة قبالتي دخل وخرج منها أشخاص بائسون. الأخريان مقفلتان. بانَ لي الحصير الذي هو كُلّ فِراشِ تلك التي فُتِحَ بابُها. فكرت في أن أسأل السي عبد الله عن ثمن النوم في إحدى هذه الحجرات الجماعية. كلاً يجب أن أوفِّر. لا أعرف ما ينتظرني في هذه المدينة! ربّت على كتفي صاحب القهوة وأنا غافٍ.

ـ سنغلق.

ثلاثة أشخاص يدخنون الكيف حول طاولة اللعب. رجوت السي عبد الله أن يترك حقيبتي عنده حتى الغد. طلب مني أن أكشف له عمّا فيها: صورتان شخصيتان كبيرتان مُؤَطَّرتان، سروال وقيمصان وزوجُ جوارب.

همت في طرقات المدينة. لا أثر للحراس من رجال الأمن، أو حراس متاجر الأحياء، والسيارات، كما في طنجة. منتصف الليل أو أكثر. تائهاً أمشي. لا شيء فيها يخيف. طقس معتدل وليلة قمراء. مُنتزه يطلّ على البحر. أضواء تلمع في البحر. فكرت في ليل طنجة المغري إلى حدّ الموت وصيدها البحري: «رأس المَنار»، «مالا باطا»، «مغاور هرقل»، «سيدي قنقوش»، «المَريسة» و«الرّمل قال». أنا هنا

وحدي. القمر ينحجب ثم يبزغ. قطفت زهرة بيضاء من روض المنتزه. شَمَمْتُها. لم يستيقظ في نفسي أيُّ إحساس. زهور جميلة. شيء لا يفوح منه شيء. جمال سائب. ربما هذا ما يُبقيها مزهرة هنا حتى تذبل أو تقطفَ عَبَثاً، ثم تُداس. لا شيء عندي أخشى ضياعه في هذه الليلة. إنني مثل هذه الزهرة التي أسحقها الآن بين أصابعي. سأنام هنا أو في أيّ مكان آخر. هواء البحر يخفف نعاسي.

عدت إلى الكبيبات. تَقَرْفَصْت تحت سقيفة أحد أقواس الساحة. وضعت رأسي بين ذراعيّ المشبكتين فوق ركبتيّ. طيلة يقظتي لا عابر أسمع خطواته في الساحة. لا خاطرة أستطيع استعادتها. حتى أجمل الأنغام، التي أحبها، تخطر ثم تنفلت. ذهني خاوٍ كما لو أنه مغسول: كأني لم أختزن أية ذكرى مُسْعِفَة لجميلها. صداع خفيف في رأسي وطنين. يخيّل إليّ أني أسمع نبضات قلبي. ربما بسبب التخدير الكيفي، وفراغ معدتي.

استيقظت باكراً، امتلاء مثانتي يؤلمني وشيئي منتصب بالامتلاء البولي. حركة الناس تَدبّ في ساحة إسبانيا. اشتريت بسيطة من القرّوس[1]. في مرحاض المقهى الإسباني تصاعد بولي إلى فوق مثل نافورة. تَبَلّل سروالي ويدي. تناولت قهوة بالحليب. المقهى يرتاده المسافرون. قهوة السي عبد الله لم تفتح بعد. ركبت حافلة الحيّ الجديد بحثاً عن مدرسة المعتمد بن عباد. حيّ مليء بنبات الصَّبّار، والغبار، والأزبال، والأراضي البور. مساكنه أكواخ من قصدير وطوب وأهله بَدَويون. سحناتهم كالحة مثل أسمالهم. أطفالهم يتغوطون ويبولون قرب أكواخهم. أجابني حارس المدرسة الذي سألته عن مقابلة المدير:

---

(1) القرّوس: عجين مقلي يصنعه الإسبان.

ـ لماذا تريد مقابلته؟

ـ أحمل إليه رسالة.

ـ هاتها.

ـ أنا مرسل لتسليمها له في يده.

نظر إليّ كمن أهينَ فيما تعوده ثم مضى ليستشير المدير أو يعود كاذباً عليّ. عاد وأدخلني عند المدير. سلمته رسالة التوصية. ظَرْفُها اندعك في جيبي. أَذِنَ لي أن أجلس وراح يقرأها. يبتسم. ماذا يُبْسِمُه؟ أيكون حسن قد خدعني ساخراً مني؟ وضع الرسالة فوق إضبارة مكتبه وسألني:

ـ من أين أنت.

ـ من الريف.

ـ وأبواك أين يسكنان؟

ـ أمي تسكن في تطوان وأنا جئت إلى طنجة لكي أُدَبِّر عيشي.

ـ وأبوك؟

ـ مات. (أبي سيموت في صيف 1979، بعد 23 سنة).

ـ وماذا كنت تعمل في طنجة؟

ها هو التحقيق يبدأ.

ـ أعمل كل شيء.

ـ كيف أنك تعمل كل شيء.

ـ أحترف أيّ عمل أجده.

ـ هل سبق لك أن دخلت المدرسة؟

لهجته جبلية.

ـ أبداً.

يحدثني عن هذا الامتحان ـ التحقيق. «ستسلم الرسالة إلى المدير وسيقبلك في مدرسته»، هذا ما قاله لي. جبيني يعرق. قطرات باردة أحسها تتدحرج من إبطيّ.

ـ آسف. لا أستطيع قبولك في هذه المدرسة. من الأحسن أن تعود إلى طنجتك. هناك يمكنك أن تكسب عيشك كما كنت تفعل.

ـ لكني أفضّل أن أدرس. لقد كرهت ما كنت أعمله في طنجة.

شبك يديه فوق مِرْفَقِة مكتبه. تأمل رسالة التوصية. رفع رأسه:

ـ كم عمرك.

ـ عشرون.

ـ هل تعرف ما فعله حسن هنا في العرائش منذ أيام؟

ـ لا.

ـ لقد وجدوه مخموراً في المسجد مع صديق له. إنهما الآن مطرودان من المعهد.

قلت لنفسي: أما أنا فلن أتناكح مع أحد. فيما بعد سأعرف أنهما كانا ينامان في عِلية المسجد التي ينام فيها التلاميذ الذين لا منحة لهم ولا مأوى. حسن غَرَّرَ بي إذن. أجبت المدير بلهجة من يدافع عن تهمة وجهت إليه خطأً:

ـ أنا لست مثله. (ابتسم). لا أعرف أنه فعل ذلك. إن ما فعله حرام.

في الواقع لم يهمني ما فعله. في طنجة قال لي: «أنا ذاهب إلى تطوان ثم سأعود إلى العرائش».

ـ آسف. إن المستوى الدراسي الذي تستحقه يدرس فيه أطفال صغار وأنت لك لحية. والذين هم أكبر منهم سِنّاً يحفظ معظمهم القرآن، والجارومية، وابن عاشر.

(معك الحق. ولي لحية أخرى في أسفل بطني). لمست وجهي بتلقائية. لم أحلقه منذ أيام، وكنت أحلقه كل يوم عَسى أن تُطيعَ المُمْتَنِعات.

ـ سأحاول أن أتعلم جيداً في أقرب وقت. سأحلق وجهي كل يوم.

فكرت لنفسي: إن الأنبياء لم يكونوا في حاجة إلى من يعلمهم. كل شيء كان ينزل عليهم جاهزاً. أما من ليس منهم ينبغي له أن يتعلّم، مثله مثل القرود.

قال بهدوء قاتل:

ـ آسف.

رنّ الجرس. من خلال نافذة المكتب أرى الساحة والتلاميذ يتسابقون على المراحيض والصنابير، يتدافعون. يتقافزون. تخيلتني بينهم. فاتني أن أكون واحداً منهم. دخل شخص متعجرف حاملاً كُتباً. طلب منه المدير أن يصحبني ليمتحنني في الرياضيات. إن وقت الدينونة جاء. هكذا فكرت. تبعته إلى حجرة درس شاغرة. أعطاني طبشورة وأملى عليّ أرقاماً. لا أعرف أن أكتب أرقاماً في وسطها أصفار. أكيد أخطأت عندما أملى عليّ أرقاماً ثم أخرى أضعها تحتها بالترتيب، طالباً مني أن أجمعها، ثم أرقاماً أخرى، في نفس الوضع، طلب أن أطرحها منها. لم يسبق لي أن قمت بهذه العملية إلا في ذهني. ثم أملى عليّ أصفاراً، وما أصعب وضع الأصفار في الوسط!.

عدنا إلى المكتب. لم أرتح إلى هذا المعلم. إن القرود تتلاطف فيما بينها، أما هذا فلم يفعل. شعرت أني بذلت مجهوداً كبيراً. أن أحمل خمسين كيلوجراماً من الثقل وأسير به كيلومتراً أخفّ عليّ من بذل هذا المجهود الذهني.

وجدنا مع المدير شخصاً لابساً الجلباب. سألني بالإسبانية عن

اسمي، ومسقط رأسي، وسنيّ، وطنجة، وما كنت أعمل فيها. أجبته، فاستبشرت ملامحه.

ـ أين تعلمت الإسبانية؟

ـ مع جيراننا الغجر، والأندلسيين في تطوان وطنجة.

لم يكن متجهماً مثل معلم الحساب. فكرت في أنه ربما يدرّس الإسبانية. قد يكون المدير طلب منه أن يمتحنني شفوياً. طلب مني المدير أن أرجع غداً.

مشيت عائداً إلى المدينة. سلكت طريقاً غير الطريق الرئيسية المُعَبَّدة المُزَفَّتة، التي جئت منها. الطريق مغبّرة. قدماي تغوصان في ترابها الرملي. على جانبيها سياجات من التين الشوكي، وأكواخ يخرج منها أطفال حفاة، أنصاف عراة، وسخين، وكلاب هزيلة، لقيطة ودميمة، ودجاج ينقّب الخراء. في نهاية الطريق بئر عارية مُعَطَّلة. دنوت منها. أطللت على هَوِيَّتها[1] المظلمة. صمتُ عُمقها أغراني بالسقوط. صمْتٌ أيقظ في نفسي كلّ يأسي: صمتي الأبدي. التقطتُ حجراً كبيراً جَهِدْتُ في حمله وألقيته في الهَوِيّة. سمعت دويّ سقوطه في القاع الجاف ثم الصمت، وأنا مُطِلّ على الظلام، ورائحة مقرفة، دافئة، مُختزنة، تتصاعد من القاع. ابتعدت عن فوهة البئر الخَنِزَة. ظل طنين السقوط في مسمعي لحظات. تخيلتُني أسقط ذلك السقوط الأصمّ. لستُ حجراً. ربما سأظل أنزف في هوية البئر حتى أهمد. الأفظع ألا أموت. لست حجراً. استأنفت سيري. صوت السقوط يجذبني إليه بسحرٍ قَويٍّ وأنا أقاوِمُه حتى أنقذتني شجرة انبطحتُ في ظلالها الوارفة.

كان شاب قد ألقى بنفسه على صخور ميناء طنجة. جاءت أمه من

---

(1) البئر البعيدة القعر، جمعها هوايا.

بادية الفحص وذهبت إلى المقبرة. قَصّت مأساة ابنها على الحارس.

«لا أعرف شيئاً عمّا تحكينه. لقد دفنا كثيراً من الأموات هذه الأيام. اذهبي إلى المصلحة المسؤولة في العمالة عن تسجيل أرقام الموتى الغرباء. اذهبي وقُصّي عليهم حادثة موت ابنك. هناك سيقولون لك رقم قبره إذا عرفوه».

«يا لهذا الزمان. لم يبق من ابني الحبيب عبد الواحد سوى رقم، إذا عرفوه»!.

كانت امرأة بائسة. جاءت ورفعت وجهها المكدود إلى السماء، وبكت ضارعة إلى الله أن يغفر لابنها إثمه. ندبته حتى أغمي عليها ثم أفاقت مهووسة بابنها، وانصرفت عائدة إلى قريتها. تذكرت أن أمي هي أيضاً امرأة بائسة: تُصلّي من أجلي، وتضرع إلى الله أن يحفظني من كل مكروه.

حين يفرّ السادة يموت العبيد

عمال ومشردون يتجمعون في ساحة إسبانيا. الأصوات تصرخ في هياج:

ـ ليسقط الباشا.

ـ ليسقط الخونة.

يندفعون نحو منزل الباشا صائحين:

ـ اساطْ اباطْ، الباشا تحت السباطْ.

كان باشا المدينة قد ذهب إلى سوق «ثلاثاء الريصانة»، وألقى هناك خطاباً على الفلاحين. لم يرقهم خطابه فشتموه ورموه بالحجارة وضربوا بالهراوات فأطلق حراسه النار عليهم.

ـ لا بدّ أنه تكلم معهم بلغة ما قبل الاستقلال[1].

ـ انظر، إنهم يتكاثرون مثل النمل!

المسيرة بدأت في صخب: رجال ونساء وأطفال. «رجال النظام» يحيطون بالمتظاهرين. ينظمون المسيرة والهتافات المعادية للباشا. شارة الراية المغربية على سواعدهم[2] تؤكد سلطتهم.

---

(1) كان الباشا عميل الاستعمار الإسباني.

(2) حدث في طنجة، بعد الاستقلال مباشرة، أن بعض المتحمسين لسيادة النظام بين الناس كانوا يسمحون لأنفسهم بأن يتزينوا بملابس عسكرية، بقطعة واحدة (بنطال =

ـ لا أحد جاء من رجال الأمن.

ـ لا أظن أنهم سيجيئون. ربما صدرت إليهم أوامر بعدم التدخل. كل الناس يعرفون الآن أن الباشا ضد الاستقلال.

الأطفال يرددون نفس الهتافات المعادية للباشا التي يهتف بها الكبار. يطعنون في الهواء أشخاصاً وهميين وهم يصرخون. يتعلمون القتل بمختلف الأسلحة: حجر يتخيلونه قنبلة ثم يرمونه في الفراغ: بوم، بوم، بوم... ! عُصَيَّة تشكل لهم خنجراً أو مسدساً، هراوة، بندقية أو رشاشاً... كانوا أكثر عدوانية من الكبار. توقفت المسيرة قبالة المنزل. هتافات:

ـ سلموا أنفُسَكم.

طلقة نارية، في الهواء، من إحدى نوافذ منزل الباشا. تراجع الجمهور إلى الوراء. صاح أحدهم:

ـ لا تخافوا. إنهم يحاولون إخافتنا.

أخرج «نظامي» مسدساً، وآخر يحمل بندقية قديمة. يدخلان منزلاً مواجهاً لمنزل الباشا. تبادل إطلاق النار من المنزلين[1]. تفرَّقوا، هَرَبُوا. عادُوا. اصطفت، قرب منزل الباشا، فوق الرصيف، فرقة عسكرية إسبانية يرأسها قبطان.

= أو سترة أو قبعة) أو بذلة كاملة، بحرية أو بريّة أو جوية موسومة برتبة ضابط وساعد شارة الراية المغربية، كانوا يُبادِلون بها بحارة البواخر الحربية الأميركية، وغيرَها من أشياءَ من الصّناعة التقليدية المغربية. لم تكن السلطات تعترض عليهم. لقد كانت كثير من الأشياء مُباحة في تلك الأيام.

(1) كانت الطلقات تصدر من منزل الباشا من عدة نوافذ. وتبيَّن فيما بعد أنه لم يكن داخل المنزل غير رابح المشهور في المدينة بعبد الباشا. كان الناس يظنون أن الباشا ما زال موجوداً هناك بينما عرفوا، فيما بعد، أنه فرّ إلى إسبانيا مع زوجته الإسبانية عن طريق تطوان، وسبتة، تحت حماية الإسبان إلى حدّ قطع الاتصال التليفوني بين العرائش وتطوان.

ـ إنهم خائفون. لا يقدرون أن يطلقوا علينا. يحاولون إخافتنا. سنحرقهم في المنزل.

عاد أشخاص حاملين صفائح نفط. أشعلوا النار في مَرْأبِ المنزل. توقّفت الطلقات من منزل الباشا. فجأة انفتح الباب وظهر عبد الباشا رافعاً رشاشه فوق رأسه. أسودُ وضخم. صاحتِ الجُموع:

ـ رابَح! رابَح! رابَح!

حاول القبطان منعهم من الهجوم على العبد، لكنهم جُنُّوا مُنْدَفِعين إليه. أَلْقى رابَح رشاشه على الأرض. الدماء تسيل على وجهه. لم تَنِدَّ عنه صَرخة. نَشبوا أظافرهم في ثيابه، ولحمه. يُهْوُون عليه بالهراوات. تَرَنَّح تحت الضربات الوحشية المجنونة ثم سقط. جيش يندفع لتمزيقه بمختلف الأدوات. يسحبونه إلى عرض الطريق. النساء يزغردن. الأطفال يبتهجون صارخين. انبثق رجل من بين الزِّحام تَجَمَّع فيه كلُّ جُنونهم وكَسر زجاجةَ نفط على رأس العبد. آخرُ يُشعل النار في طَرَفِ هَراوة منقوعة في النفط ويَرميها عليه. يبتهجون بجنون. احتفال بدائيّ. ابتهاجات وصرخات غَضْبَى على الضَّحية.

ـ مُتْ باباكْ الخنز!

ـ مُتْ باباكْ الجرو!

ـ مُتْ باباكْ! مُتْ باباكْ!

يتمرغ مُنْتَفِضاً وجسمه شعلةٌ هائلة. هَمَد. رائحة الشَّحم البشريّ تُقْرِف. كتلةٌ فَحمية مُتهرِّئَة. يَطعنونه بالسكاكين والسواطير وبأظفارهم. إنهم يَفْتَرِسونه. امرأة خطفت عظم الساق ببعض لَحْمِها وعَضَّت عليها بِوَحشية، ثمّ لَفَّتها، بِجُنون، في قطعة ثوبٍ، مزقتها من ثيابها، ودَسَّتها تحت إبطها واختفت.

ـ ماذا ستفعل بذلك العظم؟

ـ سَتَسحر به لِزَوْجِها حتّى لا يضربها أو يعشق امرأة أخرى أو يطلّقها. هكذا يقولون.

بعد لحظات لم يبقَ من الجثة غير بقايا أحشاء ورائحة شحم مُقِيئة. يُخْرجون الأثاث من المنزل ويُراكِمونه في عَرْض الطريق. سلبٌ وإحراق. أَشعلوا النار في بعض الأثاث والكتب. سلبٌ وإحراق. صَرَخ رجال النظام في الهائجين:

ـ الكتب لا تحرقوها. سنحملها إلى مركز الحزب[1].

سُحُبُ الدخان تَنبعث من المنزل. تجاوبت زغاريد النساء المتظاهرات، وصرخات الأطفال الشرهين. الإسبانيون المدنيون يُشاهدون ما يحدث، في صمت من نوافذ منازلهم وشرفاتها. الجنود الإسبانيون لم يتحرّكوا من مكانهم على الرصيف. تَرَاكَضَ المتظاهرون مُتَفرقين جماعات نحو اتجاهات منازل عملاء الباشا. وصلت شاحنة وسيارة جيب. أخذوا يشحنون الكتب، والأثاث الثمين، الذي لم يحرق أو نصف المَحروق. رجال النظام يعترضون طريق الذين سَلبوا بعض الأثاث وينزعونه منهم. هناك من خلع ثيابه وارتدى ما سلبه من ركام الملابس. اقتحموا منزل عميل في طريق بَرشلونة. لم يجدوا أحداً. نَهبوا وأَحرقوا. جُنُّوا من جديد راكضين نحو منزل مُتَّهم آخر بالخيانة الوطنية. ظهرت جماعة هائجة من باب الكبيبات تَجُر بعُنف عجوزاً على الأرض فاقد الوعي. يطعنونه بالسكاكين[2]. العجوز الآن شبه عار. عيناه زائغتان. كتلة جسدية فقدت إنسانيتها. قَيّدوه من أطرافه بالحبال،

(1) حزب الاستقلال.

(2) في ذلك اليوم كان يَكفي أن يُتَّهم أحدُ المتظاهرين أيّاً كان بالخيانة فيحرق فوراً. كان العجوز (الشريف السوماتي) المحروق قائداً سابقاً في قرية خميس الساحل. قيل، فيما بعد، إن أحد المُتظاهرين كان مديناً له بِمبلغٍ من المال، عاجزاً عن تسديده، فدَبَّرَ له هذه المكيدة حتى يتخلص منه.

وصلبوه إلى شجرة، قبالة باب الكبيبات. صَبُّوا عليه النفط وأشعلوا فيه النار. صرخات وابتهاج وزغاريد وقفز. الشحم البشريّ بدأ يفوحُ في ساحة إسبانيا. عينا العجوز تجحظان. تدوران في محجريهما. ينتفض جسده. الإسبانية، بائعة الشروس (حانوتها جنب باب الكبيبات قبالة شجرة المَصلوب)، تصرخ:

ـ يا إلهي لا! لا! لا! . . . !

أغمي عليها. قيل ماتت بالسكتة القلبية.

في الليل خلت الشوارع إلاّ من بعض المتشردين يجمعون بقايا الأشياء المحروقة في منزل الباشا، ومنازل العملاء. أمام الشجرة توقفت سيارتان: واحدة للإسعاف وأخرى للأمن. رجال الإسعاف مُقَنَّعُون ولابسون قفازاتٍ من المطّاط. يَجمعون أشلاء الجثة المتناثرة في صندوق ورجال الأمن يحرسون الساحة كلّها. ضَخّوا مسحوقاً داخناً على الشجرة المحروقة، والأرض، فامتلأ جزءٌ من الساحة بِضَبابٍ ذي راحةٍ كريهة خانقة، لكن رائحة الشحمِ البشريّ كانت أقوى: ظلت عالقة في شامَّاتِ الناس.

أول درس

صحبني المدير إلى قسم[1] وقدمني إلى المعلم:

ـ السي محمد، هذا الولد سيدرس عندك.

خرجا قدّام الباب وتكلما. لا شك يتكلمان عني. أكيد أن المدير جاء بي إلى هذا القسم ليضعني تحت الاختبار. قد يقول لي بعد أيام: «إنك لا تستطيع أن تستمرّ في الدراسة هنا. أحسن لك أن تعود إلى طنجة».

تَهامَس التلاميذ ناظرينني فاحصينني. أحسستُني مَسروقاً بينهم. لم يسبق لي أن كنت بين أكثر من أربعين شخصاً يفحصونني من تحت إلى فوق. في القاعة تلاميذ في مثل سنيّ، لكنهم يعرفون القراءة والكتابة. على السَّبورة، درس مكتوب، وأمامهم الدفاتر. سأعرف أن هؤلاء الكبار جاءوا من البادية.

عاد المعلم وأجلسني، في الصف الوسط، إلى جانب أصغر تلميذ في القسم. في حجرة الدرس ثلاثة صفوف: عن يَميني أربع تلميذات ناهدات في المقاعد الأولى.

---

(1) لم أعرف أني كنت في القسم الثالث إلا بعد يومين: (المتوسط الأول حسب مصطلح اليوم).

المعلم:

ـ هذا رفيق جديد. حاولوا أن تَتَعاونُوا معه.

نظروا إليّ مُتَهامِسين مُتَحركين في مقاعدهم. ضرب المعلم بمسطرته على مكتبه. سكتوا. معظمهم يلبس الجلباب. نظراتهم مَبهورة. كان سهلاً عليّ أن أميّز البدويين منهم، والمدنيين، من خلال ملامحهم وهِندامهم. يَنقلون الدرس المكتوب على السَّبُّورة. تُرى ماذا ينقلون؟ أمامي دفتري، وقلمي، في انتظار كيف أبدأ أول درس. كانت رموز العالم تنتقل إلى صفحة رفيقي في الطاولة وصفحتي بيضاء. أُحَدِّق فيهم وأفكّر: يكتبون بخفة. أيتركني المدير أتعلم مثلهم؟ إذا لم يتركني فَحَتْماً سأعود إلى طنجة لكي أعاشر مُحتَرفي الفِسق دون أن أعرف شيئاً مِمّا يَحدث في هذا العالم، من خلال رموزه. ما دمتُ قد جئت فينبغي لي أن أعلم. «الحياة الحقيقية توجد دائماً في الكتب». هكذا قال شخص في طنجة. تَمَشَّى المعلم ببطءٍ ناظراً إلى كتابة بعض التلاميذ دون أن يتوقف حتى وصل إلى طاولتي. رجل هادئ، ودود، لا شكّ أنه لم يعش مع أولاد الزِناء. انحنى على دفتري وكتب على الصفحة الثانية كلمات، كل واحدة على سطر، ناطقاً إياها بصوت خافت ثم طلب منّي أن أكرّر كتابة كل كلمة حتى يمتلئ السطر. لم يكفّ رفيق طاولتي الصغير، النحيف، والوديع، عن النظر إلى دفتري وإليّ، وإلى يدي، منذ رآني أحاول كتابة كل كلمة بمَشَقّة. يدي ترعش مع خطِّ كل كلمة. نظراتُه المختلسة تُضَاعِف من رعشتي وتشنّجي. ملأت السطور الثلاثة. مرة أخرى ضممتُ ذراعيّ ناظراً إلى المعلم مُتَمشياً بين الصفوف أو إلى التلاميذ مُنْكَبِّين على نقل الدرس. بعضهم كان قد انتهى من الكتابة. اقترب مني وألقى نظرة على ما كتبته:

ـ حسناً. قريباً ستتعلم، إن شاء الله!

ثم طلب من رفيق طاولتي أن يكتب لي كلمات في مستوى ما

كتبت. تهامس التلاميذ. استقام المعلم واقفاً ومَسح القسم بنظرة شاملة. سكَتُوا. فَرِحَ رفيقي، بنطرات وحركات، أكثر مِمّا فَرِحْت . . . شَعَرْتُني أقلّ واحدٍ بينَهُم. لم أكن أعرف سوى الحروف التي علّمني إيّاها حميد في طنجة. حزنت. مذنب. مكاني ليس بينهم . لقد جئت من عشيرة القَوّادين، واللصوص، والمُهربين، والقحاب. لكأني في مكانٍ مُقَدَّسٍ أُدَنِّسُه، ولكن قد يكون بينهم من هم أبناء هؤلاء المَنحوسين مُجْتَمعين. عَزَّيتُ نفسي. إنني في مَطهرٍ إذن. لو لم يأتوا، هم أيضاً، إلى هنا، فَلَرُبّما يصيرون مِثْلَما كنت. زالت كآبتي وأنا أدافع عن نفسي حتى لو كنت مُخْطِئاً فيما تَصورتُه عنهم. صارَعْتُ فكرةَ البقاء هنا أو العودة إلى طنجة. إن مَرجي الآسن ينتظرني هناك أو في أيّ مكان آخر، لكني سأبقى هنا حتى ولو زالت زرقةُ السَّماء إلى الأبد من حياتي.

كتب لي رفيقي كلمات ناطقاً إيّاها بِخُفوتٍ مثلَ المعلم. شكرته ورعشت يدي، وأجهدتُ نفسي من جديدٍ مُحاوِلاً تقليدَ خَطّه الجميل. منذ تلك اللحظة صرت أتعلم من التلاميذ أكثر ممّا أتعلم من المعلمين.

في المطعم

كنا نتسابق، على حيازة المكان الأول في الصف، قبل الدخول إلى المطعم. يراقُبنا معلم مدة أسبوع، أثناء وجبتي الإفطار والغَداء، ثم يخلفه معلم آخر. للبنات صفُّهن. يدخلن قبلنا. لم يكنّ جميلات. واحدة كادت أن تكون. الحَمحماتُ والهمسات تَختلط بِرَنين الملاعِق والصُّحون. المعلم الحارس يَتَجَوَّلُ داخل القاعة. أحياناً يخرج قدام الباب مُولِياً ظهره، ناظراً إلى فراغ الساحة. حينئذ يَكثُر ضجيجنا، وَيَتعالى، فَيَنْهَرُنا صارخاً:

ـ الحمير. . . من لا يريد أن يأكل ويسكت فليغادر القاعة.

ثم يعود إلى تدخين سيجارته عند باب العتبة. كان هو المعلم المُتجهم الذي اختبرني في الحساب. الفقر مسخ ملامحنا. لم يترك لنا سوى ما هو إنسانيّ فينا. ربما يصرن جميلات هؤلاء الصّبايا، إذا كافحن فقرهن، في المستقبل. الصحن الأول من القطنيات، نجده جاهزاً على المائدة. الذباب يتساقط في الصحون. لا بدّ، أحياناً، من إزالة ذبابة أو أكثر من الصحن، ميتة أو ما زالت تكافح. يُغرقُها في المرق من لا يعاف ثم يُزيلها حتى يحلّ الطّعام وتموت الجراثيم فيأكل (يعتقد بعض الناس أن أحد الجناحين فيه جرثوم، وفي الآخر ما يبيدُه)

ما زلت أتساءل عمن اخترع هذه الوصفة الذكية عن سقوط الذباب في طعام الجياع وشرابهم. ربما لِتَسكين آلامهم! البخار لا يفتأ يفور من آخر الصحون التي وُضِعَت. أتعمد الجلوس في آخر القاعة حتى يُتَاحَ لي اختلاس كسرة خبز من بعض أوائل الموائد قاصداً مائدتي الأخيرة في الصف أو قبلها. الطعام لا يكفينا، نحن الكبار. نطمع حتى في الفُتاتات المتساقطة. نستغل أيضاً فُقدانَ شهية المَرضى الحاضرين أو المُتَغَيّبين فنسطو على الفائض.

الصحن الأول نلتقمه بحذر، لأنه لا يخلو من الحَصى. أذكر واحداً منّا مَضَغ شظية زجاج صغيرة، في صحن الأرُزّ، فَبَصَقَ دَماً. الصحن الثاني فيه بيضة مقلية أو سمكة مع صلصة طماطم أو قطعة لحم. غالباً ما تكون قاسية أو مطاطية فنخشى بلعها حتى لا تنحصر في الحلق (نقتصر على مضغها ومصِّها ثم نَتفلها) القطنيات والخضر هما الأساسُ في طعامنا. أقتنص ثلاث أو أربع ذبابات خارج المدرسة. أَلُفّها في وُرَيقةٍ كي أرميها في صحن، أو اثنين، قرب مائدتي. أحياناً، حتى لا أتأخر عن الدخول، أصطادها في المراحيض، ليس هناك ذباب قَذِرٌ وذُباب نظيف. رغم احتياطي، عند وضع الذبابات، فإن رفاقاً يرمَقونني، لا أحد وَشى بي. ضبطني معلم الحراسة بنفسه اختلس كسرة خبز فصفعني وطرَدَني من المطعم مدة ثلاثة أيام. تضامن معي بعض الرفاق فراحوا يُوَفِّرون لي من وجباتهم كسرات خبز وسمكات، وقطع لحم صغيرة. المعلم كان أعدَلَ من أن يُشفق.

كنا نحترم فقرنا ونتآزر. كلُّنا، تقريباً، كنّا فُقراء. يعتبر المستغلون فقرنا شيئاً طبيعياً.

بعد ذلك التهالك على الغداء أكون في حاجة إلى النوم حتى أُعَوِّض ما فاتني من الليل. خارج المدرسة هناك مقعد من الإسمنت

المُسلح ملاصِق لأحد جدرانها. أحياناً يَعْمُقُ نومي فيفوتني درس أو كُلّ الدروس.

كان في الحيّ كسيح متفّوق على كلّ التلاميذ في الرّياضيات. ربما كان أيضاً مُتفوقاً على بعض المعلمين، كما سمعت تلامذة قسم الشهادة يقولون. انقطع عن الدراسة في مستوى الشهادة الابتدائية دون أن يشارك في امتحان الالتحاق بالتعليم الثانوي. أمه ماتت وأبوه هجر المدينة منذ أعوام ولم يعد قطّ لا خبر عنه. ترك كَسيحه مع خالته البَكماء الصَّماء تكسِب العيش من نبش أزبال الصباح الباكر وتترزق الله بالتسّول في محطة السفر. يقوم بالعمليات الحسابية والتلاميذ حوله يسألونه وهو يفسر لهم حلَّ العملية بعدة طرق. تقديراً لذكائه الرياضي يعطيه بعض التلاميذ سنتيمات، أو سجائر منفردة، أو شيئاً من الأكل. أحياناً يَتراهنون على حَلّ إحدى العمليات، فيما بينهم، أمامه فيقاسمه الرابح نصيب المُخاطَرة. كان يقدم لنا مساعدته دون مُقابِل مَشروط. حين يُسعفني الحظّ في الحصول على بعض البسيطات أشتري له سجائر شقراء كان يفضلها على السوداء. أشتريها من تجار العربات المتنقلة في المدينة الذي يبيعونها منفردة.

أذهب إلى حقل قريب من المدرسة. أستلقي في ظلال شجرة وأدخن الأعقاب التي ألتقطها من شوارع المدينة في حالة إفلاسي التام. أتخيّل أشكال السحُب العابرة حيواناتٍ ضخمة، أسطورية دون أن أفكّر في شيء، أو أستعيد الأكثر مُتعة من ذكرياتي في طنجة: ذكريات الأفخاذ، والرَّبوات الجميلة، والصُّدور الناهدة، فأستمني. إن هذا المَزيج من الذكريات المُنْثالة يُسْلِمُني إلى غَفوةٍ أُفيق بعدَها وكأني نِمْتُ ساعات. هناك مَقبرة نَصرانية أترددُ عليها. أتجوّل بين مَمرَّات قبورها. أجد إمتاعاً، في محاولة قراءة الأسماء، والعبارات، على الشواهد،

حتى تلك التي أقرأها ولا أفهمهما. لا أعرف ما يَحفِزُني دائماً إلى التجوّل في المقابر؟ أهو سلامُها أم هي عادتي أيّام نومي فيها؟ أم حُبّاً في الموت؟[1].

---

(1) ما زلت أمارس هذه العادة حتى اليوم. بعض كتاباتي ـ منها الجزء الأول من سيرتي الذاتية: الخبز الحافي ـ وهذه التي أكتبها اليوم، كتبت فصولاً منها في المقابر اليهودية، والنصرانية، والإسلامية خاصة المقابر التي يَرجع عهدها إلى القرن التاسع عشر في طنجة، ربَّما لأن المقابر القديمة أكثر إيحاءً، أو لأني احبّ الموتَ القَديم!

القمل المحروق له رائحة بشرية

عاد حسن من تطوان. لقد سوَّى مشكل عودته إلى المعهد مع نائب وزارة التعليم الإقليمي. بدأنا نلتقي خمسة أو ستة من الزيلاشيين في مقهى السي عبد الله. كلهم يدرسون في المعهد. بعضهم يستفيد من منحة خارجية وبعضهم غير ممنوح. في نهاية كل أسبوع يستلمون من أسرهم حاجياتهم أو يسافر بعضهم إلى مدينته. حسن لم يكن يعتمد قطّ على أسرته. كان وإخوته قد جعلوا متجر أبيهم يفلس منذ سنوات قبل أن يقتسموا ما تبقى فيه بعد وفاته. يشتري حسن بعض البضائع الخفيفة: مِكَبّات الخيط، والإبر، وعلب الشوكولاته من المخازن ويبيعها للدكاكين الصغيرة في الكبيبات وغيرها. مرة صحبته فاشترى مِكَبّات خيط من متجر يهودي وباعها لدكاني مغربي على بعد أمتار بضعف الثمن الذي اشتراها به.

ندخن الكيف لأنه أرخص من السجائر ومفعوله أقوى. أعيش على صدقاتهم الصغيرة وصدقات غيرهم من رواد المقهى الفقراء مثلنا. يعلمونني المواد التي أدرسها أو يراجعونها معي في دفاتري. حسن يعلمني الإنشاء بمحبة ولا يتذمّر أبداً. أخطائي كثيرة، لكن تجاربي في المواضيع جيدة. عندما أسأله عن قاعدة نحوية يقول لي: «لا تعبأ بعلة المنصوب أو المرفوع. المهم هو أن تعرف الكتابة والقراءة السليمتين.

هناك من يعرف قواعد النحو بشكل جيد، لكنه إذا كتب أو قرأ قد يرتكب أخطاء القاعدة التي يحفظها ويعرفها في أكثر من مرجع نحوي».

فكرت: أصحيح ما يقوله حسن، أم أنه يبرر جهله في النحو؟ فيما بعد أدركت أنه على حق.

ميلودي يراجع معي الإسبانية التي يتفوق فيها على العربية. إنه من أكسل تلاميذ المعهد، ومن أكثر المدخنين للكيف بيننا. في المساء يجتاحني جوع يصيبني بالسخفة واضطراب نبضات القلب. استنفد وجبة الغداء المدرسية قبل حلول الظلام. الكيف يضاعف جوعي، لكن لا بدّ منه لتخدير الهمّ والقلق. في الصباح قلّما أصل في الوقت المحدد للإفطار في مطعم المدرسة قبل الدخول إلى القسم. لا أنام جيداً بسبب الجوع والبرد، وحكّ جلدي الوسخ وشعر رأسي والتسكع في الليل. عندما ينتهي ليل المحظوظين في الشارع يبدأ ليلي المشؤوم فيه. غالباً ما يحتفظ لي أكثر من رفيق بكسرات من الخبز آكلها مع الماء في سخط. المسافة بين المدينة والمدرسة تستغرقني ربع ساعة وأكثر مشياً على الأقدام. أيام الشتاء يزداد فيها يأسي. أذهب في المساء إلى الملجأ الخيري. حوالي ربع ساعة من المشي. لم أكن مسجلاً رسمياً للأكل في المطعم. يعطيني المكلف، شفقة، خبزة صغيرة واضعاً بين شطريها مَرَقاً وشريحة لحم أو شحمة، أو سردينات مقلية. إذا سقط المطر لا أجد في الطريق مكاناً يحميني غير شجرة تكون قطرات أغصانها أكثر إبلالاً. أحياناً يكون المكلف غائباً فأعود أكثر جوعاً لاعناً كل من أراه يأكل.

مرة ذهبت يوم الجمعه وقت الغداء. الكسكس هو الطعام الذي لم أستسغه قط في حياتي وأنفر من دعواته. ربما لأنه كان هو الطعام الذي أكله المعزّون مع الكرشة بعد جنازة خالي في الريف أيام المجاعة. كنت في السابعة من عمري. دعاني المكلف للغداء مع نزلاء الملجأ. جلست مع أربعة عجزة حول المائدة. أقرفتني شيخوختهم وعاهاتهم. لقد كانوا

أكثر الناس طلباً للرحمة والإنسانية: هذا أعور، وهذا أحول الفم يسيل لعابه، وذاك أدرد (عديم الأسنان)، وآخر ترعش يده، إلى آخر العاهات. انعكست عليّ تشوهاتُهم. تلك أول مرة آكل فيه هناك وآخرها. ينظرون إليّ عاجنين مضغتهم باستلذاذ وتَلَمُّظ. خجلت من نفسي أيضاً لأنه لم تكن فيّ أية عاهة. وضع لي الخادم صحني. أكلت الخضر بسرعة. لم أذق الكسكس وشريحة اللحم التي تتمطط ولا تتمزق بين أسناني كما في مطعم المدرسة. هم يبلعونها بعد مضغ يائس. أتساءل كيف يهضمونها! أخرجت منديلي متظاهراً بمسح فمي فبصقت فيه المضغة المطاطية. أعطاني المكلف خبزة حاف للعشاء وغادرت ومعدتي تتخاصم فيها القطط والتقيء يكاد يغلبني قبل أن أصل إلى عتبة الباب. في الطريق إلى المدينة تسلطت عليّ وجوههم. لكأنهم خرجوا من كهف مكثوا فيه زمناً. ليست الأشياء هي مُقرِفتي إنما الإنسان المُشَوَّه. أحسست بِمَغَص في معدتي. دنوت من شجرة وتقيأت المحتوى كله مختنقاً حتى لم أعد أتقيأ غير الهواء. دمعت عيناي ودخت. استرحت قليلاً ثم استأنفت سيري. السلهامي لن يبخل عليّ بسمكة يُشَهّي لي بها خبزتي الصغيرة. اشتياقي إلى لعينتي طنجة يُحزنني. لها عندي طعم مُغْرٍ حتى في أحقر ظروفي فيها مَهانَة. لا أكاد أغادرها سَئِماً منها حتى يُوتِّرني حنينُ جنوني بها كما كنت في وهران أشتاق إلى تطوان. ثيابي تتسخ وتبلى وتفوح منها روائح جسدي. القمل يعشش فيها. حذائي يتسرب إليه الماء. شعري يغزر ويتدبّق وَسَخاً. أحكّه باستمرار حتى يسودّ ما بين أظافري. حين أمشطه إلى الأمام، لأنظّفه من قشرة الرأس والغبار، يَتَمَاشطُ منه قمل أسود نشيط. في كل مشطة لا أقل من ثلاث أو أربع قملات سمينة، تتحرك بحيوية. موجهاً إياها ـ بعود صغير ـ أجعلها تتسابق ثم أضعها في قصاصة ورق وأحرقها بوقيدة لأتسلى بطقطقة احتراقها.

مدامع العشاق الثلاثة

أبقى في القهوة حتى تغلق[1]، بعد منتصف الليل أهيم في الشوارع منتظراً باب الله (المسجد الكبير)، أن يفتح عند صلاة الفجر. أنام، في أحد أركانه، على حصير تفوح منه رائحة الرطوبة البشرية. الحارس الخفاشي الدائم، أو أيّ نَعّاقٍ مَسجديّ عابِر، يأتي فَيُزَعْزِعُني في سُباتي ويطردني قائلاً:

ـ هذا مكان الصلاة والعبادة وليس للنوم.

أتوسل إليه أن يتركني. حين يعند، غَيّاً، ألعن فرج أمه، وشجرة أسلافه، جهراً، وأخرج حافياً وحذائي في يدي إلى الدروب من جديد.

ذات صباح باكرٍ كنت مُكَوّراً في ركن. أحسست بجسم يتعثّر في جسمي ثم يهوي فوقي. أفقت لألعن في غضب. إنه المختار الحداد الأعمى. سمعت عنه. تلميذ في المعهد الديني. معروف بحججه في التحصيل الدراسي. متفوّق في اللغة العربية وأصولها. يحفظ القرآن والحديث النبوي، والشعر العربي، الملعون منه والمُعَمَّد. اعتذر لي جِدَّ آسِف. أجلسته إلى جانبي في رفق واطمئنان. النعاس ما يزال

---

(1) في انتظار موعد الإغلاق، يتركني صاحب القهوة أتمدد فوق المقعد فأغفو، رغم ضجيج لاعبي الورق، متوسداً دفاتري. في الصباح أجد لطخات دمٍ وبَقّاتٍ مَسحوقة بين أوراقها.

يغلبني، لكن حضوره أقوى من دعوتي إلى النوم. حين عرف أني أدرس أخرج من تحت جلبابه الصوفي كتاب «مدامع العشاق الثلاثة» لزكي مبارك. عرض عليّ أن نفطر معاً على حسابه في مقهى سنترال ونقرأه. كان يوم أحد. خارج المسجد كاشفته قليلاً عن حياتي، والظروف التي حفزتني إلى الدراسة في العرائش. تآزرنا. يتأوه إثْرَ كلّ كلمة أقولها أو يقولها. هو أيضاً بائس، لكنه ليس متشرداً مثلي يتيم. لم يتلاعن مع أبيه. لا بدّ أن الله مسرور بهذا اللقاء. له أخ يكبره يعول أسرته، وآخر أصغر يدرس. رَدَّد عليّ مرات، بعربية فصيحة:

ـ كل شيء يَهون. . .

يعرف مسالك الشوارع والأرصفة وأفاريزها. عند العبور إلى رصيف آخر يستوقفني على الإفريز. يلتفت يميناً ويساراً كأنما هو الذي سيقودني ثم يقول:

ـ هيّا بنا الآن!

إنه يرى بسمعه. أتركه يمارس خبرته كما لو كان وحيداً. اشترينا «الشروس» وذهبنا إلى مقهى سنترال. بعد الإفطار أخذت أقرأ له كتاب مدامع العشق الثلاثة. عندما أعجز عن نطق كلمة صعبة يساعدني على قراءتها طالباً مني إعادة قراءتها أكثر من مرة. قال لي:

ـ إن العربية لغة صوتية.

أنا الآن أتكلم عن سنة 57. وفي الثمانينات قرأت كتاباً عنوانه «العرب ظاهرة صوتية»[1].

يشرح ويعرب أو يُصرِّفُ فعلاً صعباً. هذا هو الذي سيكون معلمي الحقيقي وأنا قارئه المُلازِم. طُزْ في المعلمين الذين ليس لهم صبر جميل للتعليم!.

---

(1) العرب ظاهرة صوتية، تأليف عبد الله القصيمي.

أقرأ أيّ شيء مكتوب: كتاباً مُعاراً أو مسروقاً، أو ورقة مكتوبة ألمّها من على الأرض. أغلبها بالإسبانية. عناوين المتاجر والمقاهي يستحوذ عليّ هَوَسُ قراءتها ونقلها، أحياناً، على ورقة أو دفتر المسودات. هي، أيضاً، كُلُّها، تقريباً، بالإسبانية. كنت أستعجل تعلمي بجنون في جميع الظروف القاسية. كان رامبو على حق عندما قال: «ليس من الخير أن نُبْلِيَ سراويلنا على مقاعد الدراسة». هو الذي كتب ورأى.

صارت القراءة والكتابة عندي هَوَساً في الحلم واليقظة. أتخيّل نفسي، أحياناً، حَرْفاً كبيراً أو قَلَمَاً. بئساً للحل المُكَوبَس! أحياناً، لا أجد ثمن دفتر فألتقط الأوراق البيضاء المستعملة لأكتب عليها دروسي. إذا كان من تلك التي يُلَفُّ فيها الشروس فالكتابة تنعدم في بقع الزيت. كلمة هنا وكلمة هناك. أتسلىّ بهذا الزخرف. أحياناً يتكوّن على الصفحة نوع من التشكيل الصبياني. قذارتي وهزالي أنسياني التفكير في الملذات الجسدية. أحسّ كما لو أني لم أتمتع أبداً بها. تفو في العالم المُقَمَّل، الفائح بالنتانة المقيئة إلى حَدّ الاختِناق.

في قسم الشهادة الابتدائية يدرسنا مواد اللغة العربية معلم شاب متبجح. يعنى بأناقة لباسه أكثر مما يعنى بتدريسنا. يتمشى بين الصفوف مختالاً متعجرفاً كما أراه في الشوارع وهو يتبع إحدى الفتيات كاشفاً عن أسنانه البيضاء. بين حين وآخر يسوّي عقدة رباطة عنقه على انعكاس زجاج النافذة إذا كانت مفتوحة وإذا لم تكن مفتوحة يفتحها. يحكي لنا النكات أو يطلب من بعضنا أن يحكيها. يضحك لأتفه الأشياء. يقرأ الصحف والكتب في القسم. يطلب منا أن نراجع دروسنا السابقة في صمت حتى لا نشوّش عليه استغراقه في قراءتها. أهو جاء ليعلمنا أم جاء ليتعلّم؟ هكذا أفكر في القرد الأمرد الأسمر. يغضب بسرعة، يسبّ من يخطئ في أدنى شيء. إنه ابن أمه الكبير هذا المعلم. كلنا، في

نظره، حمير وهو راكبنا بعلمه وعصاه. يضع دائماً قضيباً على مكتبه. يضرب من يغضبه. إن ضرباته تجعل المُعاقَب يقفز ويتقوّس. وقد يرجع إلى مكانه وهو يدمع. إن هذا الولد الكبير المعلم يغضب مثل من هرب منه قرده إلى السطح كما يقال، يكرهني، يسخر من ضعفي في كل مواد العربية. في إحدى الحصص لم أكن قد حفظت قصيدة صفيّ الدين الحلي التي مطلعها هذان البيتان، إذا لم أخطئ:

سافر تَجِدْ عِوَضاً عَمَنْ تفارِقُه
وانصب فإن لذيذ العيش في النَّصبِ
إني رأيت وقوف الماء يفسده
إنْ سال طاب وإن لم يَجرِ لم يطبِ

اقترب مني غاضباً وهوى على كتفي بقضيبه ثلاث مرات. في الثالثة مسني رأس القضيب في أذني اليسرى. ظل يحقّر سني المتقدمة، ومستواي الدراسي حتى ختم غضبه القردي بهذه الكلمات:

ـ حمار... غبي... أأنت ستدرس؟ عد إلى طنجتك مع أولاد السوق بدلاً من أن تضيع وقتك هنا وتضيّع وقتنا معك.

كانت تلك المرة الوحيدة التي يضربني فيها وبعدها اقتصر على السبّ، بين مرة وأخرى، حتى نسي وجودي. لمست أذني الدامية. استنكار في نظرات رفقائي. تآزروا معي صاغرين. فكرت في أن أنهض وأرتمي عليه. أن أتناطح معه كما كنت أفعل في تطوان أو طنجة في المشاجرات حتى ولو انهزمت. أن نتعارك حتى يخور أحدنا، أن أحاول عض أذنه الحمارية حتى أبترها وأبصقها في وجهه، لكن سيكون آخر يوم لي في المدرسة. سأترك إذن الحمار لأسنان الحمير. عندما انتهى الدرس ذهبت إلى المغاسل ونظفت أذني بالماء من الدم المتخثر. كانت قطرات منه قد سقطت على كتفي. بدأت أذني تسيل من جديد بعد الغسل.

يدرسنا أيضاً نفس المعلم الذي اختبرني أول يوم في الحساب. سريع الغضب مثل الآخر، صارم، ينعتنا بالحمير في حجرة الدرس، وفي قاعة المطعم. يحمل دائماً كتاباً، أو كتابين، أو أكثر، باللغة الأجنبية. سمعت أنه يدرس الإنجليزية بالمراسلة، ويعرف الإسبانية، وقليلاً من الفرنسية. يدرّسنا الحساب والتاريخ والجغرافية. هو أيضاً يضرب بالقضيب على أطراف الأصابع أو يصفع، لكنه لا يغادر حصته حتى يستدرج المعاقب إلى المصالحة معه. لم نكن نحقد عليه مثل الآخر. يساعد بعض التلاميذ المعوزين الوافدين من البادية ببعض النقود والثياب ويزورهم في مساكنهم متفقداً أحوالهم مراقباً فروضهم. أنا لم تشملني رحمته ورعايته خارج المدرسة. لم يكن لي مكان قارٌّ أنام فيه. كنت أتبع خطى السكارى، والحشاشين، وطَوَّافي الليل. أجد لي دائماً مكاناً بينهم. لقد كانت لنا نفس الذكريات واللغة، لنا عالمُنا ليلاً ونهاراً، في لَغْنَتِنا الجميلة. إن السّكارى، والحشاشين، وطوافي الليل، يَتشابَهون، ويتآزرون، أينما كانوا، في أي زمان ومكان. إنهم يَرفضون الدَّخيل عليهم والوسيط إذا لم يَعتنق لَغنَتَهُم.

بعض رموز العالم بدأت أجد لها معاني فيما أقرأه. نجحت في امتحان الالتحاق بالتعليم الثانوي. نقلت من تلميذ في مادة الحساب. قيل لي إن بعضهم نجح بالرشوة أو الوساطة. قلت لنفسي: أنا أيضاً غششت في مادة الحساب. ساعدني المَطعميّ السلهامي على شِراء تذكرة السفر وعدت إلى طنجة: «لعينتي»، مَهما جَفا كلانا من الآخر.

المرواني

جاء المرواني إلى مقهى الرقاصة كعادته، لكنه اليوم لا يحمل صينيته الكبيرة المملوءة بالأرغفة الباكستانية ليبيعها في المقاهي الشعبية. هذا الصباح يحمل فقط رغيفاً مشطوراً مدهوناً بالسمن والعسل. يتناول إفطاره شاتماً هؤلاء الذين يتهمونه، في غيابه، وحضوره، أحياناً، بخيانة وطنه. أنهى فطوره وصاح بصوت غاضب:

ـ اليوم سأثبت لهم من أنا، أنا عميل الاستعمار كما يقولون عني.

تهامس رواد المقهى عن الجنون الذي بدا لهم في عينيه. يدخن سيجارته باضطراب. وقف فجأة وأخرج خنجراً كبيراً من حزامه تحت عباءته الفضفاضة البيضاء. تبلبل الزبائن وارتعشت ملامحهم ساكنين في أماكنهم. ألقى نظرة دائرية بطيئة على الحاضرين. عيونهم لا تكاد ترمش. نظراتهم مشلولة.

ـ اليوم سيعرف أولاد الحرام من أنا.

خبأ خنجره وخرج راكضاً في اتجاه عقبة الصياغين. في ساحة بينيتوبيريث جالودس[1] أَشْهَرَ خنجره وطعن به صَيْرَفِياً يهودياً في دكانه، ثم امرأة أجنبية. انطلق في طريق الطواحين شاهراً خنجره الدامي. التقى

(1) روائيّ إسبانيّ مشهور (1843–1920).

ببعض المغاربة، لكنه لم يبال لهم. كان يصرخ: «الجهاد في سبيل الله يا أولاد الحرام. لعن الله الكفار والخونة...» في حومة بنشرقي قصد دكاناً وجده مقفلاً. ركل بابه وبصق عليه شاتماً صاحبه. استأنف ركضه. في طريق دار الدباغ طعن رجلاً وامرأة أجنبيين. في نهج إسبانيا، قرب محطة القطار، كان هناك شرطي إسباني. قصده المرواني شاهراً خنجره. أطلق الشرطي النار على إحدى ساقيه فسقط يتمرّغ في دمائه وهو يسبّ الملاعين. وصلت سيارة الإسعاف، وجيب الشرطة، وجمهور أخذ يتكاثر بسرعة.

عناد الحب القاسي مثل خبز الفقراء

جالس في رحبة قهوة سنترال. الحرارة تُنْعِسُني. آتية من طريق البحرية، مصبوبة في قميص وسروال أبيضين شفافين لصيقين بجسدها الرشيق. شابة وجميلة. شقراء. في مشيتها غنج. أنفها صغير أفطس قليلاً، شعرها طويل أملس، شفتها العليا مقوّسة. عيناها كبيرتان مسحوبتان. قطة آسيوية. قد تكون لها طباع قطة مشاكسة. إذا كانت واحدة منهن فسيكون هناك معنى لهذه الأشياء التي أدغدغ بها ذهني عنها. أتبعها. عيائي يخفّ. دخلت في طريق كرّو لاس أونثي Curro Las Once. في ساحة التقدم دخلت داراً أزالت شكي: إنها واحدة منهن. انتظرت حتى تصعد الدرج. استقبلتني صاحبة الدار ببشاشة. إنها للاّالغالية. بدأت تشيخ، لكنها ذات حيوية وأناقة. لا أزهى من دارها: دار السلام. ضحكات ولغو صاخبان في إحدى الغرف. أدخلتني إلى غرفة صغيرة مفروشة بتخت مغربي. رائحة الندّ تفوح. على الحيطان سجادات مزينة برسوم مستوحاة من شخوص ألف ليلة وليلة. طلبت بيرة. جاءتني بها فتاة جميلة سمراء، قصيرة وممتلئة، «انكحوا من السمر القصار، ومن البيض الطوال». لون ثوبها مزيج من البنفسجي والأبيض. انحنت واضعة القنينة على الطاولة الصغيرة فشفّ في ضوء الشمس العمودي تشكيل فخذيها وبانت الفجوة العمودية يخترقها النور

القوي. شكرتها وانصرفت ناظرة إليّ مبتسمة. أطلت للاّالغالية عند الباب بقامتها الطويلة فانكسر الشعاع وحيّتني مشرقة والسيجارة في يدها. ترفل في قفطانها الزاهي اللون. طلبت بيرة أخرى قبل أن أنهي الأولى. سألتها عن ذات السروال والقميص الأبيضين. قالت إن ثمن الدخلة مع واحدة منهن خمسين بسيطة. قلت نعم. جاءتني بالثالثة قبل أن أنهي الثانية. قالت إن التي أريدها مصحوبة. قلت صبراً جميلاً عليّ. قالت هناك اثنتان أجمل. قلت الخيار لها. الرجاء في القوّادة غالباً يخيب. نادت ربيعة. جاءت الجميلة السمراء. قتينتان أخريان. قالت إنها من مكناس. قلت لم أزر مدينتها. حملنا شرابنا إلى غرفة أخرى فيها فراش. سألتها عن صاحبة السروال والقميص. قالت إن التي أريدها من طنجة. رائحة ربيعة قوية، وحارة، مثل لُطفها.

في المساء تسكعت بين خمّارات السوق الداخلي، يتحدثون عن جنون المرواني، ومذبحته، وأسرته، وارثة الجنون، وعن الاستعمار الذي يختار عملاءه من بين ضعفاء العقول، والمعتوهين، الذين ينتهون مجرمين. هيَّجني السكر الحزين والعناد فعدت إلى دار القوّادة «شريوطة». قالت كنزة ما زالت في صحبة الرجال وأنا إن شئتُ عدتُ غداً أو فعندها أجمل منها. قد أعطي التي استعصت مائة بسيطة. ستشاورها. قلت لها مدبْرةً أعطها ما شاءت. بانت في البهو مختالة في خطوها مثل نمرة شبعت من افتراسها. تباهت نظرتها ثم اختفت في كبرياء المعتصمات. حملت إلي شريوطة بيرتي وقالت:

ـ لا تُشْقِ نفس بها وما لك إلاّ سواها. هي عنيدة وأنا لا أقدر أن أبزز لها حقها. هذا زمن النساء في حياة الرجال. عُدْ يوماً آخر لعل الله يهديها.

صباح هذا اليوم تاجرت في بيع الساعات الزائفة في الميناء. ربحت ثلاثين دولاراً. في المساء التقيت حميد الزيلاشي يخيط أزقة

السوق الداخلي. خرج من السجن منذ يومين. رأسه حليق، يَعْتَمِر «بيريه» أسود بالياً من الصوف. شاحب ومتوتر الأعصاب.

ـ أدخلوني إلى زنزانة كريهة الرائحة يخرج من ثقب مرحاضها الجرذان. قضيت فيها ثلاثة أيام.

ـ لماذا الزنزانة؟

ـ لأنني رفضت تنظيف المراحيض متعللاً بالمرض. لقد حقد عليّ الحارس لأنه لم يكن عندي ما أعطيه لابن الزانية كما يفعل من لا يريد أن ينظف. كنت قد دخلت إلى حان ـ مقهى النورماندي في ساحة فرنسا لأشرب كأساً. امتنعوا عن خدمتي فبلت لهم على العتبة. قبضني النادلون وأخذني البوليس وحكموا عليّ بشهر.

بدأ حميد يفكر في العودة إلى الدراسة في العرائش، إذا هو لم يعد إلى السجن بسبب زَعَارته، ونشل الجيوب. إنه ماهر، ولكنه قد يخطئ أو يتهّور.

ـ لا أريد أن أنهي حياتي بين الملاعين. إن الذين يحكمون داخل السجن أفظع من الذين يحكمون خارجه. حكم الحاكم ولا حكم المحكوم.

رويت له ما حدث لي مع كنزة.

ـ أنها تريد أن توقعك في فخ حبها. ابتعد عن حب العاهرات. إن كل واحدة تحاول أن تنتقم من كل الرجال من خلال رجل واحد. كل واحدة منهن تعتقد أن الرجل هو الذي فَشَّل حياتها. كلهن فاشلات في الحب.

ـ إنها شقراء، وسمعت أن مزاج الشقراوات جدُّ متقلب.

ضحك بصوت صاخب.

ـ من قال لك هذه السخافة ليس هناك لون امرأة خيِّر ولون أخرى

شرّير. لونهن واحد من الداخل ولو اختلفت ألوان جلودهن. أَغْرِقْ نفسك في الجنس تَنْسَ هموم الحب. إن الحب همّ كبير مثل خبز الفقراء.

ذهبنا إلى طريق المسيحيين. دخلنا حانة الجايو Bar El Gallo. كان هناك إسبانيون وبعض المغاربة. إسبانيتان تشربان وتثرثران مع إسباني ومغربي. شربنا كأسين. أزعجتنا قهقهات المحترفتين فخرجنا. أعطيته مائة بسيطة. سيذهب غداً إلى أزيلا ليزور أسرته. قد لا أراه إلا في العرائش. ودّعته. ذهبت إلى حانة شريوطة. ربيعة غير مشغولة. تذكرت عريها الجميل الأسمر، وزغب ظهرها الخفيف، ودفء فخذيها الممتلئتين، وعرقها القوي. تخيلتني ألبسها وأُلبِسها ما شاءت من الألبسة الحريرية حتى كادت أن تختنق ضاحكة في هوس لا يكفّ ثم راحت تتلوى مثل أفعى متحفزة. تتعرّى حتى صارت أكثر عرياً من عريها. إن حميد محق. شهوة خبز الأفخاذ ولا زنبور الحب. الحب جنيّ. من يستطيع القبض عليه؟ مائة وخمسون بسيطة لربيعة وخمسون لشريوطة. إنه ثمن رائحة الليلة العطرة بكاملها مع ربيعة.

شربنا وذهبنا إلى فندقها لا بلاتا. اشترينا زجاجة مارتيني، وثلاث ليمونات، وليمونادا ـ الصودا. غرفتها صغيرة، الفندق متواضع. الليلة صاهدة. جلسنا بثيابنا الداخلية على حافة الفراش.

ـ لماذا تلح على مضاجعة كنزة.

ـ عناد.

ـ إذن أنت لا تحبها!

ـ تعجبني.

ـ إنها صديقتي. سأحدثها غداً عنك وتنام معك دون أن تدفع لها ألف بسيطة كما قلت لشريوطة. إن كنزة أيضاً عنيدة. ربما تكون قد أيقظت فيها أشياء تؤلمها.

ـ لم يعد يهمني أن أنام معها.

شربنا كأسينا. صمتنا في شرود. تناظرنا.

ـ أهي تحب أحداً؟

ـ هي الآن لا تحب أحداً، ولكنها تبحث عن حب حقيقي.

ـ حب حقيقي!.

ـ نعم حب حقيقي.

ـ ماذا تقصدين.

نظرت إليّ باسمة.

ـ أنت تمزح.

ـ أبداً لا.

ـ كل الناس يعرفون ما هو الحب الحقيقي وأنت لا تعرفه.

ـ لا أعرفه.

ـ كفاك من الكذب.

كنا مثل طفلين نحاول أن نحلّل سرّاً من أسرار العالم.

اشتريت بعض كتب المنفلوطي، وجبران خليل جبران، وميّ زيادة، وسجنت نفسي أقرأها. كنت قد سمعت أن هؤلاء يكتبون عن الحب المثالي، الحب الحقيقي. أخرج إلى مطعم ماريا القريب من الفندق وأعود حاملاً معي زجاجة نبيذ وكتاباً عن الحب الحقيقي أو قريباً منه. وجدت بعض العزاء فيما يقوله المنفلوطي وجبران وميّ، لكنه حب مشروط بالموت أو الحزن الأبدي أو هو الجنون.

التقيت ربيعة في السوق الداخلي. كنزة انتقلت إلى فندق ربيعة لتسكنا معاً، اقترحت عليّ أن أنضم إليهما في نفس الفندق. ثمنه أرخص من فندقي، ويمكن أن أصحب معي من أشاء. الفخ يبدأ. هكذا فكرت. انتقلت إلى الفندق مدفوعاً بالعناد، والفضول، والمغامرة.

حجزت، في السطح، غرفة صغيرة مواجهة للبحر. تصاحبت مع حارس الفندق الليلي: شاب مدمن على الكيف والخمر ليل نهار، صار كارهاً للنساء لأن عشيقته شامة خانته مع صديق له. حين يغلبه الكيف والخمر أنوب عنه في الحراسة إذا لم يغلبني الخمر والكيف قبله. أحياناً تصحب كنزة معها زبوناً يقضي الليل كلّه معها أو يغادرها بعد وقت. ربيعة تفعل ذلك في فنادق أخرى. لا أدري ما يمنعها في فندقها مع أنها متفاهمة مع علال الحارس أكثر من كنزة المتعجرفة، العصبية. القراءة صارت تخفف عني الإدمان على الخمر والكيف. اشتريت أيضاً مجنون ليلى وكليوباترة لأحمد شوقي. وجدتني كنزة ذات يوم مساء أقرأ مسرحية المجنون جالساً وراء صندوق الاستقبال فقالت:

ـ كفاك من القراءة فإنها تجنن.

كان يتبعها رجل.

تعمل كنزة في مرقص شرقي راقصة مبتدئة. مع ذلك فقد سموها «الراقصة العفريتة». في ليلة عادت سكرانة. سائق سيارة الأجرة يسندها. في فمها سيجار. لباس سهرتها أسود لامع وقلادة بيضاء زائفة تتدلى على صدرها. وردة حمراء «مركوزى» في شعرها. الليل أخفى للويل كما قال لي ماجن لا يقرب الفسق في النهار. قال لي السائق وهو يغادرها:

ـ إذا لم تسندها مثلي فإنها ستسقط.

بياض وجهها وعنقها وذراعيها أجمل في ثوبها الأسود. تركتها واقفة تترنح وأخذت مفتاح غرفتها من حاملة المفاتيح.

ـ أنا امرأة عظيمة. أنت لا تعرفني بعد.

علال الحارس ميت في نومه. نزعت لها السيجار حتى لا تحرقني في وجهي. وأنا أسندها. رائحة الخمر، والتبغ، والعطر القوي، تمتزج في شميمي. لم أكن قد شربت غير كؤوس في تلك الليلة. الثملة أغلى

من جيبي. أحاطت ذراعها عنقي وصعدنا الدرج هاذية بعظمتها ومشقتي أعظم معها. رميت السيجار. يبدو أنها نسيته. تتوقف فوق درجة لتتكلم عن القنصل الإسباني الذي يرتاد مرقصها من أجلها ويموت حباً فيها. أحياناً تريد أن تنام على إحدى الدرجات فأرفعها:

ـ ليس هنا.

خلعت لها حذاءها المذهب ومددتها على فراشها بكامل زينتها. تعيش لياليها بجلالها الكامل. جلستُ على حافة السرير عند قدميها وأشعلتُ سيجارة. أتأمل غيبوبتها وتنفسها الواهن. إن لها الآن جمال امرأة ميتة مشتهاة في زمن بابلي أو إغريقي. لم يعد فيها ما يغري. فقدت كل كبرياء صحوها، وغَزَلِها، وتباهيها. لقد تحررت من كل خداع، من كل زيف بشري. إنها الآن لنفسها كلية شاءت أم لم تشأ.

دخلت غرفتي وشربت كوب ماء ممزوج بعصير الليمون. دخنت وفكرت في العلاقات البشرية القذرة. حلمت بصف طويل من الرجال عراة يتناوبون على مضاجعة كنزة وهي تقول لهم: «تعالوا إليّ كلكم. زمني هو زمن كل النساء». حلمت وحلمت حتى أيقظني حلم الأحلام.

لم أعد أرى حميداً منذ افترقنا. مرت أيام والتجارة، مع بحارة البواخر، كاسدة. صرت أقود تارة السياح وتارة الجنود البحارة إلى المواخير والحانات. ربيعة وكنزة تضاجعان الرجال. أنا أقرأ وأنسخ، أحياناً، ما أقرأه حتى يرسخ الأسلوب في ذهني، وترسخ الكتابة السليمة دون أن أعرف قواعدها النحوية كما نصحني حسن. أكتوبر يقترب. لم أوفّر كثيراً. لقد استنزفتني الحانات والمواخير لأنسى صدمة كنزة. ملأت حقيبة كبيرة بالملابس التي بادلت بها بحارة البواخر التجارية أشياء من الصناعة التقليدية المغربية. بعضها اشتريته من سوق المستعملات. سأبيعها للتلاميذ في العرائش خلال أيام إفلاسي. قبل سفري بيوم دعوت ربيعة للسباحة والغداء في أحد مطاعم الشاطئ. سبحنا وجرينا

ولعبنا، بصقت على كنزة في خيالي وأنا ألاعب ربيعة في الماء. نطفو ونغوص، نفرج ساقينا بالتناوب ويمرّ كلانا من فجوة الفخذين. كل مرة نُباعِدُ المسافة حتى يفوز أقوانا. تذكرت ما قاله الإسباني لرفيقه في حانة خينيرال:

Cada Amor Se Olvida Con Otro Amor Recordar el Primer Amor Es Amar Segunda Vez

كل حب يُنْسَى بحب آخر.

أن تتذكر الحب الأول هو أن تحب مرة ثانية.

لكنني لم أستطع أن أستبدل حب كنزة بحب ربيعة. إن الحب لعنة وكنزة لعنتي.

في مطعم بويرتا دل الصول حكت لي ربيعة دامعة العينين عن موت أمها. أبوها تزوج بعد موت أمها بأقل من شهر. لم تكن زوجة أبيها تحبها وكانت تكره أن تُرَبي أخاها الذي أخرجوه من بطن أمها بالقيصرية. في ليلة ذهبت زوجة أبيها إلى عرس. غلب النوم ربيعة في فراشها. عاد أبوها سكراناً ونام معها عن غير قصد. حكم عليها أن تهجر مكناس أو يقتلها.

قلت لها:

ـ قد يحدث هذا عن قصد أو عن غير قصد. قد يحدث أكثر من هذا.

كَفَّ دمعها واستراحت عيناها.

لكنها امرأة طيبة

جلسنا في قهوة سنترال. أخرج من تحت جلبابه كتاباً ومده لي:

ـ هذا عمل عظيم. أحسن ما يمكن لنا أن نقرأه.

كانت رواية البؤساء لفكتور هوغو. نقل جزءاً منها إلى العربية حافظ إبراهيم بلغة القواميس القديمة. طلبنا قهوتين بالحليب. أخذت أقرأ له. معظم الكلمات لم أكن أفهمها. ألفاظ غريبة صعب عليّ نطقها. المختار يعرف معنى كل الكلمات تقريباً. في مشرب المقهى كانت هناك امرأة تشرب مع جماعة من الإسبانيين. تضحك كثيراً. يغازلها ثلاثة. بين لحظة وأخرى تنظر إليّ. ابتسامتها مشرقة. بادلتها ابتساماتها الوديعة ماذا يخامرها؟ فكرت في أن للنساء نزواتهن. وضع لنا النادل القهوتين وقال:

ـ القهوة على حساب السيدة فطيمة.

قد لا تكون نزوة. ربما هو إحسان بنا. لا شك أنها تعرف المختار. شكرتها بنظرة باسمة. قبل أن أسأله قال:

ـ تعيش على هواها مع الإسبانيين. تتحاشى العشرة مع المغاربة، لكنها امرأة طيبة. المختار يعرف أسماء الأشخاص من أصواتهم أو مجرد لمسهم، إذا كان يعرفهم شخصياً.

في المعهد لم تكن الدراسة قد بدأت بجد. القسم الداخلي لم

يفتح بعد. كان علينا أن نتدبّر مأوانا، وأكلنا، نحن الوافدين على المدينة من البوادي أو من المدن الأخرى. في زنقة القائد أحمد كان هناك هُرْيٌ مِلكاً للأوقاف. عندي حوالي ألف بسيطة. وصل حميد وقبلوه في مدرسة المعتمد بن عباد. استطاع أن يتسلم مفتاح الهُرْي. في الليل نشعل أخشاباً في إحدى حجرتيه التي نجلس وننام فيها. نستضيء بالشموع. نشتري زجاجة روم نيجريتا لنحتمي بها من برد الليل القارس، ونجترّ الحنين إلى طنجة. علقنا لوحاً أسود قديماً على الجدار. ننجز عليه العمليات الحسابية ونتبارى في كل المواد الدراسية. تعرّف حميد على فتاة عاشت فترة في طنجة سحقها فيها صعاليك الليل. صارت تشاركنا وحدتنا حين لا تكون مدعوة لتقضي الليلة مع زبون سخيّ. تطبخ لنا، وتشرب معنا، وتساهم في النفقات. فتاة لم تخلق أبداً للدعارة. قليلة الكلام. حضورها حميم. تنام بيننا على مضجع واطئ صنعناه من الكرتون، وأمزاق الثياب البالية، والجرائد. لم يكن يسوءها تناوبنا على التدفؤ بجسدها الحارّ، لكن رغبتها في الجنس أقلّ من رغبتنا. نوع من التطهر يجعلها سلبية معنا. ربما مع كل من ينام معها. ربما لا تريد منا غير صداقتنا! لكننا لم نكن نعرف صداقة الرجل للمرأة دون جنس. إنها أنثى ونحن ذكران نفترس أنوثتها. انتحابها، أحياناً، وهي بيننا، يحزنني. حميد لا يبالي بها. لم نكن نقدر أن نراها تنام بعيداً عنا. مات أبواها وهي طفلة. رعتها عمتها. لم يكن لنا، حميد وأنا، أي مصدر لكسب بعض النقود. بسيطاتي تنفد. حميد جاء مفلساً من طنجة. ذات صباح قال لي:

ـ تزين اليوم بأحسن ما عندك من ثياب.

إنه يوم الأحد.

ـ لماذا؟

ـ ستعرف فيما بعد.

ـ عندي سترة وبنطال لا ألبسهما إلا في أيام العطل غير الماطرة.

اخترت قميصاً أبيض، وربطة زاهية الألوان.

ـ لا تنسى أن تحمل محفظتك الجلدية وقلمك الذي لا تكتب به دروسك.

ـ لكن لماذا كل هذا الهرج؟

ـ عندي مشروع جيد.

ـ ما هو؟

ـ هناك كثير من العاطلين الوافدين على المدينة من البادية يبحثون عن الشغل.

ـ وبعد.

ـ سأصطاد اثنين أو ثلاثة. سأقول لهم إنك صديق الكاتب الخاص لباشا المدينة ستكتب رسالة لكل واحد منهم تقول فيها: «إن حامل هذه الرسالة في حاجة إلى شغل فالرجاء أن تشغلوه».

ـ هكذا بكل بساطة.

ـ نعم، هذا ما ينبغي لك أن تكتبه.

ـ وإذا قبضونا.

ـ من؟

ـ الشرطة أو الضحايا.

ـ سننكر. ألا تعرف كيف تنكر؟ أين أيامك في طنجة؟

ـ وخطّ يدي، كيف أنكره؟

ـ اكتب بخط غير الخط الذي تعوّدت أن تكتبه... لن يمتحن الخبراء خطك في مثل هذه القضية.

ـ أنت المسؤول عن العواقب.

ـ أنا الملعون، لكن ابلع لسانك.

ذهب بحثاً عن الضحايا. قصدت مقهى النجمة بكامل زينتي. كنت أقرأ عرائس المروج لجبران خليل جبران عندما عاد مصحوباً ببدويين. صافحاني باحترام بالغ. أحسست بحرج، رجوتهما أن يجلسا. سحنتهما جداً بائسة. حميد جلس بجانبي ليشرح لي طلبهما. لم أتعوّد على مثل هذا الغش. أرشف قهوتي السوداء. طلبوا براد شاي أخضر. حميد لا تهمه الوسيلة التي يتدبّر بها الإنسان عيشه. في مثل هذه الظروف الضحايا لا يمكن أن يكونوا إلاّ من طبقتنا.

كل شيء يجوز لنا من أجل إنهاء دراستنا. عليهم هم أيضا أن يسرقوا غيرهم كما نسرقهم نحن.

هكذا قال بعد انصراف الضحيتين. اتفق معهما على مائتي بسيطة لكتابة الرسالتين. كتبت في كل واحدة: «أنا الموقع أسفله... مواطن مغربي. من قرية... أبحث عن أيّ عمل. الرجاء أن تشغلوني. والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه».

لا يعرفان التوقيع كتابة. قطرت قليلاً من مداد قلمي على ورقة وجعلتهما يوقعان بإبهاميهما. كان يوم أحد آخر عندما كنا نتجوّل في طريق ريال Real. لم يكن معنا ما نُقْهي به. معنا بضع سجائر نتناوب على تدخين الواحدة منها. تخلف حميد ورائي يتفرج على واجهة متجر وأنا أنتظره متفرجاً على واجهة أخرى. سمعت زعيقه. أحدهما قابض على حميد والآخر رآني فقصدني يرعد ويصرخ. جريت بكل قواي. دخلت في زقاق. هناك باب ثانوي لمسجد الجامع الكبير. خطر لي الاحتماء في المَقْدِس. دخلت راكضاً بحذائي. في المتوضأ انزلقت ولم أسقط. التفتُ ورائي. ولد القحبة يخلع حذاءه. لا مكان للاحتماء هنا. لم أخلع حذائي. صلاة الظهر. أقفز على ظهور المصلين.راكضاً بينهم. تبلبلوا. خرجت من الباب الرئيسي. وجدتني في ساحة سوق الكبيبات. صحت في أبناء الزانيات:

ـ عودوا إلى الصلاة. لم يحدث شيء.

لا آذان لهم. اللعنى على الأرانب البشرية. يركضون ورائي. تبلبل باعة سوق الكبيبات. تكاثر مطاردي. إذا جرى أرنب جرت أرانب. قصدت «عين شقة». توقفت عند السور المطل على البحر. مستنداً إلى السور ناظراً إليهم. في عيونهم شرّ وتَوَجُّس. سأتركهم لا يعرفون. من جديد مشوا في اتجاهي ببطء ثم راحوا شيئاً فشيئاً، يركضون. استأنفت سباقي. رأيتهم يتوقفون ويتكلمون ثم يرجعون وهم يتقاربون. توقفت ساعلاً لاهثاً. استندت إلى السور. نسيم البحر يخفف من تعبي.

في المساء ذهبت إلى الهري. وجدت حميد مع سعيدة. عينه اليسرى متورمة وفي منخره قطن. نظرت إليّ سعيدة مثل ممرضة من أخوات الإحسان تعنى في دير بجريح خاض حرباً في القرون الوسطى، تناظرنا، أنا وحميد، لحظة ثم انفجرنا ضاحكين في صخب هستيري. قال:

ـ أنت محظوظ، لقد أفلتّ من مطاردك. إنه أقوى وأخبث من زميله. عاد، ولد الزنا، وتضارب معي ورفيقه يحاول أن يخلصه مني، تدخل بعض المارة وأنقذوني من الذهاب معهما إلى مركز الشرطة. لو قبضك لَمَرَّغَكَ في الأرض.

دقات خفيفة على الباب. فكرت: دقات إنسان غريب خجول. فتح حميد. ناداني. فطيمة الضاحكة. ماذا تريد؟ تسالمنا باسمين. اضطربت ملامح وجهها. زينتها بسيطة. لم تبالغ في تجميل وجهها كما تعودت أن أراها في مقهى سنترال، قدمت لها حميد ورجوتها أن تدخل.

ـ ليس اليوم. شكراً. أريد أن أتكلم معك.

استأذنت حميد وصحبتها. نظر إلينا لا مبالياً.

ـ أدعوك للعشاء معي في بيتي. لم تجئ إلى مقهى سنترال منذ أيام. ترقبتك هناك وسألت عنك النادل.

ـ في هذه الأيام أعود من المعهد مباشرة إلى الهري لأراجع دروسي.

تسكن في طريق ريال. بيت صغير: حجرة، ومطبخ، ومِرْحضة. الأثاث نظيف ومتواضع. على الجدران صور في أُطُر زجاجية حواشيها ملصقة بشريط أحمر. رائحة توابل ولحم. تَحَلَّب فمي. تَضاعَف جوعي. تركتُ الحجرة مُضاءة عندما جاءتني إلى الهري. زجاجة فِرموت وشطائر ليمون. لا شك أن حميد يلعن الآن النساء.

ـ هذا ما عندي اليوم.

تناخبنا. شربَتْ ثم وضعت كأسها كأنما تذكرت شيئاً.

ـ أنا راجعة.

تأملت الصُّور على الجدران: فردية وجماعية مع إسبانيين. هناك صورة رجل وامرأة شيخين. أبواها؟ صورة لها مع طفلة.

ـ هذه بنتي سلوى.

طفلة خجول. باسمة.

ـ بوسيه.

ألصقت فمها الدافئ على خدي. بوسة خفيفة على رأسها. أكره الملاعين الذي يبوسون الأطفال في الفم أو قريباً منه. يمصون أفواه العاهرات، وقد يلعقون الفروج. لا رجل تقيٌّ ولا فرجٌ نقيّ. هذا ما يقوله حميد.

ـ عمرها سبع سنوات. تدرس في التحضيري.

ابتسمت لها وأجلستها إلى جانبي.

ـ هذا السيد هو الذي سيعلمك عندما تعودين من المدرسة.

حملت إليّ دفاترها، تصفحتها.

ـ نتائجها جيدة.

ـ أريد أن تتعلم حتى تصير طبيبة أو أستاذة. أليس كذلك يا سلوى؟ لا أريد لها أن تصبح مثلي. أنا لم أدرس غير ثلاث سنوات في معهد الراهبات الإسبانيات، تعلمت الخياطة، والطرز، أكثر مما تعلمت الكتابة والقراءة.

لأول مرة أسمع عن طفلة مغربية اسمها سلوى. تبتسم منكمشة على نفسها. أثناء العشاء كانت تمزق قطعة لحم تضعها تارة في فم سلوى وأخرى تمدها لي. تَرِنّ كأسانا. فَرحتُها هَوَّسَتْها. أخذت سلواها، بعد العشاء، عند الجارة التي تربيها.

ـ لماذا لا تتركينها تنام معك؟

ـ أعود متأخرة في الليل، ولا أستيقظ باكراً، هي تفيق في السابعة لتذهب إلى المدرسة في الثامنة.

سألتها عن مسقط رأسها.

ـ ولدت في العرائش، لكن أبوي من «اثنين سيدي اليماني». أمي ماتت وأبي عاد إلى قريتنا. إنه اليوم متزوج ويفلح أرضنا.

نمتلئ بالنشوة والألفة. لا يبدو عليها الآن أيّ قُحبٍ وتَغَنُّج كما تكون في مقهى سنترال. محتشمة في حركاتها ورقيقة في صوتها. عندما نصمت ينتابها شرود حزين، لكنه حلو فأتركها لنفسها وأَتلهّى برؤية الصور على الحيطان. عندما يشرق حضورها أشاركها مرحها.

قابلت المختار الحداد في الشارع. وحيداً يسير. أوقفته. تلمسني ثم انتقلت يده إلى ذراعي منزلقة حتى قبض على يدي:

ـ شكري. أنا أبحث عنك. سألت عنك في مقهى سنترال هل نذهب إلى هناك ونقرأ.

ربما يتعرّف عليّ أيضاً بالشم. يحمل قصة «ليلى المريضة في العراق» لزكي مبارك.

ـ لا أملك ثمن أيّ مشروب وعندي سيجارتان فقط.

تأبط ذراعي وذهبنا إلى مأوى المعهد الديني ليستدين من تلميذ بدوي يقيم هناك. في بهو المبنى اتجه إلى اليسار وأخذ يتلمس الأبواب. عند الباب الثالث توقف وطرق. لم يجبه أحد. الباب غير مقفل بالمفتاح. فتحه ودخل. خرج ملتفتاً يميناً ويساراً ليرى بسمعه كعادته. يحمل شيئاً تحت جلبابه. يعكسه بيده من خلال فتحة جيب الجلباب.

ـ ماذا هناك؟

ـ اسكت. إنه موقد بترول. سنبيعه. أتمنى ألا نلتقي به قبل أن نخرج من هنا.

ـ من؟

ـ صاحب الموقد. أراجع معه دروسه بالعربية.

تركته ينتظرني قرب أحد أقواس سوق الكبيبات ورحت عند المطعمي السلهامي. وجدته ماسِكاً فرُّوجاً من جناحيه.

ـ أيها الفروج العزيز، لقد حان أجلك المحتوم. ليس على يدي وإنما على يد الذين يطلبون لحمك. إني مضطر إلى أن أنفذ فيك هذا الحكم وأنا شديد الأسف والحزن عليك. لن تحلم بعد اليوم بالحبوب، والقفز على الإناث المغرورات اللواتي يقضين وقتهن كله في البحث عما تأكله. أما أنت فرأسك دائماً شامخ. إنك تنظر إلى السماء أكثر مما تنظر إلى الأرض وداعاً أيها العزيز اللطيف الجميل.

ثم ذبحه بالموسى ورماه ليتمرّغ وينتفض. انتصب لحظة جاحظ العينين وقفز لينهار وهو ينتفض. من عادة السلهامي أن يخطب في كل فروج يذبحه. لم يكن قط يذبح الدجاجات. الأنثى لا تصلح إلا لتلد. إن لحمها غير لذيذ ومترهل، لأنها تستهلك نفسها في ولادة البيض

والقلق على ما تلد. هكذا يقول. يذبح الفروج بالموسى بدل السكين حتى لا يتعذب: إن الفروج فيه روحٌ وليس كمنجة كما يقول. بعت له موقد البترول بثلاثين بسيطة. سألني عَمّا إذا كان مسروقاً. أقسمت له أنه لصديق تلميذ في حاجة إلى نقود لشراء دفاتر.

اقتسمنا المبلغ. قبل أن نذهب إلى السنترال طلب مني أن نَمرّ على الدرب الذي تسكن فيه معشوقته «البتول». قرب باب منزلها توقف وتأوه ثم عدنا. فكرت: لقد شمَّ دربها. كان المختار يُحْيِي تقاليد الحب العذري عن صدق. وسيموت بعملية جراحية في قلبه الضعيف العاشق عام 74.

ـ أهي أيضاً تحبك.

ـ لا أدري.

ـ أتعرف أنك تحبها؟

ـ أعتقد أنها تعرف، لكنه لا يهمني أن تعرف أو لا تعرف.

ـ تتكلمان؟

ـ ليس على انفراد. عندما تكون مع رفيقاتها في المعهد أو مع إحداهن نتكلم قليلاً ونتسالم.

جلسنا في مقهى السنترال وأخذت أقرأ له ليلى المريضة في العراق وهو يتأوّه ويشرح لي ما لا أعرفه من الكلمات.

في المعهد رأيت اسمي ضمن قائمة الممنوحين في القسم الداخلي. كان يوم سبت. يوم الاثنين سيفتح. فرحت وهنأتني فطيمة بثلاث قبلات على خدي. إنه يوم الأحد. وجدتها تتجمل لتبدأ يومها الاحتفالي في الحانات.

ـ إيّاك أن تنقطع عن زيارتي وتعليم سلواي، إنني أعوّل عليك.

ـ سلواك هي سلواي.

دست لي عشرين بسيطة في يدي مشرقة الوجه. لم أرفض. لقد عودتني أن لها حرفة وأنا ينتظرني العام الدراسي كله من الإفلاس المادي قبل أن تأتي عطلة الصيف وعودتي إلى طنجة. أعطيت درساً لسلوى واصطحبتها في جولة. اشتريت لها شوكولاته بما أعطته لها أمها. تجولنا ولعبنا في الحديقة العمومية ثم أعدتها إلى مربيتها للآفاطنة.

وجدت حميداً يقرأ وسعيدة تطبخ طاجينا من السمك. فوق الصندوق زجاجة نبيذ. وكأسان مُنصفان. لا شك أن سعيدة هي التي تسوّقت. حميد مفلس.

في القسم الداخلي لم أشعر أني أعيش بامتياز. السرير نظيف، الأكل أجود من مطعم المدرسة الابتدائية، لكن طاعة قانون الداخلية الصارم يولّد في نفسي توتراً شبيهاً بتوتر حيوان في قفص. كنت في غرفة أكثرية المقيمين فيها من أبناء البورجوازيين الذي جاءوا من مدن شمالية. فكرت أن أطلب من الإدارة أن تنقلني إلى غرفة أخرى أغلب من فيها بدويون، فقراء مثلي، لكن من أكون أنا حتى أطالب؟ قد يطلبون مني تبريراً ويحدث ما لا أتوقعه من سوء. الأسرّة كلها مزدوجة. فراشي فوق، التحتي يحتله رفيق من القصر الكبير يعتزل عشرة الرفاق. لم يكن يهتم إلاّ بالرياضيات. المواد الأخرى يكتب بعضها ولا يراجعها. هندامه مُهْمَل. يحلق وجهه مرة في الأسبوع. يحمل دائماً دفتراً يملؤه بتمارين الجبر والهندسة. يكتب على أرض الغرفة، وأبواب المراحيض، وأينما تكتب الطباشير. على الجدران الجيرية يكتب بالقلم الرصاص. يحتفظ دائماً في جيبه بشمعة يشعلها عدة مرات في الليل ليحلّ إحدى العمليات الجبرية على الأرض. نومه متقطع. يبول عدة مرات في الليل. أول من يَنْدسُّ في الفراش وآخر من يغادره. الإفطار في مطعم المعهد غالباً ما يفوته، لكنه من أسرة موسرة كما سمعت. توقظني كوابيسه. يحلم متكلماً. جملة قصيرة ومبهمة.

أحياناً، يجيب من يكلمه بهزّ كتفيه أو ببسمة لا يفترّ لها فمه ثم يبتعد. قلت لنفسي: على الأقل، هذا الرفيق لا يشبه أحداً في الغرفة وإن يكن من طبقتهم. يقضون وقتاً في التأنق، وبرنزة وجوههم بالحلاقة كل يوم. منهم من يحلق مرتين إذا كان له موعد في المساء مع فتاة. في أيام العطل يتزاحمون على مرآة المغاسل ليحلقوا وجوههم. أنا لا أنتظر نوبتي. أملأ سطلاً بالماء وأنحني عليه فأرى انعكاس وجهي غائماً فأحلقه. سألني أحدهم:

ـ كيف تعلمت حلاقة وجهك هكذا دون أن تجرحه؟

ـ في أسفل بطني. لقد جرحته مرات كثيرة حتى لا أجرح وجهي.

يتفقدنا المدير في المطعم وفي غرف النوم. دَرَسَ في القاهرة. نعتبره مرجعنا في كل ما يَسْتَعصي علينا في الحضارة العربية. لا يتذمّر قط ممن يسأله. كنت أكثر سائليه. مرة التقيته في الشارع ورجوته أن يشرح لي بيت أبي العلاء المعري:

خُلِقَ النـاسُ للبقـاء فَضَلَّت
أُمَّةٌ يحسبونَهُم لِلنَّفَادِ

* * *

شرح البيت، وتكلم عن حياة الشاعر، وعصره، ومذهبه في الوجود. أحياناً، كنت أراه في المعهد أو خارجه يتمتم وحده فأقول لنفسي: ربما هو الآن يتلو سوراً من القرآن أو شعراً كلاسيكياً.

لم أنسَ مقهى السي عبد الله. حميد نادراً ما يرتاده. يفضل الجلوس مع السلهامي في المطعم ليأكل ما تَيَسَّر، ويدخن الكيف معه، أو مع مونفرير في دكان حلاقته ويشرب معه النبيذ في المساء أو في النهار أيام العطل المدرسية. في معظم الأحيان لا يستقبل مونفرير سوى الوافدين على المدينة وقلّما يرجعون إليه بسبب إدمانه. لقد أضحت يداه

ترعشان في الوجوه. لم يعد يأتي عنده، من المدينة، إلاّ السكارى مثله.

يسافر معظم الرفاق في أيام الإجازات. صباح يوم الأحد هذا بارد وغائم. سأشرب شاياً ثم أذهب لأعطي الدرس لسلوى. سبعة أو ثمانية رواد. اثنان يلعبان الورق. قال السي عبد الله لرجل ضخم مشيراً إليّ:

ـ ها هو واحدهم جا.

أجلساني إلى طاولتهما. إلى جانب الرجل الأدرد (عديم الأسنان) بنذير. قال السي عبد الله للرجل البائس وهو يقوم إلى الوجاق:

ـ هذا الطالب هو الذي سيحل لك مشكلتك.

سألني كمن لا يصدق:

ـ أحقاً أنت طالب؟

ـ نعم، ما هي مشكلتك؟

كل شيء يعرفه السي عبد الله.

أحضر لي الشاي وجلس.

ـ هذا الرجل المسكين يريد أن يتزوج بمسكينة مثله. العدول طلبوا منه ما ليس عنده من المال ليكتبوا له عقد النكاح. هو حلايقي[1] وهي تبيع البخور. اكتب لهما عقد الزواج ونحن شهود والله أكبر شاهد على هذا العقد المبارك. مسكين تزوج مسكينة.

لم تحضرني أية شريعة تمنع ما سأقوم به. إن الفقر فوق القانون. قلت:

ـ ولماذا لا، على بركة الله!

خرج الحلايقي وعاد يصطحب امرأة مجلببة ومُلَثَّمة. عينها اليسرى

---

(1) راو يروي للناس حكايات تاريخية إرضائية أو حكايات خرافية تراجيدية أو ملهاتية.

حولاء. تحمل قفة مليئة بالمتاع. أدخلنا السي عبد الله إلى حجرة. جلسنا على الحصير الذي هو كل أثاثها. أحضر لي ورقتين بيضاوين. تركني أكتب العقد وخرج. سجلت أيضاً متاع كل منهما. سلمت للرجل نسخة وأَمَّنْتُ الأخرى عند السي عبد الله. جاءنا بالشاي مرة أخرى ودعا بالبركة. رفعنا، أنا والسي عبد الله، أيدينا وشرعت أقرأ دعاء الخير والسي عبد اللّه يردد آمين. ثم أخذت أتمتم بصوت خفيض قصيدة مهيار الديلمي التي أحفظها عن ظهر قلب.

أُعْـجِـبَـتْ بـي بـيـن نـادي قـومِـهـا
أُمُّ سـعـدٍ فَـمَـضَـت تَـسـأَلُ بـي

مدّ لي الرجل أوراقاً ملفوفة رفضتها قائلاً:

ـ أبداً لا. إنه عمل خير.

ألَحَّ:

ـ خذها، إنه قدر قليل من أجل الفتوح.

أضاف السي عبد الله:

ـ لا بأس، خذ منه هذه البركة.

انصرف الزوجان فقال لي السي عبد الله:

ـ هذا أعظم عمل خير تقوم به في حياتك. سيكون لك مستقبل عظيم إن شاء الله.

ـ آمين.

ذهبت عند فطيمة. استقبلتني بابتسامة باهتة. عيناها راشحتان، شاحبة، يدها رخوة وباردة. قبل أن أسألها عما يحزنها بادرتني:

ـ سلوى مريضة. محمومة. لا تأكل.

ـ مرض الأطفال سريعاً ما يزول.

سلوى نائمة على سرير أمها. فوق طاولة صغيرة، قرب السرير،

كأس عصير برتقال منصفة.

ـ غداً سآخذها إلى طبيب أعرفه.

تبدو كما لو أنها لم تفرح قط في حياتها. تَجَمَّع فيها كُلُّ حزنها. في مثل هذه الساعة من كل أحد أجدها تتجمل أو في كامل زينتها. سيغيب عنها اليوم عالم نشوتها، وجمالها، ولطفها. مرض سلواها أقوى من كل لذاذتها.

خَيَّرَتْنِي:

ـ شاي أو قهوة؟

رفضت بلطف. وعدتها أن أعود في المساء. في الشارع أحسست بكآبتها تنعكس على نفسي. وجدتني في الحديقة العمومية. الجوّ غائم. لا أحد هناك، استعدت سلوى بين الأطفال الإسبانيين يلعبون وأمهاتهم جالسات يحكن الصوف ويثرثرن وينهين أطفالهن عن مخاطر بعض أنواع اللعب وأم سلوى ترنّ كأسها مع الكؤوس في السنترال. بدأت ترشّ قطرات كبيرة وريح تهب. خرجت راكضاً إلى الهري.

عشرات من أكياس الإسمنت.

ـ ما هذا؟

ـ سيبنون المسجد الذي دشنه محمد الخامس في القصبة. سيعطيني المقاول الإسباني خمساً وعشرين بسيطة كل يوم مقابل استعمال الهري حتى يتم بناء المسجد. إنها ثروة نزلت من السماء إن الله قد يرمي، أحياناً، أمثالنا في بحر هائج، لكنه لا يغرقنا.

ـ وسعيدة؟

ـ ذهبت إلى السوق.

يراجع درساً في تاريخ الفينيقيين في المغرب، قال:

ـ أتعتقد أن الفينيقيين هم أول من عَلَّم المغاربة القراءة والكتابة؟

ـ لقد جاء قبلهم عَبَدَةُ الصخور (الدوردويون) لكن اللغة البربرية أصلها سام كما يقال.

جلست فوق الصندوق ـ الطاولة نصف زجاجة نبيذ. ملأ قدحين صغيرين.

ـ لقد قبل مدير المعهد تسجيلي مستمعاً. إذا سقطتُ فسأعود إلى طنجة لأصير أكبر قواد أو لص أو مجرم. كل شيء مباح إذا لم أنجح في دراستي. أنت أيضاً لست أفضل مني. ستعود لتعمل في أحد المقاهي أو في الميناء...

إنه على حق. أنا ليست لي أصابعه السحرية التي ينشل بها الجيوب.

شربنا ما تبقى في القدحين.

ـ فطيمة حزينة لأن ابنتها مريضة.

ـ القحاب أكثر حرصاً وقَلَقاً على أولادهن من النساء المتزوجات.

دخلت سعيدة حاملة قفة الحاجيات تصحبها فتاة. قدمتها:

ـ عائشة.

أجلسها حميد بحيوية على صندوق. إنه لطيف في حضورهن وشتَّامُهُنَّ في غِيابهنّ. أشعلت سعيدة سيجارة وانهمكت في الركن ـ المطبخ لإعداد الغداء. تشاطرنا خفية أنا وحميد حول الوافدة. أخذت مني سيجارة. أشعلها حميد ثم سألها:

ـ من أين أنت؟

ـ من القصر الكبير.

ـ أنا من أزيلا، نحن جيران إذن.

أعطيته عشر بسيطات لشراء زجاجة نبيذ.

ـ ابق معنا للغداء.

ـ يسجلون الغيابات. إذا كثرت فسأفقد منحتي في القسم الداخلي. سأعود بعد الغداء.

قابلت المختار الحداد متمشياً وحيداً بين أقواس الكبيبات. كعادتي معه، اعترضت طريقه. هذه المرة نطق اسمي دون أن يلمسني. أصار أيضاً يعرفني حتى من رائحة جلدي. يتأبط السمفونية الريفية لأندري جيد. ترجمها إلى العربية حسن صادق عام 78. قال:

ـ سمعت أن هذه القصة هي من أروع ما كتب هذا الكاتب الفرنسي، سنقرأها، إذا شئت، هذا المساء.

وافقت دون توقيت. طلب مني أن أصحبه إلى درب محبوبته البتول. ثلاث تلميذات مقبلات. ينظرن إلينا ضاحكات. تَكَهْرَبَ جسد المختار وشَدَّتْ يده على ذراعي بقوة وقال:

ـ ها هي مقبلة مع صاحباتها.

ـ إنَّهُنَّ ثلاث.

ـ أقصرهن وأجملهن. وجنتاها موردتان.

ـ صحيح.

ـ تصرف كأن شيئاً لا يحدث. لا تبالغ في النظر إليهن.

عندما مررن قدامنا تهامسن. قال:

ـ سأبدأ غداً إعطاء إحداهن دروساً في العربية.

ـ أين؟

ـ في منزلها.

ـ أيّها منهن؟

ـ السمراء.

ودعني قرب المعهد ليقود نفسه بنفسه في الطرقات التي يعرفها جيداً. في الرابعة ذهبت عند فطيمة. فارقتها كآبتها. سلوى جالسة على

الفراش. خداها موردان. جلست أمها بجانبها وباسمتها. لاطفت ذقنها وشعرها. نظرت سلوى إليّ كأنها تراني لأول مرة. ربما افتقدتني. نظراتها شاردة. ملأت كأسين من المرتيني ومدت لي كأسي. عبد الوهاب يغني في الراديو: «جفنه علم الغزل». لا مشابهة بينهما مع ذلك فقد تذكرت سلافة من خلال فطيمة. هذه لم أرها أبداً غاضبة، لكن يبدو لي أن أدنى حادث يقع لها يفقدها مرحها.

وجدته وحيداً. راديو قديم من نوع رسيا .R.C.I.A ينبعث منه الفلامنكو. مصباح كهربائي معلق إلى الحائط يضيء الحجرة في وضوح. الراديو هدية من مونفرير الحلاق. لم يستعمله منذ سنوات. الكهرباء سرقها حميد من الزقاق. استعمالها غير ممكن إلاّ في الليل. ينبغي فكّ السلك وسحبه إلى داخل الهري في الصباح باكراً أو في الليل قبل النوم.

ـ والسلّم لفك السلك؟

أشار إلى الصناديق:

ـ هذه سُلّمي.

ـ وسعيدة وعائشة؟

ـ خرجتا لتقحبا. ستأتيا بزاد المساء. لم تجئ بعد الغداء؟

ـ نعست قليلاً ثم ذهبت عند فطيمة، ابنتها تحسنت.

اجلس:

ـ سأعود إلى القسم الداخلي يسجلون الغيابات كما قلت لك.

ـ طُز في الغياباتّ عائشة ستبيت معنا. إنها لك وحدك.

عادت عائشة وسعيدة حاملتين بضائع وزجاجتين من النبيذ. طز في الغيابات إذن. كسب العيش ينتظرنا دائماً في طنجة. صرت أعرف القراءة والكتابة. لن أحتاج إلى من يقرأ لي رسالة أو كتاباً. كان هوسي

الكبير هو أن أجد من يقرأ لي مجلة عن حياة الممثلين. تذكرت العيش مع فوزية ونعيمة صحبة حميد، في فندق القصبة، بمزيج من الحسرة والسعادة. وضعت سعيدة وعائشة حمولتهما. خطف حميد زجاجة وفتحها. إلى جانبه دفتر مفتوح.

ـ ماذا تراجع؟

ـ درساً في تاريخ الأشوريين والبابليين.

إنها مجرد معلومات نحشو بها أذهاننا. لن تسعفنا في شيء.

ـ لا أوافقك. كل جديد يلقح بالقديم. التاريخ هو التاريخ ولو كان ظالماً.

صبّ في القدحين الوحيدين. شرب هو وسعيدة من كأس، وشربت أنا وعائشة من الأخرى. دُقَّ على الباب. قام من على حافة الفراش حافي القدمين وفتح. كهل رثّ الثياب. ساعده حميد على نقل أربعة أكياس إلى عربة صغيرة. فكرت: إنه كسب جديد، لكن عواقبه سيئة إذا هم ضبطونا نسرق الأكياس ونبيعها. شغَّل حميد الراديو. صوت أسمهان: متّع شبابك في فيينا...

قلت:

ـ إذا اكتشفوا سرقة الكهرباء فإننا حتماً سنطرد من هنا.

ـ حينئذ سنبحث عن مكان آخر. إننا لا نسكن في قصر. ليس لدينا ما نخسره. إنه دائماً مستعد أن يبدأ حياة جديدة. لا يتعلق في شيء. في نظره، كل شيء هشّ وقابل للسقوط والانكسار.

أنهيت قراءة السمفونية الريفية مع المختار في جلستين. كنا في مقهى سنترال. قال بصوت متنهد:

ـ لست أدري لماذا يقسو القدر على الطيبين ويحالف الأشرار. ماذا فعلت جرترود المسكينة حتى تلقى ذلك المصير؟

ـ أعتقد أن الراعي هو الذي جنى عليها عندما أحبها. لو تركها لابنه جاك لما حاولت انتحارها الفاشل الذي قادها إلى اليأس التام والموت.

هذه إحدى مساوئ بعض رجال الدين. إنهم يدنسون، أحياناً، ما يطهرون، لكن على الأقل ماتت جرترود إنسانة ولم تمت مثل بهيمة.

صار حميد يدرس معنا في المعهد. لم يكن يواظب على الدروس. وضعه تلميذاً مستمعاً يشجعه على التغيب. قدم في المعهد وقدم في طنجة، إذا فشلت اليوم يده في الكتابة فلن تفشل غداً في نشل جيوب الناس. أكياس الإسمنت التي يبيعها في الليل أغرقته في السكر والتسكع. لا يقسم معي مناصفة. يعطيني ما يشاء. إنه سيد الهري والعطاء. يأتي بفتيات أخريات إلى الهري ينام معهن أمام سعيدة. اشترى لنفسه ملابس جديدة، وقلم باركر، ومحفظة جلدية يباهي بها الأساتذة، ومفتشي التعليم. يختلف إلى الخمارات كل يوم. اشترى لسعيدة وعائشة أثواباً جميلة لتغريا بها من يدفعون جيداً. رائحة العطور الاسبانية التي تفوح منهما زكيّة. لقد صارتا من الدرجة الأولى في العهر كما يقول.

كنا نجتاز امتحانات الفترة الثانية عندما وصلتني رسالة بالاسبانية من مستشفى مرض السل في تطوان. خطها جميل يشبه خط الراهبات. «إن كاتبة هذه الرسالة تسلم عليك وتلحّ على أن تعود أمك في أقرب وقت ممكن».

في آخر يوم من الامتحانات ذهبت عند فطيمة وأخبرتها بسفري. دست لي، بإلحاح، في جيب سترتي، مائة بسيطة. «كل شيء سيفوت. ذات يوم ستصبح أستاذاً أو محامياً وتنسى أنك كنت فقيراً». سلوى لم تكن حاضرة.

دعاني حميد للعشاء والمبيت في الهري. وجدت سعيدة وعائشة

في أجمل زينتهما. عطرهما. يُدَوِّخ. . . اشترى حميد أثاثاً مُستعملاً، وزَيَّن الجدران بصور الممثلاتِ المنزوعة من المجلات، وضع مكتبة صغيرة من الآجر، والألواح العارضة. سألته:

ـ كيف تسير علاقتك مع المُقاوِل الإسباني؟

ـ رجل رائع. أجمل ما فيه هو أنه لا يلاحظ كثيراً. إنه خبز الله كما يقال. حتى الآن لم يفقد شفقته فيّ، ولا شيء يثير الشبهات.

ـ إنك تبالغ في تزيين نفسك وتأثيث الهري.

ـ ألا تعتقد أنه أيضاً سرق من أموال بناء المسجد؟

ـ ربما.

ـ ابلع لسانك إذن.

سعيدة وعائشة بدتا أكثر جمالاً مِمّا تَعودتُ أن أراهما. حميد كان أكثر حميمية. ربما أتاني هذا الشعور من كوني سأغيب عنهما حوالي عشرة أيام.

الملح لا يزهر أبدا

أخبرني بائع خضار، أعرفه في الترانكات، أن التفرسيتي صار يسكن في برج الأفعى. ست سنوات دون أن يرى واحدنا الآخر. وجدته في مقهى «السانية» يلعب الورق. ذهبنا إلى منزله. في الطريق بغايا واقفات على عتبات بيوتهن أو يطللن ويختفين. كل حركاتهن فيها دعوة للدخول معهن. رجال وفتيان يغازلونهن. يسأل أحدهم عن ثمن الدخلة فيدخل أو يغادر إلى أخريات.

قدّمني إلى عشيقته الزهرة. شابة، قصيرة، مكتنزة وجميلة. وضعت حقيبتي الحقيرة. أوصاها أن تنتظرنا للغداء وخرجنا.

دخلنا حانة ريبيرتيتو. طلبنا نبيذ خيريث الأبيض. على الجدران رؤوس ثيران محنطة. الحانة ما زالت تحتفظ ببعض مجدها. تلك أول مرة أدخلها. عرفتها وأنا طفل أخطف ما تبقى في صحون طاولات رحبتها. أشرب ما في الكؤوس من ليمونادا أو خمر وأجمع أعقاب السجائر الشقراء. الحانة الآن يرتادها موظفون، وتجار صغار مغاربة وما بقي في المدينة من عساكر إسبانيين. التفرسيتي يشتغل في الصيف بائع مثلجات مع إسباني. في الفصول الأخرى يتاجر في الخضار والفواكه بالجملة كما كنا نفعل من قبل. سألته عن عشيقته القديمة «لطيفة».

ـ أووه، تزوجت ولها الآن ثلاثة أطفال. عاشرتُ كثيرات بعدها،

لكن كلهن يردن أن يتزوجن.

ـ ألم تفكر في أن تتزوج بإحداهن؟

ـ أبداً.

ـ لماذا؟

ـ الرجل لا ينبغي أن يتزوج قحبة.

ـ لماذا؟

ـ لا يمكن أن يكون لك أطفال من قحبة.

ـ ما هو العيب؟

ـ سيعيشون معقدين عندما يعرفون أن أمهم كانت قحبة.

إنه يحلم أن يتزوج امرأة لم تفسق حتى لا يكون أولاده معقدين، وحتى لا تخونه، أما القحبة فأكيد أنها ستخونه؟ جعلته أسئلتي مضطرباً، قال:

ـ لقد صرت محظوظاً.

ـ في أي شيء؟

ـ أنك تعلمت. صرت تفكر جيداً في معرفة الأشياء.

ـ أنت أيضاً يمكن لك أن تتعلم في المدارس الليلية. لقد بدأوا يفتحون منها الكثير في المدن.

ـ فاتني الحظ.

لم أرد أن أناقشه طويلاً في أمسيته حتى لا أحزنه، أما أنا فينتظرني الجنون إذا لم أتعلم.

شربنا كأسينا الأخيرين ورجعنا عنده للغداء. في المساء، صحبني إلى حيّنا سيدي طلحة. دَقَّ على باب كوخ من القصدير. خرجت ارحيمو. قال لها:

ـ ها هو أخوك محمد.

ابتسمت باضطراب ودمعت عيناها. وضعتُ حقيبتي على الأرض وتعانقنا. شممت فيها رائحة أسرتي كلها. من مات منها ومن هو حيّ. سالت دموعها. أنا سالت في داخلي. بانَ طفل. لا بدّ أنه أخي عبد العزيز. قَدماه حافيتان، ثيابه رثّة، نحيف وشاحب. امتزجت دموعها بابتساماتها المسروقة من حزنها وقالت:

ـ ها هو أخوك عبد العزيز.

رفعتهُ قليلاً ومدته لي لنتباوس. كان في عامه الأول عندما عدت من وهران عام 51. إنه اليوم في السابعة من عمره. لم يتعلّم بعد كيف يبتسم أو يضحك. شبه خائف. رجاني التفرسيتي أن أزوره في داره وانصرف. في إحدى الحجرتين وَضَعت بين ذراعيّ طفلةً وقالت:

ـ وهذه أختك مليكة. عمرها عامان. لم تسمع بها؟

ـ لا.

ـ أمُّنا تحسنت. لم تعد تبصق الدم. وأبونا يذهب إلى سبتة ليتاجر في العسل.

ـ العسل؟

ـ نعم. يصنعه من السكر وفضلات الشهد ويبيعه للأسبان. يبقى هناك يومين أو ثلاثة. محتمل أن يعود هذا المساء.

عندما عدت، مساء، وجدت جارنا عبد الحميد جالساً على مقعد قدام باب كوخه. كان ينتظرني. أدخلني. رأيت، في ركن، حقيبتي مَبْعوجَة.

ـ أبوك أحمق. نحن الريفيين قساة على بعضنا البعض أكثر مما نحن قساة على غيرنا. لقد أراد إحراقها. أختك ارحيمو هي التي استغاثت فأدركته يبعجها قبل أن يحرقها.

إحدى صورتيّ الكبيرتين في الحقيبة مكسور زجاجها ومُنْشَطِر

لوحها الملصقة عليه. الأهمُّ هي شهادتي الابتدائية التي لم يحلقها ضرر. أَلَحَّ عليّ جارنا أن أبيت عنده. تأبطت حقيبتي وودعته شاكراً إياه وعيناي دامعتان من الغضب.

في طريق عودتي إلى دار التفرسيتي دخلت حانة في بورديل السانية وشربت كأسين من كونياك «تري». دخنت باضطراب مفكراً في من لم أعرف بعد كيف أتخلص من وجوده في حياتي.

وجدت الزهرة تعد العشاء. استقبلتني بمرح بالغ. كتمت توتري. التفرسيتي خرج ليشتري الخبز. خامرتني فكرة شراء سكين والعودة إليه وطعنه أو تدبير وسيلة لإخلاء إخوتي من الكوخ وإحراقه وهو نائم فيه.

عاد التفرسيتي. آزرني فقلت له:

ـ أمي حكت لي أنه لطم أباه، وركله، وسبّه أمامها في الريف. لا بد أن تكون شجرة عائلته من المجرمين، والملاعين والمجانين.

قالت الزهرة:

ـ الله يسترنا.

قال التفرسيتي:

ـ سيندم.

ـ لن يهمني ندمه.

فتح زجاجة نبيذ وقال:

ـ لننس الليلة هذه المصيبة.

أخذ الزهرة قرب الباب وتهامسا. لبست جلابتها مسرورة وخرجت. سألته عن عزيزة وابنها عبد السلام.

ـ ماتت في العام الماضي مصدورة. قتلها الخمر والكيف. عبد السلام محكوم بعامين منذ ثلاثة أشهر. أدين بعدة سرقات.

ـ والسبتاوي؟

ـ هرب إلى سبتة. سرقا معاً متجر اليهودي في سوق الترانكات. لقد أفرغا، في الليل، صندوق ماله.

دخلت الزهرة تصحبها فتاة رشيقة. استقبلها التفرسيتي:

ـ أهلاً مينة. غبت عنا كثيراً.

صافحتها وهي باسمة مرحة. في الصباح جاءتني الزهرة بالفطور. رأيت فوق الصينية مائة وخمسين بسيطة.

ـ تركها لك محمد.

ـ ومينة.

ـ تعمل عند أسرة إسبانية. تسكن معها. لا أحد لها هنا في تطوان. إنها من ساما[1].

تركت خمسين بسيطة لتعطيها لها. رفضت وهي تمدها لي:

ـ أنت في حاجة إليها أكثر منها. إنها صديقتنا.

ألححت فأخذتها. ليست محترفة إذن. لدى خروجي أكدت عليّ:

ـ سننتظرك للغداء. حاول أن تجيء حوالي الواحدة.

---

(1) قرية قرب تطوان.

زيارة

أربعة أسرّة. مريضة واحدة طريحة الفراش قرب سرير أمي. فتاة تحمل جمالها في مرضها. جمال المسلولات: وجنتاها موردتان. وضعت على الطاولة الصغيرة طرد الفواكه وبست رأس أمي ثم جلست على مصطبة صغيرة مستديرة بيضاء، قرب سريرها.

ـ هذه هي الآنسة «الغالية» التي كتبت لك الرسالة لتجيء.

شكرت الآنسة الغالية وتباسمنا. احمرت وجنتاها وسعلت عدة مرات بخجل. لا بد أن تكون قد درست عند أخوات الإحسان حتى تكتب بذلك الخط الجميل، أخبرت أمي عن زيارتي لأخوتي. لم أذكر لها ما حدث لي (معه). ذكرت لي أنهم لا يسمحون هنا للأطفال أن يعودوا ذويهم. لم تكن تعودها سوى ارحيمو التي كبرت. يعودها، أحياناً، جارنا عبد الحميد صحبة زوجته، أما هو فلم يَعُدْها قط.

سعلت الغالية عدة مرات بحدة. بدا عليها الانفعال. تناولت ملعقة من قنينة صغيرة. البرد يغزو الحجرة من النافذة المفتوحة قالت أمي:

ـ لا بد أن تبقى مفتوحة حتى ولو كان الثلج يتساقط ليتجدد الهواء. نتغلب على البرد هنا بالأغطية اللازمة.

ذكرت لها نجاحي في الشهادة الابتدائية. انفعلت فَرَحاً ثم دمعت عيناها وسعلت. سعلت أيضاً الغالية. لا بد أني ذكّرتها بدراستها.

ـ هل رأيت أباك؟

ـ نعم فرح بنجاحي في الدراسة.

كنت أعرف أن أختي ارحيمو ستقص عليها كل ما فعله معي، لكن سيكون ذلك في يوم آخر. دخلت امرأة وجلست على حافة سريرها. قالت لها أمي:

ـ هذا هو محمدي.

ثم سعلت. تباسمت مع المرأة وحييتها. الألم يتجسد هنا في كل الابتسامات المُغْتَصبة، والكلمات المقتضبة والحركات التي سريعاً ما تفتر. قلت لأمي.

ـ البرد لا بد أن يكون قاتلاً هنا في الليل.

ـ يغلقون شباك اللوح. الهواء ينبغي أن يبقى دائماً نقياً.

وعدتها أن أزورها قبل أن أعود إلى العرائش.

تغديت مع الزهرة وحيداً. قالت:

ـ يحدث له كثيراً ألاّ يأتي للغداء أو للعشاء. قد يكون الآن يلعب الورق ويسكر في نفس الوقت. غالباً ما يخسر لأن اللاعبين معه يعرفون ضعفه في السكر. لا يعرف كيف ينسحب في الوقت المناسب إذا ربح.

أبول باستمرار. قلمي يؤلمني كلما بلت أو الْتَوى. قليل من الصديد يسيل منه. يؤلمني أكثر عند الانتصاب. الحشفة تحمّر وهي بالغة الحساسية مع عانتي وسروالي. إنها عاهرة إذن في مسوح العمل.

عسل الجمال البشري

وصلت إلى طنجة مساء. حجزت غرفة في بنسيون لابلاتا. بين بولة وأخرى ينزّ قيح في ثقب قضيبي. حُمَّى خفيفة ودوار. تكاسلت في الخروج للعشاء. بت أقرأ سيرانو دو برجراك وأدخن باضطراب، وأبول بألم. مسكين دور برجراك! إن زبك تطاول حتى وصل أنفك.

في الصباح ازداد ألمي عند البول، وخوّفني القيح الذي يسيل منه باستمرار. الحشفة صارت أكثر احمراراً وحساسية. وصفت للصيدلي أعراضي فأعطاني شفائي في ثلاثة أيام. أول مرة أتقيح، وأول مرة أُحْقَن.

ربيعة جمعوها في حملة تفتيش عن البغايا غير الخاضعات للكشف الطبي الرسمي. حكموا عليها بشهر. كنزة تسكن في فندق تاهيتي في طريق المسيحيين. بارجة أميركية في ميناء طنجة. بحارتها في الحانات، والشوارع، وبيوت الدعارة الإسبانية، والفرنسية، واليهودية. قدت ثلاثة منهم (واحد فيليبيني) من السوق الداخلي إلى ماخور مدام سيمون الجميلة. من يعرف أن يقول: هللو، كمان ذيس واي يستطيع أن يقود طابوراً منهم. في قاعة الاستقبال فرنسيات، وإسبانيات، وإيطالية واحدة. تنانيرهن تكشف عن أفخاذهن الرشيقة إذا جلست إحداهن على مقعد يظهر لون تُبانها (السليب). كواعب أحذيتهن العالية تبرز

مؤخراتهن بإغراء. عسل الجمال البشري ينتظر من يتلذذ بمذاقه. وقفنا إلى مشرب القاعة الصغير. طلبنا البيرة. تَمَيَّست إحداهن نحونا ثم اثنتان. قالت لي مدام سيمون:

ـ سأعطيك ثلاثين عن كل مائة بسيطة كما هي العادة مع المرشدين. اشرب بيرتك وعد بعد أن يخرجوا أو فعُدْ غداً.

أعطاني كل واحد منهم دولارين. لم يكن ممكناً مراقبة ما يستهلكون، لكن كل صاحبة ماخور تدفع نسبة معقولة حتى للذين ليسوا رسميين لتكسب ثقتهم.

قبيل منتصف الليل خرجت من خمارة الميناء. الفيليبيني سكران يقتاده شرطيان عسكريان بحاران. يسير بينهما حافي القدمين. لباسه البحري الأبيض لم يعد جميلاً. لا بد أنهم أفرغوا له جيوبه وعاركوه. كان أرزن من رفيقيه عندما قدتهم إلى مدام سيمون. أعطتني بنت الزانية مائتي بسيطة وقالت:

ـ لم يستهلكوا كثيراً.

ثمن الدخلة مع إحداهن مائة بسيطة. قلمي لم يعد يسيل، قد لا تقبلني أية واحدة. عند ماري كاركن أفضل. دخولي مع إحداهن عندها شبه أكيد. لقد رأيت من هم في مستواي يدخلون. خمسون بسيطة للدخلة. فتياتها إسبانيات. إنهن أقل ترفعاً مع المغاربة من فتيات مدام سيمون. أعرف كرستو بالينا. كنت أبيع لها السجائر المهربة في السنة الماضية. وقفت إلى المشربة الصغيرة. ماري كاركن تتحدث مع زبون. طلبت منها نبيذ خيريث الأبيض. كريستو بالينا جالسة. تدخن وتتصفح مجلة مصورة. دعوتها إلى كأس. ابتسمت بمرح وانتصبت أمامي نافخة تنهيدة خفيفة. تَنَاوَلَت سانزانو. رنّت كأسانا. أشعلتُ لها سيجارة وقالت:

ـ لم أعد أراك في السوق الداخلي. ألم تعد تبيع السجائر؟

ـ إنني أدرس الآن في العرائش.

ـ هذا أحسن لك.

حملنا كأسين آخرين مليئتين ودخلنا غرفتها. وضعت حبة بنفسجية قاتمة في طست. حللتها بأصابعها في الماء الدافئ واغتسلت أعطتني صابونة معطرة لأفعل مثلها. صبت ماء الكولونيا على قطعتين من القطن. أعطتني إحداهما ومسحنا جسمينا من الأمام. جالسين على حافة الفراش عاريين رشفنا من كأسينا ومن فمينا ودخلنا وتكلمنا قليلاً عن البؤس الذي بدأ يغزو المدينة. ولدت في طنجة. فيما بعد سأعرف أن أمها أيضاً احترفت نفس مهنتها وأختها أيضاً مارستها فترة قبل أن تتزوج بشاب مغربي مُهَرِّب. تشابكنا فتصاعدت رائحة إبطيها القوية ممزوجة بالعطر. صدرها ملآن ووجهي صغير في مقلتيها.

البعد الحلو

قبل أن أدق على الباب قالت لي الطفلة الجارة، قبالة الهُري، لاعبة القفز على المربعات المخططة على الأرض بالطباشير الأبيض مع رفيقتها:

ـ صديقك طردوه من الهري.

ثم استمرت في لِعْبَتِها وهي تقول بالإسبانية ورفيقتها تجيبها:

ـ أدوس.

ـ لا.

ـ أدوس.

بعد أن قطعت شوط المربعات سألتها:

ـ طردوه، كيف ذلك.

ـ جاء اثنان من البوليس فأخذاه هو والفتاة السوداء وصاحبتها.

حجزت غرفة في فندق مالقة وخرجت أتفقد الشوارع. الخامسة مساء. وجدت المختار حزيناً في منزله. رحبت بي والدته. قدمت لي الشاي، وخبزاً أسود، وعسلاً وسمناً. بعد لحظة أبدى المختار رغبة ملحة في خروجنا. شيء ما يحدث. حزنه هذه المرة أطغى مما تعودت أن أراه فيه. في مقهى سنترال قال:

ـ البتول خطبها أستاذ.

ـ النساء يفضلن الزواج على الحب.

ـ ما فائدة زواج من دون حب.

ـ إنها مشيئة النساء.

ـ اللعنة إذن على الحب.

ـ اللعنة أيضاً على الزواج، لأن أوله نعم وآخره لا.

أخبرتني مربية سلوى أن فطيمة سافرت إلى إسبانيا لتعمل هناك. سلوى جاء جدها وأخذها معه لتقضي عطلتها في البادية. فكرت: لا شك أن فطيمة ذهبت لتعمل في حانة أو مرقص. حميد حبسوه يومين في مخفر الشرطة ثم سُرِّحَ وذهب إلى أصيلة. سعيدة وعائشة سافرتا إلى مدينة أخرى. أحسست بوحشة قاسية. إن العالم الصغير الذي كونته خارج المعهد قد تزلزل. التفاحة قُضِمَت، والبرتقالة انشطرت، ورحيق التوت سال على الشفتين، وبُعدٌ حلو بدأ يُكوِّنُ الحنين.

الجمال المستعاد

عندما نجحت في مباراة الدخول إلى مدرسة المعلمين أحسست كأني ولدت من جديد. اعتقدت أني بنيت جداراً منيعاً بيني وبين الاحتقار الاجتماعي، والجهل والبؤس. يا للغباء! إن النحس كان أقوى من فرحتي. أبي لم يستقبل نجاحي إلاّ بقدر ما سأعطيه من راتبي الشهري. بدأ يساوم أكلي، ومبيتي في الكوخ القصديري، المتفرقة فيه الفئران، قبل أن أقبض حوالتي الأولى من منحة التدريب في مدرسة المعلمين. إنه يعبد المال أكبر مما يعبد الله، لكنه لا يعمل شيئاً ليكسبه إنما ينتظر الآخرين أن يكسبوه له. استيقظ كل ما تَجَمَّع في الماضي من كراهيتي الراقدة له. لقد عاد الإرهاب بيننا. لا أعرف سبب تصفية حسابه معي. إنه يلاحقني في الحضور والغياب. يخيّل لي دائماً أن له وجه مجرم، وجه من خرج حديثاً من سجن عانى فيه الأشغال الشاقة وعاقبة العصيان. . . إلى متى سأظل أكرّس بغضي له؟ إنها عطلة صيف عام ستين. باعد الزمن بيني وبين رفقائي القدماء في تطوان. لم يبق من بعضهم إلاّ الاسم. قد نتعرّف وقد لا نتعرّف على بعضنا البعض إذا ما تقابلنا. لم يبق منهم سوى التفرسيتي. تجارته مزدهرة. يكاد يحتكر عربات المثلجات الثابتة والمتجولة وثلاثة متاجر أخرى. نادراً ما ألتقيه ولا أبحث عنه. لقد رضعنا من نفس ثدي البؤس. ربما يريد أن ينسلخ

تماماً عن جلده. إنه غارق اليوم في الفجور، والعلاقات مع التجار وأصحاب السلطة المتباهين بمناصبهم. ما زلنا نشرب أنخاب الاستقلال. مرة أخذني معه إلى مبغى فياروسا في طريق مرتيل. لم أكن أتصور تبذيره ذاك. يريق زجاجات الشمبانيا على أقدام البغايا الاسبانيات. صرخات ابتهاج وهتافات: عاشت أمك يا محمد!

شربت ليلائي وحدي، على حسابه، حتى مطلع الصباح. لم أنتبه لاختفائه. ماشياً عدت إلى المدينة. قلت لنفسي، حتى لا أكدر ما تبقى من نشوة السهرة: أنه السكر. لا عليه ولا عليّ. أنا أيضاً ثَمِل. وبحثاً عن سيجارة في جيبي وجدت أوراقاً منكمشة. بضع مئات من البسيطات. لا شك دسّها في جيبي دون أن أشعر أو أعطانيها ونسيت: ثُغْرةٌ سوداء.

أقبع في أحد مقاهي الفدان، لأدخن الكيف مع الزبائن مجاناً. ألعب أيضاً الورق من دون رهان. أمي غالباً ما تعطيني ثمن علبة سجائر وكأس شاي. أحياناً يبقى المبلغ معي عندما يدفع عني زبون يستلطف حديثي. أتردد على المكتبة الإنجليزية. أقرأ حتى تقفل. عرضت مرة خدمتي كمرشد سياحي على زوجين انجليزيين كهلين فراقتهما صحبتي. كنت أعرف ما يكفي من الكلمات الانجليزية لإرشادهما. خريطة المدينة القديمة ما زالت ماثلة في ذاكرتي. أخذا لي صوراً مع كليهما وأعطياني مائة بسيطة. كفاني المبلغ أياماً. «إنه جاهل مثلي. صعلوك. كيف درس؟ لا بد أنهم أخطأوا في إنجاحه». هكذا يقول عني أبي للجيران، ولرفاقه معطوبي حرب فرانكو في ساحة الفدان، والمتبطلين أينما كانوا. إن شراسته معي لا تنتهي. قد تلاحقني حتى بعد موته. إذا احتجّت أمي يضربها ويلعنها كعادته القديمة معها ومعنا.

كان بعضهم يوافقه على ما يقول، لأن له أولاداً يتغذون بالرذيلة فلماذا لا أكون أنا واحداً منهم ونحن كلنا في الطين! لكن هناك

استثناءات. أوقفني كهل في الشارع:

ـ هل أنت ابن حدو علال الشكري؟

ـ نعم.

ـ هل صحيح ستصبح مدرساً؟

ـ نعم.

ـ أعانك الله. الناس يتمنون أن يكون لهم ابن مثلك وأبوك يَسْتَجْهِلك. ويستهزئ بك. إن أباك أحمق.

ـ أعرف ذلك. لقد ولد ليحقد على الجميع. لا يحب حتى نفسه.

ـ الله يسترنا.

أستعيد الحنين إلى ملاعب طفولتي في متاهات الدروب، والأحياء، والضواحي: أيام الزّعارة والفتوة، حومة (حيّ) تهجم على حومة، سرقة بساتين الفواكه، في ضفة الوادي عرايا نتبارى بالاستمناء: ها أنا قذفت الأول. وأنا بعده... زرت حيّ «عين الخباز»، ومسكننا القديم في غرسة بنيناس. بالحجارة والهراوات كنا نتضارب. احتفالنا بِغَيْثِ الربيع وشمسه والسنونو. نرقص ونصيح. ديك لا أراه يصيح من مكان قريب. حزام فاطمة الزهراء (قوس قزح)، نركب الحمير، نتعلق بمؤخرات الشاحنات وهي تقلع. آثار حريق السياج مازالت بقاياها في الأوتاد الخشبية القائمة والطائحة. شجرة التين ما زالت مخضرّة، شامخة. الأعشاب المتسلقة تشعبت فيها، متشابكة، فغطت بعضاً من جمالها. الجمال المستعاد دائماً أجمل. الانبهار لا يكف في جميع الأعمار.

أكتب بعض الفصول، من هذه السيرة الذاتية، عام تسعين. في صيف السنة الماضية زارني الصديق المستشرق الياباني نوتاهارا، صحبة زوجته شوكو في طنجة. كان يترجم الخبز الحافي إلى اليابانية. أنجز

ثلاثين صفحة وتوقف. «فكرت أنه إذا عاينت الأماكن التي تجري فيها أحداث الكتاب فستكون الترجمة أسهل، وأدق، وأوضح. . .» هكذا قال. بدأنا من تطوان لنعود إلى طنجة. الصهريج كان أول ما شاهدنا. أخذ له صوراً عديدة من جميع جوانبه. عندما انتهى قال مبتسماً:

ـ في كتابك تصف هذا الصهريج، وما حوله، بكثير من الجمال، مع أنه ليس كذلك، ولا يدل على أنه كان جميلاً.

قلت له بنفس الملاطفة:

ـ هذه هي مهمة الفن: أن نُجَمِّل الحياة حتى في أقبح صورها. إن هذا الصهريج انطبع في ذهن طفولتي جميلاً ولا بد لي من أن أستعيده بنفس الانطباع حتى ولو كان بركة من الوحل. ثم إنني كنت بعيداً عنه زمنياً، ومكانياً، عندما وصفته.

الظهيرة صاهدة. كنت واقفاً على حافة الصهريج أتأمل البيت الذي سكناه في أوائل الأربعينات. بيت البؤس الجميل والخلافات اليومية بين أبويّ. إنه زاه اليوم بطلائه الأبيض، وبابه الجديد. عندما سكناه كان طلاؤه مكشوطاً، كالح اللون، غير متماسك، أعيد ترقيعه عدة مرات بألواح مختلفة أقدم منه. خرجت امرأة بدأت تشيخ. صدرها ضخم، متهدل، لكن وجهها صبوح. وجهٌ قَروِيّ. بانت خلفها شابة حولها طفلان صغيران حافيان.

ـ كنا نسكن هنا من قبل.

ـ ابن من أنت.

ـ ابن ميمونة.

ـ سكنا بعدكم هنا. أعرف أمك. لم أرها من زمان. أين تسكنون اليوم؟

ـ في سيدي طلحة: باريوسان أنطونيو.

ـ كيف حالها المسكينة؟

ـ لا بأس.

ـ سأزورها إن شاء الله. بلّغ لها سلامي.

ـ مُبَلّغ.

لم يكن عندي ما أعطيه للطفلين من نقود صغيرة، ولا ما أضيفه للمرأة. اعتذرت شاكراً وانسحبت. مشيت في طريق النخيل مستعيداً ذكرياتي بمزيج من الفرح والحزن عن هذا الحيّ. معهد البيلار ما زال شامخاً. لم أكن أعرف ما أفعله بوقتي الفائض بعد القراءة. لو كنت في طنجة لما أحسست بهذا الفراغ الممل. هناك أستطيع أن أُوَلِّد من أكثر الأيام كآبة وعوزاً بعض المتع. العزلة هناك حرة لها مذاق التوت البري، وهنا مفروضة ولها مذاق الحنظل، تجوّلت حول المكان الذي كان فيه كباريه «لابيركولا»: الطانجو وكارلوس غاردل، كونشا بكير، الفلامينكو، لاس كوبلاس (أغان شعبية)، والرقص الغجري. منزل الإيطالية الشابة، التي كنت أنتقي من قمامتها قدام بابها أعقاب سجائرها المصبوغة بأحمر الشفاه القاني. أدخنها بلذة جنسية. فاجأتني يوماً أنبش زبلها بحثاً عن الأعقاب فلم تعد ترميها. مررت على رياض العشاق. لم يكن عندي ثمن شرب شاي في مقهى الغارة. الهادي الجويني يغني: تحت الياسمينة في الليل. تجارة أمي تكسد في أواسط الشهر. لا يمكن لها، أحياناً، أن تعطيني شيئاً. نسيم معطّر يلطف المزاج وسط هذا الاخضرار الزاهي الذي يختال فيه العشاق المبتدئون. لم تعد في الحوض سوى سمكات صغيرة ملونة. الكحوليون الذي يحتمون هنا بالليل اصطادوا الأسماك كلها بالقفة. وأكلوها لُماظَة (كِيّة، طابا) مَشوية. هكذا قيل. البطّ اختفى تماماً من الحديقة. كان هناك قرد يشاكسه الأطفال في قفصه، ومصور يعرض على العشاق ببشاشة، أن يلتقط لهم صوراً. العشق المغربي، المبهور ببطولة الحرية، بدأ يخرج

من المخابئ، ووراء الشبابيك إلى الشارع، ودور السينما، وتحت الأشجار، في أزياء أوروبية، ورباطات العنق. تناسق الألوان غير منسجم، والخطو بالحذاء ذي الكعب العالي متعثر. تيه ودلال ساذجان. عمر العشق لم يتحضر بعد. أتردد على الترانكات، والسوق الفوقي، والغرسة الكبيرة، والملاح (حي اليهود) أكثر من مرة في اليوم. الحركة والعمل اليدوي وضجيج الباعة والصناع، في هذه الأحياء، يخفف من توتر عطالتي وسأمي، لكن المفزع هو لو أنني أعود يوماً إلى احتراف أحد هذه الأعمال. يكفيني ما عانيته فيها من مهانة وأنا صبيٌّ مُتَعَلِّم.

كنا ننام، إخوتي وأنا في حجرة، وفي الأخرى أبواي. لم نكن نتكلم، ولكي أتحاشى رؤيته أجيء في حوالي منتصف الليل. عندما يسمعني داخلاً يبدأ همهماته اللاعنة. غالباً ما أكون أنا موضوعها. أكيد أن أمي تكون نائمة. لا أسمع أي حوار بينهما، لكنه يخاطبها كأنها تسمعه. قد تكون يَقْظَى. وعندما يتعب يشتمها ويشتم ما ولدته من خنازير ثم ينام وهو يدمدم. كلانا عنيد في ضَلالِه: هو لا يرضى أن أكون ابنه، ولا أنا أرضى أن يكون أبي. يتعاظم تناحسنا كل يوم. ينقصنا ولو زخرف الخيال. يقيناً أنه لم يحلم أبداً بمحبة أحد حتى نفسه. وكذلك الحيوانات، والأشياء، إذا لم تكن نافعة له.

بداية سبتمبر أتمنى أن يمر هذا الصيف العفن بسرعة لأسقط في أحضان الخريف، ثم الشتاء، حيث يكون للدفء عمق أحلام اليقظة عن المستعاد الجميل. . . ! نادراً ما أعود إلى كوخ اللعنات والنحس اليومي في الأصيل مثل اليوم. جائع ومتعب. أخي عبد العزيز يبيع البزر والحلوى لأطفال الحيّ فوق صندوق يتخيله دكاناً مثل بقال. إن عقلية التاجر ولدت معه. يتعمد أن يعدّ أمامنا نقوده الصغيرة عدة مرات. يزهو بما يربح ويتحدّى أختينا أن تكسبا شيئاً مثله. لو أنه يستطيع لتحدّى حتى

أبانا العاطل. وجدت حبيبة، مصغية في تأمل، تحكي معها أمي وأختي ارحيمو. أختي مليكة غافية على حجر أمي ملامسة رأسها. كان هذا التكاشف الحميم استمراراً لصداقة أمي مع أم حبيبة. أم حبيبة هي أيضاً عانت كثيراً من قسوة زوجها الفاسق، لكنها كانت تقاومه حتى هزمها الموت فزوج وحيدته حبيبة كهلاً تاجر ماشية (صديق له) وهي لم تتعد السابعة عشرة. طلّقها بعد سنة وأَشْهُرٍ لأنها لم تنجب له. أبوها وعمتها شرسان معها ولا أحد تحتمي به. أدخلوها إلى مستشفى الأمراض العقلية لأنها تكسر أشياء المنزل، وتمزق ثيابها وأي ثوب تجده أمامها. في المستشفى ترقص بهوس صارخة حتى يغمى عليها أو يحقنوها. بعد أشهر خرجت لتعيش حياتها العادية. في عطلة صيف تصاحبت مع شاب على شاطئ مرتيل يصطاف مع أسرته. تزوجها في تطوان وذهبت لتعيش معه في الرباط. كان يعمل في مرآب، أنجبا أربعة أطفال، لكنه كان يقسو عليها بالضرب حتى الإدماء فهجرته تاركة له الأطفال. طلقها فذهبت إلى سبتة حاملة معها جنون صدمتها من جديد. في سبتة أيضاً كانت ترقص مهووسة وتعربد سكرانة في الأحياء الشعبية مغازلة الرجال، ساخرة من النساء. كانوا يسمونها الحمقاء الجميلة. لم يكن لها مأوى فكانت تنام حيثما يستضيفها متشرد في أحد أكواخ البرينسيبي. أحياناً تصنع من الزهور إكليلاً تضعه على رأسها ساحبة خلفها أربع صفائح تقعقع معقودة كل واحدة منها على حدة في حبل واحد. الصفائح الأربع ترمز إلى أولادها الذين تركتهم في الرباط مع زوجها الهمجي كما تقول. عندما تهدأ لفترة تروق لكل من يعرفها ومن لا يعرفها فيجددون ملابسها ويطعمونها. تفاقمت عربداتها فَرَحَّلوها إلى تطوان لتدخل مستشفى الأمراض العصابية لكي تفجر طقوس رقصها حتى يغمى عليها أو تحقن كالعادة. خرجت لتعيش حياة رصينة ناسية كل شيء. كانت تتدبر أمرها فتشتري أزهى الملابس تتصابى بها في

شوارع المدينة. أبوها يملك متاجر ودوراً. في إحداها تقيم هي في الطابق الأرضي وفوقها عمتها الأرملة دون أولاد. خصص لهما معاشاً شهرياً تعيشان به، بتقتير، في انتظار ما سيحدث للمنكودتين كما يقول. تزوجت حبيبة للمرة الثالثة بعدما ظلت سنوات وهي تخيط الشوارع. وفي الشهر السابع من الزواج ماتت بالكوليراً وزوجها ينتظر منها طفلهما الأول. أستلطف حضورها وهي تحكي لأمي عن همومها مع زوجها وأولادها في الرباط. ذهبت ارحيمو عند صديقتها الحدباء فطيمة جارتنا، وخرجت أمي إلى المطبخ في حوش الكوخ. مليكة نائمة. دعتني حبيبة للعشاء معها فتلاشى تعبي. تسكن في حيّ مالقة. دست في يدي ألف فرنك مدعوكة:

ـ تصرف. اشْتَرِ شيئاً للشرب. سأخرج بعد قليل. انتظرني قدام سينما الحيّ.

أمي تطبخ. لم تكن تعترض عليّ متى أدخل أو أخرج. أنام في الكوخ أو لا أنام. إنها عادة قديمة بيننا. رأتني أخرج وهي تضع شيئاً في الطنجرة:

ـ سأخرج.

هزّت لي رأسها ولم تقل شيئاً، ليس من عادتها أن تطيل النظر إلى الأشخاص. نظرتها مبهمة فيها حزن دائم. إنها تحتفي بي أكثر من إخوتي. ربما لأني بكرها، ولأني نجوت من المجاعة بمعجزة، ولأني ولدت في الريف وأتكلم لغة العائلة، وربما لأني أعيش بعيداً عنها. أخوتي الذين ولدوا في طنجة وتطوان لا يتكلمونها وإن كانوا يفهمون منها القليل. لا يريدون أن يتعلموها. أمي تكلمهم بالريفية فيردون عليها بالدارجة. يحاولون، ما أمكن إخفاء أصلهم. يعتقدون أن الريفيين متخلفون. أمثالهم كثيرون عرفتهم في كل مكان: كبار وصغار.

حتى الآن لا أعرف كم كنا! لقد كان يولد لي أخ وأخت فيموت أو

تموت وأنا في طنجة لا أعلم شيئاً. لم أسألها قط حتى وفاتها في 8 ـ 6 ـ 84.

في باريو مالقة شربت كأسين من النبيذ الأبيض عند دكان خمار إسباني، واشتريت منه زجاجة. كانت حبيبة قد نعتت لي الدار. بيتها بسيط ونظيف. ذكّرني ببيت فطيمة في العرائش. حجرة امرأة وحيدة للنوم والجلوس، تجد متعتها في تنظيف وتلميع مفروشاتها التي تستمد منها بعضاً من ألفتها مع الحياة. على الحائط صورتها طفلة مع أبيها في باب التوت، صورة لها في لباس العرس التقليدي، صورة أمها في إطار كبير، دميتان فوق خزانة الملابس، ساعة الجدار الدقاقة وساعة الكوكو، طاولة ليل تضاء بأباجورة، وطاولة ذات رخامة فوقها مرآة، وأدوات الزينة، وزهرية مزخرفة فيها باقة ورد حمراء محاطة بزهور بيضاء. شربنا وتعشينا طاجينا من السمك ودخنا ثم حكينا عن همومنا. عندما أتعبنا الحكي اتفقنا على أن الإنسان لا يعرف حقيقة نفسه، وحقيقة الآخرين، إلاّ في المصائب والكوارث. شعرها الآن أسدلته. كان معقوصاً عندما كانت في كوخنا. صارت أجمل. حركاتها رشيقة، متناسقة، صوتها رقيق، وكلامها بطيء سعيد، ونظراتها ناعسة. تشرد، أحياناً، وأنا أحكي لها عن دراستي في العرائش، أو حياتي في طنجة. سرّني أن تدعوني للنوم عندها. لن أسمع اللعنات الحمقاء التي يتقيأها أبي في كوخ الشؤم كل ليلة. ألحت عليّ أن أنام في فراشها وهي على المطربة (التخت)، لكني ألححت أنا أيضاً على النوم في المطربة. نمت بكامل ثيابي. ساد الظلام والصمت. فكرت في رغائبي وشهواتي الماضية. هذه الليلة ليست هي الأفضل بين مثيلاتها، لكنها إحداها. تقلبت عدة مرات، إنها علامة الأرق كما تعودت. بدأ الشوق يهيجني. منذ أكثر من شهرين لم المس ساقاً أو نهداً. لم يدخ رأسي بلذة حقيقية مستطابة، غير أن الاستمناء له لذته، ومزاياه، فهو أكثر حرية، وخال من

متاعب العلاقات الدائمة، وأمراض المحترفات. إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى وهوى. هل دَعَوْتُها لي مجرد إحسان؟ رفقة للتنفيس عن الهموم المشتركة؟ أو هي مشروع رغبة حاضرة أو مستقبلة؟ قد تكون دعوتها هي الرغبة الصريحة بعينها. لا أدري ما يخبئه لي جنونها الراقد! لا أريد أن أكون سبباً لها في رقصات جنونية أخرى، لكن رغبة إفناء جزء مني فيها يهيّجني ويأمرني هوسي بها. يحدث لي مرات في طنجة أن أستيقظ في فندق أو في بيت صديق ولا أعرف من هي التي تنام معي، أو تغادرني نائماً دون أن أراها ولا أتذكر إلاّ نبضي فيها. أيكون السكر وصدفة الليل قد جمعانا، لكن حبيبة ليست صدفة الليل ولا نحن سكرانان. سأغتصب لطفها معي إذا هي امتنعت.

لماذا لا أترك هذه الليلة تملؤنا بصمتها الجليل، ومتعتها الحميمة؟ ومثلما يفسد الشوق الأهوج كل شيء جميل نهضت متلصص الخطو واندسست بكامل ثيابي معها. كانت تنام في وضع جنيني. شعرها منسدل على وجهها. تراخت متمططة واستقام جسدها ثم انطوت من جديد وصوتها الهامس حالم أو متعب:

ـ دعني أنم.

ـ أحبك.

ـ كفى من كذب الليل.

غباء. إنها على حق. أُمثِّل مهزلتي. ألححت على تقبيلها ولمسها لكي أتأكد من تمنعها. لكنها مصرّة على امتناعها دون أن تأتي بحركة نافرة. كانت واثقة من نفسها. لقد أخطأت قدمي وطأها. فجأة أحسست بجسمها ينتفض ويتصلب وبسائل دافئ يبلل سروالي. أتبول وهي يَقْظَى؟ قد يكون لها جنون البول مثلما لها جنون الرقص. في ماخور طنجة نمت مع ليلى البوالة فلم تبل أما حبيبة فقد بالت.

انسللت قبل أن أثير فيها نوعاً آخر من الجنون أو جنونها بأجمعه.

خلعت سروالي وانكفأت على وجهي فوق مضجعي. إنها تبكي. ربما هي تنظف نفسها من إهانتي لها أو إنها تبكي لكي ترقّ وتروق أكثر، لكني لست مستعداً أن أمثل معها مسرحيتها. هناك نساء لا يلطفن ويرقن إلا عندما يبكين، لكن ليس لدي صبر جميل لمشاهدة هذا الدور. ماذا بَوَّلها؟ أهو الخوف أم التشنج العصبي القاهر؟ مع ذلك فإن حبيبة ليست هلاماً أو طحلباً، أو بطيخة صفراء عفنة مطروحة في عزّ الشمس كما قال يوسف كاره النساء في مستشفى الأمراض العقلية. لقد فكرت أن الفاكهة الإنسانية إما أن تُقْطَفَ في أوانها أو تتعفن، لكنني مخطئ. إن القطاف لم يحن بعد.

طائر السعادة

اشترت لي أمي سترة وقميصين وبنطالين لبدء الدراسة في مدرسة المعلمين. أخبرتها بإقامتي عند حبيبة فقالت:

ـ أنت تعرف ما يليق بك.

بدأ يسكنني شيطان فصرت أهتم بقراءة الكتب الأدبية أكثر من اهتمامي بدروس علم النفس التربوي، والتشريع المدرسي. النصوص التي أعيرها اهتمامي هي اللغة العربية. أستاذها مقتدر فيها. بعد الشرح قد يعرب لنا النص بكامله المكتوب على السبورة. إنه جدّ مؤمن وجدّ ماجن: الدنيا في يده اليسرى، والآخرة في يده اليمنى. يوم الجمعة، في أحد المساجد الصغيرة، يَؤُمُّ الناس ويخطب فيهم. يعربد، ليلاً، في الرينكون أو في سبتة. صحبته مرات في سيارته القديمة. يضع فخاً تحت المقعد الخلفي. يتوهم أن فأراً يسكن سيارته. إنه فأر ذكي لأنه لا يأكل الطعم كله. هكذا يقول. ضبطني أستاذ التربية وعلم النفس أقرأ «البؤساء» فأخرجني صارخاً: «هذه قاعة الدرس وليست مكتبة». صرت أتردد على مقهى كونتيننتال. مريح وأغلب رواده أنيقون تبدو على وجوههم آثار النعمة. تسعة وأربعون ألف فرنك، التي أتقاضاها في منحة التدريب، كانت مبلغاً مهماً عام ستين. أعطي جزءاً منها لأمي وأحتفظ بالباقي. أوزع وقتي بين القراءة بالعربية والإسبانية والعربدة في

الحانات. حانة ريبيرتيتو. المزينة جدرانها برؤوس الثيران، كانت أزهاها. أستمتع بالأغاني التي أسمعها من الحاكي الآلي في كونتيننتال. ثلاث أغانٍ لا أَمَلّ من تكرار سماعها: الصُّبحيات لنات كينغ كول، الساعة للوشوغاتيكا، وبيسامي موشو لأنطونيو ماتشين.

سألت شاباً جالساً بجانبي عن شخص أنيق يحترمه رواد المقهى، وتتكون حوله ثلة أنيقة ومنعّمة وجوهها مثله.

ـ من هو ذلك الشخص؟

ـ ألا تعرفه؟ إنه الأديب محمد الصباغ.

ـ ماذا يكتب؟

ـ الشعر المنثور.

اشتريت كتبه: اللهاث الجريح، شلال الأُسُد، شجرة النار وأنا والقمر (الأخيران مترجمان إلى الإسبانية) وكتب صغيرة الحجم. قرأتها في يومين. قلت لنفسي: إذا كان الناس يحترمون من يكتب مثل هذه الأشياء فأنا أستطيع أن أكتب مثلها أو أفضل منها. الكتابة إذن امتياز. كنت أعتقد أن الأديب لا يُرى في الأماكن العمومية ولا يتحدث إلى الناس كما يفعل محمد الصباغ في هذا المقهى. إن الأديب إما هو خفيّ وإما هو ميت، كتبت شيئاً في ثلاث صفحات. أسميت هذه الخربشات اللقيطة «حديقة العار».

صرت أترصّد محمد الصباغ حتى رأيته يوماً جالساً وحيداً يشرب قهوته المضغوطة. اقتربت منه باضطراب:

ـ الأستاذ محمد الصباغ؟

ـ نعم.

ـ لقد قرأت كتبك بإعجاب كبير. أنا أيضاً أريد أن أكتب. هذا أول ما كتبته. أرجو أن تصححه لي وتعطيني رأيك فيه.

وضع الصفحات بلباقة في جيبه. حييته واختفيت من المقهى حتى لا أحرجه وأحرج نفسي.

في الظهر سكون المقهى شبه خال. ومن عادته أن يتناول قهوته قبل أن يذهب إلى عمله في المكتبة العامة. أعاد لي الصفحات في الغد قائلاً:

لغتك لا بأس بها. استمرّ في الكتابة بانضباط واقرأ كثيراً.

شربت معه القهوة السادة. ذكرت له شذرات عن حياتي في طنجة، ودراستي في العرائش، وتدريبي في مدرسة المعلمين، صار يوجهني في قراءاتي الشعرية بالعربية والإسبانية: غوستافو أدولفو بيكر، الأخوان أنطونيو ومانويل متشادو. ألكسندر فيتنتيس، (كان يتراسل معه) بابلو نيرودا، ثيسار ڤايخو، غابريلا ميسترال ورافايل ألبرتي... واكتشفت بنفسي عذوبة شعرية رومانسية عند الشاعرات: روساليا دي كاسترو (مترجمة من الجليقية (إل فايجو) إلى الإسبانية، إيملي ديكنسون (مترجمة إلى الإسبانية) مَيْرادِلْ المار، سوسانا مارش، خوانا ايبار بورو والفونسينا سطورني. قلما كنت أقتحم ثلته الأدبية. كان بعضهم قد أَلَّف أكثر من كتاب، وأنا كنت أحاول كتابة جملة جميلة. قصص من المغرب، لأحمد عبد السلام البقالي، كانت أول ما قرأته لكاتب مغربي. نشرت لي جريدة العلم قطعة نثرية «جدول حبي» مع صورة بالقبابيون. دوَّخني الفرح وسكرت احتفالاً بموهبتي الأدبية الدفينة. اشتريت أعداداً كثيرة وزعتها على رفقائي المتدربين لأشعرهم بأهميتي بينهم. فكرت: ابن الكوخ والمزبلة البشرية يكتب أدباً وينشر. لكي أزكّي أهمية نفسي المتبجحة اشتريت سترة وبنطالاً فاخرين، وربطات الفراشة، وسلسلة يدٍ زائفة مذهبة. تملكني الزهو والرفعة فتخليت عن المقاهي الشعبية في الفدان، والترانكات، وباريو مالقة وصرت أرتاد قاعة فندق ناسيونال، مرقص المارفيل ليلاً. صار عندي مقهى كونتيننتال

من الدرجة الثانية، وحانة لابارا من الدرجة الثالثة. أحلق وجهي مرة أو مرتين في اليوم إلى حد البرنزة. أتعطر حتى صرت أحمل في جيبي قارورة صغيرة. ابن البراكة وعشير الفئران يتأنق، يتحضر، يتطور، يخرج من جلد خشن ليدخل في جلد ناعم. والإلهام..؟ آه! لا بدّ من مُلْهِمَة. ابن الوحل يستلهم...؟.

تبعت يوماً فتاة سمراء. عرفت سكناها وأصلها. صرت أسير ظلّها كلما صادفتها أو ترصدتها قدام منزلها أو قدام منزل خالتها. صديقة لابنة زعيم مغربي. لقد تعلّقت حيث ينشدخ رأسي. حليمة، جارة حبيبة وصديقة أختي ارحيمو، أمّية، لكنها سمراء وجميلة. يمكن لها أن توحي لي بقصيدة غجرية، لكن طبعها الهادئ قد لا يوحى لي بشيء مهمّ. أعنف الطبع هو ما تعودته.

أعطت لي حبيبة مفتاح بيتها. أدخل وأخرج متى أشاء. لا تبيت، أحياناً، في بيتها. ذاك لون زهرة أخرى. أكثر من مرة رأيتها في سيارة أو ماشية صحبة من، لا أدري من، في شوارع النزهة الجديدة! تنحرف...؟ شغلها. غابت ولم تظهر إلاّ في اليوم الثالث: آثار كدمة زرقاء على عينها اليسرى. ضربة قوية. هناك من يستعبدها. أصيبت أختي ارحيمو بدرن رئوي. أبي وأخي عبد العزيز أيضاً يسعلان بحدة. وباء شامل في أسرتنا. لم تسلم منه سوى مليكة وأنا. أمي شفيت لكنها خاضعة للرقابة الطبية الدورية. أبي وحده ظل يُعالَج حُرًّا.

غابت حبيبة يومين. انتقلت إلى فندق «الجوهرة السوداء» العائلي. فندق صغير. يديره أخوان إسبانيان: روساريو وكُريون. عشرون ألف فرنك في الشهر: غرفة صغيرة ثلاث وجبات. لا شك أن حبيبة تعيش قصة غرامية شقية.

زرت ارحيمو وعبد العزيز في المستشفى. انفجرا باكيين. امرأة

ماتت في حجرة ارحيمو. لم تقتنع بعد أن من يمرض قد لا يموت. أمنا معجزة.

صحبت محمد الصباغ إلى منزله في المدينة القديمة. حجرة إنسان متعبد لفنه. عنب، وتفاح، وأجاص في صينية، ضياء شاحب يُعَمِّق صمتاً شاعرياً. شوبان: ليليات مايوركا وقراءة رسائل ميخائيل نعيمة إليه. خرجت من عنده مُتَمنياً أن يكون عندي بيت متوحد مثله. يصحح لي كتاباتي بكلمات منحوتة، جدّ شفافة، لكنه من طينة وأنا من طينة. إنه لم يقتت من زبل المُرَفّهين، ولم يُقَمَّل وعرقوباه مشقوقان، داميان. أنا لا أعرف كيف أكتب عن حليب العصافير، واللمس الحاضن للجمال الملائكي، وعناقيد النَّدى، وشلالات الأُسد، والعَنْدَلات. أنا لا أعرف كيف أكتب وفي ذهني مكنسة من بلور. المكنسة احتجاج وليس زينة.

زرت حبيبة لأعطيها مفتاح بيتها. شاحبة، والِهَةٌ ويائسة. اختنق صوتها وانبَحَّ:

ـ لماذا ذهبت. ماذا أزعجك؟

يبدو عليها أنها بكت.

ـ لا أريد أن أزعجك.

ـ لا تزعجني في شيء.

على الطيفور (مائدة مستديرة) قنينتا بيرة فارغتان، وعلبة سجائر شقراء. همّ جديد غزاها. منهارة، حتى عمتها لا تراها. تعتبرها فاجرة. عمتها التي ينكحها حارس مرآب الحيّ. لم تكن لحبيبة صديقات. اقترحت عليها أن أجلب شيئاً نشربه معاً. تهلل وجهها فرحاً. أريد لمزاجها أن يروق. ذكرني حزنها بفطيمة في العرائش عندما تمرض ابنتها سلوى. سلوى ويوم الشتاء في الحديقة الخالية. سلوى التي قد لا أراها أبداً. لم أتركها تدخل يدها في حقيبتها الصغيرة. تبرعم طيف بسمة ثم انفغر البرعم فانجمل وجهها فإذا بها أَصْبى. سنتعشى معاً.

لحم الغنم بالخرشوف والجلبانة. نَفْحُ برد منعش يصفح ورذاذ. في دكان الإسباني طلبت كأس نبيذ خيريث. إسبانيان عجوزان يتحدثان عن فن مصارعة الثيران. تَرَدّى اليوم في التجارة. يتحسران على خوسي باراندااس، مرسيال لالاندا (شيكويلو) الشجاع، وفرانسيسكو بيرالطا، خوسيليتو الغايو، ومنويل بينفينيدا ميخياس، وخوان لويس دي لا روسا (فاشيستي قتل في برشيلونة في بداية الحرب الأهلية الإسبانية) ومانوليطي العظيم. حين يختلفان ويحتدّ نقاشهما يحكم بينهما الدكاني ملطفاً هياجهما. شربت كأسي الثانية واشتريت زجاجة نبيذ أبيض. فكرت في حبيبة وأنا عائد: من الأفضل لها ألاّ تحضن على بيضة حبّ من جديد حتى لا تعود إلى رقصها الجنوني في المستشفى أو في شوارع سبتة، لكنها ربما تجد، بين فترة وأخرى، نشوتها، وتصريفاً مريحاً لقلقها في هذا التشرّد الأهوج. طلاقها الأخير أفقدها الكثير من نزاهتها وهي لم تبلغ بعد الخامسة والعشرين. أطفالها الأربعة ولدتهم مثل أرنبة: توأمان والاثنان الآخران الواحد تلو الآخر. ولكي تدبر أشغال المنزل كانت تربطهم من أرجلهم إلى قوائم السرير، والتخت، والمنضدة، متباعدين حتى لا يتخامشوا، ويتخاطفوا قطع البسكويت. لم تعش قط حياة جميلة. لحظات فرح قد تسرقها. حظها سيء منذ باكر عمرها.

رائحة طبخ لذيذة تسرّبت من المطبخ فعمت الحجرة. انبعثت فيها حيوية مرحة. كلماتها صارت تمسح غبار كآبتها على وجهها. نتلاطف بالأنخاب والبسمات فإذا بها تشرق كما لو أنها في حفل زاه. امتدحت مهارتها في الطبخ: اللحم بالخرشوف والجلبانة أكلتها المشتهاة. تسميها الوزير الأول.

رقّت ملامحها. قالت:

ـ لم أعثر بعد على من يفهمني مثلك.

ـ لا ينبغي لنا أن نثق كثيراً في السعادة، إنها آتية هاربة، منفلتة كلما أردنا القبض عليها. قد تكون مثل عصفور جميل يحط على حافة شرفتنا. لا نكاد نقترب منه حتى يطير. هل تعتقدين أن العصفور سيحط على الكتف ويغني لك أو لي كما نتخيل؟

ـ أفهم.

ـ هذه هي السعادة إذن: أنها لا تحط على الكتف وتغرد. إنها تظل على حافة الشرفة.

وافقتني ونسمة الانشراح تسترخيها.

ـ أنت على حق.

كنتُ أيضاً أعزِّي نفسي لأنّ حياتي ليست أجمل من حياتها.

الحالمون

في ذلك الصباح الطري، النسيمي، خرجت من دار حبيبة وكأني ماش في الهواء، خفيفاً مثل ريشة. ما زالت نائمة. انغلق الباب آلياً. سروالي ما زال مبتلاً قليلاً. طلبت فطوراً في مقهى القائد اليزيد. فونوغراف لاڤوا دوصون متر في ركن. حتى نهاية الأربعينات تركتهم يشغلونه بذراع التدوير. أغاني أم كلثوم، وأسمهان، وعبد الوهاب، وفريد الأطرش كانت هي السائدة. لقد احتفظوا بالفونوغراف شاهداً على تلك الفترة: تحفة ذكرياتهم وثقافتهم. سأنتظر حتى تذهب أمي لتبيع الثياب المستعملة في باب التوت، وأبي إلى الفدان وفي ذهنه حكايات جديدة ملفّقة يحكيها عن شجاعته للمتقاعدين أو الهاربين مثله من حرب فرانكو. لكل حكايته الكاذبة. لم يكن أبي، في الواقع، شجاعاً حقيقياً إلاّ في حربه معنا، وإن بدأ ينهزم عندما كبرنا. غير أنه، بين فترة وأخرى، يضرب أمنا حتى يدميها أو يُزَرِّق لها إحدى عينيها أو الاثنتين معاً، ذات يوم أعياه الضرب فرفع القِدر الذي يغلي فيه محلول السكر الذي يصنع به العسل لبيعه في سبتة، ولولا الجيران، الذين استغاثت بهم، لأفرغ المحتوى على رأسها. عندما جئت أمسكت مِدَقَّة الهاون وهددته بتهشيم رأسه إن هو عاد إلى جنونه معها. خرج إلى دار جارنا وانخرط في نوبة من البكاء وهو يردد: «المسخوط يهددني

بالقتل. يهددني بالمهراس. لو خنقته وهو صغير لتخلصت منه». تذكرت كيف انفجر دم أخي عبد القادر عندما لوى له عنقه. تلك كانت آخر مرة يضربها. لقد اكتفى بشتمها ولعننا.

وجدت ارحيمو تسعل محمومة. حين يهدأ سعالها تهدل مثل حمامة. عصير البرتقال هو الدواء الذي تركته لها أمي. غسلت سروالي وحلقت وجهي وخرجت. اشتريت حبة حلوى من عبد العزيز وتمنيت له يوماً مريحاً. قال بمرحه المازح:

ـ إنك أول من افتتح به هذا الصباح. سأرى إن كنت طالع سعد لي في هذا اليوم.

قبّل القطعة النقدية الصغيرة ووضعها في جيبه. تباسمنا وانصرفت. قبل انعطافي في الدرب سمعت فطيمة، جارتنا الحدباء، تُصَبِّح. حييتها واختفيت. شقية بعاهتها. تجد عزاءها في الروايات الغرامية التي تقرأها في طبعاتها الرخيصة، وفي رسائل الحب التي تجيب بها عشاق صديقاتها الأميات العاشقات. إنها كاتبة عمومية للكبار والصغار في حينا. أدركت أن جمال الحلم، في اليقظة والمنام، هو كل طموح وثروة هذه الأكواخ. إن الفقراء هم الحالمون الحقيقيون. يحلمون، وهم في قواقعهم، بالاتساع، والعمل المثري، والمآدب، والحفلات الصاخبة حتى يغمى عليهم رقصاً وغناء. الكابوس أخف في وطأته عليهم بثقله الملازم للأسياد والأغنياء: إنهم يُكَبسون (من الكابوس) أكثر مما هم يحلمون. لست دارياً لماذا أشعر بفرح عامر هذا الصباح، رغم ما حدث لي مع حبيبة. قرأت، في المكتبة الانجليزية، فصولاً من رواية جين إير ثم ذهبت إلى مقهى الفدان. صاحبت أحدهم في لعب الورق ضد اثنين. الرهان على الشاي. صاحبي هو الذي سيدفع عني إذا خسرنا. ربحنا وخسرنا ثم ربحنا. عندما داخ رأسي باللعب والكيف ذهبت إلى مقهى أومانيو (بالريفية: أخي) في الترانكات. لم أدخله منذ

عودتي من وهران عام 51. وجدت هناك كوميرو وبطاطي. تعانقنا بحرارة. حوالي عشر سنوات مضت على عراكنا. كانا يلعبان النرد (البَرْشي) ويشربان الماحيا من قنينة خفية في كأس صغير. غافلت معلم الوجاق فشربت كأسي. وجهاهما ينمان عن إدمانهما هذا الشراب القوي. كوميرو يشتغل اليوم حاجباً في البريد. بطاطي سقط على ظهر شاحنة محملة بالسلعة: كان يعمل فيها مساعداً للسائق فتكسّرت رجله وأصبح يعرج قال كوميرو مازحاً.

ـ لقد تعمّد أن يسقط حتى يستفيد من التأمين ويتخلى عن العمل طوال حياته. إنه أكسل من عرفت. ألا تذكره؟ هل رأيته يوماً يشتغل؟ كان يسرق أباه بمهارة، وعندما مات لم يعرف كيف يسرق الآخرين.

ابتسمت ولم أقل شيئاً. فكرت: بطاطي كان يسرق في مقهى أبيه عندما ينوب عنه وقت القيلولة أما أنت فقد كنت داهية في سرقة الآخرين.

سألني كوميرو:

ـ وأنت، أين وصلت؟ إننا نعرف أنك تدرس في العرائش.

ـ نجحت في الدخول إلى مدرسة المعلمين في تطوان.

ـ ستبقى معنا إذن طوال مدة التدريب.

ـ نعم.

قال بطاطي:

ـ أنت الرابح المحظوظ بين جماعتنا.

ـ في أيّ شيء؟

ـ إنه امتياز. ثم أضاف: أفضلنا لم يستطع أن يصبح أكثر من عامل أو تاجر صغير أو مهاجر إلى الخارج. إن حياتك مضمونة مع الدولة، ثم إنك ستصبح أستاذاً.

ـ لقد صار التفرسيتي أيضاً غنياً.

ـ التفرسيتي شيء آخر. أنت تعرفه خيراً منا. لقد كنتما متلازمين. إنه يأكل ويخاف أن يجوع. لقد عاش شحيحاً. لو كان يستطيع لباع بعض المصات من بزولة (ثدي) أمه وهو في الرضاع.

ـ لكنه اليوم ينفق جيداً على نفسه.

ـ كفى، أنت لا تعرفه اليوم.

ـ أعرف، إنه ينفق على من يظنهم مهمين.

ـ ها أنت بدأت تفهم الآن، لقد ترك أباه يموت فقيراً في كوخ وهو يسكن في شقة اشتراها في عمارة فخمة جديدة. إنه سيموت وعلى وجهه الجوع الماسخ.

قال كوميرو:

ـ لم يبق في المزبلة سوانا، لكننا لم نبلغ بعد حافة اليأس. أتدري أن حتى البطيخة الذي كنا نتناوب عليه بسنتيمات، أو بتذكرة السينما، صار اليوم غنياً ويستغل الغلمان. إنه متزوج وله أطفال.

عند الكأس الرابعة بدأ رأسي يدوخ. تملكني وسواس: قد ينتقم مني كوميرو إذا أنا ثملت. إن الندبة التي سببتها له أثرها بارز على خده الأيسر اعتذرت لهما عن انصرافي. قال كوميرو بلهجة ودية ناسياً حقد تضاربنا القديم:

ـ متى سنراك.

ـ سأبقى هنا سنة كاملة. سأتردد على المقهى.

غادرتهما وأنا في كامل بهجتي. لو شربت كأساً أخرى، أو اثنتين، لفقدت تماسكي. السابعة مساء. كوخ الشؤم لن ينام إلاّ بعد ساعات. حيّ الترانكات يموج بالحركة كما تركته في نهاية الأربعينات والخمسينات. ربما اليوم أكثر. اختفت وجوه من الدكاكين، وحلّت

فيها وجوه أخرى. بعضهم شاخ. أمي تخبرني عمن اختفى منهم بالمرض أو الموت. حبيبة هي المنقذة في هذه الليلة. استقبلتني بترحاب. ربما فهمت أني أفضل عندها. ابتساماتها اللطيفة ومصافحتها الودية أكدت لي أنها ليست غاضبة مني. ربما هي أيضاً في حاجة إلى من يؤانسها!

سنبقى صديقين.

ابتسمتُ ووافقتُ بهزة من رأسي. كانت هي الأقوى. عبثاً أحاول أن أكون أفضل منها. فهمت منها أنه ينبغي ألاّ تكون بيننا شهوة الجسد. كؤوس الماحيا غلبتني مثلما يغلبني الأغوار ديينتي، والأنيس دل المونو أو التِّري. استرخيت على المطربة وغفوت. أحسست بغطاء فوقي.

هذا ما كنت أحتاجه.

نمت حوالى ساعتين. . . كانت قد أعدت العشاء واشترت زجاجة نبيذ أبيض. أنعشني ترطيب رأسي ووجهي بالماء البارد. فريد الأطرش يغني في الراديو: يا زهرة في خيالي.

روساريو

تعتزّ روساريو أنها من استورياس، وأنها ولدت في أفليس Avilés، وأنها تتكلم البابلي (دارجة يتكلمها أهل استورياس)، وأنه تكره فرانكو حتى الموت، وأنها تزوجت بمناضل من خيخون مات مُشَهِّداً بالديمقراطية.

غالباً ما نكون، أنا وفرمين فيتو، وحيدين في قاعة المطعم الصغيرة: أربع موائد. أحياناً، تشاركنا إحداها ماريا روساريو مدخنة وراشفة قهوتها أو كونياكها أو هما معاً. فرمين فيتو يعتز، هو أيضاً، بمولده في بلدة الفِرُّول (مسقط رأس فرانكو). من عادتنا، أيضاً، ألاّ نجلس معاً إلى مائدة واحدة. عرضت عليه مرة أن يجلس معي فاعتذر بأدب بالغ. روساريو تجلس معي عندما أكون وحيداً. جلوسنا معاً فيه نوع من التواطؤ ضده. إنه متبجح، عن خواء، كما تقول روساريو. عندما يكون حاضراً تنفرد بمائدتها أو تبقى في المطبخ أو تذهب وتجيء. إنه بالغ الحساسية ووجهه لا يوحي بالصداقة. هكذا قالت لي عندما رأته يرفض الجلوس معي. هذا المساء لم نسمع صخب لعبهما الورق. شيء ينقصنا رغم انزعاج فيتو من صراخهما. من يغش الآخر؟ إننا لسنا إلاّ شاهدين على احتجاجهما، لكن كارّيُون يحتج أكثر منها. إن صراخها يعلو فوق صراخه لتغطي غشها كما يقول فيتو. عندما ذهب

فيتو عرفت أنها حانقة على حفيدتها كانديدا. تدخن سجائرها الرخيصة وتشرب كونياكها الرديء. تظهر وتختفي مضطربة وكأسها في يمناها، وسيجارتها في يسراها. فرت كانديدا من داخلية جمعية أخوات الإحسان، في طنجة، منذ ثلاثة أيام. أكيد أنها لم تخرج من المغرب، ولم تذهب عند أمها الممرضة في مكناس. قد تكون عند صديقتها ماريسا في طنجة. جدتها تخفي عنها جواز سفرها: «لقد عانيت الكثير من أمها والآن جاء دور ابنتها»، هكذا قالت لأخيها، لكن كريون لا يعلق بشيء على ما تقوله أخته. إنها تكبره بسنوات. في أبريل الماضي احتفلت بعيد ميلادها الثاني والستين. كريون يدخن تبغه الذي يبرمه بمهارة متلمظاً بشرب الكاراخيو (قهوة ممزوجة بالكونياك)، ويسلي نفسه بقصص الأطفال المصورة. عندما يتكلّم يُهمهم، لكن أخته تفهمه بوضوح. أنفه مهشم، ملتو. أهي سقطة؟ لكمة عنيفة؟ يتقوقع في المطبخ متحاشياً ما أمكن الحديث مع الزبائن. روساريو لها مزاج أندلسي رغم أنها من أفليس، وتعابير محببة لا أسألها عن معناها. لقد عاشرت كثيراً الأندلسيين الذين هجر معظمهم المغرب بعد الاستقلال. سمعتها تخاطب حفيدتها عندما زارتها ورأتها تطلّ من الشرفة إلى الشارع: «أيتها الطفلة، أغلقي النافذة. إن ثور الريح سيأخذك. . . ». «كل شيء له استفهامه». «. . . من يتكلم عن ربيع الروح وهناك ذلك الجدار المنيع. . . » لكن ها هو اليوم ثور الريح يأخذها، وأصبح هروبها علامة استفهام، وقفزت فوق جدار داخلية أخوات الإحسان المنيع، ولا تعرف جدتها أين ذهبت!

أحب روساريو عندما يحتدّ نقاشها مع فيتو حول الحرب الأهلية الاسبانية، أو حول الكنيسة والرهبان. تهزمه بحججها. تستشهد كثيراً بما تقرأه. إنها محظوظة لأن قلة من بنات جيلها الفقيرات أتيح لهن أن يتعلمن. أؤيدها دائماً، حتى عندما تكون مخطئة، ضد فرمين فيتو. إنه

يغتابها بلهجة خبيثة كعادته. هذا المساء قال عنها بصوت خافت شامت: «إن العجوز الساحرة قد هرب قديسها إلى السماء (يقصد أنها لم تعد تعرف ما تقدم وما تؤخر). أراحتنا من صراخها مدافعة عن غشها في الورق. مسكين كريون الذي قُدِّر له أن ينهي حياته في ظلها! إنها ملحدة ومنافقة!».

لكن روساريو أشرس منه عندما تنّم عليه: «بخيل، انتهازي، منافق، يحضر القداس يوم الأحد حتى ترضى عنه الهيئة الديبلوماسية الاسبانية. إنه يجهّز ملفه لضمان عودته إلى اسبانيا مواطناً صالحاً لكي يحصل على ترقية العمل هناك بامتياز. أتدري لماذا يمجد فرانكو؟ لأنه من نفس بلدته. يعتبره أفضل من حكم اسبانيا بعد الملكين الكاثوليكيين: ايسابيل وفرناندو، وكارلوس الثالث. أليس أبله...».

حكت لي بصوت أليم عن زوجها الشيوعي الذي أعدمه الفاشيون في تطوان: كان فرانكو وهو يتناول إفطاره يوقّع على الإعدامات. عشرة، على الأقل، كل يوم. وكان زوجي واحداً من تلك الإفطارات السامة. أتدري كيف استولى على الحكم؟ قيل إن أخاه نيكولا هو سبب هذا التاريخ المنكود في اسبانيا. إن القانون العسكري الذي سنّه رفقاؤه في الانتصار يَنُصُّ على أن فرانكو هو رئيس الدولة والحكومة مؤقتاً، لكن أخاه دفع النص إلى المطبعة بأمر عسكري مستعجل، حاذفاً مؤقتاً، فأصبح حكم فرانكو أبدياً. دكتاتورية مؤقتة لإعادة النظام إلى البلاد ثم يذهب إلى البادية ليعيش في هدوء كما قال ذات يوم ساخراً. لكن بعد أن استتب له الحكم صار يقول: «إن حكمي هو مدى حياتي. اسبانيا ملكية من دون ملك، لكننا ملكيون». ولكي يدعم أبديته كان لا بدّ له من أن يشرك الكنيسة في الهبة السماوية التي اختلقها حتى صارت حربه نوعاً من الصليبية ضد الشيوعيين. كان لا بد له، أيضاً، من أن يبعد عنه معظم الذين تعاونوا معه في النصر أو نفوا أنفسهم إلى فرنسا،

والمكسيك، والأرجنتين، وروسيا. لقد تخلى عن خوسي انطونيو بريمو دي ريفيرا[1] ليقتله في سجن أليكانتي حتى لا يزاحمه أحد في فاشيستيته. كان في إمكانه أن يقايض به الزعيم الاشتراكي لارغو كابايرو، لكنه آثر أن يعدمه لكي يتخلص من الاثنين. لم يكن يثق ولو في ظله. لا يغامر بتقرير شيء إذا لم يكن للمسجون عنده نفع يديم له حكمه. لم تكن إسبانيا، لصياد الأرانب والخنازير البرية، سوى ثكنة عسكرية، أتدري لماذا كان يصرّ على الظهور باللباس العسكري البحري المزدان برتبة قبطان جنرال للبحرية؟ لأنه رسب في الالتحاق بالأكاديمية العسكرية البحرية في طليطلة. وهاجم أيضاً الماسونية لأنه لم يُسمَح له أن يكون عضواً فيها. كان رفاقه الضباط يسمونه «الرجل ذا الميمات الثلاث»[2].

هكذا باركته النجوم. ومع ذلك فإن فيتو لا يخجل من أن يقول إن الكاوديو هو الذي أعاد لاسبانيا مجدها الذي فقدته عام 1898.

ـ ولكي يعاد لإسبانيا بعض من أمجادها المندحرة في كوبا، وبويرتوريكو، وجزر الفيليبين كان لا بدّ له من افتراس جزء من المغرب ثم تجنيد المغاربة السذّج في جيشه، طوعاً أو عنوة، ليحاربوا الذين لا يؤمنون بالله كما قال لهم.

قالت:

ـ إن أطماع الطغاة لا حدود لها كما تعرف. أعتقد أن فرانكو كان أمكر من ملهمه في الدكتاتورية ميجيل بريمو دي ريفيرا. فرانكو يدعي دائماً أنه في عمقه ملكي، لكن الملكية الاسبانية ظلت تجرّ أذيال الهزيمة قرناً كاملاً، ويَتَوهَّم أنه مرسل من السماء ليمحو تخاذلها، وليس

---

(1) مؤسس الفلانخي: منظمة الكتائب المعروفة بالقمصان الزرقاء.

(2) لا خوف، (أو لا لوطبون كما يروي البعض)، لا نساء، لا قداس Sin Miedo (O Sin Maricones Como Cuentan Al Gunos) Sin Mujeres, Sin Misa.

الخزي الذي تَرَدَّى فيه هذا القرن الاسباني. ولم يقتصر هذا الغرور على اسبانيا. فلقد أعلن إثر انقلابه العسكري ضد الجمهورية الثانية رسمياً: «لنا الفخر أن نكون أول دولة تنهض للدفاع عن الحضارة الغربية المهددة بالأفكار الشرقية». لكن قيمة هذا الدفاع المتبجح ظهرت عندما أقصاه الرأي العالمي، بعد عشر سنوات، من مجلس الأمم المتحدة. لم يسانده في عزلة حكمه إلاّ الجنرال پيرون. وستمرّ حوالي عشر سنوات أخرى لكي تشفع له الولايات المتحدة[1] والفاتيكان (لمصلحتهما) فتدخل اسبانيا مجلس الأمم المتحدة عام 55. وهكذا ربح الحرب نهائياً وزاد وقته لرسم مراكبه الغارقة[2]. الخيانة، في نظره، أيضاً، تأتي دائماً من الجبهة الشعبية الوطنية التي لا تساند الجيش. إنها ترهبه ولا تثق فيه لأنه، وهي على حق، يخدم مصلحته على حساب تضحياتها. هل يعقل، مثلاً، أن يحكم بالإعدام على جندي من الليخيون[3] في المغرب لأنه أساء الأدب مع رئيسه برفضه أن يأكل العدس الذي لم يعجبه؟ إن النصر العسكري يأتي من انضباط الجنود وطاعتهم العمياء حتى ولو كان رؤساؤهم مخطئين. هكذا كان فرانكو يبرر جرائمه. لم يكن يرى في الأحزاب السياسية سوى التفرقة والانسلاخ عن حب الوطن وعدم خدمته. أما الألمان فقد كانوا يعتبرونه إكليروسياً رجعياً وليس فاشستياً حقيقياً. لا يؤمن إلاّ بفعالية نظامه وشرعية انقلاب الثامن عشر من يوليو.

لم يفاجئني رسوبي في امتحان التخرج. لقد أهملت، عمداً، كل مواد الدراسة لأقرأ الأدب، لكن تعييني في طنجة عزّاني. جارنا،

---

(1) أنشئت قواعد أميركية في كل من تريخون، وسرقوسة، ومرون وورروتا فضلاً عن مساعدات اقتصادية هائلة.

(2) كان يمارس هواية الرسم ومواضيعه المحببة رسم مراكب تغرق.

(3) فرقة المتطوعين المرتزقة.

المأمور في نيابة التعليم، سيخبر أبي. سيسرّ لأن رسوبي يؤكد ما كان ينعتني به من جهل. لم أشعر بأيّ خزي ولا ندم حتى اليوم.

شفي عبد العزيز وارحيمو. عاد هو إلى دراسته ودكانه الصغير، وعادت هي إلى خياطتها والعناية بالكوخ. أبي لم ينقطع عن حلقات المعطوبين في ساحة الفدان أثناء مرضه وبعد شفائه، لكن نوبات الربو بدأت تطرحه في الفراش. ظل يعاني منه حتى مات عام 79.

زرت أمي في سوق باب التوت. أعطيتها المساعدة الشهرية وقد أضفت إليها مبلغاً لتعطيه لأبي. أعرف أنه سيبصق على ذلك المبلغ البسيط ويلعنني كعادته، لكنه لن يرفضه أو يتصدق به على متسول. سيكفيه لنشوقه وأكواب شايه لأسابيع في الفدان. سعيت إلى إرضاء أمي لا إرضائه. لثمتُ يدها. دمعت عيناها وأنا أودُّعها. لم تلحّ علي في تفقد أسرتنا بين فترة وأخرى. أكيد أنها علمت برسوبي. استبطنت عِلْمَها في نظرتها إليّ، لكنها لم تقل شيئاً. تعرف أن عادتي هي أن أجيء أو لا أجيء، بمناسبة أو غير مناسبة. اشتريت هدايا صغيرة لإخوتي، ولحبيبة، وجارتنا الحدباء. رأيت السمراء في الشارع. تبعتها حتى رأتني فتوقفت أمام واجهة متجر وبدأت لعبة الالتفات. ابتسمتْ. كافحت خيبتي وذهبت إلى حانة ريبيرتيتو. فكرت: حماقة تافهة. إن الحب لعبة قذرة. لا أريد أن أعيد ما حدث لي مع كنزة. تذكّرت قصة قاسم مع صديقته اليهودية نتالي قبل أن يُجَنّ: كانت الثالثة صباحاً. المطر يسقيني قدام منزلها. كنت مثل شجرة ميتة. كلبها الضخم، الشرس، ينبح عليّ وراء شباك باب الحديقة. رفعت عينيّ نحو السماء في مذلّة. أغمضتهما. قطرات تدغدغ أجفاني. بدأت تغزوني الحُمَّى. فمي مفتوح وعيناي مغمضتان. حب خائب. مطر وليل لا ينتهي في وهمي. الحلم بها كان نسر ذلك الليل المطير. تجمّع كل غضبي في يديّ. خبطت بهما الجدار. المطر يغسل دمي. ربما هي الآن تنظف

أمعاءها وأنا هنا أسقي زهور تفكيري فيها في ظلام هاطل. أهذه بطولة الحب؟ ليسقط هذا المستحيل! هكذا رفعت صوتي نحو السماء. أعرف أن ظلالاً كانت دليلاً لمن ضلوا طريقهم. صرت ظل نفسي وحكمت عليها بالنفي الأبدي.

شربت كؤوساً من نبيذ خيريث، ثم ذهبت عند أنيتا في باب التوت. إن احترافها لم يفقدها رقّتها وطيبتها. ذكرتني نظافتها المعطرة بكريستوفالينا في طنجة. هذه هي المرة الثالثة التي أجيء إلى عندها منذ اكتشفتها في بداية هذا الشهر. شربت عندها كأسين من الأنيس دل المونو.

جاءت كانديدا منذ أيام مع أمها من مكناس. رفضت العودة إلى داخلية أخوات الإحسان. هذه أول مرة أجلس معها. تحدثنا عن الكتب والكتابة. بدت لي أعقل مما قالت لي جدتها. روساريو تعزو فشلها في دراستها إلى حبها لشاب هاجر مع أسرته إلى قرطبة. أبوها أيضاً هرب من الفاشيين إلى كندا قبل أن تولد بشهرين. كتب رواية عن المناضلين الجمهوريين الإسبانيين في شمال المغرب. سمعنا عنها ولم تصلنا. أخباره انقطعت عنا منذ أكثر من عشر سنوات.

كانديدا تقرأ كثيراً. تكتب خواطرها الرومانسية عن خيبتها في الحب وسأمها من الحياة، وسوء حظ أسرتها. تجتاز العشرين من عمرها وبدأت الهموم تنضجها جيداً، لكنها لا تعرف ما يمكن لها أن تفعله في المستقبل. كنت قد اشتريت زجاجتين من نبيذ ريوخا، وبطة كبيرة أعدها كَرّيُون بنفسه لأنه يعتبر نفسه أمهر من أخته روساريو في طبخ الدواجن. كريون اعتصم، كعادته، بالمطبخ ليتعشى وحده. كان هذا عشائي الأخير مع أسرة روساريو. فرمين فيتو لا يجيء أيام الآحاد، لكنه، كان اعتصم بمائدته حتى وإن شاركنا العشاء.

من العسل إلى الرماد

عينوني في مدرسة الحيّ الجديد للبنين والبنات. أسندوا لي القسم التحضيري. القسم، في جانب من الساحة، براكة من خشب تقطر في الشتاء وقد ينقّ قربها الضفدع. أكثر من أربعين تلميذاً في كل سنة. عدد البنات لا يتجاوز الربع. إنه نداء التعبئة من أجل التعليم بأبسط الوسائل الممكنة. بائسون: وسخ، جوع ومرض.

أرفع قلماً في يدي وأسأل:

ـ ما هذا؟

يجيبون جماعة:

ـ ما هذا؟.

ـ هذا قلم.

يجيبون:

ـ هذا قلم.

ـ وهذا؟

يجيبون:

ـ وهذا؟.

ـ هذا دفتر.

يجيبون:

ـ هذا دفتر.

تقيأ تلميذ بقايا زيتون فقال واحد منهم:

ـ إنه يأكل الزيتون مع أبيه السكير يا أستاذ.

باس تلميذ تلميذة فكانت مشكلة. ولكي أردّ لها الاعتبار أمرتها أن تبوسه هي أيضاً فكفت عن البكاء. إنها محنة الجهل في بداية الستينات: من يُعَلِّم ومن يتعلم. بعضهم لا دفتر له ولا قلم. وجباتهم لا يتناولونها بانتظام. بينهم واحد أحمق. سماه التلاميذ «طمخوخ». «يصرّ دائماً على الجلوس في الصف الأول على أي مقعد يريده. يسلي التلاميذ حين لا يضرب أو يعض. أسنانه كبيرة. وجهه منغولي. يرمي عليّ، أحياناً، حين أكتب على السبورة، قطعة طباشير أو ورقة مدعوكة مكورة. عاقبته مرة بالمسطرة على يده فامتلأ وجهه غضباً وبدأ ينتفض. تلك كانت المرة الأخيرة التي أهتم بوجوده في القسم. كان الملعون يتسلى. قدمت عنه تقريراً إلى الإدارة بينت فيه أن عملي يتعطل بسببه: «خير له أن يبقى معنا في المدرسة بدلاً من أن يظل يزعج الناس في الحيّ». هكذا ردّ عليّ المدير. يعترض طمخوخ أيضاً الحافلات العمومية واقفاً في وسط الطريق. يهبط الحصال ويعطيه سنتيمات، أو أيّ شيء يأكله، أو يتسلى به، لكي يترك الحافلة تمرّ.

داخل القسم يَتَمَثَّلُ نفسه قاطرة وصفوف التلاميذ وراءه عربات: تشف... تشف تشف.. عووع...! عووع...!.

كل القسم يضجّ بالقهقهات. ينام ويستيقظ في القسم متى يشاء، ويخرج ويدخل متى يشاء. قد يخرج ولا يعود فأرتاح. وعندما يغيب أكثر من يوم أتمنى ألا يعود، ولكنه يعود.

زارني مفتش التعليم زيارة تفقدية. شكوت له حمق طمخوخ. لم يصدق حمقه. اقترب منه ومَسَّدَ له شعره الخشن، المشعث، بحركة لطيفة.

ـ أنت بعقلك، علاش كتعمل الفوضى؟.

وما أن هَبَّطَ يده مُرَبِّتاً على كتفه حتى انقضَّ طمخوخ على يده وعضها. ضج التلاميذ بالضحك ثم أصمتتهم نظراتي. أنا نفسي بذلت جهداً كي أغالب ضحكي. بسبب هذه الحادثة طرد طمخوخ من المدرسة، لكن لا أحد يستطيع منعه في الحيّ من اعتراض الحافلات العمومية وغيرها من السيارات والدراجات النارية. وبعد غيابه أخذ التلاميذ يتأسفون على طرده.

أدركت أنني لست أهلاً لهذه المهنة. ينقصني الصبر الجميل للوفاء لها، لكن لم يكن لي الخيار. بعد حصولي على شهادة البروفي (ثلاث سنوات من الدراسة الثانوية في ذلك الوقت) جاءت لجنة إلى ثانوية مولاي عبد الله في العرائش وأجرت لنا اختباراً في رزّات الذكاء. نتيجتي كانت من بين الذين قررت اللجنة إيقافهم عن الاستمرار في الدراسة لكبر سنهم. سني رسمياً كانت عشرين سنة، وفي الواقع كانت خمساً وعشرين.

سكنت من جديد في بنسيون لابلاتا. ربما لاستعادة ذكرى ربيعة وكنزة. فضلت غرفة صغيرة على السطح مطلة نافذتها على البحر وسطوح المدينة القديمة. يجاورني توماس الرخو في كوخه الخشبي.

يعيش حياة عنكبوت. يكره فرانكو مثلما يكره المرء دم أسنانه. لم يكن فرانكو ماهراً في قتل الأرانب والخنازير، كما يقال عنه، بل كان ماهراً فقط في قتل أنبل الناس. كان رفاقه في الصيد وأعوانهم هم الذي يقتلونها ويضعونها عند قدميه فتؤخذ له الصور مزهواً. كان أيضاً يرسم، دون أية موهبة، مراكب تغرق. كيف يمكن لمن يدعي حب الفن أن

ينفي بيكاسو؟ قيل أيضاً إنه كان معجباً بفايي ـ انكلان لكنه سمح بقتل لوركا، وسجن ميجيل ارنانديث حتى الموت تاركاً زوجته ترضع ابنهما البصل من صدرها[1]. هذا أيضاً ما يقوله توماس.

يعيش توماس منعزلاً في كوخه وفي الشارع. دار إسبانيا يعتبرها ملجأ لمعطوبي الفكر: تلفزيون، ولعب الورق، والخمر. في النهار يبيع بالونات الأطفال في البولفار، وفي الليل يقرأ روايات الكلاسيكيين الروس، والفرنسيين، والاسبان، والانجليز. نبيذه أبيض رخيص، وتبغه مُفَرَّى (مفروم). قبل النوم يشرب من زجاجة يملؤها بالماء ممزوجاً بعصير الليمون. لا يحب أن يناقش أي شيء بعمق. إن حكمه على الأشياء يقتصر على أن لا شيء سيئاً كله، لا يحب الذين يحللون الأشياء من العسل إلى الرماد.

أغبطه على وحدته. يكاد يكون الوحدة ذاتها: الموت الصحو.

كان قد جاوز السبعين، ومن حسن حظه أنه لم يكن يعاني من أيّ مرض. مصارعة الثيران انتهت، في رأيه، بموت خوسيليتو، ومانوليتي. يحب الخوطا الأراغونيسا، والفاندانجو، وطانجو كارلوس غارديل وكونشابيكير، رغم ميلها إلى حكم فرانكو. نشرب معاً، أحياناً، زجاجة نبيذ في كوخه المُغبّر. السيدة خوسيفينا، صاحبة الفندق، هي التي تنظف الغرف بنفسها، لكنه لا يتركها تدخل كوخه إلاّ لتغيير الأفرشة. يعتبرها فضولية، وسليطة اللسان، ورائحتها مُغْثِية.

ربيعة تزوجت بضابط في الجيش المغربي، تعاشقا في طنجة، كنزة ترقص في ملهى الكتيبة.

---

(1) اشارة إلى آخر قصيدة للشاعر كتبها في سجنه: (مُناغَماة البصل). وهي مهداة إلى ابنه الرضيع على اثر استلامه رسالة من زوجته تقول له فيها بأنها لم تعد تأكل سوى البصل والخبز.

انتهى في طنجة زمن الدعارة الجميل. المواخير الخاضعة للرقابة الطبية منعت منذ سنوات. دور سرية وفنادق حقيرة حلت محلها لتمارس فيها المحترفات الهرمات مهنتهن مع الوافدين من البادية، بحثاً عن عمل، وفقراء المدينة، بأبخس الأثمان. بعضهن تُبْن، إنقاذاً لكرامة شيخوختهن ودينهن فصرن يعملن في المطاعم، والفنادق، ومنازل مُحْدَثي النعمة. لقد نَمَت لبعضهن شوارب خفيفة، أو زُغَيبات متفرقة خشنة وتساقطت أسنانهن. قليلات هن اللواتي اغتنين بدعارتهن فاشترين دوراً وأراضي أيام عودة الأجانب فتقاعدن في نعمة. والأخريات، الأكثر شباباً وجمالاً، هاجرن إلى اسبانيا، وفرنسا، وبلجيكا، وهولاندا، والمانيا. . .

وفي أواخر الستينات كان جيل جديد من المحترفات الشابات، المتحررات في لباسهن، وتعابيرهن، وأوضاعهن الجنسية، قد اكتمل نمو أجسادهن واستوى. غزين المدينة مثل الجراد، جئن من كل المدن. إنه جيل الفنادق الفخمة، والعلب الليلية، والمخدرات[1]، والتَّدَعُّر مع أهل البلد والأجانب.

كنت أقرأ أي كتاب أعثر عليه دون تمييز، لكن كتب الأدب وعلم النفس تستأثر بي أكثر. أقرأ وأكتب في أي مكان مثل هذه الخواطر:

مقهى سنترال 25 ـ 9 ـ 1961.

إن المرأة التي أعيش معها دائماً إذا لم تجعلني أعزف عن كل النساء فليست هي المرأة التي ينبغي لي أن أعيش معها. ينبغي لها أن تكون هي كل النساء، وكل النساء لسن هي. ينبغي لي أن أميزها في الظلام حتى وإن تكن بين جمهرة من النساء. إذا انطفأت الشموع يضيء

(1) كان للهيبيين الذين وفدوا على المدينة في الستينات دور كبير في انتشار المخدّرات على أنواعها.

كلانا الآخر. إذا حجبونا بستار سميك أراها وتراني. المرأة النور الخارق، المرأة الشفافة، لم أجدها بعد.

في الوقت الذي كنت أكتب فيه مثل هذه الخواطر عن المرأة المثالية كنت أستعذب مضاجعة أَحَطِّ النساء في البيوت الخفية المتبقية من مواخير طنجة: انحلال الروح في الجسد، هذا ما كان ممكناً لي في هذه المرحلة، وربما كان هذا قدري.

سمعت واحدة من هؤلاء تقول لرفيقتها: يقول لي الرجال دائماً: «إنك جميلة. . . !» لكني عرفت هذا قبلهم.

يخيل لي أن المرأة هي مرآة نفسها من التبرعم الأول حتى وَهَن العمر والعجز. إنها تبدأ بمراقبة جسدها قبل الرجل. إن الاستمناء والجنس المنحط هما اللذان أنقذاني من السقوط في فخ الحب الخائب. باكراً اكتشفت أنني أحب مزاج العاهرة، لكني لا أستطيع العيش معها. إنها تعتقد أن الرجل هو الذي عَهّرها فَتقضي كل حياتها لِتُعَهِّره مثلها.

العيش في زمن الاخطاء

لنحلم قليلاً أكثر. أكثر من الحلم. آه من طائر البقر! ومن السمكة التي تقود سمك القرش! ومن طائر التمساح! ومن عصفور الكركدن! ومن العبد المقيد إلى مقعده، وهو يجذف، مُساطاً حتى يدمى ظهره! اليوم يخرمه الرصاص قبل أن يتشكل ظل قامته في الشمس أو يتشبح في الليل في فراره.

لا أحد يأتي بعد أن يجيء الأخير. ربما هي السبب في مجيئي الأخير. . . لقد تركتها تغتصب فيّ ما كنت أريد أن أعرفه فيها. ممن آخذ حكمة اليوم؟ الأذكياء جنوا أو هم يهذون في الشوارع والأحقّون بالبقاء هاجروا وكبلتهم الغربة بسلاسلها الثقيلة. لقد بدأ سفرهم قبل أن يهاجروا. رأيتهم يشربون الكؤوس الأخيرة. حفنة من تراب الوطن رأيت أحدهم يحملها في كيس صغير كحرز. ربما سيسمّد بها بذوراً ما في غربته القهرية! قد يغرس فيها جذور النعنع. إنها مشيئة البؤس في وطنه. كان يقول لي بينيتس في أصيلة: ستأتي الأزمنة الرديئة. لكن متى كانت هناك أزمنة جميلة؟ أقول له.

لمن هذه الأنغام الحزينة التي أسمعها من بعيد؟ إنها للراحلين في الجمارك وهم يزحفون واقفين. بطء زحفهم يذلّهم حتى نخاع العظام. إن مذلة الوطن أقسى عليهم من مذلة الغربة. سمعت أحدهم يتنهد

ويقول: إن هذا الليل سيدفننا هنا. كأنما ذكرى الليالي الماضية، المرعبة، تنبعث كلها من ليل هذا العبور. لقد تعودت على الشمس والبحر. كيف لي ببحر دون شمس الضباب، إذا زارنا، نندهش. هل فقدت السماء لونها المرآتي فوق أرضنا؟ الشمس تضحك لنا قبل أن تبسم للآخرين، لكنهم حجبوها!.

كفى من هذا الهراء. تعلم كيف تحلم بالعوالم الأخرى، كما أصحابها يحلمون بها. لا تُغَمِّض الأشياء. كثيراً ما يتغذى الصالح بالطالح. وجوه لا توحي لك بأيّ إحساس تحبّه، لكن لا بدّ من رؤيتها.

لقد سحقتنا الحانات الجديدة في هذه المدينة. وجوه لا توحي لك إلاّ بالمشاكسة والغباء. أصحابها أفظع من زبائنها. يا حسرة على مدام ترودي، والصرصار، والپاراد. لم يكن أحد يتسوّل فيه كأسه. كان مثل «الشجرة التي تغطي كل الغابة». كان المركز، أما اليوم فحانات ممسوخة وأربابها أمسخ منها.

ساعة الرغبة تقترب. قد توحدنا، لكنها ما أكثر ما تبعدنا حين نريد أن نلتقي أو نتماسك، على الأقل. أحسني، أحياناً، مثل ثور المصارعة الذي يخرج من نفق الظلام إلى النور لينطح الهواء، ويشحذ أماميته وخطمه في الرمل مبدأً صدمته قبل أن يبدأ صراعه مع قدره المحتوم. إنه العيش في زمن الأخطاء. لقد تلوثتُ بليل الشارع. حتى مجانينه اللطفاء تصومعوا. صاروا عقلاء! استطالت لحاهم! ليس بدعة في حياتهم لكنها استسلام. ليل البيت البعيد، هذا ما أشتاقه. ليل الحنين إلى الشارع. ليل الحلم بالأسفار البعيدة.

أن أغترب ولو في ضاحية من المدينة. اتربي واغبري يا طريقي الملساء. كل الأمسيات والصبحيات تنتظرني هناك.

سكنت في ڤال فلوري قريباً من مدرستي. سأكتب عن مزعجات المدينة. سأكون ضدها. ما قد يُنْشي من بهجتها ينعدم في ضجيجها.

زمن طويل لم أرّ فيه الشروق، وطراوة الصباح، ونداوته. سأستيقظ على الأنسام أو العواصف أو الفيضانات. لا يهم. سأكون هناك. أيها الطيف الذي لم يعد طيفاً إلاّ فيما لم أعد أقدر على تخيّله. هيا نحلم قليلاً أكثر، أكثر من ذكريات طفولتنا، سعيدة أو شقية.

أكتب ما أمزقه في يأس. يعجزني جمال التعبير. كيف تأتي الكتابة؟ إني قزم نفسي. إيموزار، إيفران، وبحيرة ضيت عوا، بعيداً عن أثرياء الصدفة. هؤلاء يبعثرون أموالهم عند أقدام اليائسات من النهار. أملهن في احتراف الليل وما يأتي به من خيرات، لكن أخطبوطهن هو المستفيد. هم وهن عزاؤهم في الليل. حسب قوة الليل يكون زواج أو طلاق. أفكارهم مثل ثياب عرقهم. أيتها الأفراح التي لا مكان لها في تلك القلوب الجليدية، تعالي نتدفأ. لنحلم قليلاً، أكثر من الحلم.

حينما يملؤني الليل بين المباح والمحرم أتوزع. لو أنني مثل زهرة لا تتناسل، أو أنني أخلق نفسي من ذاتها، لو أنني أعطي لها مصيرها، لو أنني ألغي كل ماهية، لكن كل عاطفة هي عاطفتي. إني سليل العواطف القطيعية. سليل امبراطورية الحواس. سليل النملية والسمكية. تَفَرَّد تَرَ مصيرك. أهي كل رجولة وليدة طفولتها؟ أهي مرتبطة بها؟ أهي طفولتي في رجولتي؟ طفولتي مجروبة. من يقترب من رجولتي إذن؟ لكأني ولدت بين زهرتين لا أحب إحداهما.

ذهب بعضهن. جاء بعضهن. بمن أتعطر؟ لم تعد تأتي إلاّ من لَوَّثها لُعاب آخِر الليل. أتذكر الأخيرة. كانت مجنونة، لكنها شربت من ينبوع الهدوئية المسحور. على ظهرها ذيل طاووس من الوبر الأشقر. جاءت مع الغروب، وذهبت مع الشروق، وتركت في يدي كومة من النَّوْرِيات ولم تعد. ربما لم أعرف كيف أقبل ساقها الجميلة. ربما كان ينقصنا الكلام السخيف. ربما كان ينقصنا العنف. ربما كان ينقصنا أن نتباعد، أن نتماس ولا نتواجه. ربما ما كان لنا أن نتلاقى أبداً ونتعارف.

ما أذكره هو أنها كانت مثل طفلة مدللة: لذتها هي أن تطعمها في فمها أو تخبط الأشياء في وجهك. كنت أفتقد هذا التدليل. لقد عشت مع برابرة الليل في الدروب الضيقة، والحظائر المُغْثية، والخمارات المُريبة. إن زهرتي الأثيرة تذبل قبل لمسها أو شمها. الأسرار المقدسة لم تعد ترعبني: شهواتي هي في السرّ الذي أعيشه. إنها، ربما، جريمة لا يعاقبني عليها أحد. لا أستطيع إفناء شهواتي في جسدي. الموعود رهان زائف. لن أنتظر من يجازيني. الأرزّ: الاعتدال، الخبز، الصبر، الحب، الملح، لكن جنون الطبيعة لا المعبد.

صرت أحب، في حيّ فال فلوري، ليل بيتي لا ليل الخمارات، صباح الجبل والبحر لا صباح الشوارع اللاهثة، والمقاهي التي تنتظر أول المستهلكين. إن الصدأ يرعبني.

لا ينقص هذا الليل المشجر، المعشوشب، إلاّ ذئاب البراري في تناديها.

عرفت هاينريش هايني قبل أن أعرف رامبو، فرلين، فرفال، بودلير، شيللي، كيتس وبيرون. عرفت «أنا أحب، إذن فأنا أحيا»، عند هايني، قبل أن أعرف «أنا أفكر، إذن فأنا موجود»، عند ديكارت. ثم جاء سارتر فأيقظ فيّ مفهوماً آخر: «أنا ما هو أنا، وليس أنا ما هو أنا».

لي دائماً موعد صارم مع التمزيق. اعترافات روسو علمتني العزاء في ملك الأشياء الصغيرة التي يهملها الآخرون. لكن انحلال الروح، في الجسد، كان مَسِّي المرضي، الغَلاَّب.

طهرت بالنار آخر ما كتبت في فال فلوري وعدت إلى غرفتي على سطح فندق لابلاتا لأغوص في تلوث المدينة. بدأت أبيع كل يوم مجموعة من الكتب بأي ثمن وأسكر. أخذت لنفسي إجازة مرض. لم يبق عندي سوى «أوراق جديدة» لروساليا دي كاسترو، وديوان المعتمد بن عباد.

ذات ليلة أعلنت إفلاسي، الجسدي والمعنوي. كنت في مقهى براسوري دوفرانس. لست أدري لماذا كنت أصرخ لاعناً الفراعنة. هددت الحاني بكسر واجهة الزجاجات إذا هو لم يناد على رجال المطافئ، لكنهم جاءوا. شربت آخر كأس قبل أن أصحبهم. سمعت الحاني يقول للنادل:

ـ مسكين، لقد جننته الكتب.

ـ رأيته ذات ليلة نائماً فوق عتبة قبالة حانة مونوكل متوسداً كتبه. الله يكون في عونه.

المنسيون

في الحجرة خمسة أسرّة. في الليل، من بعيد، نباح ونقيق. أقرأ حياة فان خوخ. بدأ بالحلم وانتهى باليأس. في الجنون لا أرض غير السماء الوهمية نتعلم فيها كيف نطير بأجنحة مقصوصة. الهدوء شامل. فجأة بدأ اللغط يعلو ويقترب من حجرتنا. هزة أرضية. هكذا قالوا: لم أشعر بشيء. ربما غفوت حينما حدثت. دخل مرضى، من الحجرات الأخرى إلى حجرتنا. استيقظ رفاق حجرتنا تباعاً. كل حديث عن الله، والدين، والكوارث الطبيعية يتزعمه يوسف حجرتنا في التفسير والتأويل. يحفظ القرآن والحديث. هو أيضاً يقولون عنه إن القراءات السبع هي التي خبّلته. قال:

ـ «يخشى الله من عباده العلماء». الموت هو الحق الأكبر.

قال منصور.

ـ يوم فوق الأرض خير من ألف يوم تحت الأرض. ألف عام من الحياة حتى يلعنها الإنسان.

قال عمر:

ـ كفانا من أخبار الأولين والترهان. هاتوا الخبز، والماء، والسجائر.

لا أحد أعطاه شيئاً فلعن يقظتنا وغَطَّى وجهه بالبطانية. قال يوسف:

ـ الناس عصاة مثل آبائهم وأجدادهم. الألم هو العدالة المنصفة. ليس أسعد الناس أقربهم إلى الله، وليس أشقاهم أبعدهم عن الله.

كان شاب لا يكف عن الصراخ:

ـ اقطعوا يديّ، ها هما، اقطعوهما.

قال يوسف:

ـ الزمن هو الهلاك. زوروا الأحياء بنفس الزهور التي تزورون بها الأموات. إن زهور الأفراح هي نفسها زهور الأحزان. لقد صارت قلوب الناس مثل الفراشات حول الزهرة الذابلة.

عندما نخرج إلى الساحة المعشوشبة يغني لنا أبراهام أغنيته:

في الأرض وفي السماء يحيا الحب
في الوطن وفي المنفى يحيا الحب
في السجون وفي المعابد يحيا الحب
في الأكواخ وفي القصور يحيا الحب
في الحواري وفي المقابر يحيا الحب
في البيوت وفي المستشفيات يحيا الحب
في السلم وفي الحرب يحيا الحب

كان منصور جالساً إلى جانبي يشم نبتة بجمال طفولي:

ـ ليس سهلاً أن يجنّ الإنسان، وصعب أن يعقل حتى لا يجنّ.

قال يوسف:

ـ في عقول الناس أثقال، وأجسادهم حميرها. لقد رأيت حمالاً يثقل عربة حماره بكيس تلو الكيس حتى انهارت العربة وانهار الحمار. كان يريد أن يقتصد في العودة إلى الشحن. خطوة، إنها خطوة، لكن

من يستطيع أن يخطوها. إن كل إنسان يتخيّل أمامه هاوية وهمية. نسقط قبل أن نخطو. ما أطول الأشجار! ما أقصر الإنسان! إن سرّ العمر في سرّ النموّ.

عدنا إلى حجرتنا بعد أن أخذنا حصتنا من الشمس، ومن الهواء النقيّ، ومن النظر إلى السماء.

دخل أبراهام. لا ينشرح إلاّ إذا أعطاه أحدنا شيئاً يأكله. أعطيته كسرة خبز، وزيتوناً. إنه لا يشبع. أنا أيضاً أستلذ هذه الفاكهة المقدسة. أبراهام يبلع أكثر مما يمضغ. لا يكاد يمضغ. إنه طويل، بدين، في الليل يتناوبون عليه. لا يشكو إلاّ إذا اغتصبه أحد بالضرب. يتقاحبون معه عندما يأتون بكلبة المستشفى الصغيرة ويجعلونها تمصّ له أسفله المطلي بشيء من الأدام. سأله منصور:

ـ ما اسم حبيبتك يا ابراهام؟

كثيراً ما يتحدث عنها دون أن يسأله أحد.

ـ استر.

ـ كيف كانت عيناها؟

ـ من أجمل العيون.

ـ أما زالتا جميلتين؟

ـ نعم.

ـ تكذب يا ابراهام. إن الزمن يعمي. أما زلت تحبها؟؟

ـ نعم.

ـ تكذب يا ابراهام. الحب أيضاً يموت. إنها مع رجل آخر أو هي ماتت.

قال يوسف ملاطفاً لحيته:

ـ الإنسان وحيداً قديس، ومع امرأة شيطان. من يحصي أيامه كمن

يحصي نبضات قلبه، ومن يتحسر على زمن جماله كمن يقود سيارة ملتفتاً إلى الخلف. إن أجمل ما في العالم يتدمر ويتلاشى. هذه هي الحقيقة التي سمعتها من أبكم. يا حكيم الشفاء لماذا أنت مصاب بالبرص...؟ يا طبيب العيون. لماذا أنت أعمش...؟.

بين جناح وجناح هناك طيران.

نقلوني إلى جناح آخر خاص بالموظفين وذوي الامتياز الاجتماعي بعدما فرغت حجرة فيه.

بعض المرضى يتسللون من القاعات الجماعية إلى هذا الجناح الهادئ. بدأت بعض حاجياتي تختفي عندما أكون غائباً. كل ما يؤكل ويُشرب ويُدخَّن يختفي، كله أو بعضه. حتى زجاجة المرتيني اختفت من حقيبتي. كان يُسمح لي بالخروج من المستشفى فأذهب إلى المدينة لشراء ما أحتاجه. الكتب، والمجلات، والصحف لا يمسها أحد. ذات مرة فاجأت مريضاً يلتهم طعامي الخاص الذي يُجلب لي من خارج المستشفى فقال لي:

ـ تعال كل معي، إنه لذيذ.

شكرته وتركته يتم وجبته الشهية: دجاج بلدي بالبصل والزبيب. تركته يأكل حتى العُقْبة: موزة وبرتقالة، وبعدها طلب سيجارة.

الدمناتي أقوى مريض في المستشفى. هو هنا منذ أكثر من عشر سنوات كان يعمل في سيرك ألماني حاملاً في عرضه البهلواني ستة أشخاص فوق جسمه، لكنه ليس الأقدم هنا في المستشفى. إن شامة أقدم منه: خمس عشرة سنة. حبلتْ في المستشفى ثلاث مرات. لا أحد يعرف مع من. عندما تزورها أختها تقابلها باللعنات باصقة عليها، رافضة الكلام معها.

أُعيد المزميزي، هذا الصباح، إلى المستشفى معصوب الرأس،

وفي وجهه جروح. إنه يدخل ويخرج متى شاء. أكثر من خمس سنوات وهو يستشفي. ليس عنيفاً أو عدوانياً مع الناس. جنونه العنيف تثيره الأشياء المنكسرة، أما الحيوانات فهي عزيزته. هو الذي يُعنى بكلبة المستشفى، بغسلها وإطعامها، تلطيفها وإلعابها. عندما يقضي أياماً في المدينة ويملّ منها ينطح إحدى الواجهات الزجاجية الفاخرة. وحينما يبلغ منتهى هياجه ويأسه يمضغ قطع الزجاج، وشفرات الحلاقة، وسيموت إثر بلعه قطعة من الزجاج. في هذه الحالة يكون قد شرب الخمر، ودخن الكيف، وتناول المسكنات. في تصرفاته يعكس جميع حالات عالمه على الآخرين.

إنه لا يعيش مأساته وحده كمعظم المرضى الذين صنعوا لأنفسهم عالمهم الخاص الذي يتألمون فيه وحدهم. ما أشدّ قسوتهم على أنفسهم! المزميري يعتبر المستشفى مسكنه الحقيقي. لا يزوره أحد. له من الرفقاء هنا أكثر مما له في الخارج. هناك مريض حمال، في محطة القطار، لا يدخل المستشفى إلاّ في الشتاء، لأنه يكون في شبه بطالة. هو أيضاً لا أحد يزوره.

من أجل وضع حد لما يختفي من أشيائي جعلت الدمناتي حارساً على حجرتي. يجلس قدام الباب متصفحاً مجلاتي، وصحفي، مدخناً سجائره التي يلفها بنفسه. أشتري له علبة كل يومين أو ثلاثة وأعطي له بعضاً من طعامي. أحياناً يأخذ كتاباً ويتظاهر أنه يقرأه صفحة صفحة، متمتماً، رغم أنه لا يعرف حرفاً واحداً. طلب مني يوماً أن أقرأ له جهراً. وبعد فقرات أوقفني:

ـ أنا أيضاً كنت أقرأ هكذا عندما كنت في المسيد (الكُتّاب).

عندما تعوده أمه البائسة مرة كل أسبوع أو أسبوعين يحتفل بعيد ميلاده معها. يجلس على ركبتيها كأنه طفلها الصغير ويغمر جبينها، ورأسها، ويديها باللثمات. يعود إلى مقعده لحظة أو لحظات ثم يعيد

الكرة. إذا مرّ أحد المرضى الجدد وأطال النظر إليهما يكون عقابه لكمة قوية على وجهه. غالباً ما تُسْقِطه، اللكمة المتعطشة، في الإغماء. المرضى القدماء يحذرون من هذه الغيرة المجنونة. يكون عقاب الدمناتي يوماً أو يومين حبساً منفرداً في جناح الخطرين. منذ دخلت المستشفى أنقذته مرتين: عشرة دراهم في كل حبس لرئيس الممرضين.

حتى نوع من الدعارة ممكن مع بعض المريضات، بالدراهم أو بما تحتاجه من لا يكاد يعودها أحد. لا يخلو المستشفى من عاهرة محترفة أو أكثر. في ليلة جُنَّ الدمناتي بحراسة المراحيض. أول مرة يفعلها يمنع المرضى من دخولها بلكماته القوية. الحارس وممرض الدوام الليليان كانا غائبين في داخل المستشفى أو خارجه: نائمان أو يلعبان الورق. في الصباح تقيأ كل من لم يقو على شم الرائحة الكريهة في الثياب، وفي الأفرشة، وجنبات المستشفى. هذه المرة تلقى الدمناتي شحنة من الصدمات الكهربائية لتسكين هياجه، وحبساً منفرداً ليومين، في اليوم الثالث خلّصته منه، كالعادة، بعشرة دراهم. إن هذا النزوان العصابي لا يحدث له إلا على فترات متباعدة.

نزعت من مجلة البلاي بوي صور الفتيات العاريات وزيّنت بها حجرتي. قبالتي شباك صغير يطل على رحبة معشوشبة تتنزه فيها المريضات في فترات الاستراحة. يثرثرن جماعات أو متفرقات أو منفرادات. يمشطن، يتفالين(1) وإن لم يكن فيهن قمل. إنهن مثل القرود في بعض حركاتهن. عندما يحتدّ النقاش بينهن يتكاشفن عوراتهن. يتقابضن ويتجاذبن الشعر، ويتخامشن ويترافسن. إذا كان العراك بين اثنين فإن الأخريات لا يتدخلن لتفريقهما، لكن إذا لم تأت الحارسة في الوقت المناسب فإن الاشتباك قد ينتقل إلى الأخريات بدافع

---

(1) يفلي بعضهن لبعض.

عدوى الهياج. خلال الأشهر الأربعة التي قضيتها في المستشفى رأيت مراراً مشاهد العنف بينهن من أجل أشياء تافهة: طلب مشط، تزاحم على مكان معين، أو مجرد نظرة متبادلة. «اشعندك كتشوفي فيّ!؟» واحدة منهن تنزوي دائماً وحيدة. تتعرى من كل ثيابها وتمشط شعرها في شرود. تأتي لابسة خجولاً وتطلب مني، من خلال الشباك، سيجارة. أعطيها اثنتين أو ثلاثاً حتى لا تعود. لا أريد أن أحرمها من عريها، وحلمها، وشم زهرتها، التي لا أعرف من أين تأتي بها، إذا عادت.

في الليل يكون للحياة شكل آخر في المستشفى. فئة من المرضى لا تكاد تنام. يحدث للبتول أن تجيء عندي ليلاً منتحبة أو مجنونة بالفرح. تجيء في منامتها الشفافة. قصيرة ومكتنزة قليلاً. شعرها مقصوص. وجهها غلامي. بشرتها قميحة. تعاني من عصاب التعقم. تخشى أن تجنّ. «أنا هنا، لكن ليس هذا مكاني». هكذا تقول بحسرة. تشرب وتدخن بلذة لتسكين توترها. عندي لها دائماً كأس أو كأسين وسجائر. خلعت ذات ليلة ثيابها وقلدت صورة فتاة عارية على الجدار في وضعها المغري.

ـ هل هذه أجمل مني؟

ـ كلا، لكنك لست مثلها، وليست هي مثلك.

أضع لها موسيقى مرقصة تطلبها فترقص مداعبة جسدها الجميل في غنج هوسي. تخلع ثيابها في دلع. تتلوى في السرير مثل صل. تغازل وتغازل جسدها راقصة حتى يتعب منها الرقص فترتمي على الفراش ساكنة. يحدث لها أن تبقى حتى قبيل الصباح أو تغادر دون وداع. وجودها كله متعلق بطفل لا تستطيع أن تلده.

ذات صباح استدعاني الطبيب مونسارّا إلى مكتبه:

ـ إن حالتك المرضية لا تقضي بالبقاء هنا أكثر من اسبوع، وبقيت

تقريباً أربعة أشهر. لقد ارتحت بما فيه الكفاية. ليس عندي هنا فندق. ينبغي أن تعود إلى عملك.

كانت البتول قد رقصت وغنت بصوت عال ليلة أمس. جاء ممرض الدوام والحارس الليليان وأعاداها إلى قاعتها. ممرض الدوام أيضاً يضاجعها. لقد بحثتُ عنها ذات ليلة فوجدته فوقها في مغاسل الثياب. قال:

ـ عندما أنتهي فهي لك.

دسست له في يده عشرة دراهم ونبضه يتباطأ فوقها.

سارة

جاءت سارة من العرائش إلى طنجة بعدما زهد فيها الجنود الإسبانيون وبعدهم المغاربة. أمها يهودية تزوجها إسباني، لكنها لم تتخلَّ عن دينها وإن لم تكن تمارس شعائره. شباب أمها لم يخل أيضاً من طيش وزِنى. فندق أرْكاديا هوكل ثروة سارة. باعت أساورها، وخواتمها، وسلسلتها الذهبية، لتشتري رسمه التجاري. عَوَّضت حِليها بآخر زائف.

يجاورني هينينج سكرام. كلانا يترك بابه مُنْفَرِجاً: أنا أنتظر حظي في امرأة، وهو في رجل. إنها الرغبة المفاجئة التي قد يجود بها، على أحدنا، ليل الممرّ. إنه الليل: ليل طنجة.

هو يقرأ المسرح الكلاسيكي وأنا أفترس أيّ كتاب. ما أكثر ما أعاد عليّ أدواراً كان يمثلها، في الدنمارك منذ أكثر من عشرين سنة! لا أفهم كلمة واحدة، لكنني أنفعل لصوته وتشخيصه. ذات ليلة ركع، في دور، ولم يقم إلاّ دامعاً.

إذا خاب انتظارنا ننضم في غرفتي أو في غرفته. نتقاسم باطية نبيذ. عاطفته جدُّ رهيفة.

في الأيام الصاهدة يحتفل بِعْريه الكامل أمام المرآة. .في عيد ميلاده الخمسين تَهَوَّسَ بين الضحك والبكاء. شرب حتى فقد حذاءه. حملناه مُغَمغِماً مثل طفل: «دعوني، دعوني وحدي يا أولاد الزانيات».

إنه عِيالٌ على خالته. تركت له مَعاشاً شهرياً يستطيع أن يعيش به في طنجة أو في مثيلتها حتى مماته. الموت يرعبه. وجدته يبكي في غرفته لأن جنازة مرت قدام الفندق. (في نهاية عام ستين فاجأه نزيف مخي في مليلة فمات ودفن هناك).

قلت له:

ـ لكي نقهر فكرة الموت لا ينبغي لنا أن نتصور أنفسنا ميتين. إنه مصيرك مع نفسك. لا يخص أحداً ولا تنتظر من يؤاسيك. اعتبر نفسك خالداً ولو في الوهم. لا يقهر الموت إلاّ حب الحياة.

خَفَّ حزنه ولطمني بسخرية:

ـ إنك تعتبرني ساذجاً. هل تعتقد أننا في المسرح؟

أيضاً لا يعرف هينينج كيف يمرض. أقل ألم يجعله يرتجف.

نتغدى ونتعشى خمسة أو ستة من المقيمين الدائمين في المطعم الصغير ـ المطبخ. طباختنا للا الصافية تخدمنا. حين يروق مزاج سارة تخدمنا بنفسها وتشاركنا مائدتنا. أمها لولا (اسمها الحقيقي حسيبة) لا تشاركنا أبداً في شيء. تظل قابعة في حجرتها المظلمة. أحياناً تلعب الورق وحدها. لا يكاد يزورها أحد.

انضاف إلى مائدتنا شخص أراه في مقاهي السوق الداخلي. لا أعرف ماذا يعمل. يختال في مشيته. ربما لِيُوحي لمن يراه أنه شخص مهمّ. إنه صديق عشيقِ سارة الأسود بوتامي: سليل الكوريلات، بجسده الضخم، ووجهه الشبيه بنصف بطيخة حمراء، وجبهته الضيقة مثل زنجانتروبو، وعينيه كَأَنَّهما حَبَّتا عِنَبٍ سوداوان.

لا يقيم، هذا الوافد الجديد، في الفندق. مضت أيام دون أن يعرف كيف ينسجم معنا. ننكت ونضحك وهو متجهم. فكرت: أهو ينتظر مِنّا أن نسليه؟ ذات ليلة انتهينا من العشاء، ونحن نشرب، فأخذنا

نتنافس في النكات. تعالت قهقهاتنا إلى حدّ الدموع فإذا به ينتصب ويخرج غاضباً. طُزْ! ماذا حدث لهذا الكونغورو؟.

في اليوم التالي كان أول من دخل المطعم. وجدته يتصفح مجلة فرنسية وأمامه شيء ملفوف في ورقة جريدة فرنسية. حييته وجلست. حيّاني بهزة من رأسه ثم أطرق من جديد. فكرت: يمثل دور المفكر والمهتم. طز! كدت أنفجر ضاحكاً. للاّ الصافية مضطربة على غير عادتها. باب المطعم يواجه حجرة لولا. تنام هناك سارة معها عندما لا يبيت كوريلاها في الفندق. بانت واستقدمتني بإشارة من يدها. شيء غير عادي يحدث هذه الليلة. أدخلتني إلى الحجرة:

ـ ماذا فعلتم له؟ إنه شرطي سِرّي وصديق بوتامي.

ـ وبعد!.

ـ إن ذلك الشيء الملفوف في ورقة صحيفة هو مسدسه. لقد رأته للاّ الصافية يخرجه ويمسحه.

ـ لا أفهم شيئاً. وبعده، فهل جاء ليهددنا؟

ـ كلا، لكن لا تغضبوه، أرجو أن يكون عشاؤكم هادئاً حتى تعتادوا على حضوره.

ـ أو يعتاد هو على حضورنا.

ـ أرجو أن تفهم ما أقول: لا أريد مشاكل.

سارة هي من النوع الذي يقطر بولاً أمام السلطة.

الحارس العجوز، دون خوان، جالس في رُكن عند مدخل الباب. يعجبني تمرده. ليس لديه ما يربح ولا ما يخسر. أشار بإبهامه إلى الخلف مُدَوّراً سبابته حول صدغه. إنه دائماً ينتقدها، ويخلق نكتة جديدة حولها. قال مرة بسخريته المرحة، وهو يتعشى معنا:

ـ كأنّ الدجاج لا أرجل له. إنه دائماً يطير!.

في صحنه جناح وعنق. أكثر من عشر سنوات وهو يعمل عندها.

حول المائدة: بوزيان، أستاذ الانجليزية، وهينينج سكرام، والشرطي وأنا. دون خوان لا يتعشّى معنا عندما يكون مهموماً. ينتظر حتى يفرغ المطعم. سارة تطل علينا وتختفي، مضطربة، تتنظر ما سيحدث. للاّ الصافية أكثر اضطراباً منها. لم تَرَ أبداً مُسدَّساً عارياً في يد إنسان. «كان يمسحه مثل نظارة». هكذا قالت لي. لفَّنا صمت غامض على غير عادتنا. هينينج لا يعلم شيئاً عن المسدس الملفوف. سارة تصبّ لنا النبيذ في كؤوسنا ثم تعيد الزجاجة إلى المطبخ. طلب لنا هينينج زجاجة أخرى لتبديد صمتنا البارد. هو أيضاً يشك في شيء ما قد يحدث هذه الليلة. واجِم: ربّما يفكر الآن في عشيقه بيأس: تَجافَيا منذ أيام. حبه في حزنه أكثر منه في فرحه. صبّ للشرطي راعش اليد، ثم لنا. تماسَّت كؤوسُنا. خَفَّ اضطراب للاّ الصافية وسارة، التي أطلت علينا في بشاشة مُغْتَصَبَة. لست أدري لماذا يأتيني شَبَهها بالنّعامة! ألأنّ عنقها طويل؟ ووجهها يشبه قَلْباً؟ طلب الشرطيّ زجاجة أخرى قبل أن تنتهي الحاضرة. يريد أن يتلطف. سحب، في خلسة، ملفوفه ووضعه في جيب كبوطه.

بوزيان خلق لنفسه أيضاً قصة حب مع تلميذة، غداً دوره في الدّعوة. لم يتكلم معها أبداً. حبّ النظرة من بعيد. مرتان في الأسبوع، يبدأ درسه في العاشرة. يسافر، في هذين اليومين، إلى تطوان، في السادسة صباحاً، ليعود بعد ثلاث ساعات. يتناول فطوره في مقهى أفينيدا دي اسبانيا، الذي تَمرّ أمامه معشوقته بلذة يراها ولا تراه. إذا عاد فاتراً وشارداً ندرك أنها لم تمرّ. في هذين اليومين، مرت أو لم تمرّ، يستضيفنا إلى زجاجة أو اثنتين، أثناء العشاء. لا يشرب إلاّ في المناسبات. لا يعرف كيف يشرب وحده: شرب الخمر حالة اجتماعية كما يقول.

حوالي الواحدة بعد الزوال كان هناك سُلَّم، ورجال السلطة، والمطافئ، وجمهرة متهامسة. لقد كسروا النافذة لفتح الباب من الداخل. وجه سارّة شاحب وراعش. الهلع شوّه ملامحها. إنه استغراب تام من الجميع، الذين عرفوها هنا، أن تنتحر شاستين. لقد ودعتنا جدّ مسرورة. تعشت معنا جيداً وشربت حتى احمرَّ خداها. أذكر بسمتها الأخيرة وهي صاعدة الدرج إلى غرفتها، أيام وكُلّ طعامها خبز مغموس في النبيذ. تقضي مُعظم أوقاتها تقرأ. تأخرت الحوالة التي تستلمها شهرياً. أعياها، هذه المرة، انتظار مساعدة والديها لها. دَعَوْتُها للعشاء معنا عندما علمت بضائقتها. لا أعتقد أنها انتحرت بسبب الخصاص وحده. لا بدّ أن هناك تَراكُماً من الانحطامات. ربما كان هناك شقاء أعمق، لكن ابتلاع أنبوب من المُسَكِّنات بكامله كان أَقوَى. ربّما فرحها معنا، غير المنتظر، قد ساهم، أيضاً، في انهيارها!.

بعد نقل الجثة وانصراف السلطة غزت سارة نوبة من البكاء حادة. شاركتها في شرب الكونياك لتخفيف انفعالها. تحدّثنا عن المقدور، ومصائر الناس، ناسياً عملي المدرسي. سكرنا وضحكنا. لا أذكر كيف صعدت إلى غرفتي لأنام بكامل ثيابي. أيقظني دقّ متواصل على الباب للعشاء. المطعم كان خالياً من المرح الذي نخلقه في معظم الليالي.

في عطلة مارس المدرسية تضاعف همُّ بوزيان. كان يذهب إلى تطوان في نفس اليومين المعتادين، ويتناول فطوره في نفس المقهى، ويعود في نفس الساعة المعتادة. تلميذته غائبة، لكن نظرته حاضرة. أخذته إلى دار برغوثة. كان عندها ثلاث. تركته يختار. دخلت أنا مع فتاة حولاء استعدت معها بعضاً من ذكرياتي عن أحياء تطوان. سألته في حانة دينز بار عن التي دخل معها. «إنها لطيفة، لكني لم أضاجعها؛ لأن قصة احترافها أحزَنَتْني. تَعولُ أمها، وطفلتها في عامها الأول».

أنا أيضاً أكره هذا النوع من العاهرات اللاتي يقحمن همومهن في الفراش. إنهن العجز بعينه.

بوتامي ليس عشيق سارة الوحيد، لكنه هو الدائم منذ سنوات، إن شبقها يستقدم نيّاكين شُبَّاناً من المدينة وغيرها. بعضهم لفقره وكبته، وبعضهم افتتاناً بالأجنبيات، ولو كن هَرِمِات مثل سارّة. هذا اليوم جاءها شابها الأثير من شفشاون. أقل من ابنها كارلوس، في ثلاثينه. من عادة بوتامي أن يسهر معها يوم السبت، وقد يستمرّ سهرهما حتى آخر ليلة الأحد، وبقية الأيام لزوجته وبناته الثلاث، لكن اليوم هو الاثنين. ربما دلّه أحد على هذا المنافس، الساذج، فجاء لِيشمّ مُنافَسَته له. سارة في أزهى زينتها، وأعْبَق عِطرها. الشاب يتعشىّ معنا. إنه أقرب إلى الالتهام، والشره، منه إلى الشهية. لا يشرب ولا يدخن. ولكي تَعْلُفَهُ جيداً وتكرمه أمامنا يصير عشاؤنا وليمةً أكلاً وشراباً عندما يجيء. لكنها تُعَوِّض ذلك! قيل لي إنها غالباً ما رأوها تشتري لحم الحمار أو الحصان. قد يكون هذا صحيحاً، لأن شريحة اللحم تكون، أحياناً، مَطَّاطيَّة. لا يهمني أن أصدِّق. إقامتُنا الكاملة عندها من أرخص الأثمان في السوق الداخلي. صعد بوتامي مع سارّة إلى إحدى الغرف الشاغرة. سمعنا لَغطاً وشتائم. مرَّ بوتامي أمام باب المطعم غاضباً، مُلقياً نظرة احتقار على الشاب. دخلت سارّة حجرة أمها. بانت بنظارة قاتمة تُخفي كَدمَتها الطرية. إنها عنيدة، حازمة ومجدولة، لا تُنهزم. كأنّ شيئاً لم يَحدث. إنها سيدة حريتها ورغباتها. هي هنا. يختصم من يختصم، ويذهب من يذهب، وهي هنا سيدة نفسها، يغضبون ويذهبون، لكنهم جميعاً يعودون. إنها سيدة السَّخاء، والمِراح، والنِّكاح.

وفي السماء طيور دون أرجل

الظهيرة، في الصيف، تخنقني مَلَلاً. لا ينقذني منها إلاّ البحر، لكني تكاسلت عنه وفقدت لذَّة السباحة منذ سنوات. لست هذه هي المتعة التي أبعدني عنها الشراب كل يوم: القراءة الجادة، الكتابة، وكتابة الرسائل إلى الأصدقاء، والتأمل، والحلم.. حتى غفوة القيلولة عزفت عنها. ربما لأني أستيقظ منها خاملاً في مثل هذا القيظ الخانق. عندي الآن خيارات: أن أذهب عند شارل لوشوفاليي، أو باتريسيا، أو بينيتو جرّا، الذي عاد من المكسيك، أو أنزل إلى إحدى حانات الشاطئ، لكن ثرثرة السكارى هناك، وتعتعتهم ستضاعف هذه الحرارة. عند بينيتو الذي لم أره بعد.

استقبلني حافي القدمين مضخماً ترحيبه كعادته. لا ينتظر من يبهجه حتى في أكثر الأيام عوزاً في انتظار الحوالة التي تبعثها له أمه الثرية. تعانقنا بحرارة. أمسكني من كتفي:

ـ لم تشيخك الخمرة بعد. ما زالت في عَوْنِك.

ـ وأنت أيضاً لم يَهزُمك المسحوق الأبيض حتى الآن[1].

جبته فضفاضة، مفتوحة الصدر. لم يسكن، هذه المرة، في منزل

---

(1) الكوكايين.

كبير: غرفة واحدة، في حومة بنشوقي، تطل على الشاطئ، وجزء من الميناء، وهضبة الشَرْف، ومحطة القطار. بضعة كتب، وأوراق مبعثرة فوق الطيفور (الطبلية). اخرج بيرتين باردتين من جفنة مغطاة بقطعة من الخيش.

ـ هذه برّادتي (ثلاجتي).

رائحة الهاش قوية. صحته جيدة. هكذا هو دائماً كلما جاء، لكنه سَيَبْشر، كعادته، إذا هو عاد لِيَشُمَّ المسحوق الأبيض، ويدخن الحشيش، ويتناول المعجون ويشرب.

ـ وڤالري؟

ـ تكاتبت معها عندما كنت في لاس فيغاس. تزوجت ولها طفلتان. تعيش مع زوجها في ساحل العاج. لا أظن أنها كانت تطمح إلى أكثر من هذا. لقد تهرأت في الحب الهارب منها بما فيه الكفاية.

ـ باتريسيا أيضاً لها طفلة من جيوفاني، لكنها لم تعد تعيش معه وإن كانا يلتقيان.

ـ أعرف هذا. لقد أفطرنا معاً، هذا الصباح، في مقهى سنترال.

تأملت الأوراق فوق الطيفور.

ـ ماذا تكتب؟

ـ رواية. هذه أول تجربتي مع النثر. أُعاني عسراً كبيراً في كتابة صفحة واحدة كل يوم. ربما كنت في حاجة إلى فتاة مجنونة يلمع فوق جلدها تَوَتُّري. لا تُسْعِفُني الكتابة إلاَّ عندما أَتَخاصم مع نفسي والاخرين. قلما أكتب وأنا أمرح. «كل عقل نشيط صادر عن روح منحطمة» كما تقول ألفونسينا سطورني[1].

ـ وسلمى، أين هي الآن؟

(1) Cada Cerebro Activo Proce De De Un Alma Quebrantada.

ـ لا أدري. لا أعرف من أنكر الآخر في جلدنا القديم. لم أتم عطلتي في لاس فيغاس لأني التقيت هناك فتاة نسخة منها في الملامح والتصرفات. امتصصت منها ثلاث قصائد وهربت قبل أن أكرهها وأمزقها.

التقط أوراقاً من فوق الطبلية ومدّها لي.

النرجسيون

يروق لي أن أتأمل عينيك.
تكادان أن تكونا برتقاليتين،
وشعرك المسبل مثل الكاكاو اللامع.
يروق لي أن أتأمل وجهك الوضيء
حين يظهر ويختفي
أغرقيني
حينما أخرج من حلم وأدخل في حلم.
إن شفتيك اللذيذتين تفرضان حواجز
على فمي المحارب.
العراك هو سلاحي الأثير.
وأحب نفسي.
وبعد!
النرجسيون يغرقون أجساماً أخرى،
وأرواحاً، بحنان.
أحبك نحو الأعلى، ونحو الأسفل.
منذ عجلة البدء المبهمة، صار محاصراً

جلدك من العصر الحجري.
يتموج متلألئاً نحو المستقبل، لكن روحي
القوية هي أبعد من الاتجاهات الأربعة.
الميعاد هنا.
أينما يروق لك،
ربما في مغارة الفضاء المحكمة السرّ، الكتيمة.
الميعاد هنا.
ظمآنة هي كيميائي المتوحدة.
الميعاد أينما يروق لك.
ربما تفوزين بلقائي.

علبة الوقيد

اليوم طاردتني النجوم.
رميت لها جلدي... شعري...
عينيّ الرائعتين، البنفسجيتين.
عبثاً
لقد نقلتني معها،
عبرت بي قارة من الثلج.
أفْرَغْتُ نفسي.
أنا كلّي تدحرجت نحو الأرياف:
عظام... نفايات.. جمال...
مرَّ من أخذني معه.
ومن أجل ذلك تشتعل أعوادُ الثقاب،
كما يَحكون.

بخور

يتساقط الثلج.
زرقاء تمطر الغرفة،
ونحن معاً
انسلخ عنّا اللحم.
لم يبق منّا إلاّ العِظام،
إلاّ دخان العضوين صاعداً
في بطءٍ حَلَزوني.
في الخارج، تمطر زرقاء
وفي الداخل، بخوراً تمطر
ونحن شاحبان، خالدان، مُمَزَّقان،
دائماً مُنْصَهِران في أثير النشوة المُتلاشِية.

لوشوفاليي

لا ينبغي لي أن أكون حيث يوجد الصيف. إنه يخنقني وقلّما يُبهجني. لا أكاد أقبض فيه على فكرة حتى أدوخ وتتبخر مثل النَّدى المشحون في هواء الليل. كانت لي فيه، في عزّ شبابي، بعض المزايا والمباهج. من اللطيف أن لي رمل البحر الطري لا رمل الصحراء الجاف، الصافع والمُعمي. لا أتعلق بالأحلام إلاّ عندما يهزمني طموحي، ولا أتذكر همومي إلاّ عندما أجلس لأكتب.

وجدته جالساً حزيناً في رحبة سنترال. بادرني:

ـ أحتاج إليك الآن. ستساعدني في مهمة.

لأول مرة أسمعه يستسعد بأحد هنا. العشية تقترب. نهض في تثاقل وقال:

ـ عندما نشيخ نتمنى أن يبدأ كل شيء من جديد!

أكتب الآن هذه المذكرات على نشيد السعادة في السمفونية التاسعة، والليلية الأولى لشوبان. سأترك للقارئ حرية مزجهما في مخيلته.

غرفة لوشوفاليي حارة مثل فرن. زجاجة نبيذ ورديّ فوق الطاولة. لا يشرب الماء إلاّ عندما ينعدم النبيذ. الماء للجِمال والضفادع، كما يقول ساخراً. ملأ لي كأساً: إنه دافئ، وطعمه حامض، وتفوح منه

رائحة الفلين. أشار إلى حقيبة بالية قرب السرير.

ـ أرجو ألاّ أزعجك إذا أنت حملتها لي إلى الشاطئ.

ـ إلى الشاطئ!.

هل بدأ جنونه؟

ـ لا تستغرب! لكن لن أقول لك شيئاً عمّا فيها حتى تَرى بنفسك.

يُبْطِئُني، في السير، كلما تخطيته. أبداً لم أره متألماً ومُتُعباً كما هو اليوم. إنه دائماً ضدّ «الُ آي إ» يكاد ينهار، لكنه صامد. الحقيبة ليست ثقيلة. تساءلت عمّا يمكن أن يكون فيها أشخاص يودعون مساء طنجة الجميل، آخرون ما زالوا متشبثين برمله الرطب. فتحت الحقيبة السحرية الشوفالية: قصص قصيرة قرأ بعضها عليّ منذ زمن. لم ينشرها قطّ، وركام صور لونها حائل، وأوسمة نالها في الحربين العالميتين. طلب مني أن أشعل فيها النار داخل الحقيبة، نظرت إليه في أسى. سأحترم رغبته، هذا أكيد، لكنني أردت أن أنقذ صورة له كي أحتفظ بها، فامتنع:

ـ أرجو أن تلبي لي رغبتي، لا تناقشني في شيء عنها. سنأخذ أكثر من صورة معاً متى تشاء.

الأوراق الفحمية تتطاير وهو ينظر إلى الأفق الشفقي مُشرباً بلون زهور اللوز. ذكريات أكثر من ستين عاماً تتلاشى دون رحمة أو ندم. وجهه أسيان إلى حدّ البكاء. احمرار وجهه يعكس مقاومة انفعاله الشديد. لأول مرة أرى فيها مثل هذه العدسية. كل قصصه التي كان قد قرأها عليّ أسلوبها ينعدم فيه الخيال الأدبي. إنها مجرد سرد أحداث مأساتية دون جمالية. كل شيء مطبوخ مسبقاً وجاهز. لا شك أنه لا ينمي موهبته الأدبية بمشاعر العزلة، والقراءات التأملية. إنه من هؤلاء الذين يسألون دائماً إن كان ما يسمعونه أو يقرأونه حقيقياً أم لا. لكن تمرده القوي كان على الزيارة الأسبوعية للكنيسة، وحفلات إحياء ذكرى القديسين. لم يعد يستمد بهجة الحياة إلا من الماضي: العصر الجميل

انتهى في نهاية الأربعينات، رغم كوارث الحروب الكبيرة والصغيرة. هذه هي حسرته. وبعد تقاعده من الجيش أخذ يمارس التطبيب بالإيحاء الذاتي. كان مهتماً به منذ شبابه. اعتبرته نوعاً من الشعوذة، لكنني تراجعت عن رأيي عندما رأيته يعالج سارة أمامي. راح يلقنها جملاً ترددها معه، وهو يمرر راحتيه على بطنها، ماسحاً وجعها، حتى أنهضها من فراش الأنين والألم. لقد كان لوشوفاليي طبيبنا في الأوجاع والأحزان فإذا هو اليوم أوجع منا وأحزن. عندما أصبت بفقر الدم وصف لي كفتة الحصان نيئة مع صفار البيض، والثوم، والابزر، والنبيذ. أدركت، من خلال تلميحاته، أنه لا يمكننا أن نعيش بالذكريات الخائنة أو المشكوك فيها. ثم لم يعد له من يورثها له. لقد تنكر لكل قريب له، بعدما قتلوه وهو حيّ.

حوالة معاشه تأخرت أكثر من المعتاد هذه المرة. يزداد انهياراً. ينظر منحنياً أكثر مما ينظر مستقيماً. هذا ليس من عادته. سمعته يتمتم:

ـ في بلاد المواعيد يموت الإنسان جوعاً.

لم أسأله عما يقصد. فكرت وأنا أفارقه: إنه في الخامسة والسبعين. إذا قدر لي أن أعيش عمره تُرَى أية متعة أو حسرة ستكون لي في العيش! إن عبارته هذه استرجعتها كأنها مسّ. ولكي أقوي وأعزّي نفسي صرت أقول: لن أشيخ سيئاً: «عندما نشيخ نتمنى أن يبدأ كل شيء من جديد!» ما قابلت أحداً في مثل عمره إلاّ شكا من الزمن الذي جرده مما يحب، أو من حياته حتى النخاع. لكن لوشوفاليي هو أقلّ مبالاة بسوء حظه. صرت أخشى نهاية حياتي من خلال حياته. ما أصعب ألاّ يقارن الإنسان حياته ببعض الأخرين.

مرت ثلاثة أسابيع على تأخير حوالة معاشه. القطرة الصامتة، القطرة التي تكسر الصمت. صار طعامه مقتصراً على الزبدة، والطماطم، والبصل، والليمون. أشركه معي كل يوم، تقريباً، في

زجاجة نبيذ رحمة به من الماء الذي يعاف شربه. نظم له المركز الثقافي الفرنسي إلقاء محاضرة عن العلاج بالإيحاء الذاتي، لكن حماسه فتر عندما رأى حوالي عشرة أشخاص في القاعة فاختصر الموضوع إلى حديث دام عشرين دقيقة. ما ربحه من هذا اللقاء الخمسمائة درهم التي أعطيت له مكافأة فأنقذته من بؤسه في انتظار وصول حوالة معاشه. في تلك الأمسية كان كريماً معي في مطعم الفندق الذي نسكن فيه معاً: طعام وشراب، أحاديث ونكات حتى طردنا تعب الليل.

في العام الماضي خاب أمله أيضاً عندما طلب، في مقهى زاكورة، من العازفة على البيانو وزوجها الكمنجي أن يصاحباه في أغنية من الثلاثينات. ما إن صاح صوته القوي حتى استوقف كل مارّ أمام المقهى فأوقفه النادل بلطف لأن المكان ليس ملائماً للغناء. إنّ واقع لوشوفاليي قد تخلى عنه لأنه يعيش في عالم غريب عنه. إنه أشبه بمن يتعلق بغصن وتحته هاوية: عبء ثقيل وحزين. وجدني، صباحاً، في مقهى سنترال متلذذاً بكسلي. لقد زايلته كآبته. دعاني إلى صحبته لزيارة صديقه جورج في ضاحية عَوَّامة. ليس لديّ ما أفعله، في هذا اليوم الصاهد. أحسّني فائضاً. اشترى أرنباً دجيناً، ونبيذاً، وعلبة فطر، وخبز شعير. ركبنا الحافلة العمومية. في المحطة النهائية كان علينا أن نمشي حوالي كيلومتر لنصل إلى الغرسة الصغيرة. الطريق لاهبة. حية تعبر في حجم نصف متر، توقف قائلاً وكأنه يخاطبها:

ـ اعبري أنت أولاً. أنت الأسبق في العبور. لا تتحرك أنت.

العرق يتصبب منا. جورج يعيش من تربية النحل. لا يكاد يزوره إلاّ لوشوفاليي وأنا عندما أصحبه. في بعض المرات أشتري منه عسلاً. تهلل بالفرح وهو يستقبلنا. الكوخ القصديري، الرحب، بناه بنفسه. حرارته في الصيف خانقة، وفي الشتاء برودته مجمّدة. كل ثروته الحيوانية بقرة ودجاج. حياته زاهدة. لا يملك من الأثاث إلاّ فراشاً،

ومائدة، وكراسيها، وراديو صغيراً. راقني أن أتمشى في ظلال أشجار البرتقال، والأرنج، والإجاص. بعض الإجاصات أسقطها نضجها البالغ. بعضها نقبته الحشرات. أكلت اثنتين مستلقياً تحت شجرتها. لوشوفاليي وجورج يطبخان الأرنب. لقد تعمدت أن أتركهما وحدهما. بينهما أشياء مشتركة عن بلدهما. لوشوفاليي ملحد وجورج متدين لكنهما يتفاهمان. لم أسمعهما أبداً يتجادلان في الدين. غرس جورج صلباناً خشبية في الحقل، وقرب البئر، وفوق باب الكوخ صليب خشبي داكن اللون مثل فزّاعة. لا مكان للشيطان هنا. فكرت: بماذا يبهج حياته في هذه العزلة شبه المطلقة؟ حتى الكتب ليس عنده منها سوى بضعة مجلدات كالحة اللون. لا أثر للمجلات أو الصحف. ربما يغذي نفسه بالتأمل مثل الروحيين والقديسين. إنهم هم أنفسهم مواضيع للتأليف. عصافير تطير بين الأشجار. طائر أسود استوى على غصن. بدأ يرعش. ربما هو طائر الزيتون (الزرزور). فكرت في ملاعب حي عين الخباز، وبساتين كيتان، وحقول سيريمين في وهران. إن الإنسان هو كيف ينتهي وليس كيف يبدأ. هذا أيضاً أحد تعابير لوشوفاليي. إذا أزمنتُ فلست أدري أية شيخوخة تنتظرني. أكيد أنني لن أحرق حقيبة ذكرياتي على الشاطئ. إنني لم أسمح، حتى الآن، لأية عاطفة أن تخونني. لقد عشت دائماً في حالة طوارئ. ما أحببت إلا ما كان هارباً. إن الحب، مثلاً، لا يسحرني إلاّ إذا كان أسطورياً: أتحدث عنه دون أن ألمسه أو أعانقه. وأكثر الفتيات اللواتي سحرنني هن الهرمافروديات. ربما نزعة لواط دفينة ما زالت متحفزة في أعماقي. إن الغلاميات أكثر إيجابية وجاذبية من الأنثويات (المارلينيات والشاديات). إن سلبية أمثال الأخيرات لا توحي ميوعتهن إلاّ باغتصابهن.

لقد بحثت عن لعبة الحياة ورمزها لا عن حقيقتها: عن الغامض واللغز، لا الواضح والبسيط، عن المجهول لا المعلوم، عن السراب لا

الماء. سقطت قربي إجاصة جدّ ناضجة. تمرغت منقلباً وأخذتها. أكلتها مفكراً في اسحاق نيوتن، وهنري ثورو، وروبرت فروست. فكرت أيضاً في اليهودي الذي ألقى بنفسه من الطابق السادس فسقط على عامل مغربي، في تطوان، حيث أدخل له عنقه ورأسه في صدره. خارت البقرة وهي تَروثُ والحسون يغني. لقد نقلتني ظلال هذه الشجرة إلى ظلال طفولتي الوارفة: عين القطيوط، عين الحَيَّاني، وعين الخباز، شربت من عيون هذه الأحياء ماء البؤس العكر ـ الزلال.

لم يسبق لي أبداً أن استلقيت مثل هذا الاستلقاء المشرق، المشجر. من قبل كنت أجري تحت الأشجار ولا أتوقف تحت واحدة إلاّ لأقطف ثمرها، أما الآن فأنا أستظلّ وآكل من نضجها. إن الزمن لم يعد يوزعني. صرت أحبسه أينما أشاء. إنني مدين الآن لصديقي لوشوفاليي. لولاه ما كنت أنتشي بهذا الموج من الذكريات التي تغمرني في منتهى نعومتها، ولينها، وعمقها. تعبي يسيل مني في هذا الاسترخاء الشامل والبهيج الذي يُسلمني إلى غفوة لذيذة. جاءني جورج بقدح من الفخار مملوء بالنبيذ. إنه عتيق في كل شيء هذا الجورج اللطيف، الناعم في صوته وحركاته. بدأت أشفّ مع كل رشفة من القدح والسيجارة. أشرقت مراحل حياتي القديمة منها والحديثة، الخبيثة والطيبة، المؤلمة والمفرحة: إنها ومضة متشابكة مثل أغصان شجرة الإجاص هذه. بدأ نسيم يهب محملاً بالابتراد المنعش. ناداني لوشوفاليي للأكل. يحب الأرانب المطبوخة بالخمر والفطر. أستلذ دائماً طبخه. إنه أصيل في بدواته.

باتريسيا

جارتي لا أبالي بها لأنها تافهة. لا جنس دون طقوس. أكتب هذه المذكرات في حانة جديدة ممسوخة. إنها من الحانات الجديدة التي أُقحِمت على المدينة. هل جاء ليل وداعك لليل طنجة؟

ـ أبداً لا. إن ليل طنجة هو ليلي. لا يودعهما من عاش فيها حتى تأذن له سُرَّتُها. كم عدت إليها مهما كان تناسلها وما أكثر ما سافرت وعدت من نصف طريقي إليها! الحقيقة هي المستقبل. لا أحد شاهد على ما يقول. إني وحيد ليلي. لا أحد يغزو وحدتي.

ـ پوركوجودا! پوركوجدا!.

أناستاسيا تبكي. من تَسُبّ؟ من يمكن لها أن تسبه هكذا في حضوره؟ الصهد خانق. أناستاسيا عارية حتى النطاق. ما أجمل عري الطفولة! أفكر في باقة ورد حمراء محروسة بزهور بيضاء مُشربة بحمرة لم تفترّ بعد لُسَيْناتُها. كم تُفرحنا وتُشقينا الطفولة! لا تدوم إلاّ في أحلامنا. ماذا يأتي بعدها سوى أن نمارس جنون الليل! باتريسيا جالسة على الحصير. جُبّتها الفضفاضة مراكشية. تُفتت سيجارة شقراء لتصنع صاروخها كما تسميه. أهو إفناء أم إثبات أم تحَمُّل أم نشوة ما تصنعه؟ ربما احتجاج! ربما إحباط! ربما لا شيء! ملء فراغ! نزوة! بالليالي الطويلة في ملذاتها وكِيتْ جاريتْ يعزف. أمطار توحي لك بالطوفان ولا

تغرقك. لا أحب تقليد نفسي. لقد ولدت باتريسيا لتبهج الآخرين، لكن كم سألتها! من هؤلاء الآخرون؟ تنظر إليّ ولا تُجيب. تبتسم! تصنع صاروخها خافرة عينيها. جمال كل النساء يجتمع فيها. سكينتها تجعل من كاره النساء محباً، ومن العِنّين فَحلاً. بسذاجة تقول: الآخرون أيضاً يوجدون. أزداد حباً لنفسي أمامها. رقص، رقص لكي يجمل العالم. رغم أن باتريسيا شاعرة فاشلة فإنها توحي بأجمل الشعر لمن يعشق حضورها. الفنانون لا يموتون أبداً في الاسطبل.

تهلل وجه باتريسيا، كفّت أناستاسيا عن البكاء وجاءت عندي حابية.

ـ جئت في الوقت المناسب. أناستاسيا في حاجة الآن إلى من يحملها. أخذتها بين ذراعي. أن تغامر بحياتك هي الحياة نفسها. إن السفر في الطائرة ظل حلمي منذ سمعت هديرها لأول مرة.

أكثر أحلامي تذكراً هي طيراني. غالباً ما يكون طيراني فوق الأحراج وينتهي بالنزول أمام مدخل كهف أتخيلني الوحيد الذي يعرفه. أتلذذ فيه بعزلتي بعيداً عن الروائح البشرية التي سئمت منها وسئمت مني.

نَغْنَغَت أناستاسيا. لا صبر لأمها على تربية الأطفال لكنها تحبهم.

ـ أكنتِ تَسُبينها؟

ـ أوه كلا. ماذا تقول! لم أكن أسبُّ أحداً. إنها عادة أخفف بها عن نفسي. ربما كنت أسبّني دون أن أشعر. لا أدري!.

أول عومة لي في هذا العالم. كان البحر يختزن حرارة موسم الصيف كله. هناك ناس لا يصحون إلا ليمارسوا بلادتهم، وآخرون يولدون بلداء، ويعيشون بلداء، ويموتون بلداء، ويزعجون الآخرين.

افترقنا حَرَجاً؟ فَضيحة؟ جاء مَنْ يُثْبِتُ ما كُنَّاه! إن براين جيسن

يُؤَسْطِرُ الناس، وكثيراً من الأشياء حتى لا نعرف أهو جاد أم مازح!.

سيتشيث! آه من شَفَقِها، وليل أزِقَّتِها البيضاء! هناك رأيت العاشقين المتعاتبين يقرأون الرسائل المؤجلة، غير المرسلة بعد. ماذا يبقى لنا سوى شفق يذكرنا بأشفاق بعيدة أو قريبة!.

مصت باتريسيا صاروخها وسألتني:

ـ كيف تركت الشارع؟

ـ مثل كل عام: شعارات جاهزة، مراقبة قبل أن ينادوا بها. هذه السنة يحتجون بحدة على تكاثر العمارات. من يبنيها؟ في كلِ عام يسمحون لمثل هذا العيد العمالي أن يمرّ في سلام. آه من اللُّماظة السياسية!.

ـ شكري! إنهم على حق. طنجة بدأت تتخلى عن أرضها لتبحث عن السماء الوهمية. كلنا عانينا من الغزو والضياع. لنبدأ من جديد كي نستعيد هويتنا. إن من يصطاد فراشة في الغابة قد تصطاده أفعى سامة، ومن يصطاد سمكة قد يفترسه سمك القرش.

أكلنا كان بطيئاً في أعينهم، وأفواههم كانت سريعة في دهشتنا. من رأى ليس مثل من أكل. لا صلة لنا بالعين والفم.

يجتمع في باتريسيا الفرح والحزن، والشكوى والتذمر. لن أناقشها. وقفتُ خارج الغرفة الدخانية لأبعد أناستاسيا عن هواء الحشيش. لقد غفت على كتفي. صحيح أنها كانت في حاجة إلى من يحملها. قال لي لوشوفاليي:

ـ كلما ابتعدت عن أصدقائي صاروا أقرب إليّ. تماسّ ولا تَتواجه أو تلتصق. أغلب الناس يرون حدوداً حتى عندما لا تكون هناك حدود.

أشرت إلى كوخ توماس الروخو:

ـ كان يسكن هناك عجوز إسباني مات منذ شهور. كنت أعرفه.

ـ أتمنى أن يكون قد عرف كيف عاش.

أناستاسيا نامت. مددتها فوق الفراش الواطئ. مدت لي باتريسيا صاروخها. عاطفتها ضبابية، رومانتيكية، لكنها تعرف كيف تتلذذ بإخفائها.

ـ ما هي قصة العجوز؟

ـ كان يكره فرانكو، ويبيع بالونات للأطفال. (كنت أكلمها خارج الغرفة).

ـ أهذا كل شيء عنه؟

ـ وماذا تريدين له أكثر؟

ـ كان يعيش إذن زمن الصمت في المنفى!.

ـ وماذا تريدين له أن يفعل؟

ـ إنك تبالغ دائماً في تمجيد حياة الشيوخ. لم يعد هناك من يَسْتوحي زمن النبوة.

ـ كيف وجدت بينيتو هذه المرة؟

ـ لقد أفطرنا معاً في مقهى سنترال.

ـ قال لي ذلك.

ـ قرأ عليّ قصائده الثلاث الأخيرة. لقد تخلّى عن تلقائيته الشعرية وبدأ يعقلن الأشياء، لكنه لم يبرأ، بعد، من أبيقوريته.

ـ ومن قبل كان يطمح أن يصير صوفياً. إنه مرحلي.

ـ أعرف هذا. قل لي: وصديقك لوشوفاليي؟

ـ ما زال يحيا. تلازمه. هذه الأيام، سوداوية. له أخ في اوستراليا يتراسل معه على فترات متباعدة.

لوشوفاليي يتهم أخاه بول بخيانة زوجته لأنه هجرها ليتبع امرأة أخرى إلى أوستراليا. وفي آخر مراسلة بينهما كشف له أخوه عن أن

كلاهما عاش مخدوعاً. إن زوجتيهما الأختين كانتا تخونانهما مع عشيقين من أيام الصّبا. زوجة شارل لوشوفاليي ماتت، وأولادهما تزوجوا وأنجبوا. أما بول فلا أولاد له. زوجته، اليوم، تجترّ شيخوختها وحدها في لوفان.

رحلت باتريسيا مع آخر الهيبيين في بداية السبعينات ولم تعد قط إلى طنجة. في الصيف الماضي زارني شاب ايطالي. أخبرني أن باتريسيا مصابة بورم مخي خبيث. ابنتها تدرس في الجامعة. كتبت لها كلمات وداع. لا أحد يجيء بعد أن يجيء الأخير.

حصار

هل ينبغي أن أكتب عن الثلج حيث يوجد أو عن السيجارة المشتهاة في الزنزانة؟ قد يكون ما يمكن أن يكون. لنترك فسحة مجال لمن يأمل، رغم أنه لا مجال، وكل مجال.

قاسم وحيد أمه. يعيش معها، لكنه يرفضها وهو لصيق بها. يطيعها، أمّاً، لكنه عاجز عن الاقتناع بتوبتها. يحبها ويكره امرأة أخرى. لحظات هدوء تنتابه معها فتغمره أخْيِلَة: طفولته في إشراق بحيرة سرية، لكنه يعيش ذكرى حصار وهمي: غرام في «ضيت عَوّا». قيدته أخطاء كثيرة لا يعرف كيف ينفك منها. القريب منه بعيد عنه. الخوف يخدر حواسه فيشرد ويغيم ما يحدث له في حزن. لا يعرف كيف يستمد شجاعته من خوفه. إنه حبيس حصاره. كل علاقة تضاعف شقاءه. أصدقاؤه لا يتعدون أصابع يده. ذات ليلة أسكرناه في بيت أحد هؤلاء الأصدقاء. تطوعت فتاة شبه محترفة لتخرجه من حصاره. اكتريناها مخرج ضيق، لكنها محاولة. كاد أن يخنقها لو لم نقتحم غرفتهما. في تلك الليلة خبط أمه بما طالته يداه. إنها البداية التي لن تنتهي معها كلما سكر وتخانق مع امرأة. تعوّد أن يأكل ما هو حلو مع أمه، لكنه يفتقد أية حلاوة مع غيرها من النساء. لا يريد أن يبقى مجرد تذكار في ذاكرة من يشفق عليه، لكنه عاجز عن تخطي أيّ حاجز لفك حصاره. يخشى

أن ينخدش. يصاب بالدوخة عندما يفكر في المغامرة التي ستقوده إلى المجهول فيظل حبيس نفسه. نادراً ما يجلس في مقهى، وإذا جلس فقدام الباب: إنه حصار آخر. يمشي كثيراً ليخفف من توتره. نزهته عبر الشاطئ أو في «الجبل الكبير». يزورني مرة أو مرتين في الأسبوع. لم نكن صديقين حميمين، لكنني أشفق عليه وتجمعنا المهنة. هو يدرّس الفرنسية وأنا العربية. اهتمامه بالأدب الفرنسي يبدأ مع مدام دو سطايل وينتهي مع ملارمي. نستمع معاً إلى الكلاسيكيات. أحبّها إليه لاباتيتيك، شهرزاد، دون جيوفاني وايرويكا. حضوره ليس مزعجاً لمن يحب السكوت. أقرأ أو أكتب وهو شارد مع الموسيقى. عندما يتنهد ينظر إليّ. أتعمد ألاّ أنتبه إليه. ساهياً ينظر إليّ مرات. لا شيء فيّ يثير وساوسه. يستعيد طمأنينته وشروده وأنا قارئ أو كاتب أو متظاهر بالشرود مثله مغمضاً عينيّ. يخجله ماضي أمه. كافحت بجسدها الشاب من أجل مستقبله، لكنه لم يغفر لها ظروفها. هجرت الرجال وصارت منظفة في فندق حينما أصبح هو معلماً. هي الآن في حدود الخمسين، وهو يقترب من الثلاثين. يحمل معه دائماً صورة لها في عزّ شبابها. يعتقد أن كل من هو في عمرها قد يعرف مهنة شبابها: الرجال والنساء. سألته امرأة في الحيّ عنها فهاج:

ـ لماذا تسألين عنها؟ من أين تعرفينها؟ أهي من عائلتك؟.

لم يعد يجرؤ أحد أن يسأله عنها: الرجال أفظع. أخرج صورة أمه ومدّها لي:

ـ هل تعرفها؟.

نظرت إليها وإليه:

ـ لا.

ـ ألم ترها قطّ؟.

ـ أبداً.

أعدتها له:

ـ من هي؟.

قال باضطراب:

ـ أنا نفسي لا أعرفها. لا أدري من وضعها في أحد كتبي.

عبثاً حاول أن يبعد أمه عن طنجة ليعيشا في إحدى المدن الشمالية: أصيلة، العرائش، القصر الكبير، تطوان، الشاون. أينما شاءت، لكن أمه تصرّ على العيش والموت حيث ولدت.

هذا المساء زارني على غير عادة هدوئه. حتى الموسيقى التي يحبها لم أحسّ أنه يتمتع بها. أقلقني معه. تمنيت أني لم أعرفه. حدست أن شيئاً غير عادي سيحدث. كنت أقرأ رواية العطر لباتريك سوسكيند في ترجمتها الاسبانية. أخرج قاسم، بكل هدوء، خنجراً مطوياً تطابقت طقطقاته مع خفقات قلبي وهو يفتحه سنّاً بعد سن. ماذا يريد بي؟ تخويفي لكي يتلذّذ؟ جريمة مجنونة عن يأس؟ لكن لماذا أنا بالذات؟ ليس بيننا أية خصومة. لا أعرف عن أمه أكثر مما سمعته عنها. أنا في نفس عمرها. هذا كل شيء. لم أفهم شيئاً. ليس هناك مبرر لكي يعتدي عليّ.

أسطوانة لاباتيتيك تدور وهو يلامس بهدوء، ومهل، أظافره بشفرة الخنجر. نهضت دون أن ألتفت إليه حاملاً من المطبخ الخشبة التي أقطع عليها اللحم ومقدّة ثم فتحت الثلاجة وأخرجت منها فخذ خروف. وضعت الخشبة فوق الطاولة وبدأت أقدّ الفخذ بالمقدة بنفس الهدوء العصبي، المتلاعب الذي يلامس به حدّ الخنجر أظافره. كلانا كان يمثّل في تحدّ: مزيج من السخرية المرعبة. أبداً لم يسبق لي أن مررت بمثل هذه التجربة المجنونة! صرت مجنوناً مثله. أتمنى أن يحدث شيء عنيف يغيّر حياتي. اشتقت إلى ذلك. أريد أن أختبر نفسي. إما هو وإما أنا. أتوقف لأدخن سيجارتي الموضوعة في شق

المنفضة ثم أعود إلى قدّ الفخذ. ذات لحظة فكرت أن أهوي بالمقدة على رأسه وأقدّه مثل هذا الفخذ وينتهي هذا الاستفزاز المجنون. يتابع حركاتي ساهياً، وبنفس السكينة المتلاعبة، التمثيلية، التي أخرج بها خنجره المسنون طواه وأعاده إلى جيبه. غمست أصبعي في شق اللحم ومصصته بلذة. غادرني في صمت دون أن نتوادع. في منتصف الدرج التفت إليّ وابتسم بعصبية ثم قهقه ونزل. أنا أيضاً قهقهت.

في تلك الليلة صرخت أمه واستغاثت أكثر من العادة. ثيابها ممزقة ووجهها مخموش. تبكي ولا تريد أن تحكي شيئاً واضحاً عما حدث. آخر جارة غادرتها سمعتها تقول:

ـ لن أراه أبداً. لقد خرج من بطني، هذا أكيد، لكنه شيطان.

بعد حوالي سنتين، كنت عائداً من الرباط إلى طنجة. توقفت الحافلة في محطة العرائش. نزلت لأشرب شيئاً. إنه قاسم: حاف، ملتح. وسخ إلى حدّ التقزز. يجمع عقباً من هنا وعقباً من هناك. واحد في فمه مشتعل، في يده اليسرى كتاب ممزق. ألغيت مشروبي وذهبت لأشتري له السجائر. لم أتأخر، لكنه اختفى. بحثت عنه في كل المحطة. سألت عنه خادم المقهى.

ـ إنه ينام في المقبرة النصرانية القديمة. يسمونه الفيلسوف.

سمعت زمارة الحافلة تعلن الاقلاع فركبت.

مايوركا

لم أعرف أن لطيفو لوطي حتى هذا المساء. ربما لم يكن فخّاً مقصوداً! كان صحبة شاب أمرد. نشرب في مقهى روكسي. هنا عرفته منذ شهور. لم أدر كم مضى من الأيام وأنا أشرب بإفراط! ذاكرتي هذيانية، مُشَوَّشة، غائمة، هاترة. اقترح عليّ لطيفو أن نشرب في صومعتي. وافقت بهزّة من رأسي. أكاد أنهار، لكنني أكابد. حدستُ أن شيئاً ما مبهم ينتظرني هذه الليلة. غاب وعاد حاملاً زجاجة نبيذ وزجاجات بيرة. بدأنا، في شقتي، نحتفل بمزج النبيذ بالبيرة. باس لطيفو معشوقه. مازحه. استثنى المعشوق دون أن يبالي بي. نظر إليّ بإغراء. مُستعدّ أن يُشاع. أسرّ لي لطيفو أنه مَشروك بيننا. رفضت. ذهبت إلى المطبخ ووضعت سكيناً في جيبي. فتح لطيفو الباب. كان جون لينون يغني Imagine. قفزت وأمسكته من ذراعه.

ـ ستترك الراديو ـ الكاسيت في مكانه.

الأمرد انسلّ مثل قطّ استشعر الخطر. غَلقتُ الباب. دفعني فتلقتني الثلاجة. أشهرت السكين. أطلق الراديو ـ الكاسيت من يده وجرى نحو الشرفة. أتاحت له مساحتها الكبيرة المراوغة بين الغسيل. تَلقى الطعنة بِجُماع قبضة يده. يبدو أني سددت السكين إلى بطنه. رحت أخبط عشوائياً بجنون. لم أكن أنا. كان الوحش القابع في كل إنسان هو الذي

يطعن. بدأ يعوي. فكرت في الجيران فتوقفت. أتحت له المجال لكي يخرج. ركلته وأغلقت الباب. تمشيت بين الغرفتين والشرفة بجنون مسرحي خابطاً الهواء بالسكين كيما أسكن الوحش الموقظ، الهائج، الجائع والعطشان. رميت السكين من الشرفة إلى الشارع. قد أطعن بها نفسي في مثل هذا الانحطاط العصبي والجسدي. نمت بكامل ثيابي منخرطاً في نوبة من البكاء الهستيري. حلمت برؤوس تُقطع وعروقها تفور ثم تنشف، وببطون تُبْقَر، وعيون تُسْمَل.

في الصباح أفاقني دقّ على الباب. كانت لطخات دم على الجدران. كنت كليّ أرعش وأنا أفتح الباب. إنه عبد المالك، صاحب العمارة. لم يحاورني عما حدث. استسلمت له. غمغمت:

ـ خذني إلى تطوان. مستشفى مايوركا. الدكتور الجعيدي. أعرفه. سأكون مطمئناً عنده.

أفقت حوالي الثانية صباحاً في حجرة مع مريضين. عزلة اشتقت إليها. بعيداً عمن أعرفهم ومن لا أعرفهم. أفٍّ للقرفِ البشري. دخنت سيجارتين. استيقظ النائم عن يساري. أعطيته سيجارة. دخنها بلذة. تحدثنا عن النوم وعدد ساعاته اللازمة للإنسان، لكننا اتفقنا على أن النوم في المستشفيات، وفي السجون، ليس مثل النوم في بيوتنا. الهدوء شامل في المستشفى كله. فجأة ظهرت امرأة تَتَمَشىَّ في الممرّ جيئةً وذهاباً. حدجتنا بنظرة كئيبة. ربما هي تكافح أرقها إذا لم تكن قد تناولت القرص المُنَوِّم. نفسيتي هادئة. امرأة أخرى تستيقظ وتفتح الراديو. قال لي جاري العمراني:

ـ إنهم ذبحوا لها ابنها في فاس بعد أن اغتصبوه. عمره اثنتا عشرة سنة.

في الصباح، توافد على حجرتنا كثير من المرضى، رجالاً ونساء. كانوا يتناوبون في المجيء. إنهم يشمون المريض الجديد. ترك لي عبد

المالك حفنة من النقود. مريضة تغري بجمالها وغنجها. طلبت أعزّ شيء في المستشفى: سيجارة. لم يسعفها الانتحار. ابتلعت كمية من الأقراص المنومة، ومضغت الزجاج. ذكرتني بالمزميزي في مستشفى بني مكادة. أسجل هذه المذكرات في أي وقت. إنها الخامسة صباحاً. عندي امتياز للخروج من المستشفى. لا أخرج إلاّ لشراء حاجياتي. إن الوجوه في الخارج تبدو لي بليدة، مزعجة، أما هنا فهي وجوه أذكاها الشقاء، والقلق الدائم. خبز المستشفى له طعمه الخاص. إن المجانين يفتحون لي أبواب الإلهام لأطلّ على العالم. كلما نظرت إلى مجنون رأيت فيه شعلة الذكاء خابية عمرها عمر البشرية نفسها. هنا يتجلّى منتهى شقاء الإنسان. أسمع صرخات غلام يبكي:

ـ ماما، خذيني إلى مرتيل. مرتيل، مرتيل!.

لأول مرة يكلمني عبد الحكيم. كنا نفطر. قال لي:

ـ من جاءنا فهو أخونا، ومن لم يجئ فهو أخونا الحقيقي. أعطني سيجارة. لقد حلّت في روحي روح المهدي ابن تومرت.

ـ أنت المسعود.

ـ عندي لك طلب.

ـ ما هو يا حكيم؟ (هكذا صرت أناديه).

ـ أريد جلباباً أبيض لأحكم بالعدل. إن هذا الخاتم الذي تراه أعارني إيّاه سليمان الحكيم، وأمرني أن أحكم به.

ـ لكن رجال العدالة اليوم يحكمون بلباس أسود.

ـ هؤلاء لم تصلهم بعد دعوة البياض، أما أنا فقد وصلتني قبلهم. البياض البياض. . . !.

قال نجيب:

أكون وردة أو غصناً يابساً لِيُحرق، إنّما أريد أن أصير حبة رمل. إن حبات الرمل أكثر شبهاً ببعضها من الزهور والأغصان.

دخل حجرتنا أحد المرضى وقال:

ـ إن المطر يسقط علينا مثل الحجر.

أحد المرضى سقط من يده كرتون حليب فانفجر. ركل الكرتون ومضى. قام آخر فاتجه إليه وراح يَرْشِفُه مع الوحل. قال ميلود:

ـ لقد خرجت من بلادي حافياً، ووصلت إلى بلد غريب حافياً، ما جدوى ما في الطريق إذن؟ قابلت حفاة وغرباء مثلي. طريقنا كانت مختلفة، لكن منفانا كان واحداً. إنهم لا يستعملون الحطب. انهم دائماً يقفلون حتى نوافذهم. لكل باب عين في وسطها هي مثل عين سمكة ميتة. من يستطيع أن يدق علي أبوابهم! آه من الغربة في المدن! أملنا إذن في أكواخ الجبال والبراري. هناك يجد دائماً الغريب ملجأ له.

سلّفت لثريا نهاراً درهماً. ومن عادتها أن تستيقظ في تمام الثالثة صباحاً. وسواسها هو أن تنظّف الممرّ والحجرات في جناحنا. لا أحد يستطيع أن يمنعها. توقظني كل ليلة لتردّ لي الدرهم الذي تأخذه مني نهاراً. ذات ليلة انزعجتُ من هذا الإيقاظ فأخذت تبكي وهي تردد:

ـ أنا مثل أختك، لكنك لا تحبني!.

عبثاً حاولت أن أقنعها أنني لا أريد أن توقظني وقت تنظفيها. كانت تدخن سيجارتها متأملة، جالسة على الأرض. ندمت على عتابي لها، لكنها استمرت تستلف مني الدرهم كل يوم في النهار لتردّه لي في الثالثة صباحاً. أعتقد أنه نفس درهمي. انطح الجدار، إذا شئت، إنها ثريا المنظفة الليلية دون أن يكلفها أحد بهذا الوسواس. تحاور نفسها. تدمدم. لا ترابط في كلامها في ليلة سألتها:

ـ من لا ينام الآن في الحجرات الأخرى؟.

ـ كلهم ينامون. الجِنُّ هم الذين لا ينامون.

يُؤَمِّنُ عندي، أخو الباهي، ثلاث أو أربع علب سجائر لأخيه. يستهلكها له المرضى في يوم واحد إذا هو أعطاها له. أعطيه أربع أو خمس سجائر مرتين في اليوم. يدخنها على التوالي دون توقف. يعدني، كلما رأيته أنه سَيُورِثُني بَغلة، ونقوداً من العُملة الحَسنية مطمورة تحت شجرة تين. الزمن الذي يتكلّم عنه هو بداية الثلاثينات. أكله المفضل هو البيض المقلي. عندما يأتي به أخوه يعزف عن أكل المستشفى. غالباً ما يؤاكله، هذه الوجبة، الودراسي. كلاهما أَزْمَنَ هنا. يتحدثان عن أشياء مشتركة بينهما. إنهما بَدَويان. يحتدّ حوارهما كُلّما اجتمعا. كانا يأكلان وأنا قربهما. فجأة إصبع الودراسي في عينه اليسرى. الدم يسيل من الخَدّش تحت العين، لكن حديثهما استمرّ. ناديت الممرض في الدَّوَام. عالجه وهما مستمران في أكلهما، وحديثهما. لا عتاب بينهما. ولم يقل الممرض شيئاً لأحدهما. عندما انتهيا من الأكل باس الودراسي رأس الباهي وانصرف شاكراً. أعطيت للباهي ثلاث سجائر وتركته يتلذّذ بتدخينه، وتأمله. إنه يشعل الواحدة بالأخرى حتى تنتهي.

جاءني عبد المالك بالجلباب الأبيض من طنجة. اشتريت للحكيم صابونة ليغتسل. راح يزهو بِحُلّته الجديدة في جناحنا، ثم ذهب إلى الجناح الثاني، لكنه عندما أراد أن يدخل الجناح الثالث، جناح الخزائين في ثيابهم، كما يسمونهم، منعه حارسهم البوعناني. كان حكيم قد تعلّم شيئاً من الكراتيه. البوعناني قَوي. جسمه دُبيّ، لكن لكماته يخبطها في الهواء أمام حكيم. جلبابه ممزق، مُلَطّخ بالدم. سألته:

ـ كيف تركته يمزق لك الجلباب؟

ـ ولكن وجهه ممزق أكثر من جلبابي. (امشِ شوفْ الوجه اديماه).

ـ والآن ماذا ستفعل بالجلباب؟ إنك لا تستطيع أن تحكم به حتى وإن رقعته. لن يكون حكمك عادِلاً.

ـ أعطني ثمن خيط وإبرة. سأوَجِّل مُهمتي لِلحُكم، وكذلك الزيارة التي كنت أنتظرها.

ـ زيارة من؟

ـ من كان سَيُنصبني للحكم.

طلبت مني أيضاً ثريا الدرهم المعهود. المساء يقترب. إنها ستنام الآن لتوقظني، كالعادة، في ساعة تنظيفها، والدرهم في يدها. أمطار خفيفة، والجو غائم، ومريض يغني:

ـ الليل ليلنا، أينك يا ليل؟

قضيت يومين مع أسرتي. الصمت الصحراوي ما زال قائماً بيني وبين أبي. إرضاءً لأمِيّ، كالعادة، بستُ له رأسه دون أن يتكلم. الشقاء الذي نلته منه في طفولتي يناله مني في شيخوخته. لا مُصالحة بيننا إلى الأبد. أردت أن ألقي نظرة على دروب طفولتي. تذكرت بوعَصا وعربدته الكسرية في جبته البيضاء في العيون، وازْرَعْ كُونْ، والمجذوب السي المُفَضّل، وآخرين أنساني اغترابي حتى أسماءهم. كوميرومات، وبطاطِي هو الباقي الوحيد من بين رفقاء طفولتي. عند مدخل باب النوادر فاجأني المَشهد: إنه حكيم. يلوح بعَصا في يده وخلفه جماعة من الأطفال. لقد هَرَب إذن! رآني فأوقف فِرقته.

سألته:

ـ إلى أين يا حكيم؟

ـ إلى المستشفى إن شاء الله.

ـ وهؤلاء الأطفال؟.

ـ إنهم أنصاري.

ـ ماذا تنوي أن تفعل معهم؟.

ـ سنحرر اخوتنا هناك.

ـ وأين السلاح؟

ـ الحجارة. سنحارب الجديد بما هو قديم. تعال معنا.

ـ أنا عائد إلى طنجة لأحرر مثلك اخوتنا هناك.

ـ بَلِّغ لهم سلامي.

دسست له عشرين درهماً في يده فعانقني داعياً لي بالبَركة. استأنف مسيرته وفرقته تتبعه.

موت الأمّ

بين أعمى ومبصر، حقيقة الشيء يختلف معناها في لْمسِهِما وإنصاتِهما. هذا ما يقوله، عادة، المبصرون. ماذا عسى يقوله الابن عن موت أمه؟ لا شيء من كل شيء. أَمِنَ القطرة نعرف البحر؟ ومن حبة الرمل نعرف الصحراء؟ وهل الورقة الوحشية الخضراء هي كل الغابة؟ هذا مثل من يحلم بالسفر ولا يسافر؟ إنه يتوالد ولا ينتظر موسم اللقاح. أما أنا فلا طموح لي في يمين الأصفار، وذرية الأجيال. إن الكلمات تَبلبلت، والوحي اللغوي مات قديسوه. لم يبق لنا إلاّ كفاح أهرامات ذكائنا تنبعث خلاياها السابتة لتنقذنا من ركودنا في الأوان المناسب. عاش الأحياء قدر ما يموت الأحياء ـ الأموات! رنين الجرس متواصل مصحوباً بدقات على الباب. عنيد هو من يدق. أهو مجرد ازعاج ليلي أم اعتداء صريح؟ من يدري! إنك، غالباً، لا تخلق أعداءك، إنما يخلقون أنفسهم فيك، أو يخلقونهم فيك. هناك دائماً متطوعون. إنه وسواس. لا أكثر من أن تكون، في مثل هذه الساعة الفجرية، إحداهن. ليست هذه هي المرة الأولى، لكن ليس بهذا العنف والإلحاح. آخر مرة جاءت حمقاء مُسالِمة تطلب سجائر في آخر الليل. إنها تمجد الحشيش، والنسيان، لا من كان أو من سيكون. الجرس والدق متواصلان. لم يحدث، من قبل، مثل هذا الاستعجال. ما زلت

ثَمِلاً. شهر يونيو. الصيف لم يعد له وجود في حياتي. عَفِن. زمن إشراقه كان في شبابي. ربما أنا الذي عَفِنْت. يقلّ فيه طعامي ونومي. ما كنت أكذّبه أصدّقه اليوم. متى يكون المِكْذَبان صادقاً؟ والنّكبات التي تُولد الطاقات؟ والخراب الشامل الذي يعيد بناء المدن؟ إنها المصائب التي تخلق الجمال! هذا ما يقوله علماء العمران. المرأة التي تتعرّى، نموذجاً لا تثير شهوة الرسام: لأن الفن يبتلعها. الزمن لا ينتظر الكُسحان. لا يتطابق العيش وفهمه في آن. ربما أجمل العيش وَهْمُه. لسان البحر يلعق قدمي. أبلل ابطي، وأنظر إلى الأفق، وإلى السماء، وإلى الرمل ثم إلى أقصى الزرقة المغرية بالمغامرة المُميتة. كدت أغرق ثلاث مرات كلما بَجَّحت نفسي فيه. مرة أنقذني بن بوكر صحبة صديقه فلوريس[1] في شاطئ مَرْتيل. اليوم أرشُّ رأسي بحفنة أو حفنتين. لم أعد أنخدع بانجذاب فيروزيته ولازورديته الأصيلية. أبداً لا. الرنين والدقّ تَوْأمان. حمقاء أخرى. فلتنتظر! أهو أنا دائماً ملجأ آخر كأس، وفراشٍ لآخِر الزُّناة؟ كان هناك غَطَّاس يقول لي: استَهْبِل في خيالك عندما لا يأتي في أوانه. الغائب لغيرك، وقرابة نفسك أَوْلَى من البعيد المنتظر. الدقّ الآن جنون! أستقبل، تِباعاً، ضيوفاً لا بحر في مدنهم. مدينتي ليست لهم إلاّ الشوارع ـ الإرشاد، والمقاهي والحانات ـ اللقاء، والملاهي والفنادق ـ المواخير. هذه هي كل مدينتي لهم. ليست لهم إلاّ الفرج أمامهم، والأست وراءهم، وليس لهم إلاّ النصر العزيز. لقد أسْطَروها وما زالوا يَتساءلون عن مُنْشِئها. الشراب، مع ضيوفي، خرافي. أهزل وأهزل ـ كلما جاءوا ـ حتى الإنهاك، والإغماء، والهَذيان، حتى ماتت أمي في غيابي.

مشيت حافياً. كشف لي، ضابط الرؤية، عن ضباب شبح.

---

(1) ملاكمان عاشا في تطوان أواخر الأربعينات.

ـ من أنت؟

لا كهرباء. إنهم يحافظون على الطاقة منذ سنوات. الرنين والدقّ معاً. مجنونة. لا بد أن تكون قد تقيأها آخر ملهى في حالة إفلاس قاهر. قال لي مسرحي: «لقد كسبت صداقة النساء أكثر من صداقة الرجال». أنا لست كاسباً إلاّ صداقتي مع نفسي.

ـ افتح، أنا العاقل.

إنه هو إذن، زوج أختي. ما حدث لا بدّ أن يكون مصيبة حتى يجيء في هذه الساعة.

ـ أمك ماتت.

بصوت مبحوح ثمل:

ـ ماتت، إذن.

ـ نعم. البس بسرعة.

أصب الماء على رأسي مُقاوِماً تَرَنُّحي. هذه هي مساوئ ضيوفي الذين يشربون أكثر مني حتى الانحطاط الجسدي والمعنوي. إنهم جِمالٌ تَرِد. قلما ينتهي سكرهم دون نحس: يكفي خلافهم في معنى بيت شعر. هم يعودون إلى مدنهم ليستريحوا، وأنا أبقى هنا دولابهم. كذلك فعلوا مع سكوت فتزجرالد، وجاك كرواك حتى قتلوهما بالأنخاب. محكوم بماضيّ معهم، لكن ينبغي أن أحسم في قول لا لصحبتهم. لقد بنى هنري ثورو كوخاً في أحراج وايلدنْ وراح يكتب عن النمل، وروائح الغابات، محتقراً هواء المكاتب الفاسد. إن رائحة الروث، في الحظائر، هي أزكى من روائح أفخم الخمارات. الخامسة صباحاً. سيارته متينة وجديدة. سرعته بالغة، لكنه ليس طائشاً في سياقته. من عادتي، ألا أقول لمن يسرع أبطئ. إنه قد يتمادى في السرعة: تَبجحاً أو عِناداً، بل قد أشجعه على التمادي فيهما بحماس

وانشراح رغم أني حريص على حياتي المهددة بهذه المجّانية. لكن هؤلاء لا تخشى على نفسك معهم: فهم غالباً ما يخفون جبنهم في سرعة قد تدوم لحظة أو لحظات ثم يَرزنون شاحبين، خائفين. طبعاً هناك مجانين السرعة الحقيقيون مثل جيمس دين الأصيل في جنون.

ـ متى ماتت؟.

ـ منذ ساعات في المستشفى المدني. مضى يومان وهي في غيبوبة.

لم أرها منذ أكثر من سنة. شغّلت المسجلة ورجوتها أن تغني لي بالريفية. انحرجت قليلاً باسمة ثم غنت. الكلمات من خلق مرح الطفولة والحطب والحصاد، لكن صوتها حزين، لقد أضعفتها شيخوختها المهمومة. الاغتراب بَرَّد حنيني إليها. لا شك أنها فكرت، كعادتها، في بعدي عنها. إني شاطر الأسرة الوحيد. إنها ميتة ـ حية: أيقظني حنيني إليها ذات صباح صيفي. خواء في الروح. انحطاط صحي. لم أتذكرها ميتة إلاّ وأنا في محطة السفر. لا تقهرني العزلة إلاّ أيام المرض. الثالثة صباحاً. غالبت انحطاطي حتى وقفت. مترنحاً وصلت إلى الباب. وضعت الفرجون (فرشاة الملابس) في فرجة الباب حتى لا ينغلق. قد لا أستيطع النهوض مرة أخرى. سأحبو أو أزحف إذا تفاقم مرضي. أغفو وأصحو. ربما ما بينهما هو الأجمل. كل ما أتذكره في وضوح هو أقل جمالاً. ليس عبثاً أن تتغذى السمكة الساحرة من سمكة ميتة. النور الشفقي يبزغ. منذ سنوات لم أر فيها مثل هذا المطلع. هيكل سيارة مهشم، صدئ، قرب شجرة هي كلها جذعها اليابس. بقايا كلب في الطريق، طيور تحلق، أخرى جاثمة على الأسلاك الكهربائية لم أزر سبتة منذ تزوجت فيها ارحيمو في حيّ البرينسيبي. أكثر من عشر سنوات مضت. من تقاليد قبيلة زوج أختي أن يحمل أخو العروس الأكبر أخته بين ذراعيه من الهودج إلى صحن

الدار. وجدني عبد العزيز في حانة شعبية مع عجوزين اسبانيين عاش أحدهما زمناً طويلاً في طنجة. غادرها بعد الاستقلال. يتذكّر فيها يهوديات من أوروبا الشرقية أيام النازية، نُقْلَ العصافير الدورية والزرازير، والسردين المشوي بالبصل في الخمارات الخلفية، ونبيذ البراميل، والصناديق ـ المقاعد، وكل ثلاثة كؤوس نوبة الدار ثم دائماً هناك أكثر من زبون يتطوع للغناء. كدت أسقط وأنا أحملها. شطر العروسان خبزة الدار الكبيرة، المدورة، خُبِزَت لهذه الزفة. نثروا عليهما الملح. رشفتان من الحليب وحبتا تمر. وضعوا مفتاحاً كبيراً في يدها. نساء من عائلة العريس يتخاطفن المناديل المزركشة التي زُيِّنَ بها الهودج. كذلك فعلن بالدبابيس التي تشدُّ المناديل. هذا يبطل السحر كما قيل لي. السلطان للعريس وأهله. أهل العروس شهود وشبه خدم. شكّلَ العريس قوساً بذراعيه في إطار باب الحجرة. مرت العروس تحت ذراعيه المقوسة منحنية الرأس، ومررت أنا بين فتيات يتصورن مع العروس لأعود إلى حانة العجوزين الاسبانيين.

ـ بماذا ماتت؟

ـ بنزيف أنفي. لم يتوقف خلال أسبوعين.

اصطدم عصفور بِمُقَدَّمِ السيّارة. ربما لم يلتقط بعد حبته الأولى التي حلم بها. راع يقود قطيعه الصغير وخلفه كلبه الهزيل. امرأة تحلب بقرة. دجاجات وكتاكيت. طفل مُقعًى ينكت الأرض بقصبة. نتخطى راكب دراجة بائساً. يُدَوِّس بعناء. دارجته قديمة. العرق اليومي يبدأ. مباهج الصباح تنبثق. تهبّ ساطعة. أُغالب غفوتي. بيرة باردة. هذا ما أحتاجه الآن. تَلْفَنَت لي مليكة من تطوان راجية مني مساعدتها بمائة درهم لترميم ضرس يُؤَرِّقُها.

أخبرتني بموت الأب.

ـ متى مات؟

ـ منذ شهور.

ـ لماذا لم تخبروني يوم موته؟

ـ لأننا نعرف أنك لم تكن تحبه أبداً.

ـ والجيران ماذا سيقولون عني!.

ـ هم أيضاً يعرفون أنكما كنتما دائماً تتباغضان.

كذلك فعلوا معي عندما ماتت خالتي فلم أعد أهتم بمن يحيا منهم ومن يموت. إنهم لا يخبرونني إلاّ بأعراسهم. لا بد أن أمي هي التي طلبت حضوري. حتى في أيام مرضها وغيبوبتها لم يخبروني.

جيفة حمار في طرف حقل القمح. الأشجار كأنها تُسابقنا ونحن نتخطاها. يدا صهري ثابتتان على المقود. لا يدخن ولا يشرب. أنا غالباً ما أمسك كأسي الأولى بيديّ المرتجفتين إذا لم أكن قد أسْبَتُّ في نومي. أشعلت سيجارة. في النّشقة الأولى دخت، وفي المَجّة الثانية أخرجت رأسي من النافذة لأتقيأ الهواء، وتدمع عيناي، وتَمْغَصَ أمعائي. نظر إليّ بطرف خفيّ. إنه لا يقترب منك ليشمّ رائحتك. قال لي أخي عبد العزيز: «لقد بنينا قبراً جميلاً لأبينا. لا بدّ لك من أن تزوره». اخوتنا، الذين ماتوا أيام المجاعة، والبؤس، محت الرياح والأمطار قبورهم المسطحة. طوبى لنا اليوم لأننا بتنا نستيطع أن نبني قبوراً جميلة لمن يموت من أسرتنا. هكذا قلت له فانبهرت نظراته. رغم نحيب أختيّ، ارحيمو ومليكة، وبكاء امرأتين مُهَرِّبَتين، شاختا صداقةً مع أمي في تطوان، فقد غلبتني غفوة. أفقت عندما صار البكاء نُوَاحاً. ماء الورد يعبق في حجرة الموت، حيث غسلوها. موكب الدفن يبدأ نحو مقبرة سيدي مبارك. موت الغربة. حوالي عشرين مُشَيِّعاً. لا أعرف أحداً. في الطريق انضاف آخرون إلى الموكب. لم تتسع في الحفرة. أخرجوها مرتين فصاح رجل ملتح:

ـ يا عباد الله، ارحموا المرأة! احفروا لها قبرها الذي تستحقه! لا تعذبوها!.

حفر اللّحاد حوافي الجدث للمرة الثالثة. تمنيت لو قطعتُ يديه وسملتُ عينيه. حتى عند الموت يُضَيّقون الأرض. ماء الورد يُرَشّ على الكفن. صلاة العصر. خبز وتين يوزعان على الحاضرين. لم يكن هناك فقراء الخبز. دجاج محشو بالرزّ. شراهة الأكل، حماس النقاش، بين ارحيمو ومليكة، حول بيع دارنا في تطوان. زوجاهما صامتان في حياد. بنيناها بالتعبئة الجيرانية، بحجارة الجرف القريب من الحيّ. الأطفال، والنساء، والعاطلون كلهم شاركوا في بناء هذه الدار. أمنا أوصت دائماً ألا تباع إلاّ إذا أرغمتنا الظروف، ولم يكن أحدنا مقهوراً بِخَصاص. أخي كنت قدوته بصمتي. أقنعتهم بعدم شهيّتي، لكن النقاش معي، حول بيع الدار، لن أعرف كيف أتخلص منه، عندما ينتهون من المضغ ويوضع الشاي. غزاني غثيان تَلَتْهُ دوخة. طوال اليوم دخنت حتى تَخَشَّب فمي. لم أشرب غير القهوة. زعمت أني سأخرج لشراء السجائر. نصحتني ارحيمو بالتقليل من التدخين:

عبد العزيز سيخرج ويشتريها لك إن كنت لا تستطيع أن تصبر حتى الغد.

وقفت وألححت في الخروج. أحسوا بانزعاجي. نسيباي لا يتفوهان بشيء. موت أمنا ومزاد دارنا في نفس اليوم. لم أستمرَّ (من المَرارة) يوماً من حياتي كما استمررتُ هذا اليوم. بموت أمي تموت كل أسرتي. أكدت لي على عودتي فوراً لأني لا أعرف ليل سبتة. إنها لا تعرف أني قد آخيت ليلي مع أيّ ليل. إنه دائماً ينير لي درباً للنجاة. إنه يعرف أصحابه في أيّ مكان: باربيس، باريو شينو في برشيلونة، حيّ كارْمِنْ في بَلِنسة وباب مراكش في الدار البيضاء.

في تلك اللحظة تمنيت لو أكون في مكان لا تعكر صمته حتى

قطرة الرطوبة في كهف. لا أذكر الحانات التي دخلتها. لقد غام كل شيء في الحانة الثانية أو الثالثة. كيف غادرت المدينة؟ أصبحت نائماً بكامل ثيابي في شقتي. عبثاً حاولت، عبر سنوات، أن أتذكر كيف وصلت إلى طنجة. فرد حذائي ملآنة بالبول قدام سريري، والأخرى فوق طبلية الليل يفوح منها النبيذ. أعرف شخصاً بال وهو سكران على ابنته في مهدها الذي حسبه مِرْحَضة. أنا لم أبل سوى على نفسي. يوم بعنا الدار، واقتسمنا، حسب الشريعة الإسلامية، أخذت أختاي تتباكيان في صمت أمام العادِلَيْنِ في دارنا التي كنا نودعها لآخر مرة. سألت جارنا عمَّا يبكيانِهما فقال:

ـ عَلاَم يمكن أن تبكيا؟ على ذكر الوالدين!.

أخذت ألف درهم من قسمتي على الطيفور، ومثلها من قسمة أخي، وأعطيت لكل واحدة ألفاً فَجَفَّت دموعهما. همست لجارنا:

ـ إنها مسرحية أشخاصها مهرجون، منافقون.

غادرت تطوان شاعراً أن حَبلنا السُّريّ قد انقطع، وأنَّ جذوري من شجرة عائلتي قد تَعَفّنت إلى الأبد.

عشق ما لا يمكن أن يكون

ليست هذه المرة الأولى التي تجيء فيها سالية إلى طنجة من مدينتها الصغيرة. تجيء زائرة، لكنها، هذه المرة، تريد أن تقيم. طنجة الحلم، طنجة العارية، الرّنانة، الشفّافة مثل كأسٍ من البلور، طنجة الأسطورة، والجبل لكلّ صوت، لكن سالية لا تعرف أن طنجة تسحق من لا يعرف كيف يشرب خمرها المسحور. إنها مثل كيركا الساحرة[1]. عرفتُ من جاءها ليكتب الشعر فلم يتعلم حتى لغة الحانات، ومن جاء ليرسم فلم يعرف حتى كيف يمزج الألوان.

جاءت سالية، هذه المرة، من مدينتها لتخسر كل شيء من أجل أن تكسب كل شيء. إنها تُراهِن بأسفلها على أعلاها الهَشّ.

حضورُها، في الشراب، والحشيش، هَوَسيّ. ومِثل الفُطر الذي يتكاثر ولا ينمو جعلت الرجال يختصمون من أجل صحبتها. فُطْرٌ مسموم لمن يعشقها. تعشق كل الرجال ولا تريد أحدهم. كم

---

(1) هي الساحرة كيركا أو سيرسا، ملكة جزيرة أيايا ذات الضفائر الشقراء، بنت هليوس، رب الشمس، من برسا، بنت أوقيانوس، رب البحر. تسحر البشر والحيوانات بشرابها المسحور، وعصاها السحرية، حيث أحالت رفاق عوليس إلى قطيع من الخنازير، ونجا عوليس من سحرها لأن الربّ هيرميز سلّحه بعشب الفضيلة الذي يسميه هوميروس، في الأديسا، «مولي»، لأنه يبطل مفعول شرابها المسحور ـ الساحر.

تظاهرت، لتهيج المرتخين جنسياً، أنها تُغْتَصَب! إنها ابنة شرف (شاعر مدينتها شاهد). لكنها لعنة عائلتها. تركت جسدها يغتصبه باكراً المراهقون، والحشاشون، والسكارى، من مدينتها وغير مدينتها. يدها ترعش إذا هي مدَّتْها إلى الكأس ويتساقط رماد سيجارتها دون أن تنفضه. قالت لصديقتها كارولينا: «لقد خانني كل من وعدني».

يئست من الحب والزواج فتعلَّمَتْ كيف تجعل الرجال يتشاجرون من أجلها. كتبت في مذكراتها بِخطّها العصبي، الرديء: «أنت تعترض طريقي في كل مكان، لكن، أنا، لا طريق لي. إنك تخيفني مثل وحش أسطوري. أنا أبحث عن حلم ولا أرى فيك أيّ إيحاء. إنك تريدني، لكني أريد نفسي بنفس القوة التي تزعم أنّك تريدني بها».

صديقتي بالوما هي أيضاً توزع وقتها بين الحشيش، والسكر، وكتابة خواطرها: «إنني لا افهم نفسي فأكتب مثل مجنونة. السعادة، تبدو لي، مثل ضفدعة ذات قُبَّعة من ريش الطاووس. الحب يخيفني. أنا ملاكٌ جناحاهُ أسودان. إنه قلب من دون عين. لا أريد أن أسافر على حافة الهاوية. لم يعد الحب همّاً، صار مثل حوت ميت، في الصيف، على أحد الشواطئ المهجورة».

بين الكؤوس وفراش الليل النابض يقظة ندم. تعودُ سالية إلى مدينتها لتعيش نقاء الهواء، لتسترجع، في يقظة حلمها: نزواتها، وشهواتها، ثم طنجة من جديد بمساحيق زينتها.

للحانات مساؤها، ومن محاسنها أن تكون فيها. هكذا تُعَزِّي سالية نفسها، لكن للحانات مزاجها، ولحظاتها وكأسها الأخيرة، وكل واحدة تريد أن تكون كليوباترة حانتها. والكأس المعروضة، إذا لم تحذر، التي قد تقودك إلى وحل تلك الكأس الأخيرة: (عكاز الطريق) كما يقول السكارى الذين يتآزرون في محنتهم أكثر من غيرهم إنهم قد يُشبعون الغرباء ويجيعون الأقرباء. إن وحدتهم قاتلة، لكن عدوانيتهم أكثر من

مؤانستهم للسُّكارى مزاجهم: لم أكن أقتات، خلال ثلاثة أيام، إلاّ بما يَتَبَقَّى من إفطار زبائن مقهى السي موح. البحر كان هائجاً والميناء مقفراً، من بواخر الحرب والسلع. حدث لي هذا عام 55. كنت زورقياً أحمل من تأخر من البحارة إلى بواخرهم وهم سكارى. الشَّرقي (ريح الشرق) عاصف. مررت قدام حان مريا وقت العشاء. ناداني عبد السلام. عرض علي كأس نبيذ. طلبت منه خمس بسيطات سلفاً لآكل بها شيئاً ثم أرجع. فهمت من اعتذاره، المتلعثم، أنه لا يملك سوى ثمن شرابه، وكأس أو كأسين لي. فكرت: أَمَعِي أنا؟ أكلتُ النُّقْلَ الذي أُعْطِيَ لي مع كأسي، التي رشفت منها، ونُقْلَ كأسه، ونُقْلَ جاره ثم توالت طلباتُه مُشَجِّعاً إيّايَ على الأكل ومُرحِّباً بالشَّراب كأساً تلو الكأس. بدأ ينهار ويتعتع. قبل أن يغادر طلبت منه مائة بسيطة فأعطانيها دون اعتذار أو تلعثم. لو أني طلبت منه أكثر لما رفض. ندمت.

زارت سالية استاذها في منزله ليصحح لها ما تدعوه نَصّاً شعرياً.

شَرِبا وتَحشّشا معاً. وعندما رفضت أن تنام معه، حسب قولها، مَزَّق ثيابها، وعضَّها في عُنقها، وكتفَها، عَضَّات خُرافية. سالية تعترف أنه كان أكثر سكراً منها، وهي أكثر تَحَشُّشاً منه، في تلك الليلة. كان هو يعيش قصة حب فاشلة مع تلميذة أخرى يريد الزواج منها، وهي، أيضاً، كانت تعيش صَدمةً عندما تَزَوَّج رفيقُها من سواها.

آلها النَّهارُ أم الليل؟

طُردَت من الكلية لأن رائحة صُبحها صارت تَشي برائحة لَيْلها. لا نَعرف إن كانت تُحب الزُّهور أو العطور، أو إن كانت تكرههما معاً.

جاءت سالية إلى طنجة في زمن بارت فيه أجمل العاهرات. أكثرهُنَّ حظاً قد يَتَزَوَّجها عاطل، وهي قد تَعمل مُنَظِّفة في أحدِ الفنادق، أو في مَطْبَخ مَطعم. لم يبقَ إلا مَجدُ الذكريات المهزومة، والجنون الكئيب، والإحباط في السّكر، ولّغو الحانات.

تتقاذف سالي الليالي بين فندق فاخر أو بائسٍ حسب حظِّها أو سُكرها، وجيب الزَّبون. لا يهم من يكون. الليلَ والسكر يخفيان الويل. ومن منزل إلى منزل حتى لم يعد ثَمَنٌ لِسَهراتها سوى تسكين هَوَسِها وقَلَقِها. كل ليلة قد يَمْلِكُها أكثر من واحد، في رفاهٍ أو إفلاس، حتى نِهايةَ حلاَوتِها.

لم تعد لسالية رائحة النهار. كل ليل لا نهار له. يقبحها النهار ويجمّلها الليل. لم يعد يهمها إلاّ أن تعيش حتى تعثر على من يهواها وتهواه، لكن العشق في طنجة ليس من أحلام العذارى. إنها، هنا، فقدت نفسها لتصير مثل الأخريات.

إنه زمن الشعر، وزمن الحلم في طنجة، لكن أين الشعراء، وأين الحالمون؟ إن الهزيمة تمشي في منتهى بؤس عرائها أينما شئت.

كيف عرفت سالية.

كنت الوحيد في قاعة الفندق فيللا دوفرانس عندما دخلت. النادل يحدثني عن فرق كرة القدم الوطنية والمحلية. حيث لا يكون في القاعة الصغيرة سوى شخص أو شخصين يلعن المدينين له. طلبت سالية بيرة ثم أشعلت سيجارة بيد مرتجفة. فتحت دفتراً. قرأت سطوراً ثم وضعته فوق الطاولة. النادل لا يكف عن الحكي. غمزني مرتين وهو يخدمها. فهمت منه أنه يمكن الحديث معها. تكتب وتشرب. تشعل سيجارة بسيجارة تدخن بعمق. لا يخرج من فمها إلاّ قليل من الدخان الباهت اللون مثل ضباب في الصيف. لا يبدو عليها أنها من «هُنّ». جرأة منها أن تشرب بيرة إذا لم تكن إحداهن. لا شك أنها متحررة. طلبت لها بيرة. تشابكت نظراتها بيني وبين النادل. شكرتني برأسها وبسمة عينيها. وبين كأسينا وسيجارتينا طلبت منها نظراتي أن أجلس معها. وافقت بسمتها خافضة رأسها. الدفتر مفتوح. القلم فوق الصفحة نصف المكتوبة. لم تغلق دفترها عندما جلست بجانبها. هذه جرأة أخرى

منها. تبادلنا اسمينا. قالت إنها رأتني في مدينتها مع أستاذها في الصيف الماضي. كُنّا نشرب في القصبة وهي تأكل السردين مع كارولينا. اختلست نظراتي خاطرتها في دفترها. «مع من أذهب اليوم؟ أنا حائرة بين بقائي وعودتي. قد تكون لي كؤوس، هذه الليلة، لكني لن أتوسلها أو أتحسر عليها. إن للشراب كرامته».

في شقتي، انفتحت من حلمتيها عينان منتصبتان. تشرب كأسها كلما ملئ. تكتب في دفترها خواطرها. الفاعل عندها منصوب، والمفعول مرفوع، في معظم الأحيان. لم يكن عندي معظم الشعراء الكبار، لكن عندي من قتلهم حب الشعر. لم يُغْرِها أيّ واحد منهم. بَشَرتُها بيضاء، لكنها سميكة ومشدودة، مزروعة بالزغيبات المُشْربَة بالسَّواد. عيناها باسمتان إذا انشرحت، ورموشها وارفة سوداء: أجمل ما فيها. شفتاها الرقيقتان وشعرها المجعد قليلاً، تفوح منه رائحة أوراق فصول الخريف المكدسة أول ما يبللها المطر. أحياناً، إذا هي لم تغتسل أياماً، تفوح منها رائحة عنزة تَمُرّ. رائحة الشراب والتبغ دائمة في أنفاسها. تُشَهِّي هي امتزجت بعطرها. ننام معاً في الفراش. وجهها دائماً إلى الحائط. وعندما أتفقدها أجدها نائمة على مضجع قاعة الجلوس معانقة مِخَدَّة صغيرة. لا بدّ أن أشتري لها دمية، قردٍ أو دبّ. إنها نائمة ـ يقظة. تشعل سيجارة بأخرى. في ليلة دخنت علبة كاملة. وفي الصباح كان مكتوب على دفترها: «حلمت أني أسحق فراشة فإذا به طائر ينبثق من بين قدمي. كان أبي يطاردني في بستان فسقط في بئر. جاءت أمي عريانة وصاحت هنا القبر! ثم رقصت. أبي يستنجد وأمي يُجَنِّنُها رقصها ابتهاجاً. لقد أعيتها شيخوخة أبي الواهنة. إنها تحب رجلاً آخر».

سالية تكره شعاع الصباح في طنجة. غالباً ما تلبس ثوباً أسود: إنه يلائم بياضها. لست دارياً إذا كانت تعرف جمالها فيه. تحب ليل الشارع

والحانات الصاخبة، ويقلقها ليل الوحدة والسكون. إنها تلعب في خيال الرجال. تغامر من أجل أن تملك أو لا تملك. لم يعد لديها ما تخسره. تتضاءل كل يوم. تتوزع بين من يعرفها ومن لا يعرفها. الأفواه تمصُّها بثمن أو بدونه. في الصباح، قد لا تتذكر إلاّ نبض الفِراش وقَلَّما يُوَدَّعها سيّدُ ليلتها.

جاءت إلى طنجة في غير أوانها. استطار عقلها. أنساها أسفلها أعلاها في ليل طنجة. تعلمت كيف تكذّب نفسها وكيف تصدّقها. لا يكذّبها أحد لأن الذين تنقاد لهم أكذب منها. أليس أن الكذّابين يتآزرون فيما بينهم مثل السُّكارى، ولهم مزاجهم الأقبح من الكذب اللطيف؟

سالية خانها شبابها، وفنُّ العيش. فَرّقتنا الأهواء فَصِرنا نَتَرَاءى في الحانات والمراقص نَتَماسُّ ولا نَتَواجَه. كِلانا له هواه، ولست السابق ولا اللاحق في حياتها. وظلَّ عِشقُ ما لا يمكن أن يكون هو الأقوى بيننا.

طنجيس

يَحْكُونَ عَنْكِ: أَنَّ طِينَةَ الْخَلاَصِ مِنْكْ،
وأنَّ نُوحاً فيك قَدْ تَفَيَّأَ الأمانْ،
وأنه حمامةٌ، أو هُدهُدٌ،
وأنّهُ غُرابْ.
وَبَيْنَ مَوْجَتَيْنْ
تَنَاسَلتْ طَنْجةُ مِلْءَ زَبَدِ البِحَارْ.

* * *

تَعَاقَبَتْ عَلَى بَكَارَتِكْ
مَباضِعُ الشَبَقِ والغُزاةْ
مناسِكُ الحلولِ والتّناسَخِ
وَكَان عيدُ بَاخُوسَ
يُفَجِّرُ الجنونَ فِي الأَصْلاَبْ،
والهَذَيَان في ثُغَاءِ الْبَحرْ،
كأنما طروادةُ يَرِثُها الحِصانْ،
كَأَنَّهَا فِي مَوْتِهَا عَرُوسْ
أَجَّجَها خامدةً زَيُوسْ.

* * *

وَفِي الطَّرِيقِ نَحْوَ قَلْعتك،
أَنْبئْتُ أَنَّكِ التي تُشْبِهُهَا أرْكَادْيَا.
وَكَانَ أن وَرَدْتُ نَبعكِ الغزيرَ عِنْد الْفَجرْ،
وَفي فَمِي ثَدْيٌ مِنَ الأَسْمَالْ.
وَفي مَسَافَتيّ طَعْمُ النفِيّ والوَبَاءْ،
أَفَقْتُ فِي الظَّهِيرَة:
فاجأني المخاضُ فِي الرَّيعانْ.
أحسست في الوريد شيئاً يُشبه الجُروحَ واليَفاعةَ.
أكلت لحم الجِنيات نَيّئاً.
وفي ماء النَّقْعْ،
كنتُ حفيداً لستورنسنَ الرجيمْ.
فلا أبي ابراهيمْ،
ولا أبي ديدالوس.
أَهِيَ لَعنةُ المُقام فيكْ؟
كَيفَ إذَن أُقِيمْ؟
كَيفَ إذن أرتحلُ.
وأنت لي متاهةٌ؟
ولستُ من رَحمِ أريانَ ولا بِينلوبْ!
رمتنيَ الأموَاجْ في شَواطِئكَ،
على حُدود جزر المَرجَانْ.
وحين مَدَّ بصري نحوكِ خيط الكَشفِ
مَسَخْتِني.
هل أنتِ ميدوزا ولا أعرفها؟
وهل لليلك الكفيفِ شَهرزادْ؟

وهل له عشتارُهُ العَشِيقةُ؟
والشَّبق المَحموم في عُيونِ ميسالينا؟

* * *

رأيتُ في عينيكِ كلُ نَزَوات العَقلْ.
رأيت في عينيكِ شهوتينْ:
مسافةَ الجَسد في أنكيدو،
وطَفرات الروح في كيلكاميش.
وتحلمين بربيع العشق أن يدومْ.
وتحلمين بربيع العمِر والربيعْ.
كوني كما تشائين:
بَلقيسَ أو مريمَ أو رابعةَ ال. . . !
كوني كما تشائين،
إلاّ التي أنت على صُورتِهَا.

* * *

جِنانُكِ الخضراءُ بالطَّواويسْ،
شاطئكِ الأسطوري،
تلالِك الوَردِيَّة،
أطلالك المَسبية،
لم تنسني الذبابَ والمستنقعاتِ والدروبَ الضَّيِّقة.
فكم رأيتُ قِططاً ـ أرانبَ!
عَمَّدَها العَرَّاب في البيعة والمسجد والكنيسة.
يُغمِدُها المُشردون في تخوم الجوع.
أبوابك الخرساءُ كالشطآنِ مُوصَدَةٌ،
ونحن في عرائنا يَجرفنا المطرْ،

ونجرع الدفء من الكحولْ،
كان ما نلمسه وباءْ.

* * *

يحكون عن كنوزكِ القديمة:
أن الغُزاة هَرَّبوا أُوارَها.
يحكون أن حلمكِ البعيدْ،
يجيء خجلاناً ويمضي رائعاً.
يُحاوِرُ النفي الذي يحاصِر المَدى،
هُويَّةَ التيه الذي يبدأ حينَ ينتهِي،
هُويّة السقوط،
هُويَّةَ العَزَاء في الجُرح الذي لا يَلتَئِمْ،
هُويّةَ الغِياب والقُمامَة.

* * *

في مطهر الفردوس والجحيمْ،
أجسادهم، أرواحهمْ،
رأيتها تُباعُ في الأسْوَاقْ،
مَحظورةً، مُباحَةً، بأبْخَسِ الأثْمانْ،
أبعادُهم، فضولهم، أكفانُهم، فُصولهمْ،
وبعثهمْ،
وَطَمْثُهُمْ
تُباع في الأسواق في المَزادْ.
عين على البَحرْ،
أُسْتٌ عَلَى الحَجَرْ
أذنٌ عَلَى الخَبرْ.

وجـوه

حبّ ولعنات

قال جيوم لادسو: لم تُؤلَّف الكتب لنؤمن بما فيها، ولكن لنتأمل، فأمام الكتاب يجب أن لا نتساءل عما يقول، وإنما عماذا يريد أن يقول، وهي فكرة كانت واضحة جداً عند مفسري الكتب المقدسة القدامى.

إسم الوردة ـ لأمبرطو إيكو. الترجمة العربية ص: 484.

عندما تصبح التجربة أقوى من الندم ينمحي الشعور بالذنب. لن أسعى في هذه التجربة إلى تبرئة نفسي أو إدانتها: أنا والآخرون. فبين الفرح المطلق والحزن المطلق أنا بينهما مثل دودة القزّ. آهٍ من الأجمل الذي أتمناه لك أو لي! قد يكون ما أتمناه لنفسي أقلّ جمالاً ممّا أتمناه لكل لعين مثلي. لن أخشى من الغد الكئيب اللعين سواء كنت مع نفسي أو مع الشيطان.

حتى ليل طنجة الذي كان في الأمس القريب يحتفظ ببعض شبابه وشيء من روح جماله أصبح اليوم هَرِماً، مُتَرَهِّلاً، قبيحاً وملطخاً بالبراز. صار وحشياً ولم يعد يوحي بأيّ راحة واطمئنان. أنا أعرف أنه يتملص من التهم الموجهة إليه وكل ما هو مشبوه فيه. أعرف أنه أبو الجرائم وحليفها، ومع ذلك فلن أكون ضده مطلقاً: لن أتنكر لعشرته

القديمة؛ لأنني مدين له بالكثير، في الزمن الذي كان فيه عَضُدي وحليفي، في زمن العيش القاسي المريب. لن أنكر جميله، لكني لن أتواطأ معه اليوم في بشاعة جرائمه التي يغتال فيها الأبرياء ولم يتب عنها.

لم تكن تمتلئ حانة غرناطة بالرواد إلاّ عندما بدأت تعمل فيها فاطي ساقية. لم يسبق لرواد هذه الحانة وغيرها من الحانات الممسوخة في طنجة أن خدمتهم، في لياقة وغنج، نديمة جميلة شقراء تستشهد، في حديثها مع بعض الأميين، بالأشعار العربية الكلاسيكية والحديثة، بصوتها الناعم النغوم. صاح شرّيب معربد «مربوط» فيها: إنّ عصر الجواري قد عاد. عاشت أمك يا فاطي!

إن غيرها من النديمات، والساقيات، والبغايا يلفقن حديثهن بماضيهنّ المليء بالحرمان، والهجران أو النميمة المُستحبة أو المُستكرَهة على حياة الزبائن ببلادة وابتذال. أما فاطي فتستمد ثروة حديثها وإغراءه من الكتب التي تقرأها بنهم وإنْ كانت لا تفهم الكثير منها، لكن طموحها كبير فيها وبها تقوّي شخصيتها كل يوم. ما يعرفه الفضوليون عنها، في طنجة، هو أنها جاءت من العرائش. إنهم لا يقلّون «عنهنّ» نميمة وبلاهة وتفاهة. غادرت فاطي دراستها في السنة الرابعة الثانوية وجاءت إلى هذا الفردوس، الذي لم يبق منه إلاّ الوهم، (ماضيه)، لتعمل في حانة غرناطة. إنه قدرها وهي لم تبلغ بعدُ العشرين: «لم أتعلم قط كيف أحبّ، ولا أظنّ أنني سأعرف كيف أحبّ». هكذا تقول، عن صدق أو كبرياء. لا يهم. ما يمكن أن نفهمه مما تقوله فاطي هو أنها لا تفهم الحب إلاّ فيما تقرأه في الكتب. إنّ الحبّ كان خارج حياتها: التفكير في الحبّ وليس العيش في الحبّ. إنها، حتى الآن، تلهو به، لتحافظ على عملها، في حانة غرناطة، ولا يلهو بها. تحاورت معها في معنى بائعة الهوى فقالت: «بيعُ الهوى هو

أن أمانع في بيع هواي على هواي، هذا ما يمكن أن يكون له معنى في حياتي. قد يحدث أن أبيع جسدي لمن لا أهواه، لكنني أيضاً قد أهب جسدي نزوة وشهوة». ثمّ أضافت: هل تريد أن تعرف؟

ـ قولي.

ـ إنني لا أقدر بعد على التفكير في هوى سنّي. (بعد وهلة أضافت): ما أريد أن أقوله لك هو أنّ الحب لا يباع لأولاد الحرام.

ما فهمته أيضاً من فاطي هو أن أحلام الذين يعيشون في الغنى قد لا تختلف كثيراً عن أحلام الذين يعيشون في الفقر، تماماً مثل أحزانهم وأفراحهم هي سواء بينهم.

إن فاطي هي قابضة صندوق الحانة ونديمتها الأولى، واللعوب الماكرة عند اللزوم. إنها تعرف ما تقول. لقد عرفت منها أنه قد انتحب عند قدميها، في لحظة ضعف وتفاهة، الكثيرون من القوادين، والمعتوهين، وشهداء الخواء البشري، الفقراء منهم والأثرياء، هي العاهرة في غيابها وحضورها. لكن فاطي تتعزّى عندما ترى أبناء الزانيات هؤلاء يشهقون أمامها في صمت وهم يحكون لها عن مباذلهم البائسة وهي تتظاهر بإنصاتها إلى ثرثراتهم الحمقاء، الجوفاء، باهتمام بالغ فيعتقدون أنهم حقّاً مهمّون. إنها ميزة ذكائها ولعبتها الاستهوائية التي لا تنافسها فيها إحداهنّ في الحانة فتشدّ بها إعجاب الرواد بجنون وفتون. لكنها هي أيضاً لها انحطاطها الذليل أمامهم حينما يكونون في الحانة هم الشاربون وهي الساقية، وأحياناً ينشف فمها فتبلع ريقها بصعوبة أمام غوريلا خانه حظّ يومه فجاء إلى الحانة والجريمة ترقص في عينيه بجنون. إنه يشتهي أن يتسلى معها هي بالذات على هواه وإلاّ هشّم لها وجهها بلكمة أو يُشرّطه لها بسكين ومن يتدخل لحمايتها قد يكون نصيبه أفظع. ربما الموت نفسه. ما سيكون مصيرها وفي وجهها نَدَب؟ إنك قد تتساءل: أهي حقّاً قد رأت ما رأت أم أنها حلمت ما

رأت أم أنها تحكي فقط ما سمعت. . .؟ وأنا كذلك أتساءل: أهي المغامرة الحقيقية لا تتمّ إلاّ مع لصّ أو مومس، صعلوك أو مجنونة؟ لكأنّ بطولة الحب لا تتحقق إلاّ فيما هو مدنس وملعون، أن يعشق غنيّ مفلسة، ومؤمن كافرة. قد يكون؛ لأنّ المحبين الحقيقيين علموني أن الحب لا شريعة له، لكنه ينبغي أن تُستعاد كل ذكرى فرح أو نحس عَبْرَ المخيِّلة المبدِعة اللعينة. أسفاً للذين يكتبون ولا يملكون ذاكرة مُبدِعة لعينة. إنّ كل كتابة مُغْوِية تحمل سرّ الإعجاب بها أو إهمالها. وإذا كان المغيظون لا يتركوننا ننمو طبيعياً؛ لأنهم أوغاد يسرقون لنا طفولتنا، شبابنا وكلّ حياتنا، فعزاؤنا هو في أن نقهر بإبداعنا الزمن المتردئ الذي يخلقونه لنا في كل طور وعصر.

أتذكر شاباً كان قد بدأ يكتب بحماسة مؤمناً أنّ كل خلاصه سيكون في الكتابة. حسناً. إنّ الكتابة تبارك من يخلص لها ولا تتخلّى إلاّ عن الانتهازيين، حسبما قيل لنا. في تلك الفترة لم يكن ينبعث، في هذه المنطقة، غير زهو اللوز المرّ. لكن الشاب لم يصمد أمام اختبار الكتابة، الذي لا يرحم أحداً، ولا تنفع معه أية وساطة ولا حتّى الأموال الوافرة لارتشائه. لقد ابتلع الشاب حنظل الزواج فتسمم وتقرَّح، وخاب أمله في النضال فيئس واختنق. أتذكر أنّ الله لم يكن معه. أسفاً له! لقد قهرته امرأة كان يحبها بجنون، خانته كثيراً مع الذين توهمهم أصدقاءه، ولم تخلص له إلاّ بعد مماته: فقد صارت تذكره في كل مكان حتى جُنّت وبدأت تعيش بين مستشفى المجانين والشارع، لأنها كرهت العيش تحت السقف العائلي. ومن حسن حظي أني لم أحبّ أية امرأة لعينة حتى تقهرني: لا قاهر ولا مقهور. لقد أحببتهنّ من بعيد. لا يهمني أن يبادلنني حبي لهنّ. عندما تبدأ امرأة تبادلني الحبّ عن قرب وجدّية العشرة معها فإنها الكارثة هي التي تبدأ. أن أحبهن بعيداً عني، بعيداً عني، وأن يحببنني بعيداً عنهنّ، بعيداً عنهنّ: أن يكون بيننا الحنين

الذي قد يخلق لنا ذلك الحب إن هو وُجِد. لا أحبّ امرأة أقدسها في المساء لكي ألعنها في الصباح كما يفعل أكثر الملاعين. إنّ كل شرح لهذه الأسطورة يظلّ أقلّ من قيمتها، وهي أيضاً حليفتنا في تناقضنا وأكثر صموداً منا في إيهامنا بوجودها. أمّا أنا فما برحت أكابد من أجل أن أحبّ نفسي وأقهر هواجسي الحمقاء الخبيثة. نحو النرڤانا[1] Nirvana وليس الكرْما[2] Karma: الصاعد لا النازل.

أتكون «أجمل الأشياء هي تلك التي يوحي بها الجنون ويكتبها العقل» كما يقول أندريه جيد؟ أما نيتشه فيعترض في استرخاء أرستقراطي: «الذكاء الأسمى والقلب الأدفأ لا يمكن أن يجتمعا في شخص واحد».

في هذه الرحلة الطنجية التي أكثرها ليل وأقلّها نهار سأفني بعضاً من نفسي في التخيلات والاستيهامات، الهلوسات والهذيان الاستمنائي، فيما يوحي به السقف العزيز على «زفزاف»، في الاسترجاع والتخاطر العزيزين عليّ وعليه. فمن يغبطني على هواجسي الهوجاء في هذه المتاهة . . . ؟

القذارة البشرية ليست مقتصرة على المرحاض، لكن هذا يستدعي أن الإنسان (منذ أزله) إنْ هو لم يكن مريضاً بشيء ما، جسدياً أو ذهنياً،

---

(1) النرڤانا: التخلص من الرغبة من أجل التعالي (اتجاه صاعد).

(2) الكَرْما: إرضاء الغرائز (اتجاه نازل). وعلى الإنسان أن يختار بين النرڤانا والكرما: الإنسان أو الحيوان. على أنه إذا كان الإنسان شظية من شظايا المطلق فإنّ النرڤانا تعلمه أن يلمّ شتاته ليتحد من جديد مع الوجود المطلق. ويرى شوپنهور أنّ ملذات الحياة أقلّ من عذاباتها؛ فمن الأفضل البحث عن طريقة للتخلص من العذاب بدل البحث عن السعادة، لكن البوذية تدعو إلى عدم التعلق بأيّ شيء والتفكير في الفراغ عن طريق اليوغا: التخلص من الأفكار بدل تعلمها، لأنّ البوذية لا تعلم أيّ شيء؛ فالحرية الباطنية هي الإرادة والحرية الخارجية هي الفعل.

أو هما معاً، فهو ليس طبيعياً. لا بدّ له من أن يحزق أو يتجشأ، يتثاءب أو ينام، يحيا أو يموت وإلاّ فهو ليس منا.

الليل ليس دائماً مقدساً: إنه التأمل الذي أَرَّقَ نيتشه وجعله يحزّ أصابعه بموسى أو يحرقها على لهيب شمعة ليتحدّى قلقه وألمه، إنه الهذيان الذي أنهك لوترِيامون بعد أن يكون قد شرب عشرين فنجاناً من القهوة الكثيفة ولا أحد كان يستطيع إيقافه راكضاً في شوارع باريس، إنه الجنون الإنساني الذي عجّل بموت فان غوغ واستوحد أنطونان أرطو واستريندبرغ ونيجينسكي...! الليل هو الطهر أو الدنس، الحلم أو الكابوس، المُسالمة أو الجريمة. الليل لا يشفق على أحد. عليك أن تشفق على نفسك فيه، أن تختار وتعرف ما تريد أن تكون فيه. أما أنا فقد عزمت على افتراس وليمة ليلي قبل أن تخونني شهيتي، قبل أن تتحمّض معدتي وأتقيأ الصفراء وأفطس.

ـ فاطم!

فاطم أو فطيم، هكذا كنت أناديها حتىّ أتميّز عن الملاعين فتمرح وتهلّل:

ـ ها أنا!

ـ كأسي الفاطمية[1].

ـ نعم.

ـ جيوبي مثقوبة، هذه الليلة.

ـ لا تقلق، سأرتقها لك كالعادة، في انتظار ما سيأتي به غدك.

ـ شكراً، پينلوب Pénélope[2].

(1) التي لا أدفع ثمنها.

(2) المقصود هنا هو الغَوْث والكرم وليس مهارة زوجة عولس في صبر الحياكة منتظرة عودة زوجها من رحلته.

ـ ماذا تخرّف؟

ـ سأرحل مع الملاعين.

ـ هل ستكتب عن رحلة الأطفال الذين يشمّون «السيلوسيون» Sillecione؟[1] إنهم يغزون المدينة في الليل كالجراد في هذه الأيام؟

ـ ربما. ولكني أيضاً سأكتب حبّاً في الكلمات، حبّاً في رحلة لعنة الكلمات والجسد. إنّ الجسد هو وليمة طنجة العظيمة. الاحتفاء به هو الأول والأخير. يأتينا على طبق شمسي أو قمري: كما نهواه. أذكر الدروب القديمة: في هذا الدرب أو ذاك كم سمعناهم ينشدون صُبحيات داود[2]! صدى العرس اليهودي كان يتواصل بين السطوح حتى الصباح.

ـ أمّي ترغب في أن تعرفك. حدثتها كثيراً عن جنونك.

للاّ شفيقة تَبنّت فاطي صدفة. أمها نزهة حبلت بها هي أيضاً صدفة، عندما كانت محترفة في آخر أيام ماخور العرائش قبل أن يغلقوه بعد الاستقلال. كانت للاّ شفيقة قد أصبحت قوادة مبجّلة بعد أن انقضى مجد قحبها. ظلت محبوبة ولطيفة وعلى شيء من الوسامة المغرية حتى اليوم إذا راق مزاجها مع أحد المعجبين بها.

جاءت عندها نزهة وتركت لها ابنتها فاطمة الزهراء في حجرها وهي بين الرابعة والخامسة من عمرها. «سأزور أختي في سبتة وأعود». هكذا قالت تاركة لها مبلغاً زهيداً من المال، لكن نزهة انشبكت في علاقة مع جندي إسباني من الترثيو Tercio[3] طعنها بسكين حينما

(1) نوع من الغراء (من مكوّناته Ether)، يشمّه الأطفال، والمراهقون والشبان للتخدير.

(2) إشارة إلى مزامير داود.

(3) اسم لبعض الوحدات من الجيش الإسباني المعروفة بالعنف. أغلب جنودها يَشمون أذرعهم وصدورهم بالثعابين ووجوه النساء وغيرها.

اكتشف أنها تخونه مع شاب مغربي. لم تتبنَّ للاّ شفيقة فقط صدفة فاطي إنما سقطت كذلك في حضنها ياسمينة وليلى. هكذا بدأت حاضنة تتقاضى أجراً عن الأطفال المحضونين فإذا بها تتبنّى أطفالاً مهجورين. كان عليها أن تكدح لكي تعيلهم دون أن تعود أمهاتهم المهاجرات إلى مدن أخرى في المغرب وخارجه أو يعدن بلا فائدة من استعادة أولادهن. الطفل الذي عادت أمه وحملته معها باكياً على فراقه للاّ شفيقة لم تدفع لها أمّه شيئاً لأنها كانت أكثر إفلاساً منها.

ربما كان خيراً لِللاّ شفيقة أن تتبنّى البنات أفضل من الأولاد كما نصحتها امرأة جرّبت التبنّي قبلها وعرفت الاعتراف بالجميل ونكرانه بين الأطفال الذين تبنتهم، لكن الأمر قد يكون سواء.

لقد كابدت للاّ شفيقة بما تبقَّى لها من شباب جسدها بين لعاب الرجال وفحشهم وشراستهم حتى أكبرت فاطي التي خرجت إلى «الميدان» دون إرادتها، لكنها اليوم لا تتوجّع وما هي بنادمة على الكثير. بقيت ياسمينة وليلى في المدرسة تحت ظروف دراستهما القاسية. لقد صارتا تعتبران فاطي أختهما الكبرى أو خالتهما ـ إذا اعتبرناها الأخت الصغرى للاّ شفيقة.

كانت للاّ شفيقة قد بدأت تتعب. شغيلة في المطاعم الصغيرة والفنادق الحقيرة ثم منظفة ساعة هنا وساعة أو ساعتين هناك في بيوت العزّاب والأرامل المتقاعدين الذين أعجزهم المرض أو هم ينازعون أيام الموت الأخيرة. أحياناً يكون من رزقها أن تستسلم لزبون يضاجعها بعد عملها في بيته فيضاعف لها أجرها فإذا بها تحمد الله كثيراً وتكون من الشاكرات للمحسنين. لكن إذا كان الزبون بخيلاً ابن كلبة خسئة فإنها تلعن اليوم الذي ولدته فيه أمه وتدعو عليه أن يكون من الخاسرين. وهناك من يُكْرِهُها دون رحمة على أن يمارس معها رغبته اللوطية الدفينة وما هي بِكَسبِ للآثمين.

كان جسد فاطي قد نضج كفاية لتواجه به شره المتهافتين عليها. جمالها كان ثروة تحسدها عليها كل بائسة في مهنتها ولا تعتبرها فاطي عاراً إنما هو المكتوب عليها وعلى أسرتها. إنها تؤمن بأنّ الطالح كثيراً ما يغذي الصالح. كانت قد عاهدت نفسها على أن يحلّ جسدها محلّ جسد للاّ شفيقة لترعى أسرتها المنكوبة دون تذمر أو حسرة أو ندم على ما حدث لها. هنا أدركتُ لماذا هي عزوفة عن الحبّ الذي قد يقودها إلى حماقة زواجها من أحد الملاعين!

الكسكس: هو الأكلة التي لا أحبها. لقد أكلته بالكرشة يوم مات خالي وعمري سبع سنوات فعفته ونادراً ما أستسيغه. كان ذلك أيام المجاعة في الريف. اليوم أعدَّته للاّ شفيقة باللحم والخضر على طريقة ما ورثته من الطبخ المراكشي: كسكس الذرة الصفراء. أكلته عندها لأنّ طعمه لذيذ يختلف مذاقه عن الكسكس العادي الذي أكلته بضع مرات في حياتي حتى لا أحرج مُضيفيَّ الطيبين في المناسبات العائلية المملّة واللعينة. أكيد أنّ للاّ شفيقة طبخته بسحرها السري وبركتها ثم زكته فأحضرته على (الطيفور) وعيَّنت مكان جلوسنا بالترتيب. إنها ما زالت تحتفظ برشاقتها الغاوية التي تشدّ بها عزّ كهولتها من خلال خفة انعكاس حركاتها اللينة رغم خمسينياتها، ولا تفرّط في زينتها التقليدية ورقتها التي اكتسبتها من تجربتها الخصبة. إنها تعرف كيف تجدد ما يشيخ فيها. لو أنك عرفتها فربما أحببتها هي وفاطمها مثلما لا أستغني أنا عن شغفي بهما.

إنه يوم عطلة مدرسية. بعد الغداء، أشارت للاّ شفيقة خفية بنظرتها الشفافة إلى ياسمينة وليلى فانسحبتا إلى الحجرة الأخرى على استحياء. إنهما في سنّ متقاربة. تبدوان منسجمتين كأنهما كانتا ترضعان من نفس الصدر مثل توأمين. لا تبدو عليهما أية ملامح من كآبة اليتم. كلتاهما

في حوالي الخامسة عشرة، صدرهما ناهد ولا شك أنهما قد بدأتا تلامسان تَبَرْعُمَه وتُهَدْهِدانه.

للاّ شفيقة تدلل فاطي بما يرضيها. وأظنّ أن كل فتاة شقية تتمنى أن تكون للاّ شفيقة أمّها. لقد باركت فاطي ورضيت عنها مرات وقت غدائنا. أنا أيضاً باركتني ورضيت عني لأني رفيق فاطي وأمدها بما عندي من كتبي ورفقتي الطيبة معها دون طمع في هوى ماجن منها سوى لهونا بغزل الكلام، لكن في عمقي أكبِتُ لها حبّاً غامضاً.

كانت فاطي تضع شريطة بنفسجية من الحرير مزركشة على جبينها، وتنورة رمادية طويلة وقميصاً أبيض. صحبتها إلى الشاطئ في نهاية الخريف لتشم البحر كما قالت وتحمم شعرها في هوائه، وتنظر إلى الأفق هي المحشورة دائماً بين أربعة جدران في دار كالحة تقرأ فيها، أو في الحانة تخترع حكايات أو تستمع إليها من المساكين المتبجحين.

ـ هل سافرتَ مرة خارج المغرب؟

ـ زرت عمتي في مليلية عام 51 عندما كنت عائداً من وهران إلى تطوان ولم أذهب أبعد من سبتة حتّى الآن.

ـ لو لم أكن مسؤولة عن أسرتنا لسافرت إلى الضفة الأخرى لأرى كيف هو العيش هناك وربما أغراني البقاء دون عودة.

ـ في بداية الستينيات، كنت أفكر أنا أيضاً في الاغتراب، لكني فضلت أن أبقى هنا لأرى ما سيحدث.

ـ ولم تندم. . . !

ـ لا أعرف كيف أندم مثلما لا تعرفين أنت كيف تحبين.

كنا نمشي قريباً من حافة البحر والأمواج المحطمة تطشّ ويلحس زبدها أقدامنا وحذاءانا في يدينا. لا أحد يرانا عن قرب. النوارس تزقزق وتقفز أو تطير أو تنزل على الرمل أو تحضن فوق الماء. في يدها

«الحانة» L'Assommoir[1] مترجمة إلى العربية وفي يدي قارورة Petaca أشرب منها جرعات من الكونياك الإسباني وهي تدخن لفائفها جالسين قريباً من حافة الماء أو ماشيين. لا يشغلنا شيء من هذا حرام وهذا حلال. غيوم داكنة وبرد خفيف يصفع الوجه. كانت قد أنهت قراءة الرواية وحملتها معها لتعيدها لي. إنها تتمنى ألاّ تنتهي حياتها مثل جرفيز Gervaise[2]. أفهمتها أن علينا ألاّ نتقمص حياة أبطال الأعمال التي نقرأها كما قال لي جان جنيه الذي حدثته عن تأثري بحياة جوليان سوريل[3]. إن مصير الأبطال ليس حتماً هو مصيرنا.

ـ وإذاً فحياتهم لا تشبه حياة الناس!

ـ مهما تشابهت حياتهم مع حياة الناس فإنّ من يتشبه بحياتهم قد يسقط في الهاوية الجهنمية التي لا صعود منها. إن دماءهم مسحورة. هناك من انتحر بعدما قرأ فرتر Werther لجوته، وغادة الكاميليا لدوما والغريب لكامو.

لم أكن أخجل وأنا أسير مع فاطي في الشارع؛ فهي ليست من اللواتي يبرزن صدورهن ومُؤَخَّراتهن يُرْقِصْنَها يميناً وشمالاً، صعوداً وهبوطاً وسراويلهن لصيقة بوسطهن لتقول لك إحداهن في صمت: «هاأنذا، اتبعني، إذا كان هذا هو ما يجننك في الفراش». أما فاطي فحساسيتها الرهيفة تحميها من التكالب على أحد.

كنا نشرب وندخن على هوانا ومسراتنا. كانت للاّ شفيقة في منتهى انشراحها وإشراقها. فاطي تدخن باسترخاء وتشرب بلذة ونخوة فتنتها. إنها لا تحبس الدخان في صدرها ثم تزفره كما تفعل كل فتاة مهمومة

---

(1) رواية لإميل زولا.

(2) GERVAISE بطلة رواية الحانة.

(3) بطل الأحمر والأسود لستندال.

لعينة. حتى عقب سيجارتها ليس قصيراً عندما تطفئه على مهل كأنها تخطط اسمها على الرمل. أما للاّ شفيقة فتدخن بعمق سجائرها الرخيصة لكنها أيضاً لا تحبس الدخان إلا قليلاً. فكرت أن كل فتاة منكودة تتمنى لو أنها تكون لها أسرة مثل فاطي.

صارت للاّ شفيقة تعتبر فاطي ربة الأسرة وخيرها هو المنقذ. أعتقد أنه لو كانت أمها ما زالت حية وعادت لتصحبها لامتنعت.

للاّ شفيقة لها قنينتها من النبيذ. هي لا تلحّ على أكثر، لكنها لا تزهد في الوافر منه إذا حضر. أما إذا جاد عليها أحد الكرماء بقنينة أو أكثر من النوع الذي تشتهيه فإنها تدعو له بالخير العميم والبركة الدائمة مستنهضة الأولياء من أضرحتهم. لا بدّ لها من جِرايتها مثلما ينال الجندي تموينه اليومي مهما كانت الأيام عسيرة. غير أن ما يُحزن للاّ شفيقة ويسبب لها حَزَّة في قلبها هو أنها قلّما تجد من تحيي معه لذة شرابها وعشقها للسمر في ظل القمر كما تقول في حسرتها. وإذا ما هيّجها الشوق فإنّ فاطي تشفق عليها وتشفي غليلها بما يلائمها من ذكرى حنينها إلى غابرها. إنها تعرف كيف تختار لها من الحانة نفسها زبوناً أكثر أو أقلّ من سنّها، سخياً وظريفاً في شرابه، زاهياً في لهوه وغزله فترضى عنهما معاً وتبارك ليلتها معه.

فاطي لا تبالغ في الشراب نهاراً لأنّ ليلها ينتظرها في حانتها. إنها المسؤولة عنها ومنها يأتي رزق أسرتها وربّ الحانة راض دائماً عن استقامتها ومهارتها في خدمتها. وإذا ما ألحّ عليها زبون مبذر، عنيد وملعون في استمالتها إلى الشراب، طامعاً في إسكارها نزوة منه أو عن سوء نيته الخبيثة فإنها تعرف كيف تتخلص بدهاء من محتوى كؤوسها في المغسلة تحت المَشرب. إنها تفرح عندما ترى أحد هؤلاء المتغطرسين الملاعين يخرج بطائن جيوبه ولا يجد ثمن أخذ سيارة أجرة. «نجاني الله من أنني لست زوجة واحد منهم». هكذا

تستلطف. . . ! لقد رأت كيف تنحطّ من غَلَبَها الشراب بين أحضان الماكرين. إنهم يريدون ذلك لكلّ النساء ويتلذذون به بجنون. عليك أن ترى واحدة منهنّ وهي سكرانة. إنها تصير رخوة مثل خرقة أو اسفنجة؛ فهي تتبشّع حتى لو كانت في منتهى الجمال. كنت قد رأيت إحداهنّ في صباح جدّ ماطر تمشي على أربع فوق الرصيف في البولڤار. عندما كانت تعجز عن الزحف تجلس على عتبة متجر والمطر ينهمر بغزارة وهي تبكي وتستغيث حتى أنقذها من سخرية المتفرجين سائق تاكسي كهل لاعناً الخبثاء الضاحكين الذين لا يرحمون. بعضهم تابع طريقه مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم، وبعضهم ظل هناك يَتَشَفّى من سلوك النساء المنحطّ. وكان رجل يمرّ والمطر ينهمر عليه وفي يده مظلته مطوية. يحركها كعكاز يوازي قفزها في يده كل خطوة من خطواته العريضة. فكرت أنه رجل ومظلته ومضيت قبل أن يُعْديني أحد بفضوله سائلاً إيّاي عما حدث للمرأة التي لم تعد هناك، ولكن ثلاثة أو أربعة ظلوا هناك يروون ما حدث. بعضهم مُشفِق وبعضهم لاعن. لقد حكيت لفاطي ما رأيت فقالت بأنها قد رأت من سال خراؤها وبولها حتى أخمص قدميها وهي ما زالت واقفة إلى المشرب تعبّ شرابها غير واعية بما يحدث لها من تحت. هذا ما تخشاه فاطي هي أيضاً وتحتاط منه بحيلتها، هي الجميلة الجذابة التي يشقى من أجلها الرجال الجشعون البلهاء والعقلاء ولا تشقى هي من أجل أحد في شيء. لا ريب في أنّ للاّ شفيقة تضخّ فيها من دم تجربتها هي التي عانت من بطش الرجال وفسقهم وحمقهم.

تبدأ فاطي عملها في الثامنة مساء. غالباً ما يدوم عملها حتّى الرابعة أو الخامسة صباحاً. إذا هي لم تنم في الدار فإنّ للاّ شفيقة تفهم أنها نامت مع زبون شهم وكريم. إنها لا تخشى عليها. لقد دربتها على المراوغة اللطيفة وكيف تستلين حتّى تسلّ الشعرة من العجين كما يقال

دون أن تقع في خِزيٍ أليم. لكأنها مسلحة بحجاب خارق يحمي ما ينفعها. فاطي لا يهمها عمر الزبون قدر ما يهمها ما يدفعه وهو راض عن نفسه، لكن عليك أن تعرف أنها لا تنام مع قذر في لباسه وجسده مهما يجزل لها في العطاء. مرة انتشيت في الشراب فطلبت منها أن تنام معي وكنت من الخاسرين. كان عندي كفاية من النقود ولم أكن قذراً، لكنها اعتزت وتمنعت ببشاشة: أريد أن أحتفظ بك صديقاً. هكذا طعنتني اللعينة بلطفها إلى حدّ النفور منها. كيف ترفضني وهي تذهب مع من هو أقلّ مني! فيما بعد، فكرت أني المخطئ الساذج اللعين. وأقنعت نفسي بأنها أيضاً تريدني ولكنها لا تعرف كيف تريدني فظلت حائرة بين ما تريده ولا تريده مني في اضطراب مكتوم شبه متماسك. وطبعاً حدث هذا قبل أن أعرف للاّ شفيقة التي زكّت بيننا هذه الصداقة المقترحة فَعَمَّقتْ كبح مشاعر شهوتي الجياشة نحو فاطي. وحتّى لا تغالي فاطي في هزيمتي وتتركني أستمني ليلتي اختارت لي بابتهاج «مبتدئة» فيها شيء من ملامح وجه رامبو ووسامته عندما جاء إلى باريس لأول مرة. لكأنّ فاطي تلبّي لي رغبتي فيها من خلالها موصية إيّاها بأن تعاملني كما لو كنت أخاها.

كانت هذه «المبتدئة» قد بدأت تتردد على الحانة منذ أيام. إنّ فاطي تشفق على «المبتدئات» مثلما تكره المحترفات المخادعات والمنتقمات من الرجال الطيبين إلاّ أن يكون هناك سبب لعين. ستبغضك إذا هي عرفت أنك تخدع «المبتدئات» الغريرات وتستغلهنّ بشماتة. فكرت ونحن نبتسم ووجهانا في عيوننا: اللعينة! أتريد أن تخلق معي مغامرة ما تقرأه عن الحبّ العذري في الشعر الذي نسيتُ أكثره. . .؟ تلك لعبتها، لكن عليها أن تسلي بها نفسها مع زنبور آخر. أنا أيضاً لي لعبتي أغوي وأراوغ بها من أريد. هكذا كنت أدافع عن نفسي لأقهر رغبتي فيها. ورغم كل ما قدمته لي فاطي من جميل في تلك الليلة فقد شعرت

بالخيبة وإنْ لم تكن خيبة ساحقة فيها عُنّة. . . ![1]

لقد بدت لي «المبتدئة»، في البداية، على شيء من الخبرة في الملاعبة: فما أن دخلنا الفراش حتى راحت تتلوّى كأفعى تستيقظ، لكن انكشف لي أنها مثل معزة حمقاء تنطح في طيش كل مكان حميم حتى قبل أن ألمسها في مكان حسّاس؛ فهي تخرج لسانها خارج فمها وتدوره ثم تسرطه مثل حرباء اصطادت جُنْدُباً. ولكي تبرهن لي على شبقها الزائف حاولت أن تعضّ شفتي السفلى وإنْ بحذر، وأن تخمش هنا وهناك، وأن تستقرّ أظافرها على ظهري مثل سرطان البحر وهي تتلين وتتأوّه. لقد أفهمتها بلطف أن هذه الإثارة المهتاجة لم أتعود عليها ولا أستلطفها في شيء فكفت عن المداعبة والمراودة واستكانت عاقلة. لكني فكرت أنه ما عساني أن أفعله مع امرأة عاقلة في الفراش؟ لا شك أنها شعرت ببعض الإهانة وهي تحاول أن تعرض فنّها في المضاجعة. أعرف الكثيرين الذين يبتهجون بمثل هذا العضّ والخمش ويتباهون بهما بسخافة. إنهم لا يتوانون عن كشف آثارهما لتأكيد إعجابهنّ بهم. ربما ندمتُ قليلاً على ردّ فعلي إزاء سلوكها، لكن بديهتي لم تسعفني في الوقت المناسب كما أردت لكي أطلب منها تلطيف عرضها الساذج في العضّ والخمش والقرص. لم تكن الليلة سلبية تماماً، لكن ينقصها الانسجام. ألأنّها كانت أوّل مرة معها؟ ربما!

جميل أن يسقط المطر، لكنه يصبح كارثة عندما تسمع القطرات تتساقط من السقف في خمسة أسطال بانتظام: بلاق... بلاق... بلاق... إني أحتمل أن أتبلل من قمة رأسي إلى أخمص قدميّ دون شكوى ولا هذه القطرات التي أسمعها تبقبق أو كما لو أنه الطائر النّجار ينقر هامتي صانعاً عشّه، كما لو أنّ دبوساً ينغرز في جنبي، في جفني.

---

(1) العُنّة هي العجز عن ممارسة الجنس.

كل صفعاته أطيقها على وجهي في الشارع أو في الغابة إلاّ قطرة واحدة تخرق الآن سمعي برتابة تجنّن. لكأنه تعذيب صيني حقيقي، لكنني لن أستسلم حتى ولو جننت، حتى ولو انفجرت جمجمتي. ها هي مزايا السكن على السطح تسقط في الهُوّة.

شربت كأسين من النبيذ الواحدة تلو الأُخرى لعلي أتخدر قليلاً وأنام، لكني عينيّ البومة يقظتان في عينيّ. حتّى جرعة من الكحول القويّ لم تكن عندي في هذه الليلة. أما «المبتدئة» فلا أعرف كيف دبّرت أمرها! لقد نامت دون أن تنزعج. أعرف أشخاصاً يتوسل إليهم النوم ولا يتوسلون إليه. وعندما طفق يدفئني النعاس أخذ شخيرها يعلو وينخفض مثل صفير مخنوق، مثل قطار قديم يعلن عواؤه الوحشي عن إقلاعه. وحتّى لا أهينها مرة أخرى لم أجرؤ على زحزحتها. لا أذكر كيف نمت. ربما أوحيت إلى نفسي بأني قد مت!

لم أذهب إلى العمل، ولم أجد ما أدفعه للآنسة «المبتدئة». إنها «حَصْلَة»[1]. ماذا ستظن؟ لقد أَفْلَسْتُ إذاً في الشراب معها! أذكر أنها كانت تشرب على حسابي ما كانت تشاء. وربما عرضت أنا كؤوساً على لعينات مثلها أو على ملاعين مثلي. أعرف جيداً لعنتي وجنوني عندما أشرب مع الملاعين. أنا أيضاً أسترضي الملاعين بكرمي الزائف لكي أروق لهم ويعتبروني شخصية مهمة. تفو على هذا التبجح! حككت رأسي وذقني وفكرت في «المبتدئة». لا يبدو عليها أنها استولت، خلال نومي، على ما تبقّى عندي من نقود كما تفعل الساقطات. لا يمكن لها أن تفعل لأنّ فاطي هي الوسيطة بيننا. لا بدّ أن يكون قد ضاع مني بعضها أو بذّرته!

عرضت على الآنسة، في خجل وارتباك، ساعة «المنبّه»، وعلبة

---

(1) ورطة.

من السردين، وأخرى من التون، وتفاحة وموزة، وكيلواً من الأرزّ الإسباني الجيد، وأيضاً حذاء ما زال في حالة جيدة، إنْ كان لها أخ لعين مثلي يناسب قياسه. فرحتُ بعثوري على هذا المؤونة.

ـ ألا تحشم؟ أتستهزئ بي؟ هل تريد أن تقاضي ليلتي معك بهذه الأشياء؟ لسنا بعد في أعوام الجوع.

هكذا بدأت دعواها وكنت من الصابرين.

ـ هذا ما أملكه يا آنسة.

ـ احتفظ بهذه الحوائج لجوعك. ولكي تعرف فأنا لست آنسة. أنا عندي بنت في الثالثة من عمرها تنتظرني. «آنسة، آنسة، آنسة...». هكذا كنت تصدع لي رأسي ليلة البارحة.

ـ لكني لا أملك غير هذا.

أشعلت سيجارة وراحت تدخنها بشراهة على الريق. ليست «مبتدئة» تماماً كما يبدو.

ـ هل أعدّ لك القهوة؟

ـ بارك الله فيك.

لم أعرف إنْ كانت تريدها أم لا؛ لأنّ اللعينة أجابت بطريقة مبهمة. وحينما رأتني ذاهباً إلى المطبخ أرعدت من جديد:

ـ لا قهوة ولا شيء آخر إلاّ ما أستحقه. مائة درهم، هل تفهم؟

ـ لعنة الله عليّ إنْ كنت أملك الآن أكثر من هذه الأشياء.

ـ مصيبة...! (ثم أرعدَت): وليلة البارحة يا أستاذ، أما كنت تتبجح بنقودك تُحَلّيها بأشعار عمر الخيّام وأبي نواس وشعرائك الآخرين؟ مسكين! إسمع: لقد وعدتني بمائة درهم. فاطي شاهدة علينا.

انزعجتُ قليلاً لأنّ فاطي هي المسؤولة عن تعارفنا. كيف سأواجهها عندما تطّلع على هذه الورطة، رغم أنني أعتقد أنها ستراعي طيشي، وتصدق إفلاسي ولن تعاتبني إلاّ بلطف؟

ـ أنا وعدتك بمائة درهم؟

ـ نعم، يا عمر الخيام. وكان هناك من يدفع لي ثلاث أو أربع مرات أكثر من مائة درهمك، ولكن إرضاء لفاطي جئت معك.

أشعلتُ السيجارة الثانية من الأولى. لا أذكر أنني وعدتها بهذا المبلغ. وحتّى لو كانت تستحقه ليلة البارحة فهي اليوم لا تستحقه؛ لأني أراها على حقيقتها الزائفة. إنها تتبختر لتخفي بؤسها في معطفها الفاخر في شكله، لكنه منتوف بالعثّة في عدة أماكن كأنه من مخلفات عجوز توفيت منذ نصف قرن. لا بدّ أنّها اشترته من سوق المشتريات البالية أو استغنت عنه زائفة مثلها. أراهن على أنها تتحاشى لبسه نهاراً متجولة في البولڤار. ثيابها كلها تفوح منها رائحة الخُرْدَة والبِلى وإنْ كانت نظيفة. أما نظافة جسمها فلا أتهمها كثيراً لولا رائحة إبطيها القوية التي دوختني وأشعرتني في الصباح بالتقيؤ. إنها تحمل في حقيبتها الباهتة اللون معجون أسنان وفرشاة وقارورة عطر قويّ باعث على الغثيان. إنّ أبّهتها هذه المتباهية بها لهيَ بائرة، لو كانت تعلم!

كان علينا أن نذهب معاً إلى «السوق الداخلي» لكي أستلف من رفيق لي، يشتغل في فندق «موريطانيا»، الخمسين درهماً لها وإلاّ فلتخبطْ رأسها مع الحائط وتَلْعَنّي إلى يوم القيامة. «إمش قدامي»! هكذا أمرتني المسخوطة أن أسير منقاداً أمامها وهي ورائي.

قلت وأنا أمدّ لها الأوراق الخمس خائفاً من أن ترعد في وجهي على مرأى من الناس: «هذا ما استطعت الحصول عليه يا آنسة». وفي صمت أضفت: «يا رابعة العَدوية»! دهشتُ وأنا أرى ملامحها ترقّ فجأة مثل برعم ينفغر وهي تعيد لي «المُنَبِّه» الذي احتفظت به في حقيبة يدها

كرهينة. مدته لي بحركة كما لو أنها تهبه لي تذكاراً وتشكّلت على وجهها ابتسامة منحبسة. ربما فكرت أني في حاجة إليه أكثر منها. كان يفوح من المُنَبِّه شيء من عطرها القوي. أَتمّتْ بسمتها رافضة أن تأخذ أكثر من ثلاثين درهماً. ودون أن تودعني بكلمة سارت في الدرب نحو «ساحة التقدم» وهي تقضم التفاحة. بقيت مبهوراً وهي تسير ولا تلتفت.. وما إن اقتربت من القوس المفضي إلى الساحة حتى اختفيت قبلها. فكرت أنها ستلتفت لآخر مرة ثم تختفي. في الغالب هكذا يحدث في مثل هذا الفراق اللعين. لا أحبّ التفاتة الوداع إلاّ قهراً. إنها قاسية، والبسمة التي تصحبها قد تكون غير حقيقية. لقد مثلت الملعونة دورها بمهارة.

جلست في مقهى طنجيس وطلبت قهوة مُكَثَّفة. الخُمَار[1] يُوَلّد في رأسي قططاً تتخالب وتتماوأ. هذا السوق ـ الذي أحبّه كل ملعون مثلي ـ لم يعد يعني لي اليوم غير القَرَف والبؤس المزري. حتّى مقهى فوينطيس غزا جماليتَه في الساحة بازارٌ Bazar كبير. حُفَرٌ وقذارة وسط الساحة نفسها: زريبة خنازير. اختفت منه كل ذكرى وحنين. حتى هذا النادل لا أعرفه. أكاد أرى الجريمة ماثلة في عينيّ كل من أراه الآن جالساً أو واقفاً يتربص. المكر أراه وأشمه. إنه الرعب بعينه في وجه كل من يجوس الساحة. العدوانية المجانية متحفزة في كل الوجوه الممسوخة. من أين جاء كل هؤلاء الذين يبدو على وجوههم أنهم خرجوا حديثاً من السجن ومستعدون أن يعودوا إليه!؟ لا شكّ أنهم من الذين يوصون رفاقهم على صيانة أماكنهم الحميمة في السجن لأنهم بالتأكيد سيتعمّدون العودة إليه في أقرب وقت. إنه غزو تَتَري. لا أكاد أعرف منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة. لقد شخت معهم، لكن الحياة هنا اليوم تتعفن وتخسأ ولا تشيخ

---

(1) صداع الرأس وألمه بسبب السّكر.

في جلال. حتى الذاكرة تتأفف وتمقت أن تسجل اليوم أيّ شيء مما تبقّى. لم يتغضن ويتجعد وينكمش فحسب جلد «السوقيين» الدائمين بل تفَسَّخ وَتَبَثَّرَ واهترَأ. أكيد أنّ استعادة مجدهم القديم، في مخيلتهم، هو الذي يُشْحِبُ الآن سحنتَهم وينخر عظامهم ويجعلهم يمتعضون من هذا التحول الذي هزمهم في مدينتهم المنكوبة. لكأنّها جثة لم تُدْفَن جيداً. هذا القلب، قلب المدينة في عزّ شبابها مصاب اليوم بِجُلطَة دموية محال أن يسلم منها. شرايينه تتمزق كل يوم. سينفجر. . . !

On ne sait qui vit qui meurt
On est tout à son malheur
D'être encore là
Quand le soleil vole
en écclat
René Guy Cadou

سرت في عقبة «الصَّيَّاغين» قاصداً حانة دينز ـ بار لأشرب ما تيسّر من البيرات. كانت أكثر من العاشرة صباحاً. كنت أوّل زبون، على ما يبدو، لأنهم يفتحون في هذه الساعة. رائحة الليل المخمورة والمُدَخَّنَة ما زالت قوية، تُقيء. شربت الكأس دفعة واحدة حتى أنسجم مع الرائحة الكريهة. قبالة المَشْرَب صورة لهمنغواي غامقة اللون رسمها هاو مبتدئ، لكن كثيراً من الذين يداومون المجيء إلى الحانة سمعتهم يقولون بأنها لوحة نفيسة، وأنّ ثمنها سيكون باهظاً لو أنّ خبيراً رآها وقدّر قيمتها الفنية. «لا بدّ أن يكون رسّامها مشهوراً اليوم، فقد مضى على وجودها هنا أكثر من خمسين عاماً، لكن خسارة أنّ الرسام لم يضع اسمه عليها. إنّ العباقرة يضيّعون لنا كثيراً من الفرص بتواضعهم عندما لا يوقعون لوحاتهم». هكذا كان يهتر زبون كهل يعتبر نفسه المؤرّخ الحقيقي للحانة. إنه يتمنى يوماً تكون فيه لوحة همنغواي هذه في أحد متاحف العالم المشهورة، وربما أغنت صاحب الحانة. ويؤكد زبون

آخر أنه سمع من «دين» Dean[1] نفسه أن همنغواي كان صديقه، وتردد دائماً على الحانة عندما زار طنجة[2]، وأنه أعجب باللوحة وشرب كثيراً وهو يردد إعجابه بها ومتنبئاً لمن رسمها بمستقبل عظيم. لقد أراد أن يشتريها بمبلغ يكفي لشراء الحانة نفسها، لكن «دين» اعتذر لهمنغواي بأنه يفضل الاحتفاظ باللوحة الرائعة كذكرى لصداقتهما الغالية، وزيارته الخالدة المشهودة لطنجة وإعجابه بالحانة واللوحة. أما صاحب الحانة فهو لم يعد اليوم شاهداً على ما زال يقال نهاراً وليلاً لأنه مات منذ سنين[3]. لكن هناك من يقول بأنّ الرجل الطيب حيّ لم يمت رغم أنه مدفون في المقبرة الإنجليزية البروتستانتية في طنجة، ويأتي ـ حسب الزعم ـ كل صيف من أميركا أو إنجلترا ليحيي ذكرى حانته ويشرب معه مجاناً كلُّ من يوجد فيها. وهناك أيضاً صورة صغيرة لهامفري بوغارت Humphrey Bogart لا تقلّ قيمة ذكراها عن لوحة همنغواي. ويؤكّد زبون آخر عريق في التردد على الحانة بأنّ هامفري بوغارت أهدى الصورة بنفسه لـ «دين»، وكان هو حاضراً، وأنّ هامفري بوغارت كان لطيفاً وكريماً وهو أيضاً يشرب معه كلّ من يوجد في الحانة. وكان الزبون العريق يفخر هو كذلك بأنه حصل له الشرف بأنّ يتحدث ويشرب معه مرة واحدة فقط لأنّ زيارته إلى طنجة كانت عابرة، لكنه وعده بأنه سيعود بالتأكيد وسيشرب معه. . . ! الصورة الأخرى المعلقة على نفس واجهة الجدار لا يجرؤ أن يعلق عليها أحد، ولا أهمية لها لأنّ أصحابها لم يكونوا يترددون على الحانة حسب قول الزُبُن[4]، الشاهدين على

---

(1) صاحب الحانة.
(2) لم يزر طنجة قطّ.
(3) توفي عام 1963.
(4) مفرد: زبون.

روادها سواء من الذين كانوا قبلهم أو من الذين جاءوا بعدهم أو الذين لم يجيئوا قطّ. لا أحد يعرف من جاء بها ولماذا هي موجودة هناك ولعنة الله على من يقول العكس! في مشهد الصورة سيدة جالسة على كرسيها الفخم تستقبل عجوزاً وحولها حاشيتها. قيل بأنها باربرا هاتن أو هي شبيهة بها، لكن عارفاً آخر له حكاية أخرى: «إنها بطلة في فيلم أُنجز في طنجة. المأساة وقعت في هذه المدينة بالذات؛ فقد أحبّ شاب إسباني فتاة إنجليزية من أسرة دبلوماسية، وحين امتنعت عن مبادلته حبه يئس وانتحر شانقاً نفسه في شجرة حديقة منزلها قبالة نافذة غرفتها وقيثارته متدلية من عنقه». لا أحد استطاع أن يجزم، ولكن كل من ينظر إليها له رأيه فيها. ورغم هذا، فلا يهمّ إنْ كان أشخاص الصورة المعلقة قد زاروا طنجة ودينز ـ بار أم لا. إنهم موجودون في ذاكرات متجولة في هذه الحانة والحانات الأخرى. قد يكون الحيّ منهم ميتاً، والميت حيّاً، أو لا هو حيّ ولا هو ميت. إنّ حياته أو موته يتم الجزم في أحدهما حسب المزاج، وما تهوى أن تسمع أو ما لا تريد أن تسمع: فالمرء بينهم قد يكون اليوم حياً وغداً ميتاً، وبعد غد قد يصبح ميتاً وهو حيّ، أو هو لا وجود له إطلاقاً، لأنّ أحداً من الحانة أو أية حانة أخرى ممسوخة لم يسمع به أو لا يريد أن يعترف به حتى وإنْ سمع به ورآه، في هذه المدينة السعيدة، رغم شقائها.

شردتُ مع ذكريات الحانة التي كانت ملجأ للجواسيس الأجانب العابرين في مهمّة ونخبتهم المقيمة في المدينة أيام كانت دولية، ومع برّوزغينسبرغ وأورلوفْسكي وكيرواك، مع بولزوجين وتينسي. لا أحد تحدث معلقاً على أحدهم، لأنّ صورته لم تكن هناك، ولأنّه أيضاً كان ممنوعاً على هؤلاء المعلقين أن يكونوا في الحانة في تلك الأيام. تمنيت لو كانت هناك صورة واحد من هؤلاء الذين شردتُ معهم.

أعترف أني لم أكن أنوي التعامل مع «المبتدئة» بخبث وخساسة

عندما راقت لي صحبتها في الحانة، لكن الفظيع هو أنّ سلوكها اللطيف المفاجئ قد هزمني.

في بداية السبعينيات، بدأت تظهر بعض العاهرات الفاشلات في دراستهن. ومليكة، هذه «المبتدئة»، كانت واحدة منهنّ. أغلبهنّ كنّ يأتين من مدن أخرى تلافياً للعار العائلي وما قد يستفزه من حزازة وإجرام. ولم تكن للاّ شفيقة وبناتها يشعرن بأيّ حرج عائلي لأنهنّ منقطعات الجذور، ولم تعد هناك أية صلة وطيدة، قريبة أو بعيدة، مع من بقي حياً من عوائلهن. كانت هؤلاء «المبتدئات» مُسْتَعْطِفات في واقعهنّ المزري أكثر مما هنّ محترفات جسورات محتجّات على من يستغلهنّ.

صار بيني وبين فاطي صداقة. هي التي خلقتها بلباقتها وزكتها للاّ شفيقة بوقارها وبركتها؛ فأنا لم يكن من عادتي أن أخلق صداقة حميمة مع امرأة. ربما لأني لم أكن أعرف كيف أخلقها معها وليس لأني لا أريدها. المرأة عاشت دائماً بعيداً عني؛ فهي إمّا مقدسة لا تُمَسّ أو أنها مُدَنّسة خَسِئة. ربما أيضاً أنّي أخشى الاستحواذ والغيرة المجنونة أو القاتلة إذا ما أنا خلقتُ علاقات وأنا لا أبغي إلاّ حرّيتي.

لم يعد بيني وبين فاطي أيُّ تغزل حقيقي ما عدا الملاطفات والمداعبات التي تخلقها الظروف. لقد تآخينا، ربما على مَضَض لأني أيضاً أشتهيها كما يُجَنُّ باشتهائها الملاعين مثلي. أريدها أحياناً خارج عذرية حبّها التي خلقتها معي. كانت تزيد في حساب السكارى المولهين بها لكي أشرب أكثر مما في جيبي. مجاناً أشرب حتى أبقى أكثر أو هي تُسَرِّب لي شرابها الذي يدفع ثمنه المخبولون بها قائلة لي: «إبقَ، أبقَ أكثر»؛ فأشرب لأبقى أكثر، أنا المُفْلِس المَدْيون لها والملعون. وأحياناً يكون معي زفزاف مفلساً مثلي.

الميــراث

غربة.
لي غربتان:
واحدة هنا وواحدة
هناك.
أيّهما الأغرب؟
لا خيار بينهما،
في زمن المحن،
رغم الوطن.
الضفادع هي التي
لا ترحل من مَرجها.
ما كان لي أن أقول:
سأرحل غداً،
لكن انقيادي
كان قهراً،
وبقائي صموداً
كان هشّاً.

ها أنا ذهبت،

ها أنا عدت.

هذا ما هو أنا الآن.

عاد الهادي من حرب الهند الصينية مبتور الذراعين. لقد عرف لماذا عاد منها ولكنه لم يعرف لماذا ذهب إليها.

لم يكن هو الوحيد الذي ذهب وعاد حاملاً عاهته المستديمة، لكن عاهته أفظع من الذين يعرفهم. عاهاتهم تسمح لهم أن يقضوا حاجاتهم بأنفسهم. ما يعزيه هو أنه عاد لكي يموت في بلده. اللعنة الكبرى ستكون لو أنني مت هناك في العراء وسط دغل فأصير وليمة لأكلة الجيف.

يعتقد الهادي أن الطريقة التي يموت بها الإنسان تحمل غفرانها أو لعنتها.

عندما ماتت زوجته خَلفَها ابنهما الوحيد علاّل في العناية به. اعترف له أبوه أنه أكثر صبراً وإشفاقاً عليه من أمّه. لم أندم على إنجابه كما يقول لأصدقائه.

تتكون ثروة الهادي من معاشه الفرنسي، ودار ذات طابقين، وقطعة أرض، وبقرتين، وبضعة رؤوس أغنام ودجاج. حياته هادئة. لا يعاني كثيراً من قلق الشيوخ وكآبتهم متحسراً على ما لم يعد يستمتع به. أصدقاؤه ينادونه الحاج الهادي وما حجّ سوى إلى حرب سيق إليها عنوة. لم تكن تعنيه في شيء.

يردد على ابنه علاّل رغبته في الزواج حتى يعفيه من العناية به.

أعرف ما تريده يا أبي، لكني لن أسمح بذلك. رغبة الزواج هذه تقلق علاّل. إنه في حدود الأربعين ولم يتعلم أية مهنة.

لا بدّ أن أشغّل معي ذلك الصبيّ ليرعى البقرتين والأغنام السبع

لأواجه هؤلاء المحوّمات حوله. ستستولي على كل شيء إذا نجحت إحداهن في إغوائه والزواج منه.

لقد أوعز له أبوه أن يتزوج هو، على الأقل، لتساعده زوجته على العناية به. وإذا تدخل بينهما شيطان الغواية! إمّا هي أو هو أو هما معاً. لا أحبّ هذا المصير. أنا قادر على العناية بك وأكثر يا أبي. أعرف أنك نصف كاذب. إنها رغبتك الملحّة أنت ولكنك تخجل من قولها.

تجاوز الهادي الستين لكن صحته جيدة. أطال الله عمرك، لكن بعيداً عن إحداهن حتى لو كانت أَعْمَر منك.

لم يكن يشكو الهادي إلاّ من بعض الأرق، لكن علاّل لا يتضايق من تلبية حاجاته في أيّ وقت نهاراً أو ليلاً.

جاءت حليمة المتصابية في عزّ كهولتها مُضَمخة بعطر عربي والسّواك والحِنّاء مدّعية أنها متطوعة لرعاية أبي لوجه الله فطردتها. ابتعدي عن أبي وإلاّ جعلتك تندمين. لكن أباك يلحّ على زواجه. إختر له واحدة بنفسك. هذا شغلي أنا. إبلع لسانك أنت في هذا الموضوع وإلاّ فلسنا صديقين. إشرب كأسك واهدأ. هذه آخر مرة أتكلم فيها عن أبيك. أنت على حقّ. أنا فضولي. إنه أبوك. أنا أعرف هؤلاء العجائز. أمعي أنا؟ إن كل واحدة من المتهافتات على زواجه منها لا تريد منه إلاّ الميراث وأبقى أنا عاطلاً بائساً أتسكع في الطرقات. كلّهنّ من سلالة الشيطان.

ما يريده أبوه هو امرأة يتمتع معها بما تبقّى له من عمر. إنه يعرف بعض أهوائه، وسمع بعضها من أصدقاء أبيه. بعضهم شاخ معهن سوياً في نفس القرية. اليوم ترملن مثله لكنهن في بؤس.

جَرْدٌ عمّا حدث وربما لم يحدث:

بعضهن يتحدثن معه وينصرفن.

بعضهن يتحدثن معه ويقبلن صلعته وينصرفن.

بعضهن يقبلن ذراعيه المبتورتين وصلعته وينصرفن. وبعضهن يفعلن كل ما سبق ويطلن النظر فيه واقفات، مبهوتات حتى يطردهن اقترابي منه. أمّا العاقرات اللعينات فيقبلن صلعته، ويديه الوهميتين ويرتمين متهافتات على أسفله تقبيلاً وقبضاً باليد. لا يبقى لمن تقبضه في يدها إلاّ أن تتمنى مصّه وإدخاله فيها. أكون بعيداً أو أتظاهر بأني لا أرى كل ما يحدث. وعندما أقف إلى جانبه ينصرفن متمتمات بما لا أسمعه بوضوح. ربما يتمتمن بالشكر والتبرك واليمن.

ذات ليلة، وهو يشرب النبيذ مع أبيه، فكّر علاّل: ماذا سيحدث إذا ما أنا فعلت له ذلك «الشيء»؟ قد يغضب كثيراً أو قليلاً لكنه لا يستطيع أن يستغني عني وينكرني.

من عادة علاّل أن يحمّم أباه مرة أو مرتين في الأسبوع بالماء الدافئ في الصباح، حسب رغبة الأب، لكن مغامرة تنفيذ ذلك «الشيء» الحاسم بانَ بأنه لن يتلاءم إلاّ مع الليل.

في الأيام المشمسة، يُخرِجُ أباه للتمشي عبر حقل أو حقول ثم يرجعه قدام الباب حيث يتقبل زيارات «التَبَرُّك» من أهل القرية وقرى أخرى قريبة وبعيدة؛ لأنّ بركته صارت معروفة في المنطقة كلها بين النساء اللعينات العاقرات والولودات: فهذه ولاّدة بنات وهي تريد ولداً، وهذه لا تلد إلاّ ذكوراً وهي تريد بنتاً. هل صار أبي حقّاً وليّاً؟

أرامل وشابات يسلمن على أبيه. كلهنّ يتوددن إليه، لكن علاّل يتجول قريباً منه. حين تطيل إحداهن الحديث معه يدنو منها. صمته جافّ، متوتر وسحنته متجهّمة في حضور إحداهنّ، عجوز أو شابة، إذ لا ثقة في الأعمار. إنهنّ وكفى.

المشهد يتكرر كلّما أخرج أباه قدام باب الدار لتبدأ الميمنة. يمثّل علاّل دوره بكل صرامة مع كلّ من تقترب من هؤلاء العجائز، والشابات

المصّاصات أو المتصابيات بكهولتهن المهترئة. إنهنّ سواء لديه. أمعي أنا؟

مع أصدقاء أبيه، يبش ويشارك هو أيضاً في الحديث معهم. إنه يسمح حتى لأحدهم بأن يتناول شاياً أو قهوة أو وجبة طعام معهما في دارهما أو في داره.

هذه الليلة جُنّت السماء بمطرها، لكن الهادي لم يعترض على حمّامه الليلي الذي اختاره ابنه. كانت المرّة الأولى التي يُحَمّمُ فيها ليلاً. تناول علاّل كؤوساً أكثر ممّا تعوّد عليه. كانت إلى جانبه قنينة نبيذ يشرب منها دون قدح حتى يتغلب على اضطراب يديه الراعشتين. لعلّ حمّام الليل هذا سيساعدك على نوم مريح. أعتقد أنه أفضل من حمّام الصباح. أجاب الهادي بصوت عادي: أتمنى ذلك. كما تشاء يا علاّل. أنت الآن تعرف ما يلائم وما لا يلائم سنّي ربما أفضل مني.

يفرك علاّل الهادي في الحوض الخشبي[1] بالصابون والحلفاء بفرح طاغ. لا يدري إنْ كانت ستنجح مغامرته الجهنمية!

يحكي لأبيه عن أشياء القرية. ربما لم تعد تهمه كثيراً. أبوه أيضاً يحكي له عن ذكرياته في الجيش الفرنسي ومعارك ديان بيان فو Diên Biên phu. الحكايات قصيرة جداً، متقطعة: رفيق كان إلى جانبي. شظية فجّرت جمجمته. مخّه لطّخَ وجهي. أمعاء رفيق آخر لم أعرف كيف أجمعها وأردّها إلى بطنه حتى جاء رفيق آخر وأنقذني من حيرتي. لقد جاء الإسعاف وعاش المبقور.

إنها نفس الذكريات يحكيها الهادي لعلاّل ولغيره مرات كما لو أنه يحكيها لأول مرة. صياغتها تتغير لكن لا ينضاف إليها شيء نسيه. لا ينقص منها إلاّ كلمة هنا وكلمة هناك.

---

(1) بِتِيّة.

علاّل مضطرب ويده اليسرى ماسكة الصابونة منزلقاً بها شيئاً فشيئاً إلى الأسفل كما يفعل هو مع نفسه ليخفف من توتره عندما لا يسعفه الحظّ بإحداهن وإلاّ فإنه لا ينام. العلامة الطيبة أفرحته. مَرْحَى يا أبي! أبعد الله عنّا المُحَوِّمات شابات وعجائز.

لم يستغرق الدلك الرفيق إلاّ قليلاً. الهادي يتنهّد بانتشاء. الرغبة كانت مشحونة. لا كلام بينهما. علاّل استغرقه أيضاً الانتشاء. ربما أكثر من الهادي! إنها راحة ما تمتع بها منذ أن عاد من تلك الحرب الملعونة. رجفات علاّل هدأت وهو يعرق. ومنذ ذلك الحمّام، والحمّامات الليلية التالية، لم يعد الهادي يلحّ على أيّ زواج.

أحسّ علاّل أنه سيعيش مع أبيه في أمان ويقين.

السّقالة

إنها المرة الرابعة: وصل إلى نهاية السِّقالة، وحين أوشك أن يضع قدمه اليمنى على أرضية الباخرة اعترضه شخص مستعجلاً هابطاً فتوقف ورجع. عبثاً شجعته بالتخاطر[1] ليمرّ قبل الشخص الذي يبدو أنه نسي شيئاً في البرّ. رِهاني هو أن يطأ سطح الباخرة. لعنت ذلك الشخص المشؤوم في خيالي وتمنيت لو أنني كنت مكانه لأترك ريكاردو اللعين يمرّ. وسواس العودة العزيزة عليه كان أقوى منه. أكيد أنه تطيّر من ذلك الشخص: أنا صاعد وهو هابط. لا يمكن. فلنهبط إذاً معاً. ليس هذا فألاً حسناً. هكذا يكون قد فكّر ريكاردو؛ فقد سبق له أن رجع إلى شقته متخلّياً عن السفر لأنّ شخصاً يمرّ أمام العمارة بصق. ريكاردو اللعين يرجع من النهاية أو الوسط أو قبل أن تطأ قدمه عتبة السِّقالة عائداً ليخضع إلى إجراءات الجمرك الأخفّ من الأولى.

---

(1) تخاطر Télépathie: تناقل الخواطر والوجدانيات من عقل إلى عقل على البعد، بغير الوسائل الحسيّة المعروفة. (المنهل).

لا سفـر

صار من عادتي
أن أكون آخر من يصل.
ربما تلافياً لما ينتظرني:
خيراً أو شرّاً.
الصف الطويل
دائماً يذبذب تفاؤلي.
أرجع من حيث أتيت
وأملي ألاّ أرجع،
ولكنني أرجع
فأجد أكثر من صفّ.
وكلّما ذهبت تتوالد الصفوف.
الوصول إلى بداية العبور معجزة.
أليس من الخير لي أن أتمسك بلعنتي
فأبقى حيث أنا!
انتحى بي جمركيّ بودّ يراقب التفتيش من بعيد:
ـ ماذا يحدث لرفيقك؟ إنها المرة الثالثة أو الرابعة على التوالي التي

يمنعه شيء ما على المغادرة. في كل مرة يتعلل فيها بأنه نسي شيئاً مهماً في المدينة. هل هو غير عادي؟ وما هو هذا الشيء المهم الذي ينساه في كل مرة، إذا كان هذا لا يزعجك؟

ـ أمّه عجوز مريضة في السبعين من عمرها. (في الحقيقة هي معافاة وشخصيتها قوية لمواجهة وعكات صحتها وشيخوختها) إنه ولد وعاش هنا ولا يريد أن يذهب إلى إسبانيا فقط من أجل العمل الذي لا يجده في طنجة. يستمدّ قوته للعيش الهنيء من جاذبية هذه المدينة. لا يعرف كيف يعيش في غيرها إلاّ على مضض. حين يغادرها يبتئس ويفقد لذة العيش السعيد.

أردت أن أضيف إليه بأني أنا أيضاً يحدث لي أن أعود إليها من بداية أو نصف طريق سفري إلى مكان قريب أو بعيد عنها، لكني فكرت أن مجنوناً واحداً يكفي حتى لا يُجَنّ معنا الرجل.

ـ هل هو أيضاً كاتب أو فنّان؟

ـ نعم. إنه يعزف على البيانو. لكنه مجنون بالقراءة أكثر. يقرأ حتى وهو يأكل.

لم أبالغ؛ فهو تعوّد منذ صغره على أن يقرأ في الحمّام ولا يفتح الباب إلاّ بعد أن تتوسل إليه والدته عدة مرات واعدة إيّاه بتلبية شراء ما كانت قد رفضته له. لم تكن تفي دائماً بوعدها فيعود هو أيضاً إلى غَيِّ لعبته في تحدّي رغباته المرفوضة، لكنه إذا عرف أنّ أخته كانديدا هي التي تدق فإنه يتمادى في عناده: فلْتُفلت حاجتها في سروالها أو في الشرفة كما فعلت مرة عندما باغتها الإسهال. وإذا دقت أمّه من أجلها وتخلّى عن حِرانه[1] فإنه يزفر من منخريه وفمه مُدَمْدِماً: إنّ المرء لم يعد يعرف فيمن يثق!

---

(1) التعاصي عن الانقياد.

ـ يتكلم جيداً الدارجة المغربية.

ـ نعم، لأنه عاش مع الأطفال المغاربة في صغره أكثر ممّا عاش مع الأطفال الإسبان.

يبدو أنه قد أطال الحديث، لكن لا، لأنّ رتبة الضابط على كتفه ألغت فكرتي. ابتسم شاكراً وابتعد.

نتراءى في بعض الحانات، لكننا لم نتكلم. لا شك في أنه سيسألني عن حالة ريكاردو عندما نلتقي. فضوله شديد. ربما حبّاً لاستكشاف نفسية غريبي الأطوار وليس عن سوء نيّة، كما يبدو.

منذ فترة وأنا أريد أن أكتب شيئاً عن ريكاردو، لكن الكتابة تمتنع بقساوة وتستعصي كلما عزمت على أن أكتب عن أشخاص أعرفهم جيداً. «من تحبّه قد تحبّه أكثر أو أقلّ، إنْ شئت». جملة جاهزة. لا بدّ من جملة فيها انجذاب أقوى من هذه. ما هكذا ينبغي لي أن أبدأ الكتابة عنه. إنه شائع بين الكتّاب أنّ البداية صعبة. هذا ليس صحيحاً دائماً إذا عرفت كيف أتصالح مع شيطان الكتابة. الصعب عندي قد يكون في اختيار عنوان مناسب حين انتهائي من نصّ. إنّ العنوان ينبغي أن يكون مثل عُرْف الطاووس أو ذيله. هذا ما يقوله لي خبيرو الحذلقة في اختيار العناوين.

لا أدري لماذا خطر لي ما قاله سيوران ونحن نستقل التاكسي: «إنّ شاعراً يفتقد الشعور بالموت ليس بشاعر كبير».

لقد تعودنا على احترام الفلاسفة، لكن ألا يمكن للمرء أن يحلم بما هو مقدس دون أن يكون له مآل فيه! أن نكتب فقط لكي نحلم وليس لأنْ نحلم من أجل إنقاذ أنفسنا مما ينتظرنا أو ينتظر غيرنا من دمار ماحق. أتساءل ولست ضد أن نكتب لنطرد عنا مخاوف الخطر.

ـ لقد فتشوني في الرجوع أكثر مما فتشوني في الذهاب.

ـ من حقك أن تتخلى عن السفر ومن حقهم أن يقوموا بواجبهم.

ـ لا شك أن الضابط الذي كان يتكلم معك سألك عني.

ـ نعم. وأجبته بأنك نسيت نقودك وأشياء مهمة لا يمكن لك أن تعيش بدونها في إسبانيا.

ـ ما هي؟

ـ التوابل التي تطبخ بها طاجينك في إسبانيا.

تلافيت الحديث من جديد عن وسواسه الذي يقهره على الرجوع وهو صاعد إلى الباخرة. بدأ يثير شبهات السلطات. شبهات جنون وليست شبهات مُريبة في التهريب أو الإجرام.

ريكاردو يحبّ أوتيليا لأنه يشفق عليها فقط. إنها مصابة بالقَمَه(1). قد يهجرها حينما تبرأ لأنّ حبّه لها مقرون بمرضها. هذا ما استشففته من خلال حديثه اللعين عنها. حبّه لها لن يطول. سيطول إذا كان قد عاهد نفسه بصدق؛ فهي لا تكاد تأكل أكثر من قطعة خبز مُحَمَّصة مُزَيَّتَة، وفنجان شاي معطر بالياسمين ودانون. وإذا حدث أنِ استسلمت للإلحاح عليها وتناولت أكثر من هذه الوجبة في اليوم فإنّ اللعينة تفرغ المحتوى في المرحاض كما يفعل كل الملاعين المصابين بهذا المرض متظاهرين بالبراءة والإذعان الكاذبين أمام المشرفين على علاجهم في المستشفيات أو رعايتهم في منازلهم.

فكرت أنّ حكمة الحياة قد تُقَرِّبنا من الموت العزيز علينا في أعماقنا، لكنني لا يغريني بساط الموت السحري؛ فأنا أحسّني وارثاً من شقاء الحياة الفانية أكثر مما أنا وارث من نعيم الموت الخالد. ريح الموت تعانق فصلاً واحداً وأنا أحبّ أن أعانق كل الفصول. الموت ليس إلاّ موت الأنا الواقعية، فلأعانق فصولي قبل أن تتلاشى. فما أبعدني عن: «ونعمة كانوا فيها فاكهين»!

---

(1) فقدان الشهية للطعام Anorexia.

باغتني والسيارة تتجاوز جمرك مدخل الميناء:

ـ ألا تعتقد معي أنّ خنزيرتي تفكر فيّ حتّى حين أكون بعيداً عنها؟

ـ ربما، لكنك أيضاً لا تملّ من حبك لها رغم أنها طردتك عدة مرات كما قلت لي. هناك من لا يريدون أن يحبهم أحد وهم يعانون من مرض مزمن.

ـ هذا صحيح، لكنهم ينسون أنه لولا الصليب لما كان المسيح.

قد يباغت حديثه عن أوتيليا أيَّ غريب كما لو أنه يعرفها شخصياً، ومستعدّ أن يعرف حالتها المرضية العَصبيّة ويُبدي رأيه في علاقتهما المتوترة.

ـ أنا لا أومن بالقهر الذي يشعرني بكبرياء الخلود. حقّاً إنّ المسيح خلق حياته بموته. ولد ليعمّق خلاص الإنسان بألمه، وليؤكد رسالته، لكنه كان حرّاً في اختيار مصير آخر.

أوتيليا تسافر مع ريكاردو وهي طريحة سرير المرض في مالقة تنتظر موتها. وعندما ماتت خفَّ حديثه عنها، لكن حسرته عليها هي أيضاً غامضة: فلا هو تذكّرٌ عميق ولا هو نسيان سطحي. شيء ما بينهما. قد يعرفه هو نفسه وقد لا يعرفه. لقد ماتت منذ سنوات، لكنها لم تدفن إلاّ في السنة الماضية. «ماذا تريد أن يحدث لها! لقد عاشت حية ميتة». هذا آخر ما سمعته منه عنها.

ومثلما هو الحديث معه متاهة إذا بدأ يتكلم عن أوتيلياه فكذلك هو حديثه إذا بدأ يتكلم عن أمه ألفونسينا الطاغية والمستبدة. عاملتني في صغري بجفاء وقسوة لأنّ أمها عاملتها بنفس القسوة فجسّدت نفسها المقهورة في العناية بأختي كانديدا وحبّها المفرط لها مستحضرة روح جدتي القاسية في نفسها ومستعيرة ما فاتها معها في روح أختي المحظوظة: هكذا كان ينبغي لك أن تحنّي عليّ يا أمّي كما أحنّ أنا على ابنتي كانديدا. لستُ شاهداً على جدتي روساليا البالغة القسوة، كما

تزعم أمّي، لكن ما ذنبي أنا؟ ومن يعتني بها اليوم سواء كنت هنا أو في إسبانيا؟ (إنّ تعلقه بأمه هو شعور غامض: يمتزج فيه الحب والتذمر البالغ الحساسية الصبيانية).

أمه تعيش وحيدة. تخدمها صبية مغربية. تكاد تقتصر خدمتها على شراء الحاجيات الضروريات؛ فما أن تأمرها بفعل شيء حتى تنحيها برفق: «اتركيني أفعله أنا بنفسي يا بنتي. أنت ما زلت صغيرة على فعله، لكن انتبهي حتى تتقني فعله جيداً في المرة القادمة». وفي كل مرة قادمة تتولّى أمّي ما تأمر الصبية بفعله.

أخته كانديدا تعيش مع زوجها وأولادها في ألميرية. تأتي مرة كل صيف إلى طنجة. وأحياناً تفضل قضاء عطلتها مع حَماتها في موتريل Motril.

أسلاف ريكاردو من أمه جاؤوا إلى طنجة عامين قبل بداية القرن العشرين ثم توافدت عائلة جده من أبيه نازحة من نيرخا Nerja بعد الحماية الاستعمارية في المغرب. جده من أمه هو أول من أنشأ مخبزة عصرية خارج المدينة، في طريق سيدي بوعيد، يوم كانت أبوابها تقفل في المساء وسكانها من النصارى واليهود أضعاف أهلها المسلمين. يهودها قليل منهم برابرة. جمعوا بين الحِرَف، والعِرافَة والسحر الأسود والمُسالِم. استوطنوها لاجئين من الأندلس يوم سلّم أبو عبد الله محمد مفاتيح غرناطة التي ضيّعَ حكمها كرجل وبكاها كامرأة[1]. فمن بين عشرة نصارى ويهود كان يمرّ مسلم واحد. لم يكن يعمر المسلمون المدينة إلاّ يوميّ الأحد والخميس آتين إليها من البوادي إلى السوق البرّاني حاملين بضائعهم على دوابهم أو على ظهورهم.

(1) إشارة إلى ما قالته له أمه
Porqué lloras como mujer por un reino que has perdido como hombre
لماذا تبكي كامرأة على مملكة ضيعتها كرجل؟

المرأة المغربية ـ إذا مرّت مستعجلة ملفوفة في حائكها ـ تستلفت نظر النصارى أكثر من اليهود الذين يتكلمون نفس لغة المغاربة ويمارسون بعض الطقوس المتشابهة. ظهور المرأة المغربية كان نادراً حتّى في أزقة المدينة.

كان قد زار طنجة دولاكروا، ألكسندر دوما، مارك توين، روبين داريو، بلاسكو إيبانيث، پيوباروخا ووالترهاريز (مراسل جريدة التايمز اللندنية)[1]، لكن شهرتها الدولية لن تبدأ إلاّ مع الحماية (30 ـ 3 ـ 1912) والمصادقة نهائياً على نظام منطقتها الحرة في 12 ـ 6 ـ 1928 بعد تعديل اجتماع باريز (18 ـ 12 ـ 1923) من أجل مشروع تدويلها.

ريكاردو لا يشدّه الحنين إلى زيارة أمّه وإنما حبّه لطنجة هو الأقوى. لا يعرف كيف يتخلص من حنينه إليها الممسوس به. قال لي مرة: «كل من يجيء إلى طنجة يريد أن يفتضّ بكارتها دون أن يكون سيّدها المختار». قد تجد بعضهم من أهلها الأصليين يحنّ إلى عهدها الاستعماري، رغم ويلاته، لأنه كان يسود نظام وأمن. لم يكن يعترض أيّ لصّ معتوه أحداً سائراً إلى بيته بسيف أو خنجر كما يحدث اليوم حتى في عزّ النهار وفي وسط البولڤار. ومن يستطيع أن يتدخل من المارّة؟ لقد كان أهلها حماة لكل معتدى عليه وأصبحوا اليوم مجرد متفرجين، بنوع من الهوس والسادية، على كلّ عراك دام.

عام 93، زرت الناظور بعد مرور أكثر من نصف قرن على ذلك الرحيل الجماعي المجاعي. استدعتني جمعية إلماس للقاء مع الجمهور. قرأت الفصل الأول من الخبز الحافي. الحوار كان حماسياً وحميمياً مع الشبان وفاتراً ومتزمتاً مع بعض الكهول.

---

(1) ولد في 29 ـ 8 ـ 1866. كان يراسل التايمز اللندنية. جاء إلى طنجة عام 1886. مات في مالطا عام 1933. ودفن في المقبرة الإنجليزية في طنجة حسب وصيته حيث عاش أكثر من خمسين عاماً.

أتذكر بيتنا الموشك على الانهيار، وآكلة الجيف تحوّم في السماء، وإقلاع هجرتنا مشياً على الأقدام إلى طنجة، وأشجاراً لا حياة فيها ووجوه الصغار والكبار كالحة مسخها بؤس الجفاف. عمري كان سبع سنوات.

عبثاً حاولنا العثور على من يتذكر أحد أعمام أبي في القرية المجاورة لـ «سوق أحد بني شيكر». أمي كانت قريتها من «أرهوانن». وعندما بدا لي العجوز، حارس مسجد القرية، متذبذباً في تذكر عائلة أبي المهاجرة فكرت أنه ربما لم تكن هذه هي القرية التي نبحث عنها. ولكي أعزّي نفسي أكثر مَسّني هاجس بأنها حقّاً ليست هي قرية أبي[1]. لقد قيل لي عنها الكثير في صغري ولا أجد اليوم شيئاً منها. كل الذين هاجروا لم يعد منهم أحد ليسترجع أصله وسكناه ويقيم. من يعود منهم يفعل ذلك فقط لصلته بأرضه (التي عار عليه أن يبيعها) ولإحياء الرحم مع من بقي فيها حيّاً من أهله والترحم على من مات منهم ثمّ يرجع إلى مهجره مطمئنّاً على أنّ أحداً لم يلعنه من الأحياء والأموات. كان العجوز يتكلم دون حسرة. قال لي أحد المصاحبين:

ـ لا شك أنك تشعر بالحنين...!

ـ أبداً. أنا فقط مندهش من أنني ولدت هنا.

راقني سكوته الذي هو ربما أبلغ من تعقيبه على كلامي. كنا سنخوض في نقاش لن يتمّ إلاّ بإفساد ما تبقّى من الرحلة الشيّقة في قصدها لو أننا استمررنا في تحليل الحنين الحقيقي والحنين الزائف. أيُّ حنين إذا لم تكن هناك ذكرى حميمة نحو مكان ما! في تلك اللحظة امتزج الواقعي بالخيالي متيقناً من أنني لن أرجع أبداً للبحث عن مسقط رأسي. ربما لم أولد هنا. حتى وَهْم الحنين لم يخالجني للبحث عن

(1) قرية محمد أولاد مسعود محمد ـ حسبما قيل لي فيما بعد.

مكان ضبابيّ مفقود. ربما كنت طفلاً هنا ولم يعد يعني لي شيئاً هذا «الهنا».

القرية شبه مهجورة. أشجار التين بعيدة عنا. المراعي غائمة. شبان يدخنون تحت سور قديم. بيوت صغيرة لا لون لها. ينظرون إلينا بفضول وارتياب. عُصْبة أطفال توقفوا قليلاً ثم استأنفوا لعبة القفز على ظهر رفيقهم ـ الحصان الخاسر. طفلة واحدة حافية القدمين تتفرج. شعرت بضيق قابض للقلب فَلَمَّحْتُ إلى رجاء عودتنا إلى الناظور. يبدو أنّ مصاحبيّ تفهّموا مزاجي العكر منذ أن بدأنا نفتش عن جذور عائلة أبي المفقودة. البؤس يعشش في القرية شبه المهجورة. يكاد اليوم يشبه الأمس! في البعيد، بعض الفيللات شيّدها مُحدَثو الثراء كما قال لي أحد الرفقاء.

بـابـا دادي

عشقيات.

حبّي لكِ أَبْقَى

وكلُّ «عِشْقياتي» زوال.

قال: وبماذا أجابت؟

قلت: صفعتني ثمّ استكانت

في حضني.

قال: هذا هو عشق طنجة

في المحال.

فقلت ما لم أقل!

الثانية بعد الزوال. في الغالب، لا يكون عنده الآن أكثر من زبونين أو ثلاثة وربما واحد أو لا أحد. يستمتع بقنينة نبيذه إذا كان وحيداً. يفخر اليوم بأنّ أحد زبائن مطعمه وحانته في بوردو كان طالباً في الحقوق وصار فيما بعد وزيراً مرموقاً في إحدى الحكومات المغربية. سمّى محلّه «حانة طنجة» لكي تكون مدينته حاضرة معه دائماً في المغتَرب. العمال والطلبة صاروا يعتبرون حانة طنجة سفارتهم ودادي سفيرهم وكلّ أوراق اعتماده حبهم له ولطفه معهم. حتى طبخ أمّهاتهم

كان يطبخه لهم. كل واحد وحنين شهيته لما كانت تطهوه له أمه.

حينما زار الوزير اللامع طنجة استضاف بابا دادي للعشاء معه في فندق فخم، لكن بابا دادي تعجرف كعادته لأنه لم يكن قد تناول بعد كمية كؤوسه التي تليّنه وتجعله حميمياً وفكاهياً وأحياناً مهرّجاً لطيفاً بين زبائنه المداومين. أعلن للرسول الذي جاء بصفة رسمية فخمة ليشرفه بالدعوة المرجوة: «فلْيَأْتِ هو بنفسه إلى محلّي ويشرب معي نخباً هنا كما كنا نفعل في بوردو حالمين بالاستقلال والرجوع إلى الوطن». تكلم بابا دادي باحتفال ضَخ فيه ما يعتقد أنه يستحقه من الاعتبار أمسِ في بوردو واليوم في طنجة رغم أن لا أحد أهانه.. أثارت الذكرى انفعاله وهيّجته حتى أوشك أن يلقي خطبة لولا أن أوقفته زوجته دومينيك بحزمها المعهود: «دادي، إنّ السيد الطيّب ينتظر».

أعاد عليه الرسول، بوجهه البشوش المندهش، ساعة الحضور واسم الفندق ثم مدّ له مبتسماً مظروف الدعوة. هدأ بابا دادي ووافق شاكراً. عرض على الرسول باحتفاء أن يشرب شيئاً، لكنه اعتذر بعمله الرسمي مشيراً إلى التاكسي وسائقه الذي يصحبه أمام سيارته الفخمة لإرشاده في المدينة:

ـ إنني من الرباط ولا أكاد أعرف إلاّ قليلاً هذه المدينة الجميلة.

ـ عد إلينا متى تشاء. هذا مكانك بيننا. إننا هنا نمزح ونمرح مثل عائلة كما ترى.

شرح له زبائنه العقلاء المُداومون الحاضرون منهم تلك اللحظة التاريخية في حياة بابا دادي والغائبون منهم الذين لم يحصل لهم شرف حضورها أنّ مكانة الوزير لا تسمح له رسمياته بأن يشرفه بزيارته في حانته الشعبية ـ رغم سمعتها الوقور ـ كما كان طالباً في بوردو. إنّ تنازله معقول إذا لبّى دعوة الوزير. مثل هذا الحدث لا يمكن أن يخفيه بابا دادي عن أحد حتى يعلم الجميع من هو بابا دادي في الحاضر ومن

هو دادي في الماضي. ففي المساء انتشر الخبر فامتلأت الحانة الصغيرة عن آخرها بمن كان في الصباح ومن لم يكن بل حتى من كان شبه غضبان معه مؤقتاً جاء ليتصالح معه. وما كانوا ليصدقوه لولا حجة الشاهدين الحاضرين. شرب الجميع نوبة على حسابه، لكنه ظل هو يشرب على حسابهم حتى أعياه السكر وبَحَّت صَوْتَه الأغاني التونسية والجزائرية القديمة التي يغنيها بحنين بكائي: (مسيكة، صليحة، حسيبة رشدي، الشيخ العنقا وراوول). كان ينهي كل وصلة من أغنية بضربة قوية على الحاجز الخشبي تهتزّ لها الكؤوس وما أكثر ما انقلبت أو تكسرت فأخرجهم أخيراً شبه مطرودين سكارى مثله أو أكثر منه هاتفين: عاش بابا دادي، معانقينه مقبلين صلعته متمنين له العمر المديد. ولو أنه تركهم على هواهم لباتوا معه، غير أنه أغلق الباب في وجه الأطفال الكبار كما يسميهم، الضاجين الضاحكين المبتهجين إلى حدّ الجنون، وصعد هو لينام لأنّ الدعوة محددة مع الوزير في اليوم التالي.

بابا دادي يحتفظ بثلاث بدلات لم يلبس أية منها منذ أن اشترى في نهاية الخمسينيات مطعمه الكبير وحانته الصغيرة التي تتصدر مدخله من أنطوان الذي هيّجه حنين العودة إلى موطنه بوردو مثل حنين دادي إلى طنجة. لم تكن هناك أية مناسبة خلال أكثر من ربع قرن تستحق أن يلبس واحدة من بدلاته الثلاث كما كان يفعل في بوردو. أنطوان ماتت زوجته، وأولاده الثلاثة أنهوا دراستهم وبقوا في مدينتهم منتظرين أن ينضمّ إليهم. أما دادي فلا أولاد له وزوجته متماسكة في صحتها وصمتها الحكيم لولا سمنتها التي تفاقمت بعد استقرارهما في طنجة. وتخليداً للذكرى التي أصبحت مشتركة بينه وبين أنطوان ترك دادي للمحلّ اسمه الذي عُمِّدَ به: «مطعم ـ حان بوردو». انسهل الأمر؛ لم يكن الفرق الذي دفعه دادي كبيراً بعد أن أعجب أنطوان بمطعم ـ حان

طنجة في بوردو. استخدما المقايضة في صفقتهما مثل أخوين يتقاسمان الميراث تبادلا بالتراضي. كانا قد سافرا معاً وشربا في حانة طنجة أنخاباً على شرف طنجة وبوردو. دومينيك تتولى تسيير المحل أحسن من دادي في غيبته بشهادة الزبائن الدائمين الطائشين أكثر منه. ولكي يبرهن أنطوان على أريحيّته لم يغير هو أيضاً اسم «مطعم ـ حانة طنجة». أعجبه الإسم كثيراً دون أن يفكر فيه أو يتمناه.

اكتفت دومينيك بِكيّ البدلة الرمادية وضمختها بعطرها لتخفف عنها رائحة الكافور[1] القوية المنبعثة منها. علقتها في مشجب المطعم وفتحت بابه الرئيسي المقفل ـ منذ موجة الكساد ـ لعلّ الهواء يطيّر عن البدلة، التي لم تعد صالحة للبيع حتى في سوق الخردة كما قالت له، مَزيجَ رائحتها الغريبة المُغثية. لم يعد هناك وقت كاف لتنظيفها في المصبغة لأنّ مثل هذه الخدمة المستعجلة لم تستورد بعد من الخارج.

وهما في علية الحانة، التي اتخذاها غرفة للنوم، عاتبته على مسرحيته الهزلية ودوره الذي مثّله فيها بتهريج أمام رسول الوزير والزبائن يصفقون بطيش واستهتار. لم يكن من عادة دومينيك أن تتكلم كثيراً فختمت لومتها: «إنني أيضاً أهتر ما دمت أعرف أنك لن تتغير في شيء». وكان لا بدّ له من أن يدافع عن نفسه قبل أن يغلفهما صمت النوم: «من حقّي أن أمزح مع أصدقائي كما أشاء».

المطعم كبير. مؤثث ببعض التحف الخشبية والخزفية التي جلبها معه من بوردو. ليس في القاعة من زينة تذكارية رياضية. لقد علّقها موزعة على جدران الحانة لأنها تذكارات تخصه هو وحده دون زوجته التي لا تهتم بالرياضة من أيّ نوع، ثم هي تليق بالحانة أكثر من المطعم الذي تشرف هي عليه. زوجان من القفازات: واحد ظلّ يحمله معه إلى

(1) يعادل النفتالين.

مجهول مغامرة هجرته من طنجة دون انتصار يذكر، والآخر ذكرى انتصاره على خصمه بالضربة القاضية في بوردو ـ إذا صدقنه ـ لأنه، بين الصدق والكذب، هو مسكون بتضخيم ومضاعفة أقلّ ما يغنمه. الزوج الأول من القفازات أحاطه بصورتين: واحدة لإسماعيل السطيطو الذي انسحب في الوقت المناسب دون هزيمة نكراء ليصير صاحب مطعم ليلي صغير معظم رواده من رواد الحانات الليلية والمشبوهين، والأخرى لعبد السلام بن بوبكر الذي كان أقلّ حظاً وما زال ينتظر في تطوان مباراة الثأر من خصمه كيد جابيلان Kid Gabellan الذي انتصر عليه في كوبا منذ أكثر من خمسين عاماً في بطولة العالم التي لم يكن مؤهلاً لها، لكن لأسباب تجارية دُفع بعبد السلام إلى خوضها فكانت هزيمته النهائية عائداً منها إلى بلده ليجترّ اضطرابه العصبيّ ـ وقيل وُضِعَ له شيء في شرابه قبل أن يلعب ـ والزوج الثاني أحاطه بصورتين: جو لويس Joe Luis الذي خاض 54 مباراة انتصر في 50 منها و43 ربحها بالضربة القاضية K.O والأخرى لمحمد علي (كاسيوس كلاي قبل إسلامه). وفي ركن عند مدخل الباب إحدى صوره كمن ينتصب وسط الحلبة في الشوط الأول. تُبَيِّن خلفيةُ الصورة أنها أخذت له في أحد استوديوهات التصوير، ثم صور أخرى أقدمها في العشرينيات من عمره وأحدثها بعد أن تجاوز السبعين رغم أنه ما زال متشبثاً بالسابعة والستين منذ سنوات كما لو أنه يعلن عن سنّه لغريب جاءت به الصدفة إلى حانته.

لم يعد بابا دادي يستغلّ المطعم إلاّ نادراً. وكل طلب للأكل ينبغي أن يكون مسبوقاً بيوم على الأقل. المدينة أصيبت بنكبتها السياحية الأولى منذ حرب 67. وجاءت حرب الخليج لتجهز على ما تبقّى من أمل في إعادة تنشيطها الاقتصادي الملعون.

لا يسمح بابا دادي لأحد بأن يشرب خمراً في مطعمه إلاّ مصحوباً بوجبة ولو خفيفة، ولا يسمح لامرأة مغربية بأن تدخل محله إلاّ إذا

صحبها رجل وبادية عليهما الرزانة والاحتشام في لباسهما وسلوكهما حتى تبقى لمطعمه هالته التي عُرِفَ بها.

دومينيك هي التي تشرف على إدارة حسابات المحل. تجلس إلى مكتبها في مدخل المطعم ولا تتدخل أبداً في شؤون الحانة. لها وقارها بين الزبائن. حتى بابا دادي نفسه لا يكلمها إلاّ باقتضاب وبصوت خفيض إذا اقترب من مكتبها. الرواد الذين تتبادل معهم التحية وبعض الكلمات قليلون. كأس شرابها من النبيذ تضعها تحت مكتبها. تجد دائماً عذراً مناسباً لكي تؤجل دعوة من يريد أن يعرض عليها كأساً. يأتيها بابا دادي بكأسها ويأخذ الفارغة في صمت. لا يسمح للنادل، الذي يساعده في المَشرب، إلاّ نادراً بأن يخدمها. قال زبون: ما يطيل العشرة بين رجل وامرأة هو أقل الكلام بينهما.

مارس دادي الملاكمة في الثلاثينيات أيام كان يبيع الجرائد وهو دون العشرين من عمره. يفخر أيضاً بأنه أول شيوعي «طنجوي». وعندما استولى فرانكو على الحكم انضمّ دادي إلى الجمهوريين. سَمَّوا هنا أيضاً فرانكو باكيطو Paquito[1]. الاعتقالات التي بدأت في المنطقة الشمالية قلّما كان يعود ضحاياها إلى منازلهم. إعدامات كل يوم في هذه المدينة أو تلك. وضع طنجة الدولي كان يحمي ـ نوعاً ما ـ الجمهوريين المقيمين فيها، لكن الرعب الذي أشاعه باكيطو في المدن الأخرى امتدّ إلى طنجة وتفاقم مع وفود أنصاره وجواسيسه الذين خلقهم نظامه هنا فتقلصت مناهضته علانية. شعاره السرطاني هو: الفاشية هي أيضاً ديموقراطية. مع أنه كان أكثر ديكتاتورية من هتلر وستالين. ماذا كان ينتظر من باكيطو الذي لم يكن فقط يرتاب في المثقفين بل كان يحتقرهم

(1) تصغير باكو Paco. الصيغة هنا للاستصغار والاستهزاء وليس للتحبب كما هو معروف بين أصدقائه الفاشيستيين.

ويعدمهم؟ وفي أفضل الأحوال يُسجَنون في El hacho: سجن سبتة الرهيب الذي لا يقلّ فظاعة عن سجن ألكاطراز Alcatraz[1]. بين فترة وأخرى كانت تحدث تصفية حسابات خارج المدينة أو في دروبها الليلية. تبادل طلقات نارية بالمسدسات أو السكاكين بين الروخوس (الشيوعيين) والفاشيستيين. أحياناً يتبادلون الشتائم بين مقهى فوينطيس والسنترال[2]. وقد تنتهي الشتائم واللعنات إلى طلقات نارية في نفس ساحة المقاهي. خلاص: إن نداء مغامرة الهجرة بدا لدادي الشاب أقوى من استمرار الصراع هنا مع أنصار باكيطو.

هاجر دادي إلى بوردو عبر وجدة والجزائر. رفاقه الروخوس افتقدوا فيه أهمّ عضو في خليتهم. لقد نجا بجلده لأنه غادر طنجة في بداية أيار/ مايو عام 40 واحتلتها إسبانيا في 14 حزيران/ يونيو من نفس السنة بقيادة الجنرال أسثينو Asceno لفرقة المِحَلَّة Mehal-la.

في عام 53 كنت أعمل في مقهى الرقاصة[3] نادلاً في النهار وبائع سجائر مهرّبة في الليل عندما ينسحب بائعوها النهاريون من السوق الداخلي. يأتي دادي كل عام مرة على الأقل في سيارته الشيفرولي Chevrolet أو الدوفين Dauphine لإحياء الرحم مع أهله والمدينة أمّ المدن (حُرَّة المدن) المغربية في عزّ شبابها ومجدها يوم أن كان بعضهم يعتقد أنها جزء من جغرافية أوروبا. هندامه دائماً أنيق، برّاق بقمصانه وبنطالاته الفاخرة التي يغيرها أكثر من مرة في اليوم. كانت معروفة هنا، لكن دادي يتقن اختيار ألوانها المنسجمة مع فصل السنة الذي يجيء فيه

---

(1) جزيرة صغيرة للولايات المتحدة، في جَوْن سان فرانسيسكو. كان فيها سجن شهير ألغي عام 1963.

(2) المقهيان يوجدان في ساحة السوق الداخلي.

(3) الرقاص، بالدارجة المغربية المحلية في طنجة، هو مبلّغ الرسائل من مدينة إلى أخرى. يُجمع على رقّاصة.

وقامته السامقة وشقرته الڤيكينگية. كان أحد زبائني الدائمين في النهار. في الليل (ليله) يتيه ليحيي صلة رحمه مع المواخير متفقداً من عرفهن قبل أن يهاجر إلى الخارج في ملابس الهارب من المدينة، مستكشفاً من طوحت بهن الحرب الأهلية الإسبانية، مفضلاً بغايا أوروبا الشرقية اليهوديات، مستقبلات زبائنهن في حومة واد أحرضان، في بيوتهن الصغيرة المفتوحة أبوابها دائماً إلى آخر الليل، ذات ستائر كالحة، الباقيات هنا رغم اندحار النازية، والأندلسيات، لأنه لم يزر إسبانيا منذ أن غادر طنجة قبل أن تحتلها قوات باكيطو اللعين. الفرنسيات لا يهفو إليهن هنا إلاّ إذا زغت به إحدى نزواته، لأنهن ينتظرن عودته في بوردو حاملاً لهنّ معه هداياهنّ المفضلة: شرابيل مزركشة[1]، وقفاطين، وأساور فضية، وقلائد، وكحلاً، وحِيّاء، ومَراوِد. كل عام وأنتنّ بخير إذا جاء إلى طنجة قبيل رأس السنة حيث تسبقه الهدايا في البريد. غرامياته البطولية معهن غالباً ما يحسمها بعراك دامٍ مع غُرَمائه المشاكسين فرنسيين وجزائريين وسلاحه ضرباته القاضية حتى وإن كان خصمه يحمل سكيناً أو مطواة، حتى وإن كان اثنين أو ثلاثة. تصوّروا ملاكماً يستعين بسلاح. يا للعار! هكذا يقول. أما المغربيات فيخصص لمعشوقته ليلة كاملة في فندق لندن العتيق المفضل لديه بأرضية غرفه الخشبية. يطلب أن يؤتى له بأعتق نبيذ إسباني، وطاجين لحم بقر مع اللوز والبرقوق والبيض المسلوق أو ضأن مع البطاطا البلدية بالزيتون على مجمر ناره خفيفة من مطعم الريحاني أو حمادي القريبين[2] من فندقه لأنهما أشهر مطعمين في المدينة في الطبخ المغربي وغيرهما باطل.

---

(1) نوع من الأخفاف المغربية.

(2) الأول كان يوجد قبالة «الجامع الجديدة» (يُنطق هنا هذا الجامع مؤنثاً) والثاني في زنقة الناصرية.

في إحدى جولاتي الليلية، شارباً على قدر ما في جيبي كأساً عند خاكوبيطو وكأساً في بارخينيرال، التقيت دادي قدام الجامع الجديدة هائجاً منهزماً كأنه تعارك مع ثلاثة أو أربعة. سكران، وجهه مخموش، يُهَدِّر، واعداً إياها بالخنق والقتل، خابطاً بلكمات قاضية في الهواء. فامة البيضاوية. لا يمكن أن تكون إلاّ هي. دادي يستطيع أن يرفعها باليمنى أو اليسرى إلى أعلى من مستوى قامته الفارعة، لكنها هي أيضاً تستطيع بقامتها القصيرة الضئيلة أن تستخضعه راكعاً قدامها بنزواتها المغوية وزوغانها الغجري.

ـ هل رأيتها؟

ـ فامة؟

ـ نعم.

ـ مرت منذ لحظة في اتجاه زنقة الناصرية.

ـ مع من؟

أجبته بخبث حتى أتسلّى بهيجانه:

ـ مع شاب.

ـ بنت الحرام. يلعن دينها. هذه الليلة سأقتلها.

وليس هذه أول مرة يدفنها حيّة.

زهـور الموتـى

تغزوني دموعي.
من خلال أفكاري.
ربما ضُعْفاً فكرتُ في نفسي،
أو في أحد.
ليس البكاء هو البكاء.
قد يخجل الحزن
من نفسه أحياناً
عندما يغزو المقهورين.
لا مصالحة مع السَّفّاحين.
لي لحظات أسرقها
من الفرح الشارد.
ربّما أعيتني ثقتي في نفسي.
ربما كآبة اليوم هي وليدة الأمس،
ربما النسيان المتخاذل لا يسعفني.
من يستطيع أن يعيد مجد اللقاءات
في الحانات التي خَرَّبها التتّر؟

تلك التي أفرحتنا
فيها الأحزان الجميلة . . . !
أَهُوَ أَرذَل العمر أم هو بئس المصير؟
زمن سيأتي ليقول:
لا هذا ولا ذاك.
إنّما انتهى ما انتهى.
ويعود الأمل المشحوذ
إلى محرابه.
أَيُّ أمل هو الأمل
إذا كان اليأس يُغَذّي رضيعنا . . . !
إنها كلمات قد تُحزن ولا تُفرح،
ولكنها بين بين.
وقد تكون هذه
أو تلك الكلمة.
إنّك الحاضر الذي لا يسعف إلاّ نفسه.
لكَ زمانك وبعدكَ لي نفسي لنفسي.
لا أُعلن نفسي وحيداً
شاهداً على الخراب.
إنّما الجميل يتراءى من خلال سرابه.
أَهُوَ الحزن؟ أَهو البؤس؟
أَم هو بئس المصير؟
عسى أن تذكر معي
تلك التي وأنت الذي
استكنا معاً في حضن التذكار.

عندما سيصبح العالم غارقاً في الدم، فإنّ طنجة لن تغرق إلاّ عند حدّ العَقِب. هذا ما قيل قاله سيدي بوعراقية وعلّقه بابا دادي شعاراً لحانته.

جالس في استرخاء، قرب المطبخ، على مقعده ذي المِسنَدين، الذي اشتراه، منذ فترة، خصيصاً لقيلولة شيخوخته التي بدأ يعترف بوطئها الغَلاّب على كبريائه وإنْ كَتَمَه، لكنه ظاهر للعيان، لكن لا أحد يستطيع أن يهزم كبرياءه الشامخة إلاّ في حدود النكتة والمزاح اللذين يستجيب لهما مزاجه المُحترِس.

إنه الآن في شبه إغفاءته. تطلّع إليّ. عيناه الصغيرتان الزرقاوان أَخبَتْهُما قليلاً الثمانون عاماً، لكنهما ما زالتا تلمعان عندما يُشْرِقُه حديث شائق. السنوات التي يحتفظ بها لنفسه لم يعد أحد يلحّ عليه بالبوح بها. ما عاد يستجيب للمُزاح على عواهنه. ماذا يهمكم من معرفة سنّي الحقيقية؟ فضوليون. مشاكسون. ندمتُ على معرفة بعضكم. ستخرأون في أفرشتكم وسراويلكم عندما تبلغون سنّي. عافاكم الله رغم أنكم خبثاء.

آ. . . ! جئتَ. مرحباً. جلستُ قُبالته في الركن، قرب المدخل، تحت صورته في عزّ شبابه التي أُخذِتْ له بملابس الملاكمة في هيئة متحفِزة. التَوَرُّم غزا مفاصل يديه وقدميه. منذ سنوات وهو يعاني من النّقرس وإنْ كانت نوباته تغزوه على فترات متباعدة. أو ربما أَجْهَدَ نفسه بعناد في أحد تدريباته التي يمارسها أحياناً مع أحد تلاميذه القدامى في الملاكمة حتى يُقنع المُزّاحَ أنه ما زال يقاوم. في إحدى المرات، زاره معي محمد برّادة فوجدناه جالساً قرب بوّابة المشرب ويداه تحت بطّانية صغيرة لفّ بها ركبتيه. أرانا يُسراه المتورمة أصابعها: «هذا ما فعله بي خاتمي الذي لم أنزعه منذ أكثر من أربعين عاماً. لقد دفعته للإصلاح. إنه هدية من دومينيك يوم فتحنا هذا المكان». صوته واه لكن امتيازه أنه

لا يئنّ إلاّ قليلاً ولا يبالغ في الشكوى والتذمر. ربما يعتبر أن الحزن شيء حميمي شخصي. أنفه تجَمَّعت وتجعدت فيه حصيلة أكثر من ستين عاماً من الشراب أكثره نبيذ وجعَة وأقلُّه كحول قويّ مثل الماحيا[1]، والتيكيلا والأَبْسَنْت Absinthe[2]، التي أكثر منها في بوردو وتخلّى عنها إلاّ عندما يزوره بحار متقاعد مقيم في جبل طارق. لم يحلق منذ أيام. ربما لا يعرف كيف يحلق جيداً أو يعرف ولكنه صار يتكاسل ويهمِل هندامه. يداه ترعشان في بداية الكؤوس الصباحية. جَنْبَه، على طاولة صغيرة، بيرة دون كأس، كعادته. أنا لم أرعش بعد. ما زلت أتلذذ بالفطور مصحوباً ببيرة باردة وطعم السيجارة الأولى. سعال خفيف فقط لكن لا تحمرّ به عيناي الدامعتين غير أنّ دوري آتٍ. بابا دادي يتناول الأدوية ويعترف بمفعولها لكنها لا تثنيه أبداً عن جِرايته في الشراب. كل شيء له مكانه في الجسم: الأدوية تذهب إلى مكانها والأطعمة والأشربة تفعلان مثلها والباقي خرافات ـ كما يقول.

خرج كريم من المطبخ حاملاً مزهرية الزنابق التي كانت تحبها المرحومة دومينيك. وضعها فوق مكتبها ولثم الباقة. لم تنجب فتبنته رضيعاً. لم يزر قبرها قط منذ أن بنيناه. قال له بصوته المبحوح الواهن: أدخل إلى المَشرب وكفى من النفاق. إنها ليست مدفونة هناك.

ظل المكتب خالياً حتى من بابا دادي. لن أكون أفضل منها عندما يجيء أجلي، لكن هذا لا يؤلمني ما دمت لا أنتظر أيّ عزاء من الملاعين الذين فَرَّخَهُم هذا الزمن اللعين. رفعت سبابتي ووسطايَ

---

(1) شراب يصنعه اليهود من التين. وهو شبيه بالاڭمي التونسي المُستقطَر من جذع النخلة.

(2) شراب مسكر مرّ وقوي يستخرج من الأفسنتين. سمّي في القرن التاسع عشر شراب الملاعين. من بين الذين أدمنوا عليه ڤرلين. صدر في فرنسا قانون بمنعه رسمياً لكنه ما زال يباع خِفية.

فوافَق بهزة من رأسه على طلبي: بيرة له وأخرى لي. إيه. نعم. بارك الله فيك. الله يكثر من خيرك.

في السنوات الأخيرة، كثيراً ما صار يحاور نفسه، غير أنه ما زال يقاوم خَرَف الشيخوخة. وضع لنا كريم البيرتين. تبنته ماما دومينيك في نفس الفترة التي شجعت فيها بابا دادي على الزواج من فتاة مغربية، يكبرها اليوم بأكثر من أربعين عاماً، حتى يتخلص من نزوات عشقه وفسقه ولعلّه ينجب منها أولاداً وكذلك كان. أنجب منها ـ كما تمنت له دومينيك ـ ولدين وبنتاً. يتابعون اليوم دراستهم. البنت أكثر اجتهاداً من أخويها كما يقول بابا دادي. إنه لا يدلل أحداً منهم، لكنهم يمازحونه عندما يكون مزاجه رائقاً. كريم تخلّف في دراسته واهتمّ بالرياضة. استغنى بابا دادي عن البار ـ مان فاحتل كريم مكانه. الأزمة الاقتصادية أيأست كل التجار الصغار. الحياة ما زالت تدبّ في المدينة، لكن مجدها الذهبي ضاع[1]. طنجة غادرتها ثروتها الذهبية لكن روحها باقية. هكذا يعزّي المفلسون أنفسهم في حكايات الشتاء التي لم يعد فيها من غنيمة الصيف إلاّ القليل. لا أحد يتساءل عن كيف يمكن إنقاذها. أسطورتها تُغَذي الصمت الذي يلفّها في انتظار ما سيحدث. أسطورتها أقوى من تاريخها. امتيازها أنها لم تفقد كل روحها رغم صدام الحضارات فيها، ورغم أنّ كل واحد يمارس فيها موسَوِيتَه، وعيسَوِيتَه ومُحَمَّدِيتَه بتسامح، لكن يبقى أنه رآها من رآها ولا يراها اليوم من يراها إلاّ من خلال غابرها. أَسْطَروها بدون مهارة فَمَيَّعوا ما تَبقَّى لها من صلابة عَراقتها.

فَهِمَ بابا دادي من حركة يدي اليمنى حول عيني وإشارتي باليسرى

---

(1) بعد الحرب العالمية صارت طنجة مركز الذهب والتهريب الطاغي في كل شيء مثل السجائر المهربة والجواهر والدعارة الدولية والمضادات الحيوية Antibiotiques.

نحو كريم أنه ينتحب. لقد تنحى جالساً في أقصى قاعة المطعم. ناداه دون أن يتحرك من مقعده. جاءه ماسحاً عينيه. مدّ له خمسين درهماً. اشرِ زهورها التي تحبّها وزهور الموتى[1]. نسيت اسمها. بائعو الزهور يعرفونها. زرها غداً أو متى تشاء إنْ كنت ما زلت تتذكر قبرها. ربما ذهبتُ معك!

---

(1) يقصد زهور القُقَحان Crisantemos وهي عادة يُزار بها مقابر المسيحيين يوم فاتح تشرين الثاني/ نوفمبر ترحماً على الموتى المؤمنين.

وجـه ماجدلينـا

غيرة.
أرى ما أرى.
قد يعجبني ما أرى،
لكني لا أستطيع
أن أعيش ما أرى.
ربما.
قالت: لا تستحقك امرأة غيري.
قلت: لستِ الوحيدة بين كل النساء.
قالت: كم عمر كلّ نسائك؟
قلت: عمرهن واحدة متعددة.
قالت: مسافتك معها؟
قلت: ما يقربنا ويبعدنا.
قالت: وبينهما؟
قلت: أحياناً أنا، أحياناً هي،
أحياناً لا أحدنا.
قالت: لا أصدّق أحداً.

وجه ماجدة أو ماجدلينا Magdalena ـ كما أسماها بيننا أحد عشّاقها الإسبانيين ـ يتغير ثلاث مرات أو أكثر كل يوم. ماجدة هو اسمها الذي تحتفظ به لنفسها. قد تبوح به لأحد أَعِزّائها في لحظة حميمة. لا يهمّ إنْ كان هو اسمها الحقيقي. ولكي نزكّي اسمها الخفيّ عنّا أسميناها بيننا أمّ الخير. وربما من هذا الإسم الذي شرفناها به اشتقّت كلمة موخير (امرأة) بالإسبانية حسب اجتهاد بعض اللغويين العرب.

وجه مجدلينا الصباحي، إذا هي سهرت أو إذا هي نامت في آخر الليل واستيقظت باكراً مُرغَمَة، فإني أتخيّل أن يكون لونه ليمونياً أو ربما زيتياً، أما بعد القيلولة فقد يصبح لون وجهها برتقالياً وفي المساء قد يشرق ألواناً زاهية.

أتذكر وجه مجدلينا الزاهي ـ وعمرها أقلّ من العشرين ـ (أيام زيارة بواخر المارينز إلى طنجة باستمرار). عليك أن تكلمها يومذاك، كانت مثل نمرة ليست في نزوتها التناسلية إذا تحرّش بها شخص لا ترغب فيه.

جاءت ماجدة أو ماجدلينا أو أمّ الخير من تطوان في أواخر الخمسينيات صحبة أمّها زَهرة أو «زهيرو» كما دللتها صُحَيباتها. هي أيضاً كان لها مجد قحبها الجميل بين الإسبان وعساكرهم. اليوم لها تقاعدها القحبي دون توبة خالصة.

ماجدلينا ـ كما يحب أن يدعوها عاشقها الإسباني وتحب هي، وأمّ الخير كما نحب أن ندعوها نحن الذين حبّبنا اسمها بيننا حتى في أرذل عمرها المتصابي ـ نادراً ما كانت تعاشر «المغاربة»: رجالاً ونساء. فحتى لهجتها المغربية فيها لُكْنَة إسبانية من أهل الجنوب، وأحياناً تُطَعِّمُها بكلمات غجرية؛ لأنّ أحد عشاقها العابرين كان غجرياً.

وجهها يميل إلى الطول، أنفها كليوباتري، شفتاها في حجم حبّة فراولة كبيرة مشطورة، وما تَبَقّى قد يثيرنا، قليلاً أو كثيراً، عندما نعشق

امرأة عادية مرحة كان لها جمالها المحدود غير منتظر منه الصمود أكثر من عمر شبابها.

ذات مرة، في حانة إشبيلية، طلبت منها أن أنام معها فرفضت بعجرفة قائلة:

ـ لا يروق لي القحب مع المغاربة.

ـ لماذا؟

ـ لأنهم لا يدفعون جيداً. إنهم وحشيون في الفراش. وقد يركلونني ويصفعونني دون أن يدفعوا شيئاً. أحدهم بصق على وجهي عندما طلبت منه ما اتفقنا عليه. يحسبون أنفسهم ماتشوس Machos وغيرهم الأجانب مجرد مُخَنَّثين.

بعد سنين، لم يعد لزيارة بواخر المارينز وجود إلاّ عابراً. جيوبهم لم تعد منتفخة بالدولار ومواخير السوق الداخلي الدولية أغلقت في نهاية الخمسينيات. ولم يبق في طنجة إلاّ قلة من الجالية الإسبانية. كان الإسبان قد خلقوا في طنجة (بدءاً من عام 40) عادة العيش في الشوارع. وحينما ذاقوا العيش فيها رفض الكثيرون منهم العودة إلى بلدهم المجاور بعد خروج الاحتلال الإسباني (11 ـ 10 ـ 45) لأنّ طنجة كانت فردوساً لهم إذا قورنَت مع إسبانيا فرانكو.

كانت مجدلينا قد بدأت تهرم وأنا مثلها فلا عيب من أن أعيد عليها طلب نومها معي. لم تجبني بشيء. الحانة خالية من الزبائن. عاهرتان تتحدثان بهمس. قبّلتْ الأكبر سناً الأخرى بحميمية. غبطتهما على تلك القبلة اللذيذة. تمنيت لو كنت بينهما.

راحت مجدلينا تطلب كأساً تلو كأس لنفسها وللنديمتين العاشقتين على حسابي. تركت مجدلينا تبتهج. إنه يومها. لم تحك وتنكت كعادتها. بين لحظة وأخرى تزفر. تشرد. تدخن حابسة الدخان. أكره مثل هذا التدمير التدخيني. وجهها يبسم ثم يعبس ثم يعود إلى إشراق

يوحي بانفجار ضحكة ابتهاجية أو هيستيرية. لم يحدث ما كان متوقعاً سوى أنها لم تكفّ عن طلب الشراب لها ولزميلاتها الحانيات[1]. أنا صامت لا أبخل عليها وعليهن.

شرودها وصمتها يقلقانني. أهي تظنّ أني أنتقم منها؟ أن أعانق جسدها. هذا ما كنت أريد، في الأمس أو اليوم. لم أعد مهووساً بطراوة الجسد وتبرعم نهوده وبروز ربواته أو انحناءاته أو ثنياته أو انسجاماته أو تناسقاته. ما يهمّني الآن في ماجدة أو مجدلينا أو أمّ الخير وما شاءت من الأسماء هو شوقي إليها في ذلك اليوم الذي رفضتني فيه. ربما الجنس المحض هو الذي شوّقني إليها في ذلك اليوم. أما الآن فلا أطمح إلاّ إلى دفء حنيني يذكرني بذلك اليوم الذي كنت فيه وحيداً أو أردت الليلة أن أعانق جسداً بحب أو مجرد دفء ولمسات وهمسات ووجود جسد لصقَ جسد حتى أشعر بوجودي ـ إنْ ذلك يتمّ بلسماً للأمس أو رغبة للآن.

قبضتْ يدي بشدة. قالت ووجهها راغب في غموض:

ـ هل نذهب أو نبقى أكثر؟

ـ كما تشائين. هذا المساء لك ولي منه ما تغدقين.

ـ إنك شرس. تعال معي.

ابتسمتْ وطلبت كأسين أخريين لنا ولمن تسترضيها رغبتها أن تشرب معنا. ماذا يهم اليوم من غد! إنها رغبتي ورغبتها. رغبتنا جميعاً. من الراغب الأكثر؟ من الراغب معنا؟ لا يهمّ.

استسلمتُ لرغبتها الكئيبة والمُسِرّة. كنت أحسّ أنّي لا أهينها. يكفي أنها رغَّبتني في الحجّ معها. لا يهمّ أمسي معها أو هو يومها معي. لا مواعيد لي مع أيّ جسد في أيّ يوم حتّى مع من أحبّ. يأتي

---

(1) نسبة إلى الحانة: نديمات.

يوم ومعه جسده وحبّه، ويأتي يوم ومعه حبّه وجسده، ويأتي يوم دون جسد ودون حبّ، ويأتي يوم يَتَجاذَب فيه الشوق والجسد. هذا ما أحسستُ به مع مجدلينا في مسكنها.

في حجرة مسكنها هذا، الوشيك على الانهيار، لها فيها ذوقها الذي حذقته عبر سنين احترافها. خُيِّلَ لي أنّها زينة لا تليق إلاّ بالذين يزورون ليلها الوردي في بيتها. ربما هي زينة لها وحدها، وقد تكون لها ولمصاحبيها.

لا أدري ما هي زينة نهارها ووجهها الصباحي قبل قهوتها وسيجارتها الأولى وسعالها الذي قد يستمرّ حتّى سيجارتها الثالثة أو الرابعة. إنني أتخيّلها من خلال من عرفتهن مثلها.

الترهل بدأ يغزوها ثنيات هنا وثنيات هناك عبر جسدها إلاّ ما تحت الركبتين حيث يرعّشنا تلامُسُنا. وجهها الذي عرفته مستطيلاً يربّعه الآن الامتلاء والثنايا التي لا ترحم وجه المدمنين على السهر.

التجاذب لم تكن فيه حُمَيًّا كبيرة، لكن التلاحم لم يخل من محاولة الإرضاء: منّي إليها ومنها إليَّ مع استسلام غامض. شعرتُ بغزوٍ تتري نحوها. ربما لم تكن تريد تماماً أن تنام معي حفاظاً على نخوتها القديمة. ربما انصاعت لأنها محتاجة إلى نقود. على أنّ كؤوساً من الكونياك وسجائر شقراء لطّفت مزاجنا. تلك كانت آخر ليلة التحمنا فيها: مع حزن خفيف أدمعها ثمّ أفرحنا وأضحكنا. صرنا صديقين. لم أسألها لماذا. ربما كانت بيننا أجمل الأشياء التي نريد أن نقولها ولا نقولها. أهي أسعفتنا الكلمات وأَنِفْنا من قولها أم راقنا أن نكتمها على هوانا؟ إنّ هذا لَمِنْ شأننا وعهدنا ألاَّ نبوح بكل شيء أبداً.

نلتقي أحياناً في مطعم الدورادو. وحين لا تكون أو لا أكون يكون ما يكون ولا حقّ لأحد أن يسأل عما هو بيننا من حضور أو غياب. إنه وجهي ووجه مجدلينا. وجهانا في وجه.

حمَّـادي القَمَّـار

أنا أقامر،

لكي أربح ولو قليلاً،

هذه فضيلتي.

البحر! آه من البحر!

أليس أننا منه وُلِدْنا وإليه راجعون!

إنه أمّنا وليس أبانا.

هذه الهمسة لا يلفظها إلاّ لنفسه أو لمحبيه الذين أحبّوا هذه المدينة التي يُجمّلُها لون البحر ويلعقها زبده. بين ماضيها وحاضرها هناك فردوس مفقود.

حمّادي القمّار لم يكن يهمه مبلغ ما يربح بل لذة الربح ولو كان قليلاً. أحياناً يصبح ما يربحه انتقاماً. اللعب معه يتسم بنوع من العنف المكتوم والحقد والتشفي ممن ربحه في مرات سابقة. ذات ليلة ربح سلسلة ذهبية من لاعب كانت له معه حزازة لعبية فقطّعها ورماها في دورة المياه وصبّ الماء حتى اختفت لأنه فكّر أنه ربما سيسترجعها منه باللعب إذا خسر هو وربح خصمه. لا شفقة وصداقة في القمار. هذا مبدأه. بعناد وتهور يلعب ليرضي غروره بأنه دائماً سيربح. لا يغادر

جلسة اللعب، في المقهى أو الحانة أو في أحد بيوت محترفي القمار حتى يخسر كل ما يملك أو عندما لا يبقى حول الطاولة سوى شبه المفلسين وهو الرابح الأكبر.

لقد جُنَّ بأنّ ما يهمه هو أن يعرف الناس، في هذه المدينة، أنه المقامر الشهير سواء كان يربح أو يخسر. إنّ القمار طيش لكنه يثبت فيه ذاته.

عندما بدأ يفلس مَسّه القمار الوهمي. في الحالات الوهمية، يطلب بيرتين أو زجاجة نبيذ وكأسين: كأس له وكأس لخصمه أو لشخصه المُضاعَف. ربح أو خسر فإنه يحتفي بشربهما في نهاية كل لعبة. أحياناً، يُعَنّفُ نفسه في شخصه المُضاعَف إلى حدّ الشتم إذا خسر: كان ينبغي لك أن تضع هذه الورقة هنا أيها الخنز، وهذه هناك أيها الأبله. وإذا تكاثرت أرباحه ضد شخصه المُضاعَف أو مع خصمه الوهمي أو الحقيقي أمامه فإنّ سخاءه يهيج موزعاً إيّاه على من يستحقه من الملاعين الذين يشربون بِعِوَز لاهجين بمجد طنجة الغابر وهم في منتهى الحضيض.

كلّما ربح حمادي القَمّار يتلفظ باسم مُلاعِبه المهزوم بصوت صاخب رافعاً كأسه: خسرتَ يا ولدي. وقد لا يتورع من أن يضيف بتبجح، إذا سبق للاّعب الوهمي أو الحقيقي أن هزمه: إيه! نعم. ينبغي لك الآن أن تعرف مع من أنت تلعب يا ولدي. لا تحسبنَّ نفسك دائماً أنت الرابح الماهر المنتصر.

مقامروه الوهميون يختارهم بعناية حتى يشحذوا فيه ذكاء اللعب. قد يكونون حقيقة ماهرين أو فقط أنهم هزموه عدة مرات بالحظ. بعضهم غشاش أو متهم بالغشّ والمراوغة. ما يهمّه هو السِّجال والصراع مع من يلعب. قد يسمح أن يغشّ الغشاش منهم ما دام هو الخلاّق الواحد للغشّ والصدق، بينه وبين خصمه، حتى يضفي على

اللعب أشكالاً من الانفعال والحيوية والحماسة بين الجدّ والمزاح.

حين يوهنه اللعب الذي عادة ما يبدأ في المساء وقد لا ينتهي إلاّ في الصباح فلا مناصَ من أن يختلق خلافاً ولو كان بسيطاً في اللعب لكي ينسحب في الوقت المناسب لينام قليلاً. اللاعبون غالباً ما يلحّون على بقاء الذي يريد الانسحاب، إذا كان من الرابحين.

المقامرون الحقيقيون انفضّوا عنه بعد أن أفلس. لم يعد يحوّم حوله إلاّ المفلسون مثله، لا يهم أقلّ أو أكثر إفلاساً منه.

لا أحد صار يميز بين إفلاسه وعدم إفلاسه التام؛ لأنه، أحياناً، تكون عنده أموال وافرة. لا أحد يعرف من أين يأتي بها. أهو إرث؟ قرض؟ أم هو يربح في مكان يجهلونه!

في طفولته أبدى حمادي هوساً كبيراً بلعبة البليات: كُرَيَّات Billes ورمي القطع النقدية الإسبانية الثقيلة[1] في الحفرة على مسافة قلّما ينافسه فيها لاعب ماهر مثله. لكنه حين لا يملك كفاية من القطع النقدية أو البِليات يضطرب فيخسر. ولكي يستمرّ في اللعب يضطرّ إلى فسخ سرواله وإنزاله تحت الركبة لخصمه الرابح أو لغيره من اللاعبين أو المتفرجين المنتظرين دورهم في اللعب مقابل بليات أو قطع نقدية. مقايضة إنزال السراويل من أجل استمرار اللعب يمارسها معظم المراهقين الخاسرين مع بعضهم البعض أو يضطرّون للبحث عن البالغين المتعطشين للذة الغضّة بعيداً عن مكان اللعب أو قريباً منه حيث تنتظر التماسيح البشرية وهو أوفَرُ كسباً.

لا يجد اللاعب الخاسر حَرَجاً مُخْجِلاً في هذه المُقايضة ما دام هناك يوم له ويوم عليه.

---

(1) كان اللعب بمسكوكتين: مسكوكة صغيرة Perra chica ومسكوكة كبيرة Perra gorda.

صار كلّ ما في الكون قابلاً للرهان عليه: عن سقوط المطر أو الرذاذ أو عدمهما في هذا اليوم أو غداً، عن سُحُبية السماء أو صفائها، عن البرق والرعد والبَرَد. ففي هذا المساء، تخاطر حمادي القمار مع شخص على غروب قرص الشمس بدقائق محددة فخسر، لكن البارحة راهن على بزوغ القمر واختفائه في دقائق محددة أيضاً فربح. أحياناً، يتراهن مع نفسه دون أن يتوهم أحداً من مقامريه. حينما يلعب الصولو El Solo (اللعب المنفرد أو الوحداني) لا نعرف كيف يخسر وكيف يربح مع نفسه، لكننا نسمع كيف يعنف أو يعاتب نفسه جهراً على وضع هذه الورقة هنا عوض أن يضعها هناك. في المرات التي يقامر فيها مع نفسه أو مع غيره وهمياً فإنه لا يراهن إلاّ على الشراب مصحوباً، أحياناً، بمبلغ من الدراهم يتصدق به، إذا ربح، على من يرى أنه يستحق الصدقة في القمار والشراب واللواط. لا يراهن على غياب القمر وطلوع الشمس حتّى الصبح لأنّ النوم يغلبه. لكنه ذات يوم أغراه مبلغ الرّهان على القمر والشمس معاً فغامر حتّى الصباح حارساً تذبذبه بين اليقظة والنوم رفيق حميم له في شبابه وأمين له في رجولته. أما الخصم فقد أيقظوه من شخيره خاسراً. على أنّ هذه اللعبة بين اللاعبين هُواتها نادرون. ويقال إن حمادي القمار هو مبتكرها أو رائدها الأول والمروِّج لها على أوسع نطاق. أما في شهر رمضان، من بدايته حتّى نهايته، (ما عدا ليلة القدر) فإما ربح وإما خسارة وإما تعادل في كل أنواع اللعب إلى أن يختفي القمر وتطلع الشمس إن كان هناك قمر وشمس.

لا تفوته فرصة الرهان عليهما إذا وجد من يتراهن معه؛ لأنه، في هذا الشهر، لا يراهن على وهم الربح أو الخسارة: إذ فرص اللعب مع أشخاص حقيقيين كثيرة. ولعلّ منع شرب الخمر يساهم في الإكثار من لعب القمار وتعاطي الكيف والحشيش واللواط، لأنه أقلّ إثارة للشبهات من الدعارة مع النساء، ولأنه أقلّ كلفة من المحترفات.

قبل أيام من موته، شوهد جالساً على درجة قبالة حانته الشهيرة بما كانت تقدمه من نُقْل جيّد خلال عزّ المدينة. حتى أفراخ الحمام بالأرزّ والعصافير الدورية المشوية كانت وفيرة. كان هو الذي يتسوّق بنفسه ما تحتاجه حانته من نُقْل[1] ومزّة[2]. الحانة يعرفها أهل المدينة والوافدون عليها من المدن المغربية. لا يُسمع أيُّ صوت سوى صوت أم كلثوم. لا يزين جدران الحانة إلاّ صورها في مختلف حفلاتها داخل مصر وخارجها. هناك أيضاً صورة لمحمد الخامس والجنرال دو جول.

سبب إفلاس حانته هو عدم دفع الضرائب التي تراكمت عليه. سُجِن، لكن محسناً كريماً من بين أحد أباطرة بائعي السجائر الغيورين على شهرة حانته أنقذه. غير أنّ حمادي القمار لم يرعوِ؛ فقد استمرّ في جنون قماره ولواطه بما كان يُحْسَنُ إليه. وفي الأمسيات الربيعية التي بدأ يصلها الصيف كان يرى حانته تُهْدَم وتُرَمّم. قيل إنها ستصبح صيدلية. كان يجلس كل مساء أمامها لاعباً الورق مع شخصه المُضاعَف أو مع لاعبه الوهمي شارباً زجاجة نبيذ دون كأس. كل ضربة لترميم جدران حانته كانت تُسْرِع نبضات قلبه. قال لمن كانوا زبناً له: صيدلية! لا عيب. . . ! هذا عمل طيب. سيتداوى الناس، لكن حانتي داوت هي أيضاً كثيراً من الناس. يدخلون عصبيين ويخرجون هادئين، يدخلون بخلاء ويخرجون كرماء. لكن هذا ليس قاعدة؛ فما أكثر ما دخل حانتي إنسان مُسالِم وخرج مجرماً: إجرامه يبدأه في حانتي وينفذه خارجها. من حسن حظي أنه لم تحدث جريمة داخل حانتي، إذ كل حانة تحدث فيها جريمة تُغْلَق حتماً.

حمادي القمار كان متزوجاً حانته. منها يستمدّ وجوده. عندما

---

(1) الطعام الذي يقدم مع الشراب من لحوم وأسماك وغيرهما من مخللات.

(2) ما يؤكل على الشراب من مملحات وفواكه.

أفلس وأفلستْ معه حانته أفلس معه الكثيرون نفسانياً، لأنهم كانوا يستمدون مثله حميميتهم من وجودهم فيها.

الأطعمة التي يقدمها مع كل نوبة من الشراب ـ أسماكاً ولحوماً ـ لها سحر لذتها حتى لتبدو خرافية. الغريب هو أنّ النوع والجودة لا يتأثران بربحه أو خسارته في القمار. إنه يعرف ما يفعل كما يقولون عنه.

حمادي القمار لا يراهن دائماً على ما هو كوني وشمولي: فقد يأخذ حفنة من المساويك التي نخلل بها أسناننا ويقول لك مراهناً: كم في قبضة يدي؟ وإذا خرج زبون يراهن على رجوعه أو عدم رجوعه. يراهن على وصول القطار في وقته المعين أو تأخره، على مباريات كرة القدم وكل أنواع الرياضات، على عدد الموتى الذين سيدفنون في مقابر الديانات الثلاث. حتى مقبرة الكلاب، في حيّ بوبانة لم تسلم من رهانه. على أنّ أغرب رهان هو عندما راهن شخصاً مشهوراً بعراقة ضرطه على أن يضرط ثلاث ضرطات متتالية فضرط الضّرّاط الثلاث المُراهَن عليها وأهدى لحمادي القمار ثلاثاً أُخَرَ إكراماً لمغامرة مراهنته على «الضَّرْطِية».

جنون حمادي القمار أصبح لا حدّ له. صار تسلية حتى بالنسبة للذين يكرهون القمار. ذات يوم ذهب مع شخص عريق في جنون القمار مثله إلى مقبرة مرشان فراهنه ظُهراً على عدد الذين سيدفنون في صلاة العصر فربح، لكنه راهنه على عدد الأطفال الذين يدفنون في جميع الأوقات دون صلاة المسجد ـ لأنهم أبرياء لا يحتاجون إلى استغفار أو دُعاء: إذ إنهم من جنّة الوجود إلى جنّة الخلود ومن الله إلى الله دون شيطان فخسرتُ لأنه ما كان ينبغي لي أن أراهن على أرواحهم.

ظلّت هذه الزلة تعذب حمادي القمار فصار يهاب الأطفال ويشعر بذنب كلما رأى طفلاً.

عشية موته قيل إنه كانت عنده أموال ورثها من أخيه، لكنه باح

لعارفيه متألماً أن أخاه الذي جمع أمواله من بخله الشديد ترك لآخر عشاقه أضعاف ما تركه له. ولذلك فقد تعمد حمادي القمار أن يقامر بلا مبالاة بكل ما تركه له أخوه. قامر جنونياً فخسر كل ما كان يملكه مع مقامرين شديدي المراس مستغلين سكره وحزنه على ما تركه له أخوه من ضآلة الميراث ـ هما اللذان كانا يتقاسمان نفس الأهواء اللوطية نحو غلام واحد من المدينة أو وافد عليها. قيل إنه خرج من حانة خسارته الشاطئية في حالة حزن شديد وشرود بالغ. ربّما تحت سكر مكتوم. وفي لحظة عبوره السكة الحديدية خذلته مقاومته. كانت قاطرة توزيع عربات السلع تمرّ في صمت فدهسته صادمة رأسه الذي كان مائلاً أكثر من جسده إلى الأمام فمات في المستشفى.

عـزلـة

أحلم،
أحلم حتى ينوب الحلم
عن الحلم
فأرى ما أحلم.
المحبة كائنة،
لكن الحوار شخصي.

نحن في المقصورة امرأة وابنتها وشخص وأنا. رأيته يرفع جنبه الأيسر ليطلقها. فتحت مصراع الباب بسرعة وسحبت حقيبتي الصغيرة وخرجت إلى الممرّ حابساً تنفسي. نادراً ما أغثتني فَسوة مثل هذه التي أطلقها هذا الضبع الملعون. لكأنه أكل وجبة ضفادع أو نصف دزينة من البيض وربما لم يذهب إلى المرحاض منذ أيام. المرأة أيضاً خرجت إلى الممرّ باحثة عن مكان في مقصورة أخرى هي وابنتها الصغيرة ملقية عليّ نظرة تعجب مستاء. أجبتها بحركة من رأسي مستنكراً ما حدث. القطار يقترب من المحطة. هنا أصيلة هنا ننزل. وداعاً الرباط. ليست هذه أول مرة أفعل فيها هذه النزوة الجميلة. في السنة الماضية ألغيت سفري من الرباط إلى القاهرة لأني أكلت أومليت بالفطر فاسدة وأعطوني رقم غرفة الفندق 13 ويوم سفري الثالث عشر من الشهر وكان

كلبي جوبا مريضاً يحتضر فرجعت إلى طنجة. لا سفر!

راجلاً مشيت إلى المدينة. الساعة ما زالت باكرة للذهاب إلى مطعم «الأخوات الثلاث الأمازونيات» اللطيفات بالتناوب: فمن نظرة الاثنتين الخادمتين في القاعة أعرف أين ينبغي لي أن أجلس. أما كبراهنّ فمزاجها دائماً رائق ولا يتعكر قليلاً إلاّ في أيامها الشهرية. حقيبتي خفيفة. قصدت ممشى البحر. إنه أحمد. بطيئاً يمشي. يداه خلفه. استوقفته. لم نتراء منذ سنوات. شربت معه آخر مرة في حانة الپيلو Pilo. ما أكثر المرات التي راهنت فيها مع نفسي ومع غيري على أن أراه مصحوباً بأحد فلم أفلح. إنه يقدس تَوحُّده. صافحني صامتاً برخاوة. يصافح إلى حدود نهاية أصابعه. ومحظوظ من ينال منه هذه الثقة. ابتسمنا. مشينا في رضا. صعب أن تكلمه بغتة. لا بدّ من استئلاف اللقاء. قال دون أن ينظر إليّ كأنه يحاور نفسه:

ـ وطنجة؟

ـ ما زلت أسكن فيها، لكني لم أعد أعرف ما يستجدّ فيها. لا أكثر من مقهيين أو ثلاثة وشقّتي التي لم يسقط عليّ سقفها بعد. لم تعد لي عاداتي القديمة فيها يوم كنت أتجول في أزقة مداخلها ومخارجها.

ـ شِختَ إذن!

ـ هي التي شاخت أكثر مني. حنّطوها. . . !

ـ من خان الآخر؟

ـ تناكرنا دون أن نفترق.

ـ العقوق ضروريّ. إنه يجدد الألفة.

أعرف أنّ أحمد يمارس هذا التمشي عبر الشاطئ أو يذهب إلى كهف الحمام مروراً بمقبرة اليهود. كيلومترات يمشيها كل يوم إذا لم يمنعه المطر الوابل أو العاصفة العاتية.

يوم من أيام نهاية الخريف. جلسنا على الرمل تظللنا صخرة. السماء غائمة وريح خفيفة والبحر ينذر بالهيجان. أخرج من سلّته الخيزرانية زجاجة نبيذ وكأساً صغيرة وزيتوناً وجبناً عربياً وخبزاً من الشعير تعجنه والدته وينضج في فُرن الحيّ. قاسمني زاده. تكلمنا قليلاً عن الصيد البحري في أصيلة الذي ما زال يحتفظ ببساطته وعن ليل المدينة الآمن أينما شئت أن تذهب. لم يعد يذهب إلى برج «القريقية» ليشرب زجاجته، كما يفعل في بعض الليالي، لأنّ الشبان يزدحمون جلوساً على حوافي سورها ليتعلموا السمر.

De mis soledades vengo
A mis soledades voy
Entiendo lo que me basta
Y solamente no entiendo
Que para estar conmigo
Basten mis pensamientos
Lópe de Vega

لوبي دي فيغا(1)

طقوس أحمد كما رواها لي أخوه خليل.

حصل أحمد على تقاعده النسبي ومبرره هو إما أنه لم يعد صالحاً للتعليم أو أنّ التعليم لم يعد صالحاً له. إنه صار فجأة ضد القيام بالواجب الرسمي. صار كل ما هو واجب مكروهاً.

---

(1) ترجمة محتملة:
من عزلاتي آتي
إلى عزلاتي ذاهب
أفهم ما يكفيني
ولا أفهم فقطّ
أنه لكي أكون مع نفسي
تكفيني أفكاري.

له في منزل الأسرة حجرته التي لا يدخلها إلاّ هو. إخوته الأربعة تزوجوا وظل هو يعيش وحده مع والدته. بينهما صمت جليل. تحفظ القرآن والأحاديث النبوية ولها ثقافة شعبية نادرة. مشرفة على التسعين ولا شيب في رأسها ومثلها أولادها.

الوجبات الثلاث لها أوقاتها: الإفطار في التاسعة، الغداء في الواحدة والعشاء في التاسعة. وأيّ تقديم أو تأخير في الوقت المحدد يبقى الطعام عند عتبة باب الحجرة. احتجاجه هو أن يخرج ويتناول وجبته في أحد المطاعم الشعبية.

سألت خليل:

ـ وعندما يمرض؟

ـ لا نعرف هل هو يمرض أو لا يمرض لأنه لا يشكو من شيء. لم يستنجد قط من أحدنا. فضلات طعامه يرميها خارج المنزل حتى لا نعرف شهيته لما قُدِّمَ له من طعام. مرة صرخ في الليل. سُمِعَت ضجة. أطلّت الوالدة من غير أن تدخل. باب الحجرة مفتوح ليل نهار. كان نائماً. الطاولة منقلبة. ركلها كابوسه. بعض محتواها تكسّر: زجاجة نبيذ فارغة وكأسان وقنينة صغيرة لا أحد يعرف ماذا كان فيها؛ لأنه هو الذي ينظف حجرته ولا يترك أثراً لشيء تكسر. أما سرّ الكأس الثانية فلا أحد يعلمه. لا تكون دائماً فوق الطاولة. أحياناً تظل هناك ملأى أياماً ثم تُفْرَغ. قد تبقى فارغة أياماً حتى يعاد ملؤها. لا أحد منّا يجرؤ على مخاطبته. نحييه في صمت. قد يردّ على تحيتنا بنظرته أو بانحناءة رأسه إذا راق له مزاجه. ضوء حجرته أحمر باهت. لا يطفأ في الليل. لا يقرأ ولا يستمع إلى الإذاعة. قبل أن يعتزل كنّا نسميه دودة الكتب. اليوم، حتّى مكتبته اختفت. لم يبق إلاّ راديو R.C.I.A. لا نعرف إنْ هو ما زال صالحاً أم لا لأنه لم يعد يستعمله. في صباه، كانت العزلة تلازمه حتى حين يكون مع الآخرين على مضض.

ـ وماذا يعمل وحيداً في حجرته؟

ـ يتأمل ويدخن ويشرب نبيذه دون أن يعربد. إنه لا ينتظر أحداً ولا يريد أن ينتظره من شاء أن يكون. أحياناً يغيب أكثر من يوم ولا أحد منّا يدري أين يكون. لا أحد يعلم إن هو ظل في المدينة مقيماً في أحد فنادقها دون أن يخرج منه أو سافر إلى طنجة التي يحبها منذ زمان بعيد.

بين أحمد ومدينته عزلة بدأت منذ سنوات. المحبة من بعيد لكن الحوار شخصي إلى الأبد.

أخوه خليل يقول إن عزلته اختيار وليست حالة مَرَضية كما يتوهم الناس. مرة دخل إلى البحر وظن من رأوه أنه لن يخرج. غاب عن أنظارهم تماماً، لكنه بدأ يطفو ويغوص عائداً حتى رأوا قامته النحيلة منتصبة على الشاطئ.

الحوار الوحيد الذي يرونه هو بينه وبين الشريف المجذوب الذي يشعل سجائره الواحدة تلو الأخرى بأعقابها. لا يطلب إلاّ سجائر من الذين يعرفهم. يرفض النقود. يقال بأنه في شبابه كان فحلاً مع النساء. وغيرة من إحداهن، الأكثر ولهاً به، سحرت له لأنه هجرها وصاحب إسبانية. كانت له رِجلٌ ثالثة كما يقال. استمالته تلك العاشقة المغربية فبات عندها وفي الصباح خرج من عندها فاقداً عقله.

المشهد بين أحمد والشريف المجذوب لا يدوم أكثر من ثوان. لا أحد يعلم ما يقوله أحدهما للآخر. أحمد وحده يبتسم. المجذوب نسي الابتسام منذ أن جُنَّ. قيل إنهما كانا صديقين في الطفولة.

مرة واحدة فقط رأوا أحمد يعاتب عائشة المجذوبة لأنها عرّت أسفلها لتردّ على شخص أغضبها مزاحه معها لاعنة أصله وفصله. هي أيضاً يتعاطف معها.

أخوه خليل له أيضاً غرائب أطواره وإن تسامت أكثر من عزلة أخيه أحمد. إنه رسام نابغة، لكنه آثر أن يغمر نفسه في المجهول. ربما

بسبب تلك الصدمة. لقد عرض في أواخر الستينيات لأول مرة. موضوع متشابه: هياكل عظمية حيّة وأشباح أشخاص ينتظرون من يدفنهم. مصلوبون ومشنوقون ومن فقدوا ملامحهم الإنسانية. في اليوم التالي صودرت كل اللوحات. من ذلك اليوم لم يعد خليل يرسم الإنسان إنما ما يرمز إلى وجود الإنسان. لا ينقّح رسومه، لا يوقّعها[1] ولا يبيعها رغم أن دخله من مهنة التعليم لا يكاد يكفيه. لوحاته يهديها إلى بعض أصدقائه، لكن عليك أن تطلبها أو أن تُوَسِّط من يطلبها لك منه لأنه لن يهديها لك تلقائياً.

لقد استاء منه الذين أرادوا أن يشتروا لوحاته ولم يرد هو أن يبيعها. أقيم له معرض في سويسرا فامتنع عن البيع كعادته وامتنع أيضاً عن الكلام لشرح هدف فنه فعمّ أعظم استياء واستغراب، لكن بعضهم تَفهّمه وأكبره. غير أنه لم يَسْلَم من بعض النقد المرح لشخصه الدونكيخوطي وليس لفنّه الرفيع.

سألته مرة:

ـ ما مصير فنك؟

ـ الاندثار. لا يهمني مصيره.

يستعمل في معظم رسومه مواد هشّة مثل التراب والنيلة ومواد أخرى قابلة للتلاشي.

عرفت خليل في أواخر الستينيات. رأيت بعض لوحاته، لكنني لم أطلب منه إحداها ولم أُوَسِّط حتى الآن أحداً (. . . 2000 . . .) لأحصل عليها. اللوحة الوحيدة التي أهدانيها كانت لرسام آخر. لوحة

(1) مثل الرسام الفرنسي قسطنطين غيس Constantin Guys (1802 ـ 1892) العصابي الذي لم يكن يرغب في توقيع لوحاته، وكان أيضاً يمزق أو يحرق كل لوحة رسمها في بداياته. كان صديقاً لبودلير الذي أطرى فنّه.

لم أر أتفه منها: تمثّل راقصة شرقية مستلقية على تخت. كانت بدون إطار فثبتها على الجدار بالمسامير. ظلت عندي بضعة أيام. وذات ليلة طويتها ورميتها من شرفة شقتي إلى الشارع.

نتقابل صدفة على مراحل متباعدة في طنجة أو في أصيلة. كلانا لا يبحث عن الآخر. لا يستطيب أن يشرب وحده. إذا عرضت عليه الشراب فإنه لا يرفض، في حانة أو في منزلك، لكن شرطه هو أن يدفع كل واحد ثمن ما يشربه. لا أعرف كيف يستدرجه المهدي ليدفع خليل أكثر منه كما قيل لي. هذا الساحر الماكر، الماهر (لا أنكر أني أيضاً كنت ضحيته مثل خليل أكثر من مرة لكنني صرت أعرف حيله فأنتقم منه بطريقتي المستحبة) لا أعرف سرّ غواية المهدي رغم أنّ لي إغواءات شطارية ماكرة والمغفلون شاهدون على ما أقوله.

قال لي خليل يوماً: أحتقر الإنسان الذي يبالغ في أناقته. أحتقر الإنسان البدين الذي يفرط في أكله. ومن حسن حظي أني لست مثل هذا أو ذاك. أما خليل فيبدو لي أنه طيف. ليس من هذا العالم.

كيد النساء وأباطيل أخرى

في مستشفى مايوركا، علمت أن صاحب حانة غرناطة قد استغنى عن عمل فاطي لأنّ الأرباح تناقصت كثيراً بسبب الأزمة الاقتصادية التي أقلقت حتى أباطرة التهريب الدولي في طنجة، وهددت الساقطين في الانتخابات الذين راهنوا على نجاحهم فيها بجزء كبير من ثروتهم الفاحشة فأصيب بعضهم بالشلل الجزئي، وبعضهم باضطرابات القلب، وانهيارات عصبية، وأفلست التجار الصغار فأصيبوا هم أيضاً بعلل على قدر ما خسروا كالأرق وأعراض سوء التغذية واضطرابات معوية. كما أفاضت بواليع البؤس على الأحياء الشعبية ولم تنج شوارع المدينة المركزية من الرائحة الكريهة التي تسرّبت إليها والرعب والجريمة المتفاقمين. لكن غُرَماء فاطي من النساء والرجال أشاعوا أن السبب الحقيقي في إفلاس حانة غرناطة هو خلل في صندوق الحسابات تسرّبت منه اختلاسات. فقد صار لفاطي علانية ـ ولأول مرة ـ عشيق وسيم يعيش على حسابها. يتظاهر بأنه حاميها بينما هو الذي في حاجة إلى من يحميه من تهديد اللوطيين العريقين المفلسين الخطرين، وكذلك كيف له أن يصدّ عنه تهافت الذين يوقظ جمالُه فيهم نزعتهم اللوطية الدفينة وعطاؤهم جدّ وفير لمعشوق مثله عاطل وعاشق متلاف.

الحانة بدأت فيها أشغال لتحويلها إلى قاعة شاي فخمة على غرار

القاعات المتنافسة التي تنبثق الواحدة تلو الأخرى مثل الفطر في قاعدة كل عمارة جديدة. أحياناً تُدَشّن قاعة الشاي الجديدة فتح بابها أو بابيها وتظل العمارة الجاهزة مقفلة شهوراً أو سنوات وقد لا يسكنها أحد إلى أجل غير مُسَمّى لأنها ما بُنِيَتْ إلاّ لتبييض أموال أصحابها كما يقال عنها.

ـ يريدون أن يجعلوا من المدينة باريس المغرب وهي تتخبط لتخرج من بلاّعة بؤسها التي تُنْتِنُها وتُغرقها.

ـ لكن كل القاعات تمتلئ كل مساء، وفي أيام العطل لا تكاد تجد مكانك فيها صباحاً أو مساء.

الاستغناء عن فاطي هناك من يعتبره إجراء ملفقاً للتمويه لأنّ تحولاً جديداً وقع في حياتيهما: هي وصاحب الحانة. لقد رأوهما مراراً يتحدثان بحميمية ساعات طويلة في سيارة صاحب الحانة خارج المدينة. وقيل إنها كانت محظيته في الخفاء منذ أن كانت مُسَيِّرة الحانة. فيما بعد، انكشف أنّ صاحب الحانة قد أبدى توبته الخالصة؛ لأنه حاقت به مصائب متوالية: إبنه مات في حادث سيارة، وابنته اختفت منذ شهور وهو كادت أن تقضي عليه عُصبة من المراهقين المدمنين على شمّ «السيلوسيون» المسلّحين بالسكاكين والمطاوي وشفرات الحلاقة. صار اليوم من محسني المدينة: فهو يساهم في بناء المساجد وتنشيط الاحتفالات الوطنية. إنّ تأثيره واضح على حجاب فاطي؛ فقد غدت هي أيضاً تعيش بعقلية هذا حرام وهذا حلال، وتريد أن تؤثر على الأخريات فأصبح للرجل أَجرُ توبتين: توبته وتوبتها. وتكفيراً عن حياتها، منذ أن جاءت بها للاّ شفيقة من العرائش إلى يوم توبتها، قطعت دابر صلتها بكل العاهرات مثلها اللواتي عَرَفْتهن. هل تتنكر هكذا أخت لأخواتها كما قالت واحدة لأخرى؟ إنّ بعض الذين كانوا من زبائنها في حانة غرناطة يشتمونها اليوم ويبصقون عليها لأنها لا تردّ على تحياتهم.

ذات صباح صيفي التقت اثنتين منهن ودعتهما إلى التوبة الخالصة واعتناق مبدأ الحجاب في هذا الزمن الفاحش. الفتاتان خرجتا من أحد فنادق العابرين ولم تكونا قد نامتا جيداً مع زبونين. إنهما ذاهبتان إلى إحدى الحانات الصباحية، التي تستقبل الذين سهروا ولم يناموا بعد، لتسكين تهيّجهما ببعض البيرات الباردة في ذلك النهار الذي بدأ حرّه باكراً. تجاوزتاها ناظرتين إليها كما لو أنهما تنظران إلى بهلولة، لكن فاطي بصقت شتيمة لاسعة ومضت تهمهم فلحقتا بها بشراسة وانهالتا عليها باللكم والخمش والركل حتى أدمتاها. منديل رأسها تطاير على الأرض وشعرها منتوف وجلبابها تمزّق من عنقه إلى صدره فراحت تستغيث بصرخاتها المسترحمة مثل دجاجة تقوقئ. لم يسبق لها أن تعاركت جسدياً مثل اليوم. واحدة كانت كافية لها كما قال أحدهم. لكن كل واحدة منهما تريد أن يكون لها حقّها في «مَلْخِها»[1] وسلخها وأخد ثأرها من القحبة الكبيرة المرتدّة كما تنعتها الشرستان وغيرهما كثيرات. إنه واضح أنّ لهما تصفية حساب معها يوم كانت هي الآمرة في حانة غرناطة بأن تدخل هذه ولا تدخل تلك. السيارات تسير وضجيجها يعلو زاعقاً أكثر فأكثر لأنّ بعضهم يتمهّل في سيره حتّى يرى ماذا يحدث. جَمْعُ الرجال يتلذذ بالمشهد وهي تحاول أن تحتمي بهذا أو ذاك والنساء يستنكرن المعركة غير المتكافئة ويتوسلن إلى الرجال إنهاءها. قال بعضهم: تَقاتُلٌ سافل. صرخت امرأة: كلكم تتفرجون، كلكم تريدون هذا. قال بعضهم لبعض وهم يتفرقون ضاحكين بعد أن تدخلوا وفرقوهما: إنها احسايف القحاب[2]، لكن اثنتين ضدّ واحدة غير معقول.

---

(1) مَلَخ الشيء: جذبه قبضاً أو عضاً.

(2) من الحسافة والحسيفة: العداوة والغيظ.

أشاعت عني فاطي الودود، الكريمة، لأسباب سأظل أجهلها حتى مماتي، بأني أبوها المغرم بها ذو النزعة السِّفاحية. وحين استنكرت هي وتشبثتُ أنا بها وهددتني بالإبلاغ عني إلى السلطات هربتُ لاجئاً إلى مستشفى الأمراض العصبية في تطوان لأحمي نفسي مدعياً الجنون. ومنعاً لتفاقم الفضيحة وحفظاً لكرامة أسرتها العزيزة عليها، التي ورثتها من للاّ شفيقة، تزوجتْ في الصيف الماضي من عامل مهاجر يعيش في الدانمارك تاب هو أيضاً بعدها إلى الله على يد صاحب الحانة الذي عاش معه طفولة حميمة مُريبة. ومن بين شروط زواجه منها قَطعُ صلتها تماماً بللاّ شفيقة، بعدما عرف أنها تدخن وتشرب ولا تستطيع أن تتوب إلى الله، وأنّ ليلى وياسمينة ما هما بأختيها حتى تتحسر عليهما، ثمّ إنهما تعيشان مع للاّ شفيقة. وحين علمت للاّ شفيقة بمصيرها لعنت فاطي، وزوجها المزعوم، ولعنت اليوم الذي قُدّرَ لها فيه أن تربّي أطفالاً ملاعين لم تلدهم، وحمدت الله على أنها لم تُطفِل أحداً منهم وإلاّ لكانت قد لعنت نفسها وجُنّت بسببهم.

العائدة

قد نلتقي.
أن تعشق من تحبّه
ربما لحظة، ربما يوماً،
ربما جزءاً من عمر.
لا أحد شاهد على
ما بدأ وعلى ما انتهى.
أذكر أنّ طريقنا
كان واحداً،
لكن المسافة فَرّقتنا:
أنا بعيدُها وأنت قريبُها.
قد نلتقي أو لا نلتقي.
كان لي أن أراك غداً
لكي نسافر أو نبقى،
لكني تركت بعضاً
من ثيابي عند جدّتي.
وَعَدْتُها بشيء لا تحبّه

إلاّ الجدّات.
سَلْ جدّتك؛ فكل الجدات
يتشابهن فيما يحببن.

من عادتي أن أتناول، في قاعة شاي مدام بورط، كأسين أو ثلاثاً من كوكتيل ألكسندرا كلّما أسعفني جيبي. سالڤادور، البار ـ مان، ماهر، بخبرته العتيقة، في إعداده. ولا يقلّ سحره في إعداد دراي مارتيني Dry Martini ومانهاتن Manhattan اللذين أستلذهما في الصيف. ويقال إنّ ألكس وُوإڤلين Aelx Wugh Evelyn[1] أفاده كثيراً في إعداد الكوكتيلات.

عجباً! إنها هي. في منتهى أناقتها. وجهها المربّع اكتنازه قليلاً يناسب عمرها المقترب من الأربعين. أكثر من خمسة عشر عاماً مضت. البارز فيها الآن هي أنها ذهبت شقراء وعادت أكثر شقرة كما يُخَيّل لي. شبه قَمحية اللون ذهبت والآن هي شبه بيضاء. لا ينقصها إلاّ جمال المسلولات بوجناتهنّ المورَّدة. نَدَبُ خدّها الأيسر اختفى. عملية تجميل راقية. عيناها البوميتان ما زالتا حريصتين على رؤية كلّ شيء في وقت واحد. جالسة قُبالةَ مدخل الصالون. دعتني نظرتها المركّزة وطيف ابتسامتها المرتابة إلى الاقتراب منها. أهو سيقبل الجلوس معي؟ قامت وتعانقنا.

ـ قيل لي إنّ هذا هو مكانك المفضل.
ـ أحياناً. إنّ أيام حانة غرناطة قد ذهبت معك.
ابتسمتْ.
ـ هل صدقتَ ما قيل لك بأني قلته عنك؟

---

(1) روائيّ إنجليزي كان يتردد على مدام بورط. له كتاب عن الكحول وأوقات تناوله. عاش فترة في طنجة.

ـ لقد مضى وقت كاف لأنساه.

ـ كل ما قيل عنّا إشاعة، وأنت تعرف أفضل مني عاهرات طنجة. إنّ حسدهنّ قاتل ومنافستهنّ وحشية.

يحقّ لها الآن أن تنزِّه ماضيها. لقد ضَمنت مستقبلها. لكأنها لم تكن واحدة منهنّ. لكأنّ فمها الأسفل لم يرضع نفس الحليب. أوقفني شكري الآخر الذي يراقبني في مثل هذه الحالات: أَجئتَ للمشاكسة أم جئتَ لإحياء الصداقة؟

ـ فاطي.

ـ نعم.

ـ إنّ ما قيل عنّا تُرَّهات ومُزاح مُغرض. أنت الآن لك حياتك في جلدك الجديد، وأنا مثلك لي حياتي. هؤلاء الذين قالوا عنّا ما قالوا ربما هم الآن منشغلون بآخرين أو هم مقعدون في منازلهم أو هاجروا أو ماتوا.

ـ قيل لي إنك كتبت كتباً.

ـ كتبت بعض الكتب بعد أن تخلصت من لعنة العمل الرسمي.

ـ أنت، إذاً، لم تكن تحبّ عملك.

ـ وأنت هل كنت تحبين عملك عندما كنت في حانة غرناطة؟

ـ مهنتي كانت تختلف: بنت الزّنا، لقيطة، لا أصل لها. هذا ما كانوا ينعتونني به.

ـ وما زال هذا يؤلمك؟

ـ كان لي الوقت الكافي لأنساه كما قلت أنت.

ـ الأمر سواء. اللعنات موجودة في كل عمل. حتى تأليف الكتب لا يسلم من اللعنات والمنع والاعتداء إلى حدّ المطاردة والسجن والقتل. ربما تلقيت من الشتائم أكثر مما عانيت منه أنت. لقد بصق

عليّ بعضهم في الشارع، في الحانات، في المؤسسات الرسمية وغير الرسمية وفي كل مكان لأنّي كاتب ملعون.

حضرت الساقية. تشرب بلادي ميري Bloody Mary فطلبته لأنني أستسيغ مذاقه المُتَوْبَل.

ـ كيف مات زوجك؟

ـ في حادث سيارة. كان يعمل في مخبزة وأنا في كافيتيريا.

عدت به منذ شهور في الطائرة لدفنه قرب أهله.

ـ قيل لي ذلك.

ـ كان عليّ أن أعود إلى هورسنس Horsenes لتسوية أوراق التأمين ومعاشي من عملي وعمله.

تسترخي. خَفَّتْ عصبية تدخينها. ربما اعتقدت أني سأهاجمها. ترشف من كأسها مُتَلَمِّظَة[1] رشفاتها عابثة بمفتاح سيارتها. لا شكّ أنَّ نوعاً جديداً من المضايقة ينتظرها مع الذين عرفوها في حانة غرناطة والذين عرفوها في الحجاب. طنجة اليوم أسوأ من يوم أن غادَرَتْها. ما أظن أنها قادرة على حماية نفسها فيها. إنّ الثعبان الذي كان راقداً استيقظ.

ـ وصلتُ منذ أيام. أقيم في فندق بريستول. أتمنى أن أعثر قريباً على شقّة للكراء وربما للشراء. لا أطيق الإقامة مع أسرة زوجي: كم تركوا لك من أجرته؟ كم تُقدِّرين أنك ستحصلين عليه من تأمين الحادث؟ وحسابكما البنكي كم فيه؟ لا شكّ أنه مَوْفور. إنّ المرحوم لم يكن مبذراً. لم يكن يشرب أو يدخن. لم تكن له أية «بَلِيّة»[2]. كان تقيّاً سواء هنا أو في بلاد النصارى. أليس كذلك؟ إنها أكثر من خمسة عشر

---

(1) لَمَظَ: أخرج لسانه بعد الأكل أو الشرب فمسح به شفتيه.

(2) المقصود هنا هو الإدمان على شيء.

عاماً وأنتما تشتغلان. لولاه لمتنا جوعاً يا ابنتي. كان، رحمه الله، يساعدنا كل شهر أكثر من اللازم. إننا سنعول عليك بعده يا ابنتي. أنت ترين كيف هي حالتنا. وأسئلة أخرى عن مشاريعي بعد عودتي. إنّ أمه هي التي تولّت معي التحقيق نيابة عن زوجها وأولادها الخمسة. ثلاثة منهم عاطلون: ذكران وبنت فُسِخَت خطوبتها. والآخران: واحد يتاجر في الخُرْدَة والآخر صيّاد سمك. لو بقيتُ معهم أكثر من ثلاثة أيام لسمّمَوني. إنهم يعرفون أنّ لا أسرة لي بعد وفاة للاّ شفيقة. يريدون أن أنضمّ إلى طابورهم؛ أن أصبح واحدة منهم لكي يرثوا حياتي كلّها. وربما صرت عشيقة أحد ولديها العاطلين، الحشاشين، أو المُتَزَوِجَيْن أو زوجة واحد من أقربائهم الذين توافدوا على رؤيتي من بعيد وقريب. إنها أرملة الأب أو أرملة العمّ، العائدة من بلد غنيّ.

ـ وليلى وياسمينة أينهما الآن؟

زَفَرت.

ـ كانتا معاً في ماربيا Marbella. انقطعت عني أخبارهما منذ سنوات. أعتقد أنهما لا تريدان أن أعرف مصيرهما. لقد أدركت من رسائلهما أنني تخليت عن الأسرة عندما تزوجت. كنت أساعدهنّ بما كان يسمح لي به زوجي. ربما كنّ ثلاثتهنّ على حقّ. زواجي كان طموحاً زائفاً. حينما تزوجت لم تكن لي بصيرة لأنني كنت أجتاز فترة ضعف وخِذلان.

ـ التقيت للاّ شفيقة مرة في السوق الكبير ومرة في الكورنيش. كانت تلهث وهي تتكلم. شكت كثيراً حالها الذي آلت إليه من مرض وعوَز ثم لم أعد أعرف عنها شيئاً. كانت حزينة في المرتين.

دمعت عيناها ووقفت. تحاشيت أن أذكر كيف تنكرن لها هنّ الثلاث وأهملن مساعدتها حتى ماتت وحيدة مغمورة.

ـ زرني في فندقي إذا شئت. هناك أيضاً قاعة وبار، أو نتقابل غداً

هنا. أنا ذاهبة للعشاء في مطعم الدورادو Eldorado. تعال معي أو الحق بي إذا كانت عندك رغبة.

ـ ليس اليوم. ربما غداً.

أذكر يوم عرضت عليها الزواج منها فرفضت: «أنا أصرف على أسرتنا أكثر من أجرتك. إنك ستتزوج أسرة أفرادها أربعة وأنت الخامس. لا بدّ أن تنهي ليلى وياسمينة دراستهما». لكن زواجها خذل صمودها. أمّا أنا فقد كنت أمرّ بمرحلة نزوات. مرة أخرى مرضت ففكرت في الزواج. أدركت فيما بعد أني كنت أبحث عن ممرضة وليس عن زوجة.

جالسة في نفس المكان. متوترة أكثر من البارحة. طلبتُ نفس شرابها: بلادي ميري Bloody Mary لألطف به برد شباط/ فبراير الذي حملته معي من الشارع متجولاً أكثر من ساعة. ملامحها تنمّ عن أنها لم تنم جيداً. أفرغتْ ما تبقّى في كأسها وطلبتْ أُخرى عندما وضعت لي النادلة كأسي. سحقت سيجارتها في المنفضة وأشعلت أُخرى. تسحب الدخان عميقاً ولا تمجّ منه إلاّ القليل. شحوبها يطغى على ماكياجها. إنها مُغتاظة.

ـ لقد بدأ ما لم أكن أتوقعه. أمس، بعد خروجي من المَرْأب، الذي أركن فيه سيارتي، القريب من الفندق، وجدت هناك من ينتظرني قربه. صافحني بهدوء وقبّلني على خديّ. فعل اللعين ذلك حتى لا يثير الشبهات. لم يقبلني قط من قبل.

ـ كم كانت الساعة؟

ـ حوالي العاشرة ليلاً. مدّ يده إلى حقيبتي ونشلها بعنف مكتوم وهو يبتسم. شخص كان يقترب ليمرّ قدامنا. أعاد لي الحقيبة. حذار من أن يخذلك صمتك. صرخة واحدة ولن تفرحي بحياتك بعد الآن. مرّ الرجل فاستعاد الحقيبة آخذاً كلّ محتواها من نقود: أكثر من ألف

درهم. كان فيها دفتر الشيكات. تمنيت لو أنه أرغمني على توقيع شيك بأيّ مبلغ. تلك كانت فرصتي لو أنه أرغمني، لكنه لم يكن بليداً إلى هذا الحدّ. تريدين أن تعيشي وحدك على حساب ما تركه لنا جميعاً أخونا المرحوم.

أعاد لي الحقيبة ناظراً إلى خاتمي الذهبي وسلسلة عنقي وقرطيَّ. عودي إلى توبتك التي تزوجك من أجلها أخي. تزوجي حتى لا تعودي إلى حياتك القديمة التي أنقذك منها أخي المرحوم. أنا أعرف الأماكن النهارية والليلية التي ترتادينها. عائلتنا كلها على علم بما تفعلين فيها. كوني عاقلة. سيكون حسابنا معك طويلاً وقاسياً لا رحمة فيه إذا لم تتوبي إلى الله ولم تساعدينا.

قلت له بنفس الهدوء الزائف الذي كلّمني به: شكراً. هل يمكنني الآن أن أنصرف؟

ليلتك سعيدة. فكري جيداً فيما قلته لك. نحن في خدمتك إذا احتجت إلينا.

غادَرْتُه وفكرتُ في أنّ طنجة أصبحت اليوم توحي بالانتحار لمن لا يستطيع مغادرتها. لقد ضاع فيها كل ما هو أسطوري جميل. لا يقين لها بأنّ ما قبضت عليه هو حقيقة ما كانت تريده.

لم أجد ما أقوله لها فأشعلتُ سيجارة وطلبتُ كأسين أُخريين. كدت أقول لها بأنّ البلادي ميري لذيذ ولكنه يفاجئ بالسكر.

ـ ما رأيك؟ أنا حائرة. مُهانة. لن أستطيع العيش هنا على هذه الشاكلة. ندمت على عودتي بعد أن سويتُ وضعيتي في هورسنس. العيش هناك أيضاً صعب. يختلف كثيراً عمّا حملت معي من عادات وأفكار. ثم إنّ الطقس الصقيعي يتسرب حتى العظام.

ـ إذهبي إلى مدينة أُخرى: مراكش، مثلاً. العيش فيها مُغرٍ ومريح. ما زالت تحتفظ بالكثير من أصالتها وأهلها مرحون.

ـ إنهم سيتشممونني أينما ذهبتُ إذا بقيت في المغرب. إنّ حاسّة شمّهم ستُدرِكني أينما كنتُ إلاّ إذا عبرتُ البوغاز. هو وحده الذي يقدر أن يضلل شامّتهم ويُبْطِلها. قدَري هو أن أعيش في الخارج. أفكر في جنوب إسبانيا. لم أزر بعض مدنه إلاّ مروراً حينما كنّا نعود في الصيف لقضاء العطلة مع أهله. سمعت الكثير عن مباهج العيش في إسبانيا بعد موت فرانكو.

اقترب منّا طفل يحاول أن يتماسك في مشيه. نظر إليها ثم إليَّ ثم إليها. لامستْ شعره ببسمة متحسرة. نظر إليّ كأنه يوصيني بها إيصاءً استعطافياً. عاد إلى أمه الجالسة وحيدة تدخن باسترخاء. حيتنا خارجة وحييناها والطفل يودّعنا بنظرة حالمة. لم يتعلم بعد كيف يبتسم للغرباء. لا أعرف إنْ كان يدرك الفرق بين الرجل والمرأة!

طلبت كأسين أُخريين دون استشارتها. لديها استعداد لتشرب. ربما لتخفف من صدمة ما حدث لها أمس. أشعلتْ سيجارة. إنها لم تفقد الكثير من صلابة شخصيتها التي كانت لها في حانة غرناطة: تعرف كيف تصلح ما ندمت عليه. تعرف كيف تبدأ من جديد قبل أن تنهار.

ـ هل شربت مرة في هورسنس؟

ـ في كلّ عيد ميلاد صديقتي شاستين. معها أيضاً في رأس كل سنة. عاشت في طنجة فترة في نهاية السبعينيات. كانت هيپيّة. هي الوحيدة التي كان زوجي يسمح لي بالمبيت عندها. كان معجباً بها. كنا نعرف أسرتها. أمّا السجائر فكنت أدخنها أثناء العمل. أخوها أيضاً لم أحرمه من الإعجاب بي. لم يعد لدينا، أنا وزوجي، الكثير مما نتحدث عنه. لقد استهلكنا ذكريات الوطن ولم نتأقلم مع مجتمع هورسنس. عقلية أُخرى. أنا كان عندي استعداد للتأقلم ولكنه لم يكن يسمح لي بالكلام إلاّ مع بعض جيراننا الذين أقضي بعضاً من وقتي في عطلة نهاية الأسبوع في صحبتهم أو ألاعب أطفالهم. لم ننجب أطفالاً فكانوا مثل

أطفالنا. كان هو أيضاً جدّ ودود معهم.

في المساء، كان يتهجّأ كتبه الدينية وأنا أقرأ الكتب العربية التي أحملها معي من هنا في كل عطلة أو أشاهد التلفزيون.

بدأت تتلعثم قليلاً. تقول كلمة ثم تستدركها بأُخرى. تتثاقل كلماتها ممزوجة بالانتشاء والضحكات الخفيفة. تأسّيها الآن غلاّب على أساها الأعمق. لقد نضجتْ. مسترخية إلى حدّ التَّدَمُّع فرَحاً. أرادت أن تطلب كأسين أُخريين.

ـ في منزلي أحسن. عندي ما يُشْرَب. ما زلت أسكن في نفس الحيّ ونفس العش اللقلقي[1].

ـ بعد هذين سنذهب.

يحدث لي نفس العناد مع الشراب عندما أكون في نفس حالتها المهمومة. اقترحت عليها أن تترك سيارتها مركونة قدام مدام بورط لأنّ المكان أكثر أمناً من قدام عمارتي. تترنح قليلاً. تأبّطت ذراعي. مَشْيُنا لا يوحي بالشبهات، لكن الذين يعرفونني كانت نظراتهم فضولية مارين قدامنا أو بعيداً منّا.

ـ ليس عندي إلاّ النبيذ.

ـ هات أيّ شيء.

ما أن أملأ لها كأسها حتى تفرغها شَرْبة واحدة. مستسلمة تماماً، متلذذة بعريها تحت الملاءة التي تدثرت بها. ذهبت مرتين إلى الحمام بالملاءة فبدت مثل تمثال يمشي. في المرّة الثالثة كان صوت قيئها مثل بقرة طُرِحَت أرضاً للذبح. انتقلتُ إلى غرفة النوم. بدت متعالية كأنّها سيدة الأبواب المقفلة قبل أن تُولَد جدَّتُها التي ماتت منذ مائة عام. إنها تُغالِب لتخفي وعكتها. اندسّت في الفراش وتقرفصت راعشة فأرعشتني

(1) نسبة إلى اللقلق: المقصود هنا هو الطابق الأخير في العمارة.

معها. فاحت منها رائحة عطري. يداها مثلجتان. لم يغزها بعد الترهل. لا أعتقد أنّ زوجها اكتشف هذه المناطق من جغرافية جسدها: الوَرِكان، الإليتان، الساقان، شحمة الأذن ومَنبتُ العمود الفقري. حتّى الحَلَمتان لا أظنّ أنه لمسهما ومن المستغرَب أن يكون قد مصّهما. كلّها ما زالت محفوزة بالشهوانية السابتة[1]. كأنّها عذراء.

في الصباح، جاء دوري لأفرغ صفرائي. هذا البلادي ميري، هذا البلادي لا تُحمَد عُقباه عندما أُكثِر منه.

لم أرد أن أوقظك. حينما تستيقظ سأكون في الضفة الأُخرى. سأكتب لك. (قطتك المفزوعة).

راقَبها وهي تركن سيارتها قدام فندقها. راقبها نازلة من الفندق وخلفها خادم حاملاً حقيبتها الكبيرة. رأته يقترب ببطء مشيراً لها أن تنتظره. شَغّلت السيارة. كان خادم الفندق قد وضع الحقيبة في الصندوق فدسّت له في يده ثمن خدمته وأقلعت بسرعة جنونية.

لقد وصل متأخراً. لا شكّ أنه دخل الميناء بصعوبة. تنظر إليه بسخرية مسندة مرفقيها على جنْب الباخرة. ظلّ هناك جامداً. قالت لنفسها جَهراً: الأوغاد! ثم ابتعدت.

رسالة من فاطي.

ماربيا Marbella.

أذكر ما قلته لي:

عندما تزورين مدينة

فلا تسألي عن أحد.

ستقابلين من تحبّين.

قد تعرفينه أو لا تعرفينه.

---

(1) من السُّبات.

كذلك كان.
إنها رشيدة.
صاحب المطعم أرمل.
له ولدان ولها ولدان.
صارت أمّاً لأربعة
وبنتاً لأب.
هو في عمر أبيها.
هي تعمل في الصباح
وهو يعمل في المساء.
زوج وأولاد ومطعم.
ما أسعد غربتها!
أتمنّى حظي.
بئس العودة.

موت سمكة هيبيّة

ربما هي سعادتك.
أن تسمع أغنيتك،
أوقفها إذا أحزنتك.
أن تستيقظ صباحاً
والسماء مشرقة،
عد إلى فراشك
إذا كان حلمك أقوى.
أن تسمع الهاتف
وأنت عارف من يكلمك،
لا تجبه إذا كان مزاجه لا يلائمك.
أن تلغي سفرك، إذا كان كلبك
يحتضر،
من كان يملك كلباً مثل كلبك؟
أن تتخلى عن نهاية الجنازة
وأنت تسمع نكتة،
أليس من حقك أن تركب حماراً؟

أن تسمع قهقهات مجنونة وتصمد،
أليس من حقك أن تبقى أو تذهب؟
لا أحد يلومك في يومك،
إذا كنت خالقه.
ربما جنونك فيمن تقابله صباحاً
وجنونه فيمن يقابلك مساء.
أن تسمع أمّ بنتها البكماء تغني،
حتى ولو كانت بكماء؟
نعم،
فلا بدّ للغناء من أحد.

يجيء فريد في يوم من أيام آخر الشهر ومعه نصيبه من حوالته الذي يخصه لنفسه دون أسرته. يبقى حتى المساء ثم يعود إلى العرائش. قد يبيت إذا لم يبدد كل نقوده في استضافة رواد الحانات وبغاياها للشراب معه. قد لا يعرف أحداً منهم. في حانة نيجريسكو Negresco، غالباً ما يجد من يقبل الشراب معه متحملاً حديثه الرتيب عن أحوال أسرته الشاكي منها دائماً. لقد تعود الرواد الدائمون ـ الذين أجلسته معهم ـ على مجيئه مرة في الشهر. إذا يئس من العثور على من يؤانسه منهم أو غيرهم من العابرين فإنه يمارس حواره الداخلي مع سمكته الصغيرة السوداء محدِّقاً فيها بانبهار طفولي. سماها نادية الهيبية.

ـ فريد.

ـ نعم.

ـ لماذا هيبية؟

ـ ألا ترى سوالفها وشعيراتها الكثيفة حول عنقها وخياشيمها!

ـ ولماذا أسميتها نادية.

نظر إليّ صامتاً مبتسماً.

لم يتغير كثيراً عمّا عرفته عليه في أواسط الخمسينيات. متردد، متشكك، غير واثق من نفسه، إتكالي ولا يستطيع أن يؤذي ذبابة ما عدا مشاجراته الدائمة مع زوجته يامنة التي تشاكسه من أجل أتفه الأشياء وتشتمه بلهجتها «الريفية» التي لا يفهمها ولكنه يدرك أنها تخزيه وتلعنه أمام أولادهما والجيران. لقد علمتها لولدها البِكر ولكنه لا يجرؤ أن يترجم لأبيه كلمة واحدة عن حقيقة ما تقوله عنه أمّه.

عندما ألححتُ عليه في الزواج من يامنة ليتخلص من إدمانه على الاستمناء الذي أنهك جسده النحيل ووَشْوَش عقله ظننت أنه سينجب منها ولدين أو ثلاثة ليطمئنها ويرتاح، لكن أرنبته فَرَّختْ له خمسة عشر ذكراً وأنثى والسادس عشر مات بعد حوالي ساعة من ولادته. وحينما سألته عن هذا الجنون لامها وبَرّأ نفسه: «هي التي رفضت أيَّ منع للحمل».

حتى الآن لا أعتبر فريد ذا عقل سويّ. إنه متذبذب بين الذكاء والغباء. ولكي يخفف من وسواسه القَهْري الذي يُوَتّره يُفرغ ما يَتَبَقّى من البيرة في القنينة ضاغطاً عليها بيديه ثم يضرب قاعها بيده حتى تسقط آخر نقطة. يثير قهقهات أو نظرات آسفة حسب نوع الرواد، لكن هذا لا يحدث له عندما يكون معي في نيجريسكو Negresco. لا أنصحه بأن يكفّ عن ممارسة فعله القهري، لكنني أسكت ولا أبالي بما يقوله فيفهم انزعاجي ويتخلّى عن وسواسه خَجِلاً عاجزاً عن الاعتذار. نظل واجمين ثم يستلطف اللحظة المُحْرِجَة ويستدرجني بهدوء إلى الإنصات لما يقوله سواء مخطئاً كنتُ أو على صواب في تعقيبي. إنه يؤمن بآرائي دون أيّ تبصّر منه فيما أقوله. لا أحبّ منه هذا الإعجاب المفرط في عماه. إنه يقززني، لكن كيف أتخلص من صداقتي له؟

إذا بقيت معه نقود كافية فإنه يبيت في أحد الفنادق الرخيصة.. في

الليل يتردد على الحانات الداعرة. يستضيف العاهرات إلى الكحول، لكنهنّ لا يشربن إلاّ رائحته. لا يهمه أن يكون حقيقياً ما تشربه نديمته إنما أن تعرف كيف تسلّيه بحكايات. إذا لم تعرف كيف تحكيها فإنه يبحث عن أُخرى. وكلّما تأسّى لحكاية كان حظّ سامرته أوفر في الشراب وربما بعض الأوراق المالية يدسّها في جيبها. هو أيضاً يتعزّى وينشرح إذا عرفت مُؤانِستُه كيف تصغي إليه وتتأسّى وتشهق. هو عارف أنه مخدوع، لكنه يتغافل حتى لا تفسد المُسامَرة. لا يصحب معه أية منهنّ إلى فندق العابرين مهما كان جمالها وإغراؤها. يعاملهن مثل أخواته كما يعامل ماسحي الأحذية إخوة له. يخيّل لي أنه ليس واثقاً من أن أحداً يحبه إلاّ هؤلاء. ربما هو نوع من المازوخية الإنسانية يتملكه ويشدّه إلى عالمهم.

كنت أفطر عندما رَنّ الجرس. إنه هو. ما إن جلس حتى بادرني من غير تمهيد:

ـ خلاص.

ـ ماذا؟

ـ لقد انتقلت إلى طنجة. سأدَرِّس في إحدى المدارس الابتدائية.

ـ أين؟

ـ في حيّ بني مكادة.

ـ لماذا هذا الانتقال؟

ـ الأولاد يكادون ينحازون كلهم إلى أمهم ضدي. آخر مرة تشاتمت معها كان أكبرهم حاضراً فنهض وشدّني من ياقة قميصي بعنف وهمّ بأن يضربني على وجهي لولا أنها ارتمت عليه وخلصته مني. سبّني وبصق عليّ وهددني بطردي نهائياً من المنزل.

ـ قد يحدث أفظع من هذا. لستَ الوحيد.

ـ أنت محظوظ.

ـ كيف؟

ـ لأنك لم تمسح خراء أحد حتى يهينك بالضرب أو الشتم. كل شيء انتهى. سأبتعد عنهم.

ـ إنهم طابور. سيتبعونك أينما شئت أن تذهب. العيش في طنجة أغلى من العرائش.

ـ سأدَبِّر أمري. فقط أرجو منك أن تسكنني معك ريثما أعثر على مسكن يناسب راتبي الشهري.

ها هو قد قالها أكبر من حماقاته المعهودة فيه. شربت كأسي الأولى بيدي الراعشة. أفرطت أمس في الشراب حتى حلمتني أبول فبلت في الفراش. في طفولتي كنت أستلذ مثل هذا البول الليلي وأنا بين النوم واليقظة. بعض من أولاده يشتغل وبعضهم عاطل يتحشش ويسكر.

ـ فريد.

ـ نعم.

ـ هل قرأتَ شيئاً عن عزلة الكتّاب؟

ـ نعم.

ـ وهل تؤمن بها؟

نظر إليَّ كمن لا يريد أن يجيب.

ـ نعم، لكنني أعاهدك أني لن أزعجك في شيء. سأظلّ صامتاً حتى تُكلمني. لن تشعر بوجودي. ستكون لي أنا أيضاً عزلتي.

ـ ليس كما تفكر أنت. ستكون موجوداً حتى وإنْ كنت شبحاً لا يُرى. إذا كنت تريد أن نبقى صديقين ففتش لنفسك عن مسكن آخر غير مسكني.

ـ سأشعر بوحدة قاتلة إذا سكنت وحدي. هذا ما حدث لي عندما

عينوني في إحدى قرى جبال الريف. لولا تقرير طبيب الأمراض العصبية الذي أعادني إلى العرائش لكنتُ جننت.

ـ فريد.

ـ نعم.

ـ أنا لا أعرف حتى كيف أنقذ نفسي.

ـ هل ستسمح لي بأن أزورك؟

ـ ممكن، لكن أحياناً لا أريد أن أعرف حتى من يدق بابي.

ستكون زيارته أيضاً محرجة. إذا دخل فكيف أقنعه بأني أريد أن أكون وحيداً أو أني سأنام، أو أستريح من الكلام وأتأمل، أو أكتب، أو أقرأ، أو أحلم، أو أستمع إلى موسيقى لا أريد أن يستمع إليها أحد معي. في الحانة أو المقهى أستطيع أن أتملص منه بِشَتّى الحِيَل. في منزلي سأكتفي بكتم حنقي في صمت أو هذَر. حساسيته حادّة ورهيبة. قد يخبط رأسه مع جدار إذا أُوذِي. وساوسه كثيرة وثابتة. لا شكَّ أنه سيحملها معه إلى قبره. إذا كان في حانة أو مقهى وأراد أن يذهب إلى حيث يذهب الملك وحيداً كما يقول فإنه يشرب كل محتوى كأسه. يخشى أن يُوضَع له في شرابه شيء يؤذيه. يفعل ذلك أيضاً في صحبتي.

ـ أحتّى أنا لا تثق فيّ؟

ـ المرء لا يعرف. في غيابي قد تخرج فجأة لتلحق بشخص تراه يمرّ في الشارع من خلال واجهة الحانة يهمك أن تكلمه فيحدث ما لا تراه أنت ولا أراه أنا. هناك كثير من المجانين في كل مكان يريدون أن يتسلوا والحاقدين كذلك لأنك تعيش أفضل منهم.

ـ لكن هنا ليست لك أية عداوة مع أحد؟

ـ لا يمكنك أن تعرف ما يخبئه لك أيُّ إنسان حتى وإن كنتَ لا تعرفه.

أعداني (من العَدْوَى) ببعض من وساوسه.

لم يدم تعيينه أكثر من ثلاثة أسابيع ثم أعادوه إلى العرائش بتقرير طبيب للأمراض العصبية. لم يزرني خلالها. لم نتقابل. رأيته مرة يسير نحو محطة السفر. كان في الرصيف الآخر. رآني أم لا! لم أفسّر عزوفه عن رؤيتي حتى في حانة نيجريسكو. له عُقَدُه ولي عُقَدي. كلانا له هواجسه وغرائبه. لست نادماً على شيء مما حدث بيننا.

في المرة الأخيرة التي جاء فيها من العرائش أبدى تأسفه لصاحب الحانة لأنني كنتُ مسافراً في ألمانيا. جلس قبالة حوض السمك كعادته عندما يكون وحيداً. لا يهتمّ بأيّ شيء آخر سوى سمكته السوداء نادية الهيپية. هناك سلحفاة صغيرة سمّاها صوفي. الأسماك الأُخرى في الحوض لم تكن تهمه رغم غريب ألوانها. يشرب بيراته ضاغطاً على كلّ قنينة حتى آخر قطرة.

اعتاد الرواد الدائمون على حركاته غير الإرادية فلم يعد أحد منهم يسخر منه. كان الإشفاق عليه أقوى من الضحك. فجأة رأى فريد ما لا يسرّه. إنّ نادية الهيپية لم تعد تتحرك زعانفها. رآها تطفو ولا تغوص. سكنت. جحظت عيناه. بدأ يتوتر ويهتزّ. صرخ: غير ممكن، نادية مريضة، نادية تموت. انتبه كلّ الحاضرين إلى هَذَرِه. تهامسوا: شيء ما بالغ الاضطراب يحدث له اليوم.

في الركن جَنْبَ مدخل المطبخ اعتاد أن يجلس هناك الدكتور أنور الاختصاصي في الأمراض الصدرية قارئاً جرائده راشفاً كأسه البَسْباسية. اقترب من فريد:

ـ ماذا يحدث؟

كان يعرفه كما يعرف كل الرواد الدائمين.

ـ نادية تموت.

ـ نادية!

ـ نعم، سمكتي نادية تموت. أنظر إليها. إنها تطفو ولم تعد تتحرك. أنقذها.

دخل الدكتور وراء الحاجز الخشبي وأخرج السمكة واضعاً إياها في كأس مملوءة بالماء. ذهب إلى المطبخ ليعالجها بالتنفس الاصطناعي كما قال لفريد. عاد بها طافية في الكأس. أعادها إلى الحوض. ظلت طافية.

ـ آسف. لقد قمتُ بواجبي. إنها ماتت.

ـ ألا يمكن أن تكون تلك السلحفاة قد آذتها؟ يبدو عليها أنها مفترسة. إنّ سكونها يبعث على الشك في أن تكون مُسالمة.

ـ لا أعتقد. إنها دائماً منزوية في ركنها المعتاد أو تطفو فوق قَشَّتِها الفِلّينية. عزاؤنا واحد. أنا أيضاً كان يعجبني شكل هذه السمكة الجميلة...

ـ نادية.

ـ عفواً، سمكتك المسكينة نادية.

خرج فريد دامعاً. لم يعد إلى النيجريسكو قط.

أخبار الموت والموتى

قد يقول من يقول
إنه يعيش مرتين.
لكنه سيطول موته:
فمرة بإشاعة،
ومرة بمزاح.
ليس يكفي عيشه
ليموت ميتة واحدة:
فهناك أكثر من دسيسة،
وهناك أكثر من ضغينة
ليدوم موته ويدوم.

باكراً بدأ ولع منصف بأخبار الموت والموتى. أصبح اليوم مؤرّخ الموت الجوّال في المدينة وأوّل من يتخبَّر وفاة شخص بعد أهله. يقرأ الجرائد بالعربية والفرنسية ويتهجّأ الجرائد الإسبانية. يحصل عليها من المقاهي والحانات من الزبائن الذين يخبرهم بمن مات أمس أو اليوم أو من يُحْتَضَر. لا يقرأ خبر وفاة شخص ليضيف شيئاً جديداً إلى معرفته عن المُتَوفّى إلاّ إذا كان كاتباً أو فناناً؛ لأنّ أخبار الموتى العاديين في الجرائد لا تفاصيل فيها. التفاصيل عن أهل المدينة والوافدين عليها

الذين تأصلت مكانتهم فيها موجودة عنده من المولد إلى الوفاة. الخبر اليقين يكون عنده سواء مات الشخص في مدينته طنجة أو مغترباً عنها في أيّ بلد قريب أو بعيد: هل موته كان أحمر (الموت قتلاً) أو أبيض (الموت طبيعياً أو فجأة) أو أسود (الموت خنقاً)؟! ثُمَّ هل هُوَ مات صالحاً أم طالحاً؟! كل رواية عن الميت لها مستوياتها في الواقع المحض أو الواقع المطعّم بالخيال عما كانه الميت أو ما لم يكنه أو ما يمكن أن يكونه. كل مستوى في الحكي له كرمه من الشراب، ومزاجه، ومجاملته وعلاقته مع الشخص المهتمّ بأن يعرف خبايا من مات أو مجرّد أن يعرف أنه قد مات. إنك تسمع كما تريد أن تعرف.

منصف قلّما يراعي «أذكروا أمواتكم بخير» إذا كانت للمتوفى مثالب. لكن قد يكون في حكيه عن الموتى ما هو مُسْتَحَبّ أو مُسْتَقْبَح ـ حسب شخصية المستمع ورغبته في كرمه. هناك خبر مات فلان المسكين وهناك خبر مات فلان الذي كان وكان وكان.

وللحيوانات المستأنسة (كلاب، قطط، ببّغاوات، عصافير وغيرها) والنباتات والجمادات له أيضاً في موتها واندثارها تاريخ وأخبار: أنتوني مات كلبها فبكته حتى بَوَّلها السُّكْر في حانة لو گريّون Le grillon، صفّ الأشجار في طريق المدرسة الفلانية للتعليم الخاص قُطِعَ منها ثلاث لِرَكن السّيارات المنتظرة خروج التلاميذ وحان ـ مطعم الپاراد Parade[1] التاريخي سَيُهْدَمِ لِتُشَيَّد في مكانه ذي الطابق الواحد عمارة وقد صدق خبره.

---

(1) كان يتردد عليه، بدءاً من نهاية الأربعينيات، كتّاب وفنانون ومشاهير عالميون. فتحته إيرا بيلين Ira Belline (مجهّزة ديكور المسرح وملبّسة الأفلام وهي إحدى قريبات سترافينسكي) مع چي هازلوود Jay Haselwood وصديقه بيل شاس Bill Chase ثم جاءت بعدهم Lily Delpart شريكة حتى مات بيل وچي فصارت هي المالكة.

لا أحد يزاحم منصف في نشر أخبار الموت إلاّ الموت. مهنته الحقيقية هي سَمْسَرة كراء أو شراء بيت في المدينة القديمة. معرفته بها لا تقلّ عن أخبار الموتى والهدم. يعرف صلابة مساكنها وهشاشتها، لكن متعته الكبرى يستمدها من أخبار أموات حيّه والأحياء المجاورة أو البعيدة. إنّ شغفه بالموت وأخبار الموتى لا حدّ له؛ فهو أينما كانوا يدركهم خبره عنهم. يحكي عنهم بمرح وأحياناً يقهقه ببراءة إذا كان من يحكي لهم مرحين مثله يستحبّون حكيه عن آخر ميت أو عن ذكريات أموات المدينة.

في الجنازة، تعوّد أن يمشي مع المُؤَخَّرين، لكن عندما يقترب الموكب من المقبرة يصبح محشوراً بين الأوائل ثم ينفصل عن الصفّ ليكون أول من يدخل إن لم يكن هناك من سبقه. قد يكون خارج المقبرة أو داخلها أكثر من طفل في انتظار المواكب أو لا أحد. لا يزاحمه من الصغار مثله في الجنازات إلاّ العَوْني. له وجه دبّ صغير وحجم بطنه بارز لا يتلاءم مع سنّه وقصر قامته. لا يغار منصف من العوني لأنه وديع وسكوت ويشفق على بطنه النهمة. بعد الدفن يملأ منصف بطنه بالخبز والتين الموزَّعَين على المشيّعين. ما يتبقّى، مما يستعطيه من الكبار غير الجائعين، يحمله معه ليوزّعه على رفاقه في حيّه.

لقد كثرت تغيباته عن الدراسة الثانوية فطرد نفسه قبل أن يطردوه. ومنذ أن بدأ يشتغل، تخلّى نهائياً عن حضوره في الجنازات. إذا كان الميت جاراً أو أحد المقربين فإنه يتمارض أو يسافر إلى إحدى مدن الشمال يوماً أو أكثر مختلقاً عذراً يبرره بكذبة خرافية. إنه مهووس بجميع أخبار الموتى والمحتضَرين والمرضى المقعدين إلاّ أنه يولي أكبر حماسة لنشر خبر موت أحد أغنياء المدينة المُحْدَثين وأعيانها. إنها فرصته لرواية حياتهم: من الغِنَى إلى الفقر أو من الفقر إلى الغِنَى أو ما

كانه من البداية حتى النهاية. لا يغشاه الحزن أو الفرح على الأموات إلاّ إذا حكى عنهم كما تهوى أن تسمع. في بداية اهتمامه بأخبار الموتى لم يكن قد فطن إلى أنّ الخبر عن الميت تعظم أهميته بإتقان ما يعرفه عنه ويخترعه. اليوم أصبح منصف مخبراً لا ينافسه أحد عن أخبار موتى المدينة. إنه المرجع الوحيد. المستقبح في حديثه عنهم أكثره عن الأغنياء وذوي السلطة المتجبرين. المُلَطَّف المستحَبّ قليل في نميمته عليهم أو هو نادر إلاّ إذا كان ضرورياً أن يجامل السامع المهتمّ بالخفايا، عن حقيقة أو عن مَكْرية. أخباره عن الموتى يبدأها منذ بداية أمراضهم المزمنة العُضالية؛ فهو يذهب ليرى إنْ كان الأستاذ المتقاعد ما زال يقوم برياضة المشي مرتين في اليوم في حيّه ـ حسب نصيحة طبيبه. إذا لم يكن منصف متعجلاً يقترب منه ويكالمه. يستقصيه الأستاذ عما حلّ من تغير في الحانات القديمة. فقد ظلّ شريباً حتى أقعده المرض. لا بد لمنصف من أن يراه من قريب أو بعيد أكثر من مرة في الأسبوع. كذلك يفعل مع پول بوولز الذي يخرج يومياً صحبة سائقه ليتمشّى قرب ملعب الغولف. كان قد أجريت له عملية جراحية على عِرْق النَّسا. وَدَّ منصف مرات الاقتراب منه لكي يتمنى له الشفاء، لكن سائقه يبعده بنظراته الشزراء. ألقَى منصف دائماً في مقهى البريد. أداوم على رؤيته. لي عادتي معه: من بعيد أخرج طرف لساني ملتوياً إلى اليمين. يحرك رأسه مبتسماً دائماً إما بنعم أو بلا. إذا كانت «لا» أودّعه من بعيد أو قد أجلس معه لاستذكار أموات السنوات الأخيرة. أما إذا كانت «نعم» فجلوسي معه أكيد. بين ابتساماته وضحكاته الخفيفة يحكي عن محاسن المتوفى أو مثالبه. أجاريه في ابتساماته وضحكاته إرضاء له حتى يسرد معلوماته والخفايا النادرة عن الميت. وعندما أسأله عن شخص أعرفه مستغرباً موته الفجائي، رغم أنّ حالته الصحيّة لم تكن تنبئ بموته فجأة، يجيبني بلهجة العارف بمسار مرضه المزمن كما لو أنه يتكلم عن حصان الرهان

المرجح ربحه في السباق: «أنت لا تعرف شيئاً. لقد كان مُرَجَّحاً Favori». إذا كان الميت قد أتخمته الحياة برفاهيتها يعقب بسخرية: «اللي كلا حقّو يغمّض عينو». في لهجته تشفٌّ ولامبالاة، لكن من عساه يقتنع راضياً بما يقوله دانونزيو في (تأملات الموت): «بعد أن تحوز كل شيء بالحذق أو بالرضا أو بالغضب فعليك أن تتخلى عن كل شيء وأن تزول»؟!

أصبح منصف يسكن اليوم قرب المقبرة وملعب الغولف. إنه لا يجيب من يسأله عن اختياره السكن هناك مثلما لا أعرف أنا لماذا تفرحه كل وفاة وجنازة.

فيرونيك

كلمة الحب أخشى
على من يتلاعب بها
وعلى من يصدقها.

لم أستطع أن أحقق مع ڤيرونيك تلك الرغبة غير المنتظَرة التي قد تكون هي الهبة الوحيدة في العالم. لم أستطع أن أسبر هذا الكابح في نفسي فأقهره. ربما هي حريتي الوهمية في العيش مع امرأة: فأنا أريدها سراباً، انفلاتاً، إرصاداً لما يمكن أن يحدث بيننا ثم يزول ليصبح ذكرى. إنه طموح الشعراء الأبدي. لم تستطع، هي أيضاً، أن تفهم أنني لا أحبّ أن تعرف ما أحبّه فيها. ربما لا أحدنا كان يقصد أن يحدث ما حدث بيننا. هناك أشياء نحبّها معاً. وتبقى الأشياء التي أحبّها أنا ولا تحبّها هي أو تحبّها هي ولا أحبّها أنا مجرد أشياء قد أحسّها أنا ولا يهمني أن يحسّها معي أيّ كان أو يحسّها من يحسها لنفسه دون أيّ فضول حتى ممن هو أقرب إليه أو منّي.

قلّما يخلو صباح من ذبابة عنيدة تحوِّم حول طاولتي في منزلي أو هنا فتحطّ على حافة كرسي أو تنبهني قَرصتُها الجائعة على يدي أو حول صدغي أو عيني من شروط نظراتي الاشتمالية Panoramique إلى الشارع ومدخل البريد البَرزَخي داخلاً أو خارجاً منه من أحبّ أن أراه

ومنْ يُضطرّني إلى مغادرة المقهى قبل أن يغزو كأسي الثانية فينغصها أو الثالثة لأخفّف عني من ثقل كلماته الجوفاء الملتوية وربما أظلّ أحاول تغييب حضوره الطاغي عليَّ المملّ إلى حدّ الاختناق بالكأس تلو الكأس حتى نتشاجر مع النادل عن قصد أو عن غير قصد حسب هوى سكرنا الشَرِس العدواني الأهوج حول التباس طفيف في حساب ما شربناه ثم ينكر أحدنا الآخر أو نفترق على أن نتذكر معاً موعدنا غداً أو في نفس اليوم. فما أن أخبط الذبابة الأولى بصحيفتي حتى تحلّ الثانية والثالثة متنزهة إحداهما متوترة هذه مدندنة تلك وفرحتي الطِفْلية هي إذا هما تلاصقتا إذ سحقهما ظهراً على بطن أسهل غفلة وشبه أكيد في الخبطة الأولى فإذا هما لطخة مقززة من شبه حمرة وشبه بياض، وقد لا ينتهي السحق اللعين من مثل هذه العجينة إذا كان الجوّ بارداً في الخارج دافئاً في الداخل وهو أمرح للذباب.

هذا صباح جميل أبدأه دون زنزنة ونَطّ شَرس حول كأسي في انتظار ألاّ يأتي هذا أو ذاك من الذين ترغب في البصق على وجهه المتجمعة فيه كل بلادة عيشه الهباء المنثور بين مسكنه وأضيق الأزقة الموبوءة. فأنا حين أبحث عن نفسي في الآخرين غالباً ما أرتدّ إلى نفسي.

ها هو ذا أستاذ العلوم الطبيعية سابقاً الوقور في بؤسه نازل من البولڤار. يداه تشدّان على طرفي ياقة معطفه المرفوعة من الخلف، محدودب أكثر قليلاً في الشتاء، رأسه مائل قليلاً إلى الأمام، خطواته شبه زاحفة كعادته منذ أن أعلن صمته الذي تتخلله همهمات، ملابسه فقدت لونها الأصلي وشعره الوافرة سوالفه تَساوَتْ مع لحيته. عشّ نموذجيّ لوجه سموح لا تنمّ ملامحه عن فرح أو حزن إلاّ ما نشاء نحن أن نتخيّله ونستشفه منه. في كلّ صيف يجيء شخص ما من الخارج ينظفه ويُهَنْدِمُه ثم يختفي ليظل الأستاذ يتحول من حال إلى حال حتى يصل إلى مثل ما هو عليه الآن في انتظار أن يجيء ذلك الشخص

القريب أو الصديق أو لا شيء بينهما إلاّ أن يجيء الشخص الغريب المحسن وينتظر الأستاذ كما قال لي حانيّ حانة خوانا دي أركو حيث كان من زبائنه قبل أن يعلن صمته كمنْ نام عاقلاً واستيقظ مجنوناً. لكن هذه السنة يبدو الأستاذ أشعر وأوسخ. لقد تأخر مُغيثه. توقّف الأستاذ وتنشّق سعوطه واقفاً فوق إفريز الرصيف. نفض أنفه ويديه ثم نزل. سيظلّ الأستاذ في هبوطه وصعوده عبر البولڤار حتى المساء كما تعوّد أن يفعل منذ أعوام همهمته وصمته. لا أعرف أين يأكل وأين ينام. أعطاه عابر قطعة نقدية. لم ينظر إليها. لا يتسوّل، لكنه لا يرفض إذا تصدق عليه أحد.

كارلي طالع إلى البولڤار. يجيء عبر الكورنيش ثم يعود إلى حيّه في السوق الداخلي. هو أيضاً أعلن صمته وهمهمات حواراته مع أشخاصه الوهميين منذ أكثر من ثلاثين عاماً. ما زال محافظاً على مشيته الاختيالية وإشاراته الاتهامية، التهديدية. أحياناً تطفو أسماء الذين يتهمهم بالخيانة والدناءة مثل شبحي زليخا والمصطفى. اعترضه الأستاذ ووضع القطعة النقدية في يده المتراخية بحركة كما لو أنّه يُؤمِّنه على شيء ثمين وتابع الأستاذ بطء خطواته، لكن القطعة انزلقت من يد كارلي عندما فتح يده ليراها فتدحرجت قبل أن يدوسها ويلتقطها ويتأملها فإذا بطفل شارعيّ بائسة حاله يشمّ «خرقته المُخَدِّرَة» يقف أمامه. نظراته زائغة وفمه فاغر ناشف. انزلقت القطعة من يد كارلي مبتسماً وسقطت في يد الطفل المرتخية. عاد الطفل من حيث أتى كما لو أنه جاء فقط ليتسلّم القطعة النقدية. مشيته مُتعَبة.

دخلت الزهرة زافرة لعناتها لا على أحد. طلبت مائة درهم من لا أحد. أشعل لها النادل سيجارة وأشعل لنفسه أخرى وقالت ناظرة إلى السقف: «جاءوا وخابوا». حملت سطلها المملوء بحاجياتها ولعنت بصيغة المفرد ثم خرجت. هي أيضاً تُعنى بها الراهبات أكثر من مرة في

السنة. آخر مرة صرخت طالبة أربعمائة ريال لتذهب إلى الحمّام. كانت أطرافها فحمية اللون وشقاؤها كان متجمّعاً كله في وجهها. أحياناً لا تعيا من أن تظل تدور وتدور حول نفسها في رقصتها الدراويشية. مرة ألبسوها ثياباً لائقة بشبابها ـ الذي ما زال الكثيرون يذكرونه ـ أكثر مما هي لائقة بكهولتها فأصبحت تتجول شبه عارية بيننا. أكيداً نامت بعيداً عن حيّ حُماتها الصغار أو ربما هم أنفسهم استَعْرَوْها في رقصة جنونية. فكل شيء مباح في أُخُوّة عشيرتهم. لكأنها ولدتهم لا يعرفون بمن يلوذون. إنها حضن حميم في ليل شمامي «الخِرقة المُخَدِّرة»[1] هؤلاء. ذات صباح، فاجأتنا طلعتها المطلية بالمساحيق. ربما أراد حُماتُها تجميل وجهها المجعّد وشفتيها المزمومتين كحَدّ الموسى على فمها الأدْرَد (عديم الأسنان) فبدا مثل نَدْبٍ أكثر منه فم. الويل لمن يقترب إذا كانت محاطة بصغارها. إنها «مَلْخَة» ينالها الفضولي بأيديهم النشّابة ومحظوظ هو إذا لم يستعملوا معه أدواتهم الحادة. على العابر أن يغيّر طريقه أو يمرّ في حذر وصمت ولا أكثر من السلام عليهم دون أن يثير أدنى استنكار أو مجرّد تَطلُّع.

ڤيرونيك تدخل وعيناي على البرزخ المفرح أو المزعج. أنا وهي لا نتسالم في الصباح إلاّ بالنظرات والابتسامات. فطورها شاي أسود دون سكّر. كنت قد نبهتها إلى سمنتها وأبديت استبشاعي للبنطال المشدود على المُؤَخّرات فلم تعد تلبس غير التنورات الطويلة لتروق لي. نوع من الاستحواذ والإخضاع. ندمت على ملاحظتي. قد يبدأ كلامنا المتقطّع عند كأسي الثالثة أو الرابعة وبيرتها الثانية أو الثالثة وسجائر وربما تناولتُ شمّة أو شمّتين من السعوط للتخفيف من ثقل

(1) أيُّ خرقة تُنقع في نوع من الصمغ (اللصّاق). المخَدر مفعوله شبيه بمفعول الأيثر المعروف بـ (السليسيون).

الشّراب بعطسة أو أكثر من عطستين إذا كان هناك من لعين ينشقه وتكرّم عليّ. أحياناً لا أعرف كيف أوقفها عن الشّراب مثلما لا أفلح في أن تصاحبني فيه إذا ما استبدّ بي حزن العناد في الشراب لأسكّن محبطاتي. قد تعاكسني رافضة في حِرانٍ أو يكون جوابها هو شرب كؤوسها الواحدة تلو الأخرى دفعة واحدة فأكفّ عن الإلحاح على شرابها معي حتّى لا تثير شفقة الرواد عليها وسخريتهم منّي. لا أعرف كيف أتخلص من استبدادي الهمجي.

النقاش ساخن بين إميل حبيبي وإلياس خوري في منزل حنان الشيخ. الزجاجة فارغة بيننا عندما انتبهتُ إليها. لم أكن قد شربتُ إلاّ كأسين بينما ڤيرونيك مستغرقة في النظر إليهما كما لو أنها تتابع باهتمام تحليلهما للحرب بين العرب واليهود وفلسطين التي كشفت عن تخاذل العرب متمثّلة وحشيتها في تَتَرِيَّة «أيلول الأسْوَد». لم تكن تعرف سوى كلمات من الدارجة المغربية تعلمتها من عاهرات الحانات الشعبية في طنجة التي تتفانى في الإعجاب بها وحبّها. لم تكن لي مؤهّلاتهما لأشاركهما في موضوعهما الشائك. ثمّ بدا لي كأنهما لا يباليان بوجودي الذي قد لا يعنيهما في موضوعهما المشترك. جاءت حنان الشيخ كما لو أنها تمشي على البساط السحري ووضعت لنا زجاجة ثانية ثم انسحبت متمنية لنا صحّة جيدة. قلت لها وهي تملأ كأسينا:

ـ ڤيرونيك، إننا لن ننام هنا. (نظرت إليَّ دون تعبير ثم ركّزت نظرتها المتخشبة على إميل وإلياس). أنت تعرفين أنني لا أعرف كيف أغيّر الميترو هنا.

كانت أول مرة أزور فيها لندن بدعوة من إحدى الجمعيات الثقافية. قالت مستغرقة في نظرها التِمْثالي إلى إميل حبيبي وإلياس خوري اللذين استرختهما كؤوس الويسكي وتعب النقاش المتأجج فصارا يتكلمان كما لو أنهما يتذكران فلسطين ولبنان قبل وبعد الحرب:

ـ أعدك بأننا سنصل في سلام.

صرت أعبّ من الزجاجة حارساً كأسها من أن تملأها بنفس السرعة التي تفرغها بها. لا أذكر كيف خرجنا وكيف غيّرنا الميترو! فندقنا ڤكتوريا بعيد عنّا. من أسند الآخر حتّى وصلنا؟ لا أحدنا يذكر أو يدّعي. ربما كلانا قاد الآخر! برد الشارع أصحاني قليلاً فطلبت كأس ويسكي وطلبت هي بيرة لتصحو كما قالت. إلياس خوري يقيم معنا في الفندق. وقف أمام طاولتنا وقال:

ـ قلت في استجوابك لمجلة فراديس إنني عِنِّين وأنا كلّي إيرٌ لو كنتَ تعلم.

ـ بسيطة. . . !

دعوته إلى كأس لألطّف مزاجه. . . لكنه رفض. ذهب لينام كما قال. رأيناه يحوم حول مشرب القاعة ثم ينصرف.

ـ ماذا قلتماه؟

ـ كلام تافه عمّا حدث بيننا في فندق سولازور منذ سنوات في طنجة. مازحني صديقه الشاعر محمود درويش حول الفحولة التي يتزعَّمها أحياناً مثل البلاي بوي أينما يكون. صفّق له إلياس وكنت أنا ضحيتهما في ذلك المشهد الصّباحي. ذهبت لأوقظهما لأنّ درويش كان سيقرأ شعره مع شاعرين آخرين مساء في الرباط. سألني وهو يتعطّر إن كنت أملك ڤيللا في «الجبل الكبير» فقلت له إنني لا أملكها. قال إنني لم أعرف كيف أغتني رغم أنّي عرفت جان جنيه وتينسي وليامز وكنت خليلهما أو شيئاً من هذا القبيل. قلت له ربما كان هو الأشْطرُ والأغوى مني فنقتسم الغنيمة إن شاء أن أقوده حيث يفحل. لكي أسكّن من غضبي في ذلك الصباح المنحوس كدت أشرب ثمالة زجاجة الويسكي كاملة كأساً تلو كأس في غرفتهما لولا أنهما أوقفاني. شيئاهما لا ينتصبان. هذا ما قلته عنهما حقاً أو باطلاً لصحافي في باريس.

ضحكتْ ڤيرونيك وقالت:

ـ حكاية التيس والعنزة. نكتة بدوية. كان يمكن له أن يشرب معنا كأساً. إنه حزين كما بدا لي.

ـ صحيح. لقد رضع من الحزن ولم يقدر أو لم يرد أن ينفطم منه.

لا أعرف أيضاً كيف أوقف حبّ ڤيرونيك للقطط. ففي لا روشيل La Rochelle دعانا شبّان موسيقيون إلى سهرة في منزل أحدهم. عيناها تحمرّان وتدمعان وأنفها يسيل وهي لا تكفّ عن ملامسة وضمّ وعناق وتقبيل القطّ الضخم المرة تلو المرة حتى هاج قرفي وتخيّلتها عارية يتدبق جسمها كله أينما لمستها فهددتها بانسحابنا من السهرة التي راقتها كثيراً إن هي لم تترك القطّ العجوز اللاصقة شعيراته على جِرْسايَتِها[1] فتخلّت عن مداعبته، لكن اللعينة ظلت تغمزه بنظراتها وتغويه بابتساماتها كلّما غفلتُ عنهما فَضِقت باستغمايتها الصبيانية معي. أما مضيفنا اللطيف فقد بدا مسروراً ببلاهة بقطّه عندما رآها تلاعبه برقّة مثلما تدلله أصغر أخواته كما قال لنا بابتهاج. غير أنه لم يَغَرْ ولو مرة واحدة من ڤيرونيك كما كنت أتمنى، ولم يشتق القطّ اللعين ولو مرة أيضاً إلى سيّده ليحضنه ويغدق عليه ما شاء من الملاطفات مكتفياً بمدح سلوك قطّه الحكيم أكثر من أيّ قطّ رآه في حياته. كم تمنيت لو أنه يستميل قطّه ولو بِلَمْسَة أو بَشْبَشَة لكنّهما هو وقطه متفقان على هذا البعد الحلو بين من يأتي عندهما ومن يذهب. يا لهما من لعينين!

إنّ ڤيرونيك سيّدة مشاعرها لِما أحبّه أنا وتكبحه هي، وما تحبّه هي وأنفر منه أنا فتبقى مشاعرنا مباحة بيننا على هوانا مثلما كنت مع فاطي الودود.

---

(1) كنزة صوفية تُلبَس من طرف الرأس. (بالإسبانية: Jersey) و(بالفرنسية: Pull-Over).

كنا نقيم عند جولي ومحمد. أبديت رغبتي المهووسة لزيارة المقابر الثلاث: پير لاشيز Père Lachaise ومونمپارناس Montparnasse ومونمارتر Montmartre. إنّها رغبة ماسة مُلِحّة لزيارة قُرَى ومدن الأموات في أيّ بلد أزوره حتى ولو لم يكن فيها من أعرفه من مملكة الأموات. رَجَتْ جولي ابنها برتران Bertrand أن يأخذنا في سيّارته إلى ملكوت الأموات. ألحّ عليَّ أن أركب إلى جانبه حتى أستمتع أكثر بما سأراه، كما قال. يسوق برزانة شارحاً لي نشأة الشوارع التي يعرف تاريخها كما لو أنه يقرأه أمامه في خريطتيها القديمة والحديثة. كنت أبدي إعجابي بمعلوماته بينما محمد وڤيرونيك صامتان أو يوشوشان أو يداعبان الضحك. يبدو برتران حيوياً مثل أمّه التي تعمل مثل قُنْدُس[1]. قلت لمحمد بعد أن سرنا في أوّل أحد الممرات المبوّبة بالأرقام:

ـ إنها مدينة الأموات حقيقية. أبداً لم أر أجمل منها. بعض المقابر مزبلة.

ـ هي مقبرة كونية. ستجد هنا معظم الذين قرأت لهم من كلّ الأجناس.

تصلنا من هنا وهناك لوغوساتُ برج بابل. ڤيرونيك وبرتران توقفا أمام جوزيف غينسبورغ Joseph Ginsburg. كل قبره مُسَيّج بالزهور المغروسة أو في محابق أو مَشاميم مُغَلّفَة في ورق شفّاف، صورٌ له ولمعجبيه مبعثرة، المنفضة العزيزة عليه على شكل قوقعة من الفخّار أو هي شبيهة بأُذن، بطاقات مكتوبة وقطعة نقدية جَنْبَ شاهدته الرخامية، وسادة نُسِجَت زخارفها بالورود ودمية كلب من القطن، في وضع حزين، تتوسّد رخامة مُذَهَّبَة حروفها:

---

(1) Castor: حيوان معروف بعمله الشاق في بناء منزله المائي على شكل سدّ لحفظ صيده من الأسماك.

A toi Serge
Tes Amis
DE L'ESPERANCE

لقد نَسوا أن يحملوا له ورقة الخمسمائة فرنك التي لَفَّ فيها سيجارته ودخّنها أمام جمهوره في التلفْزيون. مركبة فضائية فإذا به رمز لسفر أزرق.

لم أكن قد سمعت به قبل أن أعرف ڤيرونيك. اشترت أغانيه في سي دي .C. D. كلماته ذكية، لكني لم أتحمّس كثيراً لغنائه. انزعجتْ قليلاً وصَوَّتتْ: «Pfaff». ربما لأني لم أكن في التاسعة عشرة مثلها، لكنها عندما أهدت لي ساتي Satie وصرت مهووساً به أكثر منها غَفَرَت لي عدم حماسي للإعجاب بمعبودها غينسبورغ. تتفاهم مع برتران وجولي وأقلّ مع محمد ونظل أنا وهي مشدوداً كلانا إلى رغبته المبهمة في تحصّنه بها.

توقف معي محمد أمام كوليت COLETTE وابنتها. باقتان غير ذابلتين. فكرت أنه ما زال هنا من يتذكر La vagabonde وGigi. ذكرت أيضاً أنّ كل باقات الزهور و«المحابق»(4) ربما لم تحملها إلى هنا إلاّ النساء.

قبر ألكسندر دوما (الابن). في سقف مُصَلاّه الصغير مكتوب رثاؤه بخط فنّي وعلى تمثاله الرخامي المنعوش فوق قبره مغروز في أنفه مسمار صدئ. زفرتُ:

ـ تخريب غريب. . . !

إني أتخيّل شخصاً مجنوناً بالليل. مجنون الليل هذا يهوي بمطرقته

---

(4) استعملت المحبق (ج محابق) بمعنى وعاء لغرس الحبق وغيره: أَصيص (ج) أُصُص.

هنا ويضع زهرة هناك، يقبّل هذا القبر ويبول على ذاك، يحنو هنا ويقسو هنالك. يبدو أنه قد حيّر الذين أرادوا إيقاف استيهاماته. إنّ الممسوس تسخّره الأهواء البشرية النائمة بينما هو يؤكّد سلطة الليل ـ ليله. إنه شريك البومة في يقظتها المتحفّزة مراقبة انتهاء فريستها من التهام غنيمتها ليكون لها فيها حظّ غنيمتين هي الحاضنة.

قال محمد ليخرجني من شرودي:

ـ أشياء كثيرة تحدث هنا في الليل. ساديون يقفزون فوق الأسوار. قد يحرقون حتى الأشجار. إنّ عددها هائل: حوالي 12 ألف شجرة في پير لاشيز كما يقال. وللنهار أيضاً مجانينه. هناك قبر الصحافي ڤكتور نوار Victor Noir (1848 ـ 1870) فوقه تمثال من البرونز (برع المَثّال دالو Dalou في صنعه) له بروز جنسي تلامسه نساء ويقبلنه. ربما هنّ عاقرات ويعتقدن أنهنّ سيحبلن إذا هنّ لمسنه وقبلنه ومصصنه ولو استطعن لبلعنه وسرطنه أو ربما فقط إشباعاً لاستيهاماتهن أو يردن أن يتزوجن قبل أن تبدأ سنّ اليأس. وأضعف الإيمان من الحشمة يرددن في همس: ڤكتور، العزيز ڤكتور! يا لهن من لعينات! على أنّ حكاية الرقيب برتران (Le sergent Bertrand) المرعب في أواسط القرن الماضي الذي كان يضاجع جثث النساء ثم يبقرها ويبترها لم يحدث مثلها حتى الآن في پير لاشيز وغيرها.

إناء قصديري صغير نابتة فيه زهور صغيرة متواضعة وجنبه قارورة تنتظر من يملأها ماء من جديد. ربما هو وفاء شقية حبّ له ولها[1]. مرغريت غوتييه[2] وحرصها على شراء زهورها المعبودة ربما أكثر من

(1) إشارة إلى ألكسندر دوما وبطلة روايته غادة الكاميليا.

(2) اسمها الحقيقي ألفونسين پليسي Alphonsine Plessisثم ماري دو پليسي Marie Dupllessis بعد أن تبرجزت. صار قبرها مزار العشاق حاملين لها زهور الكاميليا: شعارها الذي كانت تعبده.

حرصها على اقتناء دوائها. شهيدة الحبّ الزئبقي والمرض القاتل والإفلاس التام في المزاد العلني لتسديد ديونها.

قبر جميل ذو طابقين أثار انتباهي رخامه الأسود: محمد وكريستين. وعلى خطوات منه قبر مكتوب بالعبرية.

لا تستغرب. الدفن هنا لكل من يشتري قبره، إذا وُجِد له مكانه.

قبر جيرار دونرڤال أكثر حظّاً بباقات الزهور الباهظة الثمن. تُرى هل فكّر في تلك المرأة التي تشبه أمّه قبل أن يشنق نفسه؟[1] «لم أر أمّي قط. أعرف فقط أنها كانت تشبه حَفْراً مطبوعاً في ذلك الزمن، حفراً أسموه (La Modestie)، يُمَثِّل الحفر امرأة شابة جميلة، خافرة عينيها، أنفها رقيق وفمها صغير مرسوم ببالغ الدقة». وإذا كان أبوه الطبيب المساعد في (الجيش الكبير) أثناء الانتصارات النابوليونية قد ظل يحمل علامة الحداد طوال حياته عن استشهاد زوجته التي أصيبت بالحمّى عابرة معه جسراً مكدساً بالجثث نحو جحيم أبيض، أسود وأحمر فإنّ جيرار سيظل يبحث عن الواحد في المتعدد، عن وجه أمه في وجوه النساء التي صار يخترعها دون كَلَل أو مَلَل. نساء الحلم والاستيهام وسحر الخافية (Mystère)، وجه يتطيَّف (من الطيف) متأرجحاً بين العدم والموت حيث يصبح الحلم سيّد الواقع، والأسطورة فوق التاريخ. إنها نفس حرقة جان جنيه مع أمه المجهولة، وعاشقه عبد الله الذي ظل يعدد وجهه في وجوه لامتناهية شاعراً نحوه بالذنب لأنه بالغ في تحميسه إلى الارتقاء بفنه الذي ربما قاده عجزه عن تطويره إلى الموت.

نبهني محمد إلى قبر أوسكار وايلد، المأثرة المجنونة، الملائكي، المجنح، المبتور عضوه التناسلي:

---

(1) في فجر 26 كانون الثاني/يناير 1855 ـ بينما باريس مغمورة بالثلج ـ شنق جيرار دو نرڤال نفسه في زقاق Vieille Lantern.

ـ أنت ترى، كل شيء يمكن أن يحدث هنا.

For his mourners
will be outcast men
And outcasts
always mourn

بلزاك مُسَيّج قبره التمثالي ربما بكل الزهور التي وصفها في كتبه. ألفريد دو موسيه A. du Musset وروسيني قبراهما قفران. لا شيء من الظلال الوارفة الاخضرار التي تمنّاها موسيه فوق قبره.

حديقة قبر بودلير المجيد وحدها تشكل مملكة مستقلة. لا ينقص حُلّتَه المومياثية شيء في سموها. كان وحتماً كان له أن يكون هكذا أو أكثر. يملك الآن كل الفضاء الذي يحبه في عزلته المحصنة. لا أحد يزاحمه. قبر هناك وقبر هنالك. وضد إرادته دفن زوج أمّه غير بعيد منه كما لو أنه سيحميه بأوسمته الجنرالية. كان في الأوراق مزيج من بقايا اخضرار، وبدء اصفرار ولون تربة مُرِّيخية أو زهرية (نسبة إلى كوكب الزهرة) مترامية حول قبره. تراءت لي أنها الأقرب إلى مزاجه. لقد أنكر وطنه ليعثر على وطنه. ربما فكر أن الجمال لا وطن له. إنه لم يقامر بحياته ليكسب أصدقاء مغفلين.

ـ آه من تحب إذن، يا أيها الغريب؟

ـ أحبّ الغيوم،

الغيوم العابرة هناك، هنالك،

تلك الغيوم الساحرة!

إنك أوفرُ حظّاً من الشاعر الشبيه بِقَطْرَسك[1]:

(1) القَطْرَس أو البُطْرُسي Albatros طائر بحري كبير لا يحسن النزول بجناحيه الكبيرين.

Le poète est semblable au prince des nuées
Qui hante la tempête et se rit de l'archer;
Exilé sur le sol au milieu des huées[1]
Ses ailes de géant l'empêchent de marcher.

برتران وڤيرونيك يتبعاننا من بعيد. بينهما بضع سنوات. من الصعب أن تخلق معه علاقة. إن قصة حبه مع رفيقته أسمهان مصفّحة ضد أيّ اختراق. ظلاّهما يشكّلان ظلاً كثيفاً لا يخترقه أيّ شعاع بشري أو غباره. إنّهما ـ هي وهو ـ النموذجان البشريان الأوحدان في كل لوحاته الأسطورية. الأنا وَحْدِيتهما لا يخترقها أيّ حسّ بشري غيرهما. وحيدان في العالم يجوبان الغابات راكبين الحيوانات الضارية التي أَنْسَناها. ربما استطاعت ڤيرونيك أن تخلق علاقة مع قطّهما الضخم مثل قطّ مضيفنا الموسيقي في لاروشيل. إلاّ أنّ قطهما أقل ألفة. ربما استألفته بشيطنتها. أنا أعرفها وأعرفه. إنّ له أيضاً حساسيته مع بعض من يلمسه. فقد رأيته مرة يعطس وينظف نفسه عندما لمسته تينا صديقة أسمهان. قد يختفي أو يراقب من بعيد إذا هو دُوعِبَ أكثر من مرة ممن لا يستهويه. إنه لا يتدلل مثل القطط العادية. فكرت أنه أصيل في كبرياء قطّيته واختيال تدلله المميّز. عبثاً توسلت إليّ ڤيرونيك أن أربي قطّاً شارعياً. سَمَّته كالي يوماً قبل أن تغادر طنجة. لم يكن يبرح شارع مسكني. تطعمه وتلامسه وتخاطبه حتى أملّ من انتظارها فتلحق بي إلى المقهى.

ـ خذيه معك إلى بروكسيل. خذيه... ! أكيداً أنّ جدتك ستعتني به كما تعتني بالسناجيب الوحشية التي تزور حديقتها كل يوم.

ـ للأسف! إنها أيضاً لا تحب القطط.

ـ أنا أيضاً لا أحب القطّ إنما أحبّ كبرياءه من بعيده.

---

(1) Cris de dérision de la foule

سأعلم من محمد أن برتران حملنا في سيّارته على غير رغبته. كنت له مُغَفَّلاً (Un com) وهو يرى مندهشاً إعجابي المهووس بالمقابر الثلاث كما قال لأمّه التي عاتبته على تدخله في وساوس سلوتي. ربما فكرتْ بطيبتها المعهودة أننا نتمنى ونحن أحياء أن نُزار ونحن أموات.

عندما زرت باريس، في المرة الثانية، أهدى إليّ برتران علبة المدمنين على الكحول مجلدة لأملأها بشرابي المفضل تخفيفاً لي من برد شباط/ فبراير الباريسي وبادرني بسرور إلى زيارة مقبرة پيكپوس Picpus حيث يرقد المقطوعو الرؤوس ليكون للجمهورية مجدها الدامي من النبلاء والكادحين على السواء وتتحقق مقولة «الثورة تفترس أبناءها». ولِمَ لا! ففي النهاية نحن كلنا مقصولون... ! ومن جديد أيضاً مقبرة مونمارتر ومونپارناس إن شئت. هكذا قال. أهو ندم أم إرضاء لمشاعر أمّه الودود في معاملة ضيوفها أو هي رغبته المحضة التي لم يكتشفها في نفسه من قبل؟

نزلنا أنا ومحمد وڤيرونيك في طريق موفطار Moufftard وذهب برتران عند رفيقته أسهمان التي تنتظره عند أمّه. قال محمد: هنا كان ڤرلين يجرّ عصاه التي يُثقلها تعبُه فتصير مثل هراوة وله فيها مآرب أخرى كأنْ يهوي بها على ناشره الذي غشّه في حقوق كتبه. باقة زهوره المفضلة التي يرسلها له معجب مجهول يجدها فوق طاولته في مقهاه Procope على ما أعتقد. كان هناك أرنب برّيّ معلقاً في حجم حَمَل دفعنا ثمنه على أن نجده عند عودتنا جاهزاً مقطّعاً ما عدا دمه المتجمع في أسفل رأسه المغلّف بِحُويصِلة من الپلاستيك الشفّاف. فليصنعوا بدمه ما يشاؤون قلتُ أمّا أنا فيقرفني هذا التخثر القاتم. اقترحت طبخه بالبرقوق المجفّف والبيض المسلوق فوافقني محمد ولم يكن لڤيرونيك اختيار أفضل. من فضائلها في الأكل أنها تحبّ كل ما أطبخه. ربما للاكتشاف! لو كنت وحدي أو معها في طنجة لطبخته بالبسباس. جولي

أيضاً تستلذ طبخي. تعترف أنها ليست موهوبة كبيرة في فنّ الطبخ. إنّ عملها في الترجمة والتأليف لا يشجعها على مغازلة الطبخ وتدليله. من عادتي أن أحمل معي التوابل من طنجة رغم أنها موجودة كلها هنا. حتى توابل «راس الحانوت» هناك من يبيعها في باربيس، لكن نكهة التوابل تختلف وإن تشابهت لأنها محملة بحنين مكانها الآتية منه كما يقول محمد الذي يضايقه من يسأله عن سبب إزمانه في اغترابه دون زيارة وطنه منذ أكثر من عشرين سنة.

حانة Mayflower مشهورة بأجبانها الجيدة وأنبذتها. قلت لمحمد بأني أشمّ في الحانة بقايا رائحة همنغواي وفتزجرالد وربما فوكنر. قال إني لم أخطئ. فكرت في حانة دينزبار.

قالت ڤيرونيك ونحن في بداية النوم:

ـ هناك من يطلّ من فتحة الباب.

ـ وبعد. إذا كانت هناك فتحة الباب فقد يطلّ منها أحد.

صوَّتتْ كعادتها: پوافْ Puaf.

فكرتُ: ربما هو وهم الليل في بداية النوم وقد يكون حقيقة ما تقوله. إنّ لها بصراً شيطانياً. نهضتْ وأغلقت الباب وأسندت إليه كرسياً. في الصباح قالت:

ـ أنظر، إنّ الكرسي قد تزحزح عن مكانه.

قد يكون صحيحاً ما تقوله أو ربما من اختلاقها لأنني أعرف مكرها الطفولي. تحب المنازعة بين الآخرين ولا بأس من أن تخلقها. هي أيضاً لعينة وإنْ كانت لعنتها ألطف.

ـ إنها عين الليل التي تستهويها معرفة كيف تتمّ الهمسات، والقبلات، والعناقات والنوابض الإيروسية. إنّ عين الليل تكون خلفَ الباب في كلّ مكان. تذكري صاحبة الفندق في بروكسيل. هي أيضاً

استرقت السمع على نوابض سريرنا. قالت قبل أن نملأ بطاقتي إقامتنا: هل هي ابنتك؟ اللعينة. لم يسرّها أن تكوني عشيقتي. هل تذكرين؟ أكيد أنها لم تكن تُناك جيداً تلك الدجاجة البشرية.

بدءاً مما حدث لنا مع صاحبة الفندق اتفقنا على أن أخلق منها ابنتي وهي منّي أباها. أن نمثل دور الأب وابنته للسخرية المرحة أكثر مما هو إخفاء لعلاقتنا.

كانت أمّها في قيلولتها. لا أعلم إن كانت نائمة أو مسترخية يقظة. أحذر دائماً من نوم الأمّهات. لم أسأل ڤيرونيك عن نوع قيلولة أمّها. وهل لي أن أصدقها حتى لو قالت عنها ما يمكن أن تقول!؟ إنها تلقي في يدك بمفرقعة ولك أن تدبر أمرك معها. كنّا نتداعب في غرفة الاستقبال والكناري موزار يغني قافزاً بين العارضتين. قالت متهيّجة: نفعله هنا. هنا نفعله. قلت: إنّ أمّك تنام أو لعلّها يقظة. قالت لا يهمني كيف تكون. إننا سنفعله هنا وماذا يهم أن تكون هناك! قلت ربما في الشرفة أفضل لنا فتهلل وجهها واستعجلت حتى كادت أن تهلل هللويا هللويا. فكرت في أمها تستيقظ. إنّ حدس الأمهات وحسهن بالغان. لقد استعصى علينا الدخول إلى الحمّام من نافذته في الشرفة. لم أعرف ما أفعل بهياجي. لمسة تحت، لمسة فوق وفي كل مكان يتوالد اللمس والفم في الفم واليد تغزل الشعر. قلت لها ربما يمكن لنا أن نفعله خارج الشقة في الدرج فتهلل وجهها أكثر. أقفلنا الباب بسكون ومارسنا بعضاً من الجنون واقفين حتى لا يفضحنا تحَسُّسُ الجيران لو أننا انطرحنا فوق الردهة. كنا نمثل دوراً لا يشاهده أحد. سنكون ما نريد أن نكون. ما شئنا أن نكون ولو بأقلّ الجنون. قد يأتي علينا يوم لا نستطيع أن نكون هنا. طشت مع ڤيرونيك قليلاً أو كثيراً في هوس إيروسها النزوي. قالت هنا نفعله. هنا. قلت لا يمكن أن يكون. حيّرنا المكان ولم يكن يهمها الأين يكون. أدركت أنها تتحدى أمها وتستفزها

ولو في الغياب. قد تتمنى أن تباغتنا أمها متلاحمين أعلوها أو تعلوني. لهثنا ولم نفعل إلاّ أقلّ مما أردنا من جنون. عدنا إلى الغرفة. أنا استلقيت على الأرض وهي على المضجع. كنت لنفسي وكانت لنفسها. لا يسأل أحدنا صمت الآخر. حوارنا في صمتنا. تناظرنا ثم غفوت ولا أدري ما فعلت بسقفها.

أفاقت أمّها قبلنا. تمشت في الشرفة ناظرة إلى جزء من البحر و(هضبة الشَرْف.) لمستْ نبتة بظهر يدها وشمَّت وردة حمراء ثم همهمت عميقاً وقالت: إنك تملك أكثر من شرفة. إنها حديقة مُعَلّقة.

جاءت لترى كيف تعيش ابنتها في طنجة. قيل لها ما قيل من أنّ ابنتها تعيش مع كاتب ملعون مدمن على الكحول والحشيش وكل ما هو مريب. يا للعار! إنّ ابنتها ذات جذور في النسب والوقار. كيف لها أن يكون لها هذا المصار! لا شيء رأت مما سمعت. فقد أنزلناها في فندق الجنينة. قدمت لها رسامة مغربية فاشلة في فنّها وحياتها الزوجية لعلّها تتسلى بها. ماذا تفعل ابنتك مع هذا الكاتب السكير العجوز؟ إنه سيفسد لك ابنتك. خذيها معك. هذه نصيحتي لك. هذا ما حكته لي ڤيرونيك كما سمعته من أمّها. وكانت الرسامة التي كشفت عن خيانتها لصداقتي معها تلهث جاهدة في مَصّ أزباب نفطية مرتخية ضامرة. حتّى إذا أتاها أحدهم من دُبُرِها قالت شاكية ما هذا بحجم إلاّ أن يكون أقلّ مما تعودتُ عليه، أمّا من قُبُلِها فإشباعُ آهاتها أكثر طلباً لها. استضافتنا أمّ ڤيرونيك للغداء في فندق المنزه أنا وابنتها والرسامة المصاصة. في شقتي طبخت للأمّ وابنتها. أغوتها مباهج المدينة وتمنت أن تبقى معنا على الأقل حتى تعود معها ابنتها. تصابت في عمرها القريب من الستين فراقني شبابها في كهولتها. أشرق وجهها وهي تغادرنا في المطار. ربما ستحكي لزوجها وأمها أن لا شيء مريباً فيما قيل لها عن ابنتها مع العجوز الكاتب. الأمّ أيضاً كانت تسلي نفسها بكتابة قصص غرامية

بطلتها هي وقارئوها ربما لن يكون إلاّ هي. كان تفكيرها وفنّ الكتابة لا يتفقان. كانت تكتب وكان فنّ الكتابة ينتظر من يكتبه. قلت لڤيرونيك: إنّ تسامح أمك معك أرحبُ من سخريتك منها. إنني أمزح. ومن حقي أن أمزح مع أمي. الحق أنها كانت تحبّ أمها على طريقتها. أدركت أن ڤيرونيك أحبت أن تبقى إلى حين ينضب ما وفَّرَته من عملها في إحدى الكافيتيريات خلال سنتين في بروكسيل، وما يمكن أن يدوم ممّا ستمدّها به أمّها الكريمة، لكنني قررت أن أوقف مغامراتنا: ڤيرونيك، عودي إلى أمّك ودراستك. عودي إلى نفسك أو إلى ما شئت بعيداً عني فأنا لست إلاّ لنفسي. وكذلك كان. فقد عادت إلى ما شاءت أن تعود ولم نعد نتراءى أو نتهاتف أو نتراسل. لا أعلم اليوم أهي حية أو ميتة!

ـ ڤيرونيك.

ـ نعم.

ـ هل نذهب إلى المنزل للغداء؟

ـ ألا نشرب كأساً أُخرى في الحمراء؟

ـ سنشربها.

كانت حانة الحمراء هي معبرنا في معظم الأحيان إلى شقتي. إنها تحب أن تأنس بالحديث مع بعض العاهرات هناك.

وجهي في الفصول

لم تكن لدينا مرآة في الدار؛ لأنّ لا أحد منّا كان يريد أن يرى وجهه فيها.

في طنجة، مدينتي العجائبية هذه، يصيبني فيها اليأس حينما أتخاصم مع نفسي دون أن أعرف السبب. أيأس حينما أعجز، في الصباح، عن استذكار حلم جميل أبدأ به يومي. إنّي أتعلق بالأحلام؛ لأنها مثابةُ خَيط «أريانا» في متاهة المدينة. إنّ أحلامي تحميني من الابتلال بأمطار اليأس.

كان لي صديق آمن بأنّ من لا يعرف كيف يحلم بحياته فليأْتِ إلى طنجة. وكذلك كان، لكن الصديق ارتدّ كافراً بأحلامه فيها فأدخلته في جحيمها.

إذا كان العالم من صنع أعظم الحالمين فأنا تركت حلمي يصنع عالمه.

عندما أنسى الكلمات يبقى ما تشكّله من صور.

تثور عواطفي عندما أكتشف أنّ شخصاً كنت أعتبره صديقاً فإذا به لم يكن إلاّ انتهازياً. إنني أحنّطه وأضعه في أحد أركان مقبرة ذاكرتي للذكرى لأنّ فيه جزءاً من حياتي.

اكتشفت أنّ قليلاً من هياج عواطفي يساعد على إنعاش قلبي وكثيراً

من غضبي يساعد على إشلال جسدي وتشتيت فكري. لا تسعفني ذاكرتي وأنا غاضب.

طفولتي هي الغيمة الأكثر تَلَبُّداً في حياتي. لا أحد كان يجازي عملي. كنت لا أكثر من طفل يُصفَع. لم تكن هناك حتى بسمة. كنت أعيش ولم أكن قادراً على تغيير شيء، لأنّ كل تغيير يتحكم فيه الكبار. كيف سأتحمل طفولتي وأواجه ظروفها...؟ لم أفكر بخوف أو شجاعة، لأنني لم أستطع إيقاف ما يحدث. أدركت أن حياة مريرة تنتظرني فتركتها تحدث إلى حين. ولكن أجازي نفسي، حتّى يجيء ذلك الحين، خلقت عجائب طفولتي. وإذا كنت اليوم أعتزّ بأن أكون شاهداً على طفولتي وطفولة أمثالي فلأنني أحاول، في معظم كتاباتي، أن أستجلي المُلبَّد فيها؛ إذ كلّ حياة إنسان لها غيومها، بعضها ينقشع وبعضها يبقى في السديم. كذلك هي كلّ طفولة. إنّ قرية طفولتي لم يعد لها وجود حتى في ذاكرتي: شاشة مُشَوَّشَة، تتشبَّح عليها صورتي وصور الآخرين والأشكال التي لا شكل لها. تلك الطفولة دمَّرتها الهجرة. لا أومن بمن يدّعي أنه يعرف كل طفولته. قد يكون له إحساس غامض بها، لكن هذا لا ينجلي إلاّ بمثابة قبس من النور في فضاء دامس. لا يمكن معرفة كل شيء عمّا يمكن أن تؤثر به طفولة الكاتب على كتاباته! فهو يكتب طفولته من خلال رجولته ونضجه. إنه يحوّم حولها؛ لأن كل طفولة هي رهينة برجولتها. والطفل «الطفل» لا يفهمه إلاّ الطفل.

عندما تتناطح غيوم حياتي يستيقظ انتظاري الغافي. أومن بحياة الطوارئ في حياتي. غيوم حياتي تحفزني للقبض على ما ينفلت منها. إنها مثل الصَّوّانة (قطعة من حجر الصَّوّان) فإذا هي انقدحت كانت الشرارة ثم الشعلة ثم النور.

أحبّ الغامض، المتلاطم، السَّراب، الصَّدى، البرعم، العنقاء،

سحر التموج، الإغراء، «أنا هو الذي أنا هو» والحنين إلى انبثاق جذر التكوين.

في كل شدّة تغزوني أوقظ لها شحنة من خلايا تجاربي المخزونة. لقد صنعت لحصني سردابه السّريّ، ولهرمي منفذه المستَغْلَق ولبرجي منظاره الكشّاف.

أنا من موالد الحمل، بين الليل والنهار. من حقّ الذئب أن يفترسني ومن حقّي أن أراوغه وأناطحه.

سيبقى مني رمزي وليس حياتي.

إننا نظلم دائماً «كانَ» ونقسو عليها في حاضرنا. إنها مثل الجدة التي ننعتها بالخَرَف وننسى تَبَرْعُم خيالنا الذي شكّلته مُناغَيات حكاياتها. إن «كانَ» هي الجدة اللغوية وليس «الآن» إلاّ حفيدها.

برود مشاعري ليس هو مثل بذرة ولدت معي فَنَمَت حتى صارت لها جذور عميقة متشعبة. إنّ ما اكتسبته عبر تجاري وصدماتي وشَتْلات مغروسة هنا وهناك، في حقل حياتي، استجذرته من منبته. برود مشاعري لا يكون إلاّ كآبة مرحلية.

كنت جالساً وحيداً في مطعم الدورادو حين مرّ العربي اليعقوبي ليذكرني بعيد ميلاده القادم. شربنا الشامپانيا احتفالاً بعيد ميلادي في انتظار عيد ميلاده. هكذا زال المعنى المقلق لعيد ميلادي الرابع والستين. إنها لحظة صداقة.

فصل الربيع:

الكتب والكتابة هما المنبعان اللذان لا ينضبان منذ انبثاقهما في حياتي. إنهما يقهران الزمن العادي لخلق زمن تعميق الإبداع. إنهما يوجّهان أحلامي وهواجسي المنبجسة. يخلّصانني من الرؤية ويقودانني نحو الرؤيا، نحو الغربة الجوّانية.

إنّ النظرة لا تحيط بكل الفضاء إلاّ في الحلم. فأَنْ نحقق أحلامنا قبل أن نحقق أحلام الآخرين هو المَرْمَى الفَصْل.

ينبوع الحلم لا ينضب إذا كان مثل جنون دون كيخوتي: من حلم إلى حلم وغزوة إلى غزوة حتى يريحه الوهن إلى حين. لا يهمّ النصر لمن هو مسكون بالأبدية. ماذا عساه أن يفعل دون كيخوتي بحياته إذا هو فقد جنونه؟ قد نبدأ بالحلم وننتهي بالجنون: فقد عاش دون كيخوتي مجنوناً ومات عاقلاً كما هو مكتوب على قبره. مرحباً. . .! من يستطيع أن يكون مثله؟

المغامرة هي الينبوع الذي أختلس منه الفرح الشارد.

اقتطفت أول ثماري عندما كَرَّست نفسي للقراءة والكتابة وتخلصت من لعنة العمل الرسمي ورؤسائه المتبجحين ومرؤوسيهم اللاعقين في خنوع أطراف الأصابع من أجل ترقية درجة في عملهم. ولكني أنتشي مستسيغاً رحيقي فضلت أن أكون دائماً وحيداً رابحاً أو خاسراً في عملي. تركت الواقع الإبداعي ينخلق من الوجود والعدم، من المِلاء والفراغ، من الباطل والمُبْطِل نحو الأسمى.

المبدع هو الذي يغرس فيَّ شتلة الانبثاق والسموّ. هو الذي يُنْبِتُ الكلمات ليشكّل منها صور الرؤى والأَخْيِلة. لا أومن بالأمل معزولاً عن طموحي وجهدي. إنّ الأمل وحده يولِّد التماطل والتلهّي. الوحيد الذي من حقه أن يُؤَمِّل هو الطفل. إنّ الطفل ليس قادراً على تغيير شيء وإنْ حَدَث فهو معجزة وفَلْتَة.

تعزف قيثارة الطبيعة على قلبي حينما أكون في قلبها وحين أحاكيها فهي التي تكون في قلبي. الطبيعة التي تنقلها لنا المخيّلة المُبْدِعة هي أجمل من الطبيعة نفسها. أنتشي بأنسامها وأصواتها أعمق حينما أكون بعيداً عنها. الطبيعة هي التي تشكل سجايانا. منها نستمدّ ما يوآزرنا في أسانا، إنها مَلْجَؤنا حينما نفقد الانسجام مع الطبيعة البشرية.

أجمل زهرة في حياتي هي وحشية. تختفي رائحتها عند الاقتراب منها وتذبل إذا ما هي شُتِلَت. لا تنمو ولا تفوح إلاّ في طينها البركاني. اسمها منحوت من منبتها. إنها تتلاشى عَوْداً إلى منتهى أبديتها الرمادية. وفي كل انبعاث ينخلق معها لونها الحربائي، السَّرابي، الألواني ورحيقها السّام الذي تحصّن به عذريتها حتى لا يمسها القَطْف الذي لا يذهب بلِقَاحِها بعيداً. سمِّها إلاهة الزهور إنْ شئت! فهي عذراء الاسم.

أُهدي باقة حياتي لمن يجعل منها مشعلاً للتبصر في نفق الفكر. لا تهمني هُوِّيات الأشخاص إلاّ بقدر ما في عمقها من دالّ على فاعليتها. أعرف أنّ باقة حياتي جدُّ شائكة فلا أهديها إلاّ لِيَدٍ كَنِبَة (من الكَنَب). وقد أتركها لمن يريدها.

إنّ كلمة نجاح تذكرني دائماً ببسمة تمثيلية فُقاعية أو صَفقة تجارية ماكرة. لا أحبّ أن أحشر نفسي في مزايدة كلمة نجاح هذه لأنها تغتصب طموحي.

فصل الصيف:

كان ما كان من حرارة انتظار المجهول. جاء ما جاء ولم يجئ ما كان رغبة في أن يجيء. لم أخسر إلاّ قدر ما ربحت. لم أقامر بكل ما أملك. هناك جنّات سمعت عنها. كان لي شوق إلى رؤيتها لكني عدَلت. لا أتلهّف اليوم على «جَنّةٍ بِرَبْوَةٍ أصابها وابل فأَتت أُكْلَها ضِعفَين». إنّ اللهفة تفقدني متعة ما أعيشه.

الصراحة الزائدة حمق يقود إلى التهور. قد يلهبني الجنون الذي يفجّر الأفراح ويوقظ فتنة الجمال.

لا تهيّجني الصورة إلاّ بما تثيره من خَلْق الصّور التي تتلاشى فيها.

الصراحة المطلقة إعدام لكل احتمال للتوافق.

عندما أعترف بصريح ما أعرفه عن الأشخاص وصريح ما أعرفه عن

الأشياء أكون قد خلقت عدوّاً لا أعرف متى يثأر منّي ولو في الوهم.

الصراحة ليست دائماً أمّ الحقيقة. ما يشدّني إلى واقع ما هي الفكرة المبهجة التي أكوّنها عنه والغواية التي يستطيع أن يواجهني بها.

لا أستنسم زحمة الحياة إلاّ قدر ما ألمّ من زخم أشتاتها. لا أنتظر أحداً ليفرحني إنما أنا الذي أُفرِح نفسي بالفرح الذي يخلقه مزاجي.

في موقع الجمال الوحشي، لا أتماسّ وأراود إلاّ الخفيّ منه. البَهرج مباح للعنّينين. لا لَبَنَ في الصيف لكل «دَخْتَنوس»[1].

النسمات الباردة التي تنعشني هي تلك التي تباغتني مثل مَطْرَة الصيف.

إنّ قليلاً من الكراهية ينشط الدورة الدموية، ويمطّط الشّرايين ويعيد للقلب حيويته، أمّا كثير من الكراهية فهو يفجّر كل شيء. وكذلك هو قليل من الپارانويا الذي قد يساعد على الإبداع وكثير منها يقود إلى الهذيان والانفصام العقلي.

إذا كان لي موعد لا بدّ منه مع شخص أكرهه فأنا أشتمه في حمام منزلي بصوت عال. وحين أقابله لا يكون هناك من داع إلى شتمه مرتين، علانية أو سرّاً.

أكره من يمنعني من الكتابة ولا أعرف كيف أتصالح معه إلاّ بالكتابة التي تنتصر على المنع.

أشعر بعذوبة الحياة حينما أستيقظ وأوزّع النظرات الصباحية من شرفتي مثل نسر يقلع من علوّ إلى علوّ، حينما أستشفّ الأبعاد الممكنة على مرآيَ أو المستعادة في المخيلة المرحة أو تلك التي ربما حلمت بها، حينما أستعذب أوّل شَرْبَة من عتيقٍ إنْ حَضَرت، حينما أستمع إلى

---

(1) إشارة إلى المثل: في الصيف ضَيّعْتِ اللبن.

موسيقى تذكرني بمن كنت أهواها فإذا بها تطرق بابي، حينما تنتصر رغبة الوحدة الحالمة على نزوة النمل البشري.

حينما يتمّ لي هذا كلّه أو أقلّه بقليل أشعر بعذوبة الحياة وبالقطط المتخالبة في رأسي تهدأ وتستكين.

مشروبي المثلج هو ما تسقينيه يد الأمّ أو الصديقة أو تلك التي أعرفها أوّل مرة. أحذر ممّا تسقينيه العشيقات حتى ولو كان من فمهنّ بل أحذر حتّى من الأخوات.

مشروبي المثلج ليس حتماً أن أشربه في عزّ الحرّ. مشروبي أستذوقه رشفات. لا أعبّه؛ فقد يكون من عنب الثعلب أو الدبّ أو الحيّة أو الحنظل[1].

فصل الخريف:

يفقد الشخص أوراقه عندما يدركه اليباس. قد يجدد أوراقه إذا كانت جذوره عميقة ومعينه غير ناضب. الأوراق لا تتساوى في سقوطها وتغير لونها وتلاشيها؛ فكل ورقة لها مناعتها ودورها في السقوط أو هي تُقْصَل قبل نضجها. ومعلوم أنّ كلّ ما ينمو ويَورِقُ مصيره التلاشي.

لا أعترف بخريف العمر إلاّ عند العجز التام عمّا كنت أنجزه بسهولة. الخريف قد يدركنا قبل الخريف. لا أحد يضمن ثمار جنّته.

الإنسان، في خريف العمر، إمّا هو حكيم أو خَرِف، قاطِف أو مقطوف.

أستحلي طعم ما كان مرّاً وأستمرُّ طعم ما كان حلواً.

لم تعد تغويني كل الولائم إلاّ ما شفَّ منها وأَيْسر. لا أتحسر على ما كان لي وأفلتّه رغبة أو قهراً. أذكر ولا أذكر كلّ شيء. لا أتعلق بغصن هشّ حتى وإنْ كان يقطر عسلاً. أواجه اصفرار الحياة بمزج

---

(1) إشارة إلى نباتات وحشية.

الأصفر والأزرق والأبيض فأحصل على لوني. لم تغزني حياة التنسك قط. أتماسُّ مع الحياة ولا أواجه أمواجها الطوفانية. غالباً ما أصل إلى ضفتي المقصودة عندما أبحر في الوقت الملائم.

لا بطل منتصراً ولا بطل منهزماً. في كل بطولة معبودية. أنا معبود نفسي. الطموح عندي دائماً صنو الإنجاز في كل شطط سفاهة.

مثل أوراق الشجرة التي لا تتساوى في تساقطها كذلك هي الأحلام؛ فمنها القويُّ ومنها الهشيش، الشّفاف والضبابي والمفرح والمرعب. إننا لا نختار أحلامنا، ولكن لها صلة بوعينا ولا وعينا. كثير من أحلامنا تكشف لنا عن سرّ ما عشناه وما سنعيشه. أحلامنا هي قدرنا، ما شئنا من سحرها وما لم نشأ. وكثيراً ما أنارت لنا جزءاً مظلماً من حياتنا وألهمتنا مبتغانا. حين تغيب عنّي الأحلام ألجأ إلى أحلام يقظتي، لكنها ليست هي الأقوى من أحلام الغيب التي تملك مفاتيح حياتنا السّرية. وجهي هو أحلامي السحرية.

لا أبالي بما يسقط من أوراق شجرة خريفي. لقد أعطت لونها وثمرها وطعمها ورحيقها. كل شيء تمّ كما شئت وكما لم أشأ. لا أذكر من أشجاني إلاّ ما يسْتَرِقُّ من خشونتها وما يهيّجني إلى ذكرى مستطابها. المرء ليس دائماً هو كيف انتهى وليس كيف بدأ؛ فقد ينتهي بما بدأ أو لم يبدأ بما انتهى. إننا ما نصير إليه.

المحتويات

محمد شكري

الأعمال الكاملة

نزح محمد شكري، وكان طفلاً، مع عائلته من الريف إلى طنجة. عائلة نازحة تعاني الفقر وشظف العيش. حيث كان مجرّد ملء معدته حلماً.

وهو صغير عمل مع والدته في بيع الخضار ولّما لم تستطع عائلته تأمين حتى الطعام، أُرْسِل إلى وهران في الجزائر ليعمل عند عائلة فرنسيّة كخادم. وهو شاب ذهب للمرة الأولى إلى المدرسة في تطوان في ظل ظروف قاسية. ولكن هذا التعليم أظهر شغفه بالقراءة ثم بالكتابة.

في تلك الفترة كانت طنجة التي انتقلت من الاحتلال الاسباني إلى "الحماية" الفرنسية ثم إلى الاستقلال، المدينة الحلم لعدد كبير من الأجانب، فهي على الحدّ ما بين المتوسط الأطلسي، وما بين أوروبا وأفريقيا، وتمثّل حلم الشرق لكثير من الكتاب والرحّالة والباحثين عن حياة خارجة عن كل تقليد.

كانت مدينة الحانات وبائعات الهوى، وكان الحشيش في كل مكان وتدخينه مباح. في هذه الأماكن عاش محمد شكري حياة الصعلكة، حياة بين البحث عن أقصى المتعة والتعوّد على أقسى الحرمان.

هذه هي سيرة محمد شكري التي كتبها على ثلاث مراحل مجموعة في هذا الكتاب.

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma

ISBN 978-9953-68-294-1
9 789953 682945